

المعصاة

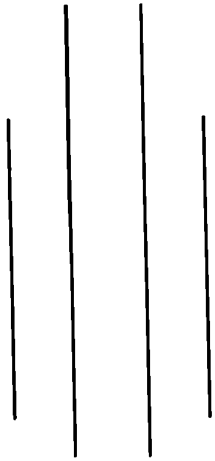
لطف

غني بنشره وتحقيقه
محمد كرد علي



مطبعة دار الفقه والعلوم الإسلامية
بمكة المكرمة

دار الفقه والعلوم الإسلامية
بمكة المكرمة



المعصرون
طفت

جميع حقوق الطبع محفوظة
لمجمع اللغة العربية بدمشق

الطبعة الأولى

١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م

الطبعة الثانية

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

بتصريح من
مجمع اللغة العربية بدمشق
لدار البيئة للطباعة والنشر



للطباعة والنشر

دمشق - ص.ب. ٣٥٠٢٣

هاتف: ٢٢٥٤٤٩٦ - فاكس: ٢٢٥٧٣٤٢

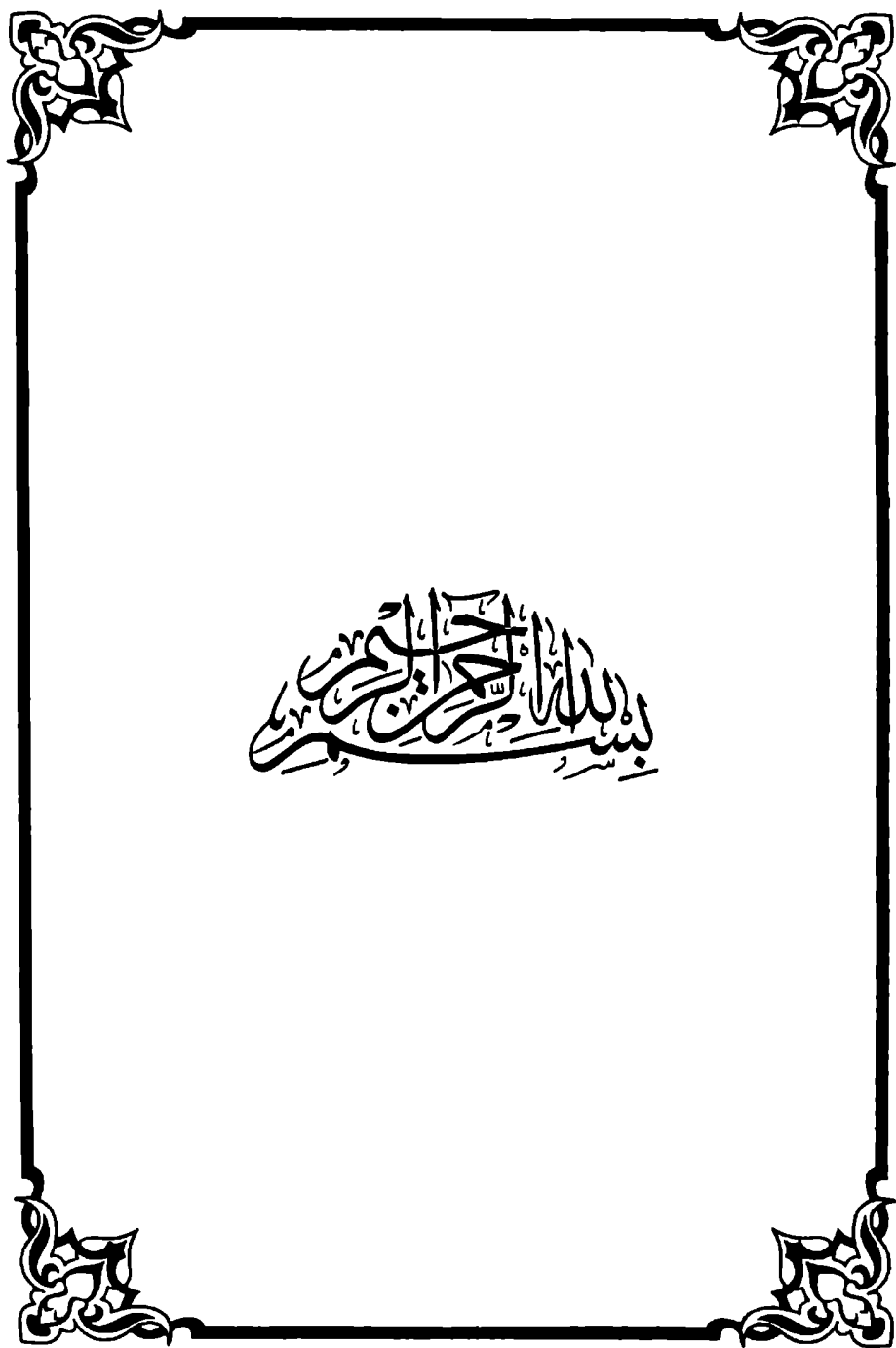
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق
الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل
المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من المجمع.

المعاصرُونَ

عُني بنشره وتحقيقه
محمد كرد علي

علق عليه وأشرف على طبعه
محمد المصري

مراجع هذه الطبعة
أ.د. محمد مكي الحسني الجزائري
أمين المجمع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَالَّذِي يُضَوِّبُ الْمَوْتَى
إِنَّ رَبَّهُ لَسَدِيدٌ
إِلَىٰ عَرْشِهِ الرَّحِيمُ
الَّذِي يُخَوِّضُ الْغَوَّاصِينَ
الَّذِي يُصَوِّرُ السَّحَابَ
كَمَا يُشَاءُ وَيُخَوِّضُ
الْمَوْتَىٰ إِنَّ رَبَّهُ لَسَدِيدٌ
إِلَىٰ عَرْشِهِ الرَّحِيمُ

فهرس المترجم لهم

رقم الترجمة الصفحة	الاسم
١٧	١ إبراهيم الحوراني
٢٥	٢ إبراهيم اليازجي
٤١	٣ أحمد الإسكندري
٤٧	٤ أحمد تيمور
٥٧	٥ أحمد زكي
٦٧	٦ أحمد شوقي
٩٣	٧ أحمد فتحي زغلول
٩٨	٨ أحمد كمال
١٠١	٩ إدوار براون
١٠٥	١٠ إدوار مونتيه
١٠٨	١١ إسماعيل صبري
١٢٤	١٢ أجناس كولد صهر
١٢٨	١٣ أمين المعلوف
١٣٠	١٤ أنستاس الكرملي
١٣٤	١٥ جرجي زيدان
١٣٨	١٦ جميل صدقي الزهاوي
١٤٩	١٧ حافظ إبراهيم
١٨٣	١٨ حسين والي

١٨٦	١٩	خليل مطران
١٩٤	٢٠	رفيق العظم
١٩٨	٢١	سعيد الشرتوني
٢٠٣	٢٢	سليمان البستاني
٢٠٩	٢٣	شبلي شميل
٢١٦	٢٤	شكيب أرسلان
٢٣٢	٢٥	طاهر الجزائري
٢٤٢	٢٦	عبد الرحمن الكواكبي
٢٤٧	٢٧	عمر طوسون
٢٥٢	٢٨	قاسم أمين
٢٥٩	٢٩	كارلو نلينو
٢٦٧	٣٠	كليمانت هوار
٢٧١	٣١	كورنيليوس فانديك
٢٧٦	٣٢	لويس شيخو
٢٨١	٣٣	ليون كايثاني
٢٨٦	٣٤	مارتين هوتسما
٢٨٨	٣٥	محجوب ثابت
٢٩٣	٣٦	محمد رشيد رضا
٢٩٧	٣٧	محمد بن أبي شنب
٣٠١	٣٨	محمد عبده
٣٢٢	٣٩	محمد المبارك
٣٢٨	٤٠	محمد مصطفى المراغي
٣٤٣	٤١	محمود سامي البارودي

٣٦٩	٤٢	محمود شكري الآلوسي
٣٧٦	٤٣	مصطفى عبد الرازق
٣٨١	٤٤	معروف الرصافي
٤٠١	٤٥	يعقوب صروف
٤٠٨	٤٦	يوجين غريفيني
٤١١.	٤٧	يوسف هوروفيتز

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وصلى الله على محمد وآله .

وبعد، فقد كان مجمعنا احتفل سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، بمرور مئة عام على ميلاد مؤسسه الأستاذ الرئيس محمد كرد علي رحمته الله، وكان بودنا إذ ذاك لو ظفرنا ببعض ما لم ينشر من آثار الأستاذ لنقدمه إلى جمهور العلماء والباحثين في تلك المناسبة. ولما لم يتيسر لنا ذلك في حينه، عمدنا إلى بعض ما كان الأستاذ نشره من آثار السلف - وهو كتاب «حكماء الإسلام» لليهقي - فأعدنا طبعه بالتصوير، إضافةً إلى إعادة طبع المجلد الثاني من مجلة مجمع اللغة العربية .

ثم كان عَقِيْبَ الاحتفال أن قدّم إلينا مشكوراً المهندس الأستاذ طريف كرد علي - نجل الأستاذ الرئيس - ظرفاً أصابه بِأَخْرَة في مخلفات والده، وقد كتب عليه بخطه «المعاصرون» وهو يشتمل على أوراق شتى تبين أنها أصول كتاب لم يفرغ الأستاذ من تنقيحه وتحريره، وقد ترجم فيه طائفة ممن اتصلت أسبابه بأسبابهم من علماء البلاد العربية وأدبائها، ومن المستشرقين، منهم من كانت تربطه بهم صداقة راسخة، ومنهم من جمعه وإياهم بعض المؤتمرات والندوات العلمية، ومنهم من اتصلوا به واتصل بهم عن طريق المراسلة. وقد ترجم لِكُلِّ منهم بما عرف عنه، مبيّناً رأيه فيه وفي أعماله بصراحته المعهودة في كل ما كتب. وقد كان من هذه التراجم ما نشره الأستاذ في بعض الصحف والمجلات - ومنها مجلة مجمعنا - فاقتطع منها، ومنها ما طبع بالآلة الكاتبة. إلا أن أكثرها كان مسودات بخطه، وكان قد أعاد النظر في بعضها فالحق بها ما ألحق، وأصلح منها ما أصلح بقلم الرصاص تارة وبالحبر تارة. ولما كان

الظفر بمثل هذا الكتاب - وإن كان جُلُّه مسودات لم تنقح - عُثْمًا للمعنيين بتاريخ النهضة العربية وأعلامها، حرصنا على إخراجه للناس، ورجبنا إلى بعض الأساتذة أن ينظر في هذه الأصول ويعد الكتاب للطبع. ولكنه ردّها إلينا بعد أشهر من تكليفه معتذرًا بأن أعماله الكثيرة حالت بينه وبين إعداد الكتاب على النحو الذي ينبغي له. فكلفنا بالأمر الأستاذ محمد المصري. فلم يألُ جهدًا في إعداد الكتاب عن هذه الأصول وإخراجه على أمثل صورة ممكنة، ولم يدع التعليق عليه بما رأى من المفيد أن يعلق به. ثم صنع له فهرس متعددة تيسر الإفادة منه، فله الشكر الجزيل.

وإننا لنأمل أن يوفق المجمع وآل الأستاذ الرئيس إلى الكشف عن آثار أخرى من آثاره، ولا سيما ما تبقى من مذكراته، فقد حدثني صديقي الأستاذ السيد أحمد عبيد (وهو الذي نشر له الأجزاء الأربعة التي طبعت منها) أن الأستاذ وَقَفَهُ على الجزء الخامس وقرأ له أشياء منه إلا أنه لَمَّا يُعْثَر على هذا الجزء. ولن يألو المجمع جهدًا في نشر ما يقع إليه من هذه الآثار إن شاء الله.

٢٠ من صفر ١٤٠١هـ

٢٧ من كانون الأول ١٩٨٠م

رئيس مجمع اللغة العربية

الدكتور حسني سبح

التحقيق

جريت في تحقيق الكتاب على النهج التالي :

- ١ - نسخت الكتاب دون أن يفوتني تصحيح طراً على عبارة أو عبارة مقحمة بين السطور أو بين أظهر الأوراق المتنوعة.
- ٢ - يضم الكتاب سبعاً وأربعين ترجمة رتبها حسب حروف الهجاء. وجعلت لها أرقاماً متسلسلة.
- ٣ - أكملت بعض أسماء المترجم لهم، التي جاءت في مطلع كل ترجمة. ووضعت تحت كل اسم عربي تاريخي ولادته ووفاته بالتاريخين الهجري والميلادي، وتحت كل أجنبي اسمه الأعجمي وتاريخي ولادته ووفاته بالتاريخ الميلادي.
- ٤ - أما الحواشي فقد أوردت فيها بعض المراجع لراغب في زيادة، ككتب التراجم والدراسات وبعض ما ألف عن صاحب الترجمة من كتب وأبحاث.
- ٥ - ترجمت للأعلام الواردة ضمن التراجم كلما دعت إلى ذلك حاجة. كما عرفت الأماكن وغيرها.
- ٦ - شرحت بعض الألفاظ والعبارات بإيجاز.
- ٧ - أتممت وصححت بعض العبارات التي أصابها الخلل لسهو أو زلة قلم أو لتلف لحق بها، وأشارت إلى ذلك في موضعه، ووضعت إضافاتي ضمن قوسين[.].
- ٨ - أتممت أسماء بعض الكتب وعرفت بها.

- ٩ - خرّجت القصائد والأبيات الواردة خلال التراجم وصححت بعضها بعد الرجوع إلى دواوين شعرائها. وأشارت إلى ذلك في موضعه.
- ١٠ - قيّدت بعض الكلمات بالشكل كلما كان ذلك ضروريًا.
- ١١ - أشارت إلى ما نشر من الترجمات في مجلة أو صحيفة، رغم ما أدخله المصنف من تعديل.
- ١٢ - أخيرًا صنعت الفهارس اللازمة.

محمد المصري

كلمة مُراجع هذه الطبعة

قام المحقق الفاضل - جزاه الله خيرًا - بعملٍ جيدٍ خدم به الكتاب والقُرَّاء. لكنَّ الكمال لا يُدْرَك... وكلُّ عملٍ يمكن تحسينه. لذا زدْتُ على ما فعله المحقق:

١ - بأن ضبَطْتُ كلمات كثيرة بالشكل.

٢ - وعُيِّيت بعلامات التقييم لأهميتها في حُسن الفهم، وأصلحت ما جاء منها في غير محلّه.

٣ - وصححتُ الأخطاء اللغوية الشائعة، التي تسبق إلى أقلام الكتّاب أحيانًا... علمًا بأن هذا الكتاب مبني على المُسوّدات التي أعدها المؤلف رحمه الله تعالى، ولم تُمهله المنية لِيُنقِّحها...

٤ - وأضفتُ حواشي غير قليلة إلى الحواشي التي أضافها المحقق الفاضل، إذ رأيت في إضافتها فائدة للقارئ.

مكي الحسني

في ٢٩ من رجب ١٤٣٢

٣٠ من حزيران ٢٠١١

نفتحت على الشعوب وسانت غارة في البلاد من بعد أخرى
 الى ان قال عبر كلها اليالي ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرأ؟
 وهي طويلة طالما يداسه ظهور مذنب مالي المشهور في سنة ١٩١٠
 وكتب الى الأميرة الكندرة اثيرزيوه (كريمة قسطنطين نوم الخورسي)
 يرغب اليها في ان تعيد مجلتها (انيس المجلس) الى الظهور بعد احتجابها وذلك سنة ١٩٠٤
 خبري القوم باسمية (اسكندر) بارية النعي والقد كاه
 حل لوجهه (الابن) بعد احتجاب من سفور سبغ عالم الأدباء
 فترى فيه كل بحث جديد يقف الحق في صوف القناه
 انت اغانيات حقاً علينا ليس يخفى الا على الجلهاء
 له في حبيبته هذه الأميرة اشعار لطيفة والثالب ان الأبيات التي اشتهرت
 عنه قالها فيها وهو مما كتبه تحت بيتين قالها وهما .

فديتك يا هاجري فغلى ترنفي بالندا
 سوت عليك الدج ونحت ولكن سدى:
 اهاجرني اطفئي لوامج لا تنقي
 مضت في هواك الشون وما لك ما اشقي
 اذ انقيل مات الاديب بناتمة ، أنت هي
 لما قرأت آياته كذبت تحتها .

زءانك قبلي اتقى ولا يرجع المتعي
 غبي اب ازدي وحبك أن تشتعي
 أراي استرسلت في تقل هذا الشعر العذب ، وكل شعر صبري غط واحد في
 المذبذبة واللاماة ذلك لأنه كتب من يتقع شعره قبل نشره ، مثل حافظ
 البراهيم ، وقد قال في هذا المعنى

شعر القى عرسه الثاني فأحرمه ألا يشوهه بالأفكار والوتر
 فاقد كلامك قبل الناقد لم يخط نافي الفيسين من لم ومن هدد

والبريد بجواب اشكرتني يا هادي اناظر فيك
 يا دابة ، صبري مختلف دروا
 ليك كالمزج صلا ، صلا
 ابري صبري ، ابري صبري
 واين لي القاصي اشكرتني
 لهما في السراير المستعينة
 صبري وراقيل صبري
 صبري وراقيل صبري
 صبري وراقيل صبري

والله اعلم
 واستمداد البرور سوار
 قد في انتم في ايات
 كبري نارا
 يوم حسن
 فاصبح
 عفيف من كرامته

نموذج احدي القصصات التي كان القلمها من احدي المجلات



إبراهيم الحوراني^(١)

١٢٦٠ - ١٣٢٤هـ

١٨٤٤ - ١٩١٦م

كان في القرن الماضي من تنافس البرتستانتية مع الكثلثة والأرثوذكسية من طوائف النصرانية في لبنان، أن تقدم لخدمة العربية رجال كُفأة عُلّما وألّفا وترجموا، ومنهم بنو اليازجي وبنو البستاني، وهذا الشيخ الذي نترجم له إبراهيم الحوراني.

هو إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن يعقوب بن سليمان بن فرح الحوراني. كان أبوه من سكان حمص، وشخص إلى حلب مُتَّجراً، وفيها ولد ابنه إبراهيم، وترعرع وتعلم مبادئ العربية والحساب، وكان يجمع أترابه ويدرسهم ما درسه، وولع بالزجل والمواليا، وهو في الحادية عشرة، ونظم الشعر الفصيح في الثانية عشرة. وفي سنة ١٨٦٠ نزع والده إلى دمشق فتعرف إلى الدكتور ميخائيل مشاقة، وكان عالم عصره من الإنجيليين، فأشار على والده أن يُدخِل ابنه إلى مدرسة عبيّة الأميركية، ففضى فيها أربع سنين، وعاد

(١) ترجمته في الأعلام ٥٠/١ ومعجم المؤلفين ٧٢/١، وتاريخ الصحافة ١١١/٢، وهديّة المعارف ٤٥/١ وانظر إيضاح المكنون ٦/١، ٣٦٣، ٤١١، ٤١٣، ٥٦٤/٢ الموسوعة العربية ٣٠٤ واكتفاء القنوع لفانديك: ٤٤٧، ٤٨٩، ومعجم المطبوعات: ٨٠٢ - ٨٠٣. وقال الزركلي في الأعلام: إن ترجمة مطولة له محفوظة لديه بخطه، وفيها مختارات من شعره.

إلى دمشق فأنتم دراسته في الرياضيات والمنطق والفلك، وشدا شيئاً من الإنكليزية، وقال عن نفسه: أنه استفاد من تعليم نفسه أضعاف ما استفاده ممن كان يعلمه. وغلبت عليه الرياضيات والفلك، وحذق علم قياس المثلثات والأنساب والفلسفة الطبيعية والكيمياء والنبات والحيوان. وفي سنة ١٨٧٠ عين أستاذاً في الكلية الأميركية في بيروت، فعلم البلاغة والمنطق والرياضيات نحو عشر سنين، وأتقن العلوم وابتكر بعض القواعد الرياضية. ودرّس في المدرسة البطريركية، وفي مدرسة البنات، وفي مدرسة اللاهوت الإنجيلية إلى آخر حياته، واتصل بجماعة الإنجيليين، ومنهم العلامة الدكتور فاندريك^(١) صاحب الأيادي البيضاء في تخريج بعض رجال الشام، ووضع التأليف العلمية بالعربية. ومنذ سنة ١٨٨٠ تولى الحوراني كتابة النشرة الأسبوعية وتصحيح مطبوعات المطبعة الأميركية ومعرباتها، فكتب مئات من المقالات العلمية والأدبية وألقى الخطب، وقيل: إن تأليفه ومترجماته وتصحيحاته بلغت خمسة وعشرين^(٢) مصنفاً. ومن كتبه: «الشهب الثواقب»، «جلاء الدياجي في الألفاظ والمعاني والأحاجي»، و«مناهج الحكماء في مذهب النشوء والارتقاء»^(٣)، «الحق اليقين في الرد على مذهب دروين»^(٤)، «الآيات البيئات في عجائب الأرض والسموات»^(٥)، «ضوء المشرق في علم المنطق»^(٦) إلى

(١) انظر ترجمة له في هذا الكتاب.

(٢) الأصل: خمساً وعشرين.

(٣) كذا الأصل، وقد طبع بعنوان: مناهج الحكماء في نفي مذهب النشوء والارتقاء (معجم المطبوعات ٨٠٤) وكذلك ورد في إيضاح المكنون وغيره.

(٤) كذا الأصل، وقد طبع بعنوان: الحق اليقين في الرد على بطل داروين، وهذا يوافق المصادر الأخرى كهديبة العارلين وإيضاح المكنون.

(٥) كذا الأصل. وقد طبع أيضاً بعنوان: الآيات البيئات في غرائب الأرض والسموات. وهو يوافق المصادر الأخرى.

(٦) طبع بعنوان: الضوء المشرق في علم المنطق (معجم المطبوعات).

غير ذلك مما ألفه^(١). ومما لم يطبع ديوان شعره، ولو جمع شعره كله وما قاله في المجون والزجل والمعنى لبلغ عدة مجلدات. وقد عرب كثيرًا وصحح كتبًا كثيرة، وأكثرها بغير اسمه، ومما صححه: «النهج القويم في التاريخ القديم» لبورته، و«قاموس الكتاب المقدس» لبوست، وأزر في عدة جرائد ومجلات، وحرر جريدة «المحروسة» في مصر ستين.

وعرف الشيخ الحوراني بشدة صبره على البحث والتنقيب، وقيل: إنه كان يعرب من الإنكليزية - وكان يفهمها ولا يحسن النطق بها - في الموضوعات العلمية ما يرضى عنه أجلّ العلماء والباحثين. وبهذا يمكن القول بأنه وزع قواه، ولم يخرج للناس كتبًا توازي علمه وأدبه. والتعليم في العادة يفيد صاحبه مرانًا كثيرًا، ولا يبقى له وقتًا كافيًا لإمعان النظر فيما غلب عليه من ضروب المعارف واستخراج ما يتحمل إبداعًا وابتكارًا.

كان من أجداد الشيخ من يقول الشعر، ويشارك في بعض العلوم، فانتقل ذلك في دمه، فنشأ بالفطرة شاعرًا. سمع أباه يحثه على تحدي جده في قول شعر. فقال مضمناً ذلك:

يقول أبي بُنَيِّ الشَّعْرُ فخرٌ	لمن بمقاله الفاوِينْ يَهْدِي
فزاوِلْ نَظْمَهُ وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا	ذَكِيَّ النَّشْرِ مِنْ وَرْدٍ وَنَدُّ
فجُدُّكَ كانَ ذا شِعْرِ نَفِيسِ	فقلْتُ: انْشُرْ لَنَا نَفْحَاتِ جَدِي
فقال: إِلَيْكَ ما نَقَلتْ حُدَاةٌ	به كانتَ مَطِيَّ الشُّوقِ تحدي
الأدْعُ ما اسْتَطَعتْ حديثَ نَجْدِ	ففي ذاكَ الحديثِ قديمٌ وجدِ
فَجُرْزُ تلكَ الربوعِ لِإنَ فيها	تَعَلَّيْ عَادةَ ربواتِ لحدِ
فقلت: طربتُ منَ ذا الجَدِّ جِدًّا	سأبدلُ في نظامِ الشعرِ جهدي

(١) من ذلك: سواء السبيل في إسكان أرض النيل (هدية العارفين)، حكم الإنصاف في رجال التلغراف (إيضاح المكنون ومعجم المطبوعات).

وقال في مذهبه في الشعر :

هَدَّبَ كَلَامَكَ فِي نَظْمَا
فَالشَّعْرَ كَالْمِرْأَةَ يُرُ
وقال :

وعذابُ أربابِ الفضائلِ لذَّةٌ
إن كان موتي في الفضيلة رفعةً
وارتجل هذين البيتين :

جميع الناس في تبهٍ
فلولا الجهلُ ما تاهوا
ومن آياته في الحكمة :

لا خيرَ في عقلٍ ولا علمٍ ولا
أخافُ وكم خفتُ من واعظٍ
إنني لأعلم أنني لا أعلمُ
إن الجهولَ الغرَّ يَحْسُبُ أنه
وقال :

يا نفس لست بمدرِك كل الذي
إن الذي في دفتر الأقدار لا
ولقد دخلت الأرض غير مخيِّرٍ
وقوله ينصح الفتاة التي ترغب في

ما كلُّ ذي مالٍ شريفٌ فاطلبي
كم من غني مجده أمواله
وله في كأس الخمر :

مك قبل نقد العالم
سم فيه عقلُ الناظمِ

وكفى الأفاضلَ أن عَدَّوا أبرارا
فَلْبِقْضِ رَبِّي أن أموتَ مِرارا

على طُرُقِ الرَدَى ماتوا
ولولا التبهُ ما ماتوا

دينٍ ولا مالٍ بغير عفاف
كثيرِ الصلاةِ قليلِ التُّقى
وكفى بذا علماً لمن يتفهَّمُ
أدرى من الشيخِ الحكيمِ وأعلمُ

تبغينه فدعي عناءك واقصري
يأتي على وفق الذي في دفتري
وسأترك الغبراءَ غيرَ مخيِّرٍ
في مال خطيبها لا في كماله :

مَنْ شَرَّفَتْهُ فِي الْوَرَى أَخْلَاقُهُ
كَالزَّهْرِ كُلُّ جَمَالِهِ أَوْرَاقُهُ

في هذه الكأس الهلاك فلا تَذُقْ حَلَبَ العَصِيرِ صَدِيدَ أَهْلِ جَهَنَّمَ
عَكَسَتْ لَظَى لِأَلَانِهَا مِنْ نَارِهَا وَحَبَابُهَا نَفْثُ الحُبَابِ الأَرَقَمِ^(١)
وقال في الكهرباء والحب:

كَأَنِّي فِي الهَوَى العَذْرِي عَصَفٌ وَلِيَلِي فِي المَحَاسِنِ كَهْرِبَاءُ
دَنْتُ مِنْ مَنِي وَمَسَّتْنِي لِهَذَا عَلَقْتَ بِهَا كَمَا حَكَمَ القَضَاءُ

ومن نثره من خطبة في عالم الحس وعالم الخيال: «ومن فوائد الخيال أنه نزهة المعتزل، ففيه يرى الحدائق الغناء توقع عليها قيان الورق أطيب الألحان، وتجري تحتها جداول زلال الذ من بثيث ألحانه، وتحيط بمنابتها بواسم الأزهار كما يحيط بالمعاصم السوار، وترى مدافع الشواهد تقذف بلجين الماء على در الحصباء في الأودية الخضراء، فترده آماه المهى وظمأ الطيبي، فتصبو إلى الورد، ولا تطفئ أوامًا فتنن وجدًا وتنشر هيامًا.

أَلَا قَلَّ لِسُكَّانِ وَادِي الحَمَى هَنِيقًا لَكُمْ فِي الجِنَانِ الخُلُودِ
أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ فَيْضًا فَنَحْنُ عَطَاشٌ وَأَنْتُمْ وَرُودُ

ثم إذا مَلَيْتَ مشاهد النهار توجهت إلى مشاهد الليل، وبدلت طلعة الشمس بمحيا سهيل^(٢)، فترى هناك النجوم دررًا في باطن الخيمة الزرقاء والمجرة نهرًا عظيمًا تدفق في حديقة نرجس، وفروعها جداول البطحاء، وترى هناك تباين المؤلفات، واثتلاف المتباينات، فتشاهد الطائر والواقع، والذاهب والراجع، والخفي والظاهر، والثابت والساير، والأسد بين السرطان والعدراء، والسرطان بين الأسد والجوزاء^(٣) والأبراج والمنازل

(١) الحباب (بفتح الحاء): الفقايع. والحباب (بضم الحاء): الحية. والأرقم: ما فيه بياض وسواد أو أخبت الحيات.

(٢) سهيل: نجم.

(٣) الأسد والسرطان والعدراء والجوزاء: أبراج سماوية.

والطوابع والأوائل، فترى العالمين على العالم الأصغر، وتنسى أنك العالم الأكبر، ثم تنتبه إلى المعتزل وإليه تبوء، فتعلم صحة قولهم: الوحدة خير من جليس السوء» ا. هـ.

وله آراءٌ وحكم كثيرة، منظومة ومثورة، توخى فيها السهولة في التركيب، وكان مزاجه لطيفاً ويصغي للنكتة، ويأتي ساعات الفراغ بأنواعها، وزجلياته آية، ومنها ما لا يجوّز المعاصرون اقتباسه في الكتب والصحف لمخالفته آداب العصر بزعمهم.

دعي مرة ليخطب في حفلةٍ مدرسيةٍ فافتتح بأبياتٍ غزليةٍ وأشار إلى شيخوخته بقوله:

قَدُمَ الزمان وصبوتي تتجددُ فكأنني في كل عصرٍ أولدُ
 شيخًا أرى بين الشيوخ وأمردا في المرء مما شاب منه الأمرد
 قالت غواني الرقمتين وقد رأت ثلج المشيبِ أظنّ نازك تخدمُ
 فأجبتها ما الشيب بل لَهَبُ الهوى في الرأس مما في الحشا يتوقدُ
 قالت: مشيبك أسودٌ في ناظري قلتُ: الحقيقةُ أن لحظك أسودُ

وقال في امرأة تركت مهذبًا لفقره، وتزوجت خشناً لغناه فعذباها:

لقد هجرث أخافهم قليلاً مألّه يغلمُ
 وودت بعمده وحشًا كثيرَ المال لا يفهمُ
 فنالت من مخالبه جراحًا مالها بلسمُ
 وذاك جزاءٌ ناجرةً تبيع الحُبَّ بالدرهمُ

وقال في فتاة جميلة متعصبة كانت تعنفه على مزاحه وتبكيه عند ضحكه:

غراء شمس نهارنا من وجهها وهلال ليلتنا مثال جبينها
 ما كان أطربني لطيب حديثها لو أن رقّة خصرها في دينها
 ومما قاله فيه أحد من أطالوا في الترجمة له صديقنا الأستاذ عيسى

إسكندر المعلوف: إنه أرهف يراعه منذ الصبا فأجاد في الموضوعات التي دبحها به، ولم يبق بحثاً لم يتناوله بأسلاته^(١) فتفنن في مقالاته تفننا لا يجيد فيه إلا من كان مثله كثير الاطلاع، متضلعا من العلوم والآداب متقنا للمعقول والمنقول، فتراه يذهب بعقل المطالع لكتاباته الوضيحة البليغة كل مذهب وينحوبه كل منحى، فيمر على المدن والديساكر^(٢)، ويريه الشوارع والمنعطفات، ويسدد خطواته في مناهج الحقيقة، ويطير به في عالم الخيال، ولكنه لا يتيه بالفقاري ولا يضل سبيلا، بل يملأ مخادع حافظته صور تعابير بليغة، ويطلع في مخيلته أصح الآراء وأسد الأفكار، فيعود مُطالع أبحاثه مستفيدا كل الاستفادة، مع تفنن في التعبير، وخلوص من التعقيد، وبساطة في التركيب. صرف حياته بالتدريس والبحث والجمع وتوسيع المدارك بالمطالعة، وانتظم في سلك الجمعيات العلمية والأدبية، ودُعي إلى بعض المؤتمرات العلمية في أوربة، وعرفه الأوربيون والأميريكيون بسمو المدارك. ومن مكتشفاته معادلة الجيوب، ومعادلة معرفة أضلاع الأشكال القياسية الوترية من المسبّع والمتسّع وذو الإحدى عشرة وما فوق ذلك إلى غير نهاية... وكثيرا ما برهن المنطق بالجبر، وأجاب على أسئلة في جميع الموضوعات بسداد رأي ودقة نظر، وعرف طريق رسم الأشكال القياسية كلها، وقيمتها العددية بلا تكعيب. ولم تكن معارفه اللغوية أقل من معارفه العلمية، فإذا أورد لفظة تَبَّتَ فيها، وأشار إلى أول من استعملها مثل شبه جزيرة ملعقة (ملقة) كما قال الشيخ داود البصير الأنطاكي في تذكرته^(٣) وهكذا استخراج من بطون الكتب

- (١) مفردها أسلة، والأسل، الزماح، والنبل، والأسلة: كل عود لا عوج فيه، وتستعار لليراع.
- (٢) مفردها دسكرة، وهي القرية والصومعة والأرض المستوية وبيوت الشراب والملاهي.
- (٣) داود بن عمر الأنطاكي (ت ١٠٠٨هـ، ١٦٠٠م) عالم بالطب والأدب، انتهت إليه رئاسة الأطباء في عصره، وقرأ المنطق والرياضيات وشيئا من الطبيعيات، وأحكم اللغة اليونانية، ولد بأنطاكية، ولكنه هاجر إلى القاهرة وبها توفي. وتذكرته المشهورة كتاب في الطب سماه: (تذكرة أولي الألباب)، وله كتب أخرى (الأعلام ٩/٢).

المصطلحات القديمة، وحقق آراء العصر فيها، ومن أوضاعه المشهورة: المرقب والمجهر والحوصلة «الكبسول» والمضلع «القباجور» والنجيري «المدخنة» والفوارة «النوفة».

لا جرم أن العلامة الحوراني كان من أعظم دعائم النهضة الشامية أو العربية، ما كان فيه جمود العلماء ولا تبذل الأدباء.

عاش يعلم الناس منذ كتب له أن يتعلم، وقد تخرَّج به كثيرٌ من الشبان والشابات، ونشر العلوم الطبيعية والرياضية مع المحافظة على روح الدين، والتزام القصد فيما ألف ونشر. وهو من غرائب الرجال. جمع الأدب الغض - على ما لا يتأتى مثله لغير أفراد من كبار الأدباء - إلى الاطلاع الواسع على العلوم، التي كانت قبل مدارس الأميركيين في الديار الشامية مجهولة عند الخاصة جهلاً فاضحاً، والفضل لها في الأكثر؛ لأنها أخذت بيد مثل الحوراني وأعانته على نشر معارفه وتعليم الجاهلين فكان دعامة من دعائم النهضة الشامية.

وأسعدني الحظ فاختلفت إلى مجلسه، وزرته في بيته غير مرة، وهو بين خاصته وتلاميذه فأفدت من علمه وتجاربه. وزرته مودعاً أقصد القاهرة لأنشئ مجلة «المقتبس» ومما قاله لي^(١): «إنك ستنجح في مشروعك الجديد؛ لأنك ستبدأ به وأنت شاب. وأنا أنشأت مجلة «الرئيس» في الشيخوخة فما أفلحت». وهذا من صراحة العلماء المحبوبة، وكنت إذا زرته أكبر علمه وأعجب بأدبه وأشهده لا يخلي جُلَّاسه من فوائده، كما لم يخل قراء كتبه ورسائله ومقالاته من تعليم وثقيف.





إبراهيم اليازجي^(١)

١٢٦٣ - ١٣٢٤هـ

١٨٤٨ - ١٩٠٦م

هاجر من حمص أحد أجداد بيت اليازجي سنة ١٦٩٠، ونزل قرية كفر شيما من سواحل بيروت، وكان أهل هذا البيت على مذهب الروم الأرثوذكس فاتحلوا الكثلثة، ودخل بعضهم في خدمة الدولة العثمانية كاتبًا، فأطلق عليه اسم «يازيجي» أي الكاتب، حُرِّفَ بعدُ فصارت «يازجي».

ولد إبراهيم في بيروت، وظهرت عليه مخايل النجابة في سن العاشرة، وكان أبوه الشيخ ناصيف من رجال النهضة العربية الأولى، وله مقام عال في الأدب والشعر. ولقب الشيخ كان في لبنان يطلق على الطبقة التي كانت ترتفع عن العامة، وتنحط عن طبقة الأمراء.

وتَخَرَّجَ إبراهيم بأبيه في علوم العربية، وحفظ القرآن في صباه، وأخذ الفقه الحنفي عن الأستاذ محيي الدين اليافي، وأولع بالرسم والنقش والحفر، وامتاز بجمال خطه، وهو الذي نقش بعدُ أمهات حروف مَجَلَّتِيهِ: «البيان»

(١) ترجمته في الأعلام ٧٢/١ ومعجم المؤلفين ١٢٠/١ وانظر معجم المطبوعات ١٩٢٧ ففي ترجمة له بقلم جبران النحاس، ورواد النهضة الحديثة: ١٦٤، قداما ومعاصرون: ١٤٩، تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ١٠٧٦ تراجم مشاهير الشرق ١٤٤/٢ والاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث: ١٠٦ دراسات في الشعر العربي المعاصر ٢٤٠ ولعيسى خليل سابا كتاب عنه، ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٢٨ ص ٣ - ١٧.

والضياء»، وحروف المطبعة الأدبية، وكانت منها حروف معظم المطابع في الشام ومصر.

وتعلم الفرنسية والإنكليزية، وأخذ بطرفٍ من الألمانية. وقال أحد مريديه في الكلام على إتقانه الفرنسية: أنه سمعه يقرأ فصولاً استملح عربيتها، ثم تبين أن نظره كان يجول في السطور الفرنسية فيلقبها لسانه بالعربية الفصحى.

قال لي المترجم له: لو كان لي الخيار لآثرت أن أكون رسامًا مصورًا، إلا أنني رأيت الأجدري الانصراف إلى خدمة اللغة العربية، حتى لا يغلق بيتنا بانقراض أفراده المعنيين بهذه اللغة، فيفوتني شرف خدمتها، على ما كان الحظ لأبي في هذه الخدمة.

انضم الشيخ في أول شبابه إلى الجمعية العلمية السورية، فألقى فيها الخطب وأنشد القصائد، ثم تولى تحرير جريدة «النجاح» فحجّر المقالات، وترسّل، فكانت هذه الجمعية وهذه الجريدة مدرسته الأولى في البيان والصحافة.

وعهد إليه الآباء اليسوعيون بتقويم ترجمة الأسفار المقدسة، وكانت عربت عن أصلها العبراني واليوناني، عدا ثلاث ترجمات عربية كانت أمام من قاموا على تصحيحها. وكان تعريب المزامير والإنجيل مقيدًا بترجمة عبد الله زاخر لشهرة نصوصها في المعابد. ففضى الشيخ في هذا العمل ثماني سنين، واضطرته معارضة الترجمة على المتن الأصلي إلى التبحر في بعض اللغات السامية، ولا سيما العبرانية والسريانية، وألّف في العبرانية كتاب نحوٍ وصرفٍ نسج فيه على منوال النحو العربي وصرفه.

علم الشيخ دهرًا في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت خلفًا لأبيه، فتخرجت به طائفة من الأدباء كانت لهم منزلة رفيعة في الآداب. وفي سنة ١٨٨٤ نشر بالاشتراك مع الدكتورين بشارة زلزل وخلييل سعادة مجلة «الطبيب» سنة واحدة، ثم هاجر إلى مصر، فأصدر فيها مجلة «البيان»

بالاشتراك مع الدكتور زلزل سنة واحدة، واستقل بعد ذلك بإصدار مجلة «الضياء»، وقد اطرده صدورها ثماني سنين حتى سنة وفاته، وكانت من أمتع المجلات العربية بجمال أسلوبها وطلاوة عباراتها وطرافة أبحاثها، وفي «الضياء» ظهرت شخصيته. كأن ما كان مضى من حياته العلمية في لبنان قبل أن تصح عزيمته على نشر مجلته في مصر، كان دورَ استعدادٍ تجلى بعده نبوغه على أكمل حالاته، وما سبق له من نشر آيات علمه وأدبه، كان كالمقدمة قدمها بين يدي كتابه الشامل.

وفي «الطبيب» و«البيان» و«الضياء» توفر على نشر أبحاث متسلسلة استخرج من بعضها كتباً برأسها مثل: لغة الجرائد^(١). ومن أبحاثه الممتعة: أمال^(٢) لغوية، أغلاط العرب، أغلاط المولدين، اللغة العامية واللغة الفصحى، اللغة والعصر، أغلاط لسان العرب، المجاز، الشعر، التعريب، العلوم عند العرب. إلى غير ذلك من المقالات والأبحاث الممتعة. ومن كتبه: «نجمه الرائد في المترادف والمتوارد»^(٣)، ومنها: اختصار أو تصحيح بعض كتب والده كمختصر «نار القرى» ومختصر «الجمانة» وشرح ديوان المتنبي سماه «العرف الطيب» وإلى ذلك يشير في آخر هذا الديوان إشارة تيمُّ على بره بوالده قال: «وأنا أبقيت عنوان الشرح باسمه - باسم أبيه - رعاية لكونه هو واضع الأصل، فلم أوتر أن أتطفل عليه في نسبة الكتاب، وإن تطفلت عليه في التأليف، وإنني لأرجو أن يكون قد وهبني الله السلامة في ذلك كله، وأنزلي من هذا الشرح منزلة توجب استدرار الرحمة على واضعه، ولا تكون مدرجة لنقص برِّي به، بأن أميراً عليه تبعه تُلزمني دونه، أو ينسب إليّ فضل هو

(١) طبع.

(٢) الأصل: أمالي.

(٣) طبع بعنوان: نجمه الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد كما طبع له كتاب مطالع

السعد لمطالع الجوهر الفرد.

أحق به مني، ومعاذ الله أن أدعي لنفسي في جنبه فضلًا أو علمًا، فإنما أنا اهتديت بمناره واقتديت بآثاره، وإني لا علم لي إلا ما علمني».

وصحح الشيخ كتبًا كثيرة ومنها: تاريخ بابل وآشور^(١)، ونفح الأزهار^(٢)، ودليل الهائم^(٣)، ونخب الملح، والعقود الدرية في شرح شواهد المختصر^(٤)، ورسالة الغفران للمعري، والفرائد الدرية، وهو معجم عربي فرنسي. ونقد القسم الذي ترجمه باريه دي مينار، من مستعربي الفرنسيين من كتاب «مروج الذهب» للمسعودي، كما نقد «تكملة المعجمات العربية» لدوزي، ومعجم «محيط المحيط» للبيستاني وسماء الحواشي، ومعجم «أقرب الموارد» للشرتوني، و«الدررة اليتيمة» لشكيب أرسلان وناقش أرباب «المقتطف» وصاحب «الجوائب» فيما وقع لهم من الأغلط وغير ذلك^(٥).

وصرف شطرًا من حياته في تأليف معجم سماه: «الفرائد الحسان من قلائد اللسان» قال: إنه شرع في وضعه مقتصرًا على الفصيح دون المولد والمحدث في الاصطلاح، لأنه رآهما طرفين لا يلتقيان، ولا تؤلف منهما حلقتا بطن، فضلًا عما يقتضي بحث الطارئ من التجرد والجهد، وإخلاء الذرع للبلوغ إلى باحة القصد، فلا بد من أفراد هذا القسم في كتاب مخصوص يحاط به بعد مراجعة الكتاب والنصوص. قال: «وقد وضعت الكتاب على نسق لم أكن متابعًا فيه ولا مقلدًا، ولا متحدثًا ممن سبقني أحدًا. فإني اعتبرت فيه جانب المعاني في كل مادة، فقدمت منها ما حسبته الأصل في ذلك

(١) لجميل نخلة المدور.

(٢) تمة عنوانه: في منتخبات الأشعار، جمعه شاعر البتلوني بإرشاده.

(٣) تمة عنوانه: في صناعة الناثر والناظم جمعه شاعر البتلوني بإرشاده.

(٤) عنوان الكتاب الصحيح: عقود الدرر في شرح شواهد المختصر لشاهين عطية.

(٥) وله ديوان شعر عنوانه (العقد) طبع في البرازيل، إلا أنني لم أتمكن من العثور على نسخة

التركيب، ثم ألحقت به ما تفرع عنه من طريق المجاز الأقرب بالأقرب إلى أن تنقطع سلسلة الترتيب، وما بقي بعد ذلك مقتضباً من ذلك النظام ذيلته في آخر المادة، وضمنته المشهور من الأعلام. وكل ذلك على أسلوب مختصر أظهرت فيه الوحشي من اللفظ والمهجور في استعمال الفصحاء. وتجنبنا ما يستحي منه من ألفاظ السوءات، وما يضاف إليها مما تبتذله نفوس الأدباء وكنت قد بلغت في تسويده إلى آخر حرف الحاء المهملة مما يقدر بالربع أو يزيد». ا. هـ.

أولع الشيخ ببلاغة القرآن. حدثني تلميذه صديقي خليل مطران الشاعر: أنه كثيراً ما كان يقول لتلاميذه إذا تصدوا للكتابة ونشر المقالات أن يستشهدوا بآيات القرآن ليكون بها رونق لما يكتبون. أو ما هذا معناه. فمن كان هذا اعتقاده لا يعقل أن يطعن ببلاغة الكتاب العزيز وفصاحته، على ما اتهمه بذلك بعض الطوائف، من أنه عارض القرآن وحط من شأنه في رسالة له نَحَلْتُهُ إياها، وما هي إلا من أقلام بعض دعائهم.

وكان أعداء الشيخ من الفريق الذي أصلاهم نار نقده مثل صاحبي «المقتطف» وسعيد الشرتوني، وشكيب أرسلان، وجماعة اليسوعيين. وعلى مطبوعات هؤلاء حمل حملة شعواء، وكثيراً ما عمد في حوارهم إلى السخرية، وربما انتهى بعض هذه المناقشات بالمهاترة أحياناً، وأدى بعضها إلى ما كان يؤدّ أحباب الشيخ لو تصوّن عنه.

وقيل: إن الشيخ كان ينشر أشياء باسم بعض تلاميذه أو بأسماء مستعارة فيما لا يريد أن ينسب إليه. وهذا أيضاً لا يخلية من تبعة، خصوصاً وهو في بعده عن اللغو، والتحلي بالفضائل النفسية المثل الأعلى. بيد أنه جُبِلَ على حب المطارحات والمناظرات، وبها تجلت ملكته في البيان هذا التجلي الرائع إذا أريد التنظير بين كلامه وكلام معاصريه. وفي المناقشة التي دارت بينه وبين العلامة أحمد فارس كان أكثر اعتدالاً مع أنه كان شاباً وخصمه كان شيخاً.

كان الشيخ يألم ممن يرتكب غلظًا لغويًا ألمه ممن يسيء إليه مباشرة، فما كان يغفل عن نقد معظم ما كان يهدى إليه من الكتب الجديدة لتقريبه والتنويه بصاحبه، وكل ذلك حتى لا يعيب باللغة عابث، و«كان أقصى أمانيه أن يعيد إلى اللغة بهجتها الأولى، ويُرَدُّ الناشئة من كتاب العصر إلى النهج القويم من الاحتفاظ بقواعدها وأصولها المقررة في أمهات المعاجم وكتب البلاغة المعروفة بصحة التعبير وفصاحة الألفاظ. وألا يعدل إلى المولد الدخيل إلا بعد طول البحث والتنقيب، وإجماع أهل العلم الواسع من المحققين، وبعد اليأس من الوقوع على الفصيح الأصيل».

ومما كان يحزنه أن اللغة لا تفي بمطالب العلم في هذا العصر، ولذلك وضع ألفاظًا لمسميات إفرنجية سرى بعضها على أسلأت أقلام الكتاب والصحافيين في حياته. وعرب بعض المصطلحات تعريبًا صحيحًا. ولو طال به الأجل لاستكثر من كل ما يفيد اللسان العربي حتى يداني بمادته العلمية لغات العلم عند الإفرنج، ويؤدي على أيسر وجه معاني بعض الألفاظ الجارية استعمالها في العلم والاجتماع والفن والصناعة.

قال لي مرة: وأنا أسأله رأيه في اللغة العصرية: إني مغتبط بأن اللغة علت بلهجتها وقل فيها الابتذال الذي كان لها أول نهضتها، ويتخللها الآن من الفصيح ما لم يكن يعهد فيها في عصور الانحطاط. وكيف لا يفرح لسمو اللغة وهو من أول العارفين بجرس الألفاظ ورنتها وخفتها وثقلها وإدراك أجدر المواضع باستعمالها.

درج حياته على تصفح كتب البلغاء والتقاط ألفاظها وتراكيبها الجميلة، يتمثلها ويدمج في نضاعيف كلامه ما تقضي الصناعة بإدماجه، بقرنها إلى أمثالها مما وعاه صدره، وبهذا ارتفعت كتابته عن كتابة غيره، إذ توفرت لها المادة والقوالب، وعرف أساليب الكتاب على اختلاف العصور، فبعد عن مستوى غيره. يعين على ذلك ذوق سام جمع بين أدب الإفرنج والعرب.

هذا وهو لم يعالج من فنون الإنشاء إلا ما أخذ من نفسه، ولا تتعلق همته على الأكثر بغير الموضوعات الأدبية والتاريخية القريبة المأخذ، مما لا يتعاضى تفهمه على من شدوا شيئاً من الآداب.

كانت مجلة «الضياء» كتابه الأم، حفلت بالفوائد الأدبية واللغوية، حتى ليستخرج منها عدة كتب، ومن أهم ما ينتزع منها مجموعة جميلة من نقده الأدبي وسخرياته، يستخرج منها أسفار نافعة حرياً بالناشئة أن تجعلها^(*) سمرها في خلوتها، وتتخذها أصولاً للبلاغة. وفي مجلته هذه يتمثل لعينيك جهده في إنشائها، وتوفره على إتقان أبحاثها، حتى لقد صدته عن النظر في سائر مؤلفاته، ومنها معجمه. ويبدو لناظرك أن صاحبها قد نقى اللغة وغربلها وطحنها ونخلها وعجنها وخبزها. فجاء منها بكل لقمة كريمة وحلواء لذيذة.

وكان باب النقد مما يُحبَّب مجلة الضياء إلى القراء، ذلك لأنه كان على مثل اليقين أن أبحاثها لا تخلو من جفاف فيداويه بشيء من الفكاهات والأفاصيص، يكتبها له أهل هذا الشأن من تعريبهم أو تأليفهم، والناس أميلُ إلى تلقُّف ما يسليهم، منهم إلى الجنوح إلى ما يتعلمون منه، ولو بحصر أذهانهم دقائق معدودة، والبحث في الآداب مما يثقل على السواد الأعظم، وهم لا عهد لهم بالنظر في هذه الأبحاث ويعدونها من الأبحاث الجامدة.

وكانت «الضياء» تبرز إلى قرائها في حلة لبنانية بروحها وموضوعها^(١)، تتراءى لمن يقرؤها أنها تكتب في لبنان وتطبع في مصر، وترى مُنشئها فيها وقد التف حوله تلاميذه وذوو قرباه ومواطنوه من الشاميين، يؤازرونه في إنشاء مجلته فيما يتقنون من الموضوعات، فلا يكاد المتأمل يقع بينهم على كثير من النابهين المصريين ينشرون أبحاثهم في مجلته. ولعل العلة في ذلك ابتعاد

(*) هذا التركيب شائع، والأعلى أن يقال: ... الناشئة حريون بان يجعلوها سمرهم في خلوتهم... (المراجع).

(١) وهي التي كانت تصدر بمصر.

الشيخ عن الاختلاط بالناس، فأكثر الشاميين يعيشون بين جاليتهم لا يمتزجون بالمصريين كثيراً. على أنه يندر يومئذ في المصريين رجال من الطراز الذي تعجب صاحب المجلة كتابته وبحته.

لم ينصرف الشيخ إلى الشعر انصرافه للنثر، ولذلك يعد من المُقَلِّين منه^(١)، استخدمه في أغراض اجتماعية على الأغلب، كأن يذكر العرب بمجدهم، أو يدعو القوم إلى كسر قيود الاستبداد وتطلّب الحياة الحرة، والقضاء على من وقفوا عثرة في سبيل نهوض العرب، وكانوا سبباً في تدنيهم وخمولهم. فمن شعره في هذه المعاني:

وما العَرَبُ الكرامُ سوى نصالٍ
لَعَمْرُكَ نحن مصدرٌ كلُّ فضل
ونحن أولو المآثر من قديم
فقد علم العراق لنا قديماً
وفي أرض الحجاز لنا فيوضٌ
وفوق الأندلس لنا بنودٌ
وسل في الغرب عن آثارٍ فخرٍ
وله السنية المشهورة ومطلعها:

دع مجلس الغيد الأوانس
إلى أن يقول:

فالشُرُّ كل الشر ما
والخيرُ كل الخير في
ما هم رجال الله في

(١) طبع له ديوان شعر بعنوان «العقد».

تحت الطيالس والقلانس
ت على بساط الذلّ جالس
أبدًا لذيّل الترك «بائس»^(١)
عداءه يظلم وهو آيس
ودماؤه بيع الخسائس^(٢)
خربًا كأطلال دوارس

ز لديهم إلا المشاكس
م ومن هم شمم المعاطس^(٣)
نارًا ترؤع كل قاييس
حت لا تحيق بها الفهارس
سم للوغى والموت عابس
ء وسفكها للجور حابس

فقد طما الخطب حتى غاصت الركب^(٤)
وأنتم بين راحات القنا سلب

يمشون بين ظهوركم
أيّ النعيم لمن يبيد
ولمن تراه بائسًا
ولمن أزمته بكف
ولمن تُباع حقوقه
ولمن يرى أوطانه
وقال في الترك:

فالترك قوم لا يفو
أولسئتم العرب الكرا
فاستوقدوا لقتالهم
عمت قبائحهم فأض
حال بها طاب التبس
وحلا بها سفك الدما
ومثلها قصيدته^(٤):

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم

(١) المراد بكلمة «بائس» الأخيرة الذي يُقيل، وقد صاغها من قول العامة (باس فلان يد فلان).

(٢) الأصل: ولمن تباح، ولعله سهو.

(٣) الأصل: الشم المعاطس، ولعله سهو.

(٤) نظمها سنة ١٨٦٨ ونشرت سرًا، ولم تهتد الحكومة العثمانية إلى معرفة ناظمها وفي كتاب

عيسى ميخائيل سابا عنه واحد وعشرون بيتا منها انظر صفحة ٤٩ منه.

(٥) طما، يطمو ويظمي: زاد وارتفع.

كَمْ تَظْلُمُونَ وَلَسْتُمْ تَشْكُونَ وَكَمْ
تُسْتَغْضَبُونَ فَلَا يَبْدُو لَكُمْ غَضَبٌ
ثم يعرض بحكام تلك الأيام فيقول:

سلاحهم في وجوه القوم مَكْرُهُمْ
لا يستقيم لهم عهدٌ إذا عقدوا
بالله يا قومنا هُبُّوا لشأنكم
الستم من سطوا في الأرض واقتحموا
وخيرُ جُنْدِهِمُ التَّدْلِيسُ وَالكَذْبُ
ولا يصحُّ لهم وعدٌ إذا ضربوا
فكم تناديكم الأسفار والخطب
شرقًا وغربًا وعزوا أينما ذهبوا

فما لكم ونَحْكُمُ أَصْبَحْتُمْ هَمَلًا
لا دولةً لكم يشتدُّ أزركم
أقداركم في عيون الترك نازلةً
وأظن هذه القصيدة هي التي اتهم بها أحد الأدباء يومئذٍ، وحبس بها
سنة، كما قال لي الشيخ رحمته الله.

وهذه القصائد تنادي بأنه كان حرًا يدعو إلى الحرية، وعربيًا يبكي لمجد العرب، ويحاول أن ينزعوا من ربقتهم حكم العثمانيين، وينجوا من الاستعباد. وهو ما كان يطيب له ادعاء هذه القصائد؛ لأن قصده مجرد عن الغاية، فلا يطمع في الظهور والتمجيد. ولو ظهر عليه أدنى أثر من الإنكار على الدولة لناله من العقوبات أفظعها، فهو بعقله وحيطة يتقيهم ولا يرتكب ما لا يرضيهم، على ما كان يتقي أهل بيئته، وبيئته كانت جد متعصبة، جامدة، وكنت تلمح حرية فكره تلمع أشعتها من خلال ما ينشره، ويتجلى للنقاد البصير أنه معلم حكيم، يرمي إلى تهذيب النفوس بكل ما لديه من الذرائع، ويحاول إخراج أمته إلى طريق سليم ليدخلها في غمار الأمم الناهضة، وهو الذي يعرف مبلغ أمته من معاونته ومعاونة أمثاله، ولذلك لم

يجاهر بدعوته؛ لأن الأمة خلت من هذه المعاني، وما كانت تفكر إلا في الساعة التي هي فيها.

وما سلم الشيخ من عيوب الشعراء المتأخرين، فقد كان أصحابه وجيرانه وأهله يريدونه على أن ينظم تواريخ لأضرحة موتاهم، وكان يرجى ألا يقبل إضاعة وقته في مثل هذه المنظومات، ومنها المدح والثناء. وما كان الحامل له على نظمها على ما يظهر إلا إرادة التخلص من تعجيز المعجزين، وقد اعتاد الناس ألا يرضوا عن الشاعر إلا إذا مدح أحياءهم ورثى موتاهم. وقد أثرت له رسائل، لك أن تدعوها من جنس الإخوانيات، كان يبعث بها إلى أحبابه أو إلى أرباب الوجاهة لدفع مغرم وجلب مغنم لمن يتوسطه، يكتبها من حاضر الوقت، لا يتعمل فيها، وأكثرها مسجوع، إذا تلوتها تراءى لك أنه ينسج فيها على منوال الهمذاني والخوارزمي والصاحب. ومن شعره الجميل يذكر حمص منبت أجداده.

وسقى الله أرض حمصٍ وحبَّتْ
هي فردوسِي القديم ومنها
نفحاتُ الرضا خصيبَ ثراها
ثمراتُ الحياةِ كان جنَّاهَا
ومنه:

ليس الواقعةُ من شأني فإن عَرَضَتْ
إني أَضِنُّ بعرضي أن يلمَّ به
أَعْرَضْتُ عنها بوجهِ بالحِياءِ ندي
غيري فهل أتولَّى خَرَقَهُ بيدي
وقال في ساعةِ دَقَاقَةٍ:

ومُخَصِّبَةَ أعمارنا كلما انقضت
فيا بنتَ هذا الدهرِ سِرَّتْ بسيره
لنا ساعةٌ دَقَّتْ لها جَرَّاسَ الحزنِ
فهل أنتِ دونَ الناسِ منه على أمني
وقال في عودِ الطَّرَبِ:

وعودِ صفا الندمانُ قَدَمًا بظُلِّه
تعمشَقُهُ طيرُ الأراكِةِ أخضرًا
وما برحتُ تصفو لديه المجالسُ
وحنَّ إليه ريشُهُ وهو يابسُ

وقال في بعلبك :

والعهد والصناع والبنيان
إلا لتُظهِرَ قدرةَ الرحمن

يا بعلَبَكْ غريبةَ الأزمانِ
لم تُبَلِّكِ الأيامُ في جِدْثانِها
وقال :

ولا عجبٌ في حالنا إن تأخراً
غدونا بحكم الطبع نمشي إلى الورا

تَعَجَّبَ قَوْمٌ من تأخِرِ حالِنا
فمذ أصبحت أذناننا وهي أروُسُ
وقال في الحِجَمِ^(١) :

وناسٌ بها قلب الخليِّ مُتَبِّمٌ
توهُمَ فيها لذةٌ وهي علقمٌ
أسود المنايا حولنا وهي حُوْمٌ
ينادي علينا سُمَّعًا وهو أبكمٌ
وأجفاننا في غفلةِ اللهو نُومٌ
لساكنها من غارةِ البين تعصمٌ
يُنَاحُ عليه بعد حينٍ ويُرحمٌ
تلوح عليها مدة ثم تهدمٌ

حياةٌ أَسْرُ العيشِ فيها مُدَمَّمٌ
سَقَّتْ كلَّ قلبٍ كلَّ يومٍ مَشَارِبًا
وما الأرضُ إلا قَفْرَةٌ زارتُ بها
لها كلَّ يومٍ بيننا كلُّ منذرٍ
تُنَبِّها بعضًا ببعضٍ فننشني
خَلَّتْ دونها سُمُّ الحصون فلم تكن
وأصبحَ مَنْ قد كان يُرْهَبُ بأُسِهِ
ترابٌ من الأرض استوى تحت صورة

ولم ننتفع بالحزن فالصبرُ أحزمٌ
لديه جَزُوعٌ في الأسي ومسلَّمٌ
إذا كان ما نبغيه ما ليس يُغَنِّمُ
يهونُ لديه الرُّزءُ وهو مقدَّمٌ

إذا ما دُفِعْنَا لسببية مرةً
جرى قَبْدُ المولى بما شاء واستوى
وليس لنا من مطمعٍ فات نَيْلُهُ
وما كان ما لا بُدَّ منه مؤخراً

(١) وردت هذه القصيدة في كتاب عيسى سابا ص ٤٣ بعنوان عبرة الأقلام على أنها في رثاء الأمير محمد أرسلان وقد توفي في القسطنطينية.

وما الفرقُ في الحالين إلا هُنيئُهُ
ومن قوله في الحكم أيضًا:

وإنما نحن في داءٍ إذا اعتبرت
في كل يوم أناسٌ فوقها فجعوا
بشس الحياة التي ما زال واردها
حالان إحداهما مملوءة حذرًا
ليست سوى ماتم ناحت به البشرُ
على أناس طوتهم تحتها الحفرُ
يمازج الورد في كاساته الصَّدْرُ
مما يليها وأخرى فاتها الحذرُ

قال في مصير الأرض من مقالة: «واعتبرت ذلك في الأرض وما يؤلف أديمها من الجواهر، ويشتمل عليه جوها من العناصر، وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء، والحيوان السارح على وجه الغبراء، والسابح في لجتي الماء والهواء، تجد هناك سلسلة يتصل أعلاها بأسفلها، ويتحول بعضها إلى بعض حتى يرتد آخرها إلى أولها، بل ترى الأرض نفسها عرضة للطبيعة، تغزوها بالسيول الجوارف والرياح النواسف، والأمواج التي تهاجم ثغورها، والزلازل التي تصدع صخورها، متعاقبة عليها ما تعاقب الليل والنهار، إلى أن يأتي يوم تنحل فيه الجبال، وترسب في درك البحار، ثم لا تزال المياه تسحل وجه الأرض حتى لا يبقى فيه أمت^(١) ولا انحناء، وحتى يغمرها الماء من كل ناحية، وقد عاد سطحها مستويًا تحت الماء كاستواء سطح الماء، فعادت كما كانت في أول خلقها. ماء غامر، وكون باثر، قد خلا من عالمي البر والهواء، ولم يبق فيه من ذوات الحياة إلا عالم الماء.

هذا إذا لم تصب الأرض قبل ذلك بالهرم، وينضب ماؤها بعد خمود ما في باطنها من الضرم، ولم تتشرب هواءها فلا يتنفسه بعد ذلك نبات ولا حيوان، ولا يجد ذر جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران، على حد ما تم

(١) الأمت: المكان المرتفع، أو التلال الصغار، والانخفاض والارتفاع، والاختلاف في الشيء.

ذلك في القمر، حتى لم يبق فيه وشل^(١) لمرتاد، وحتى تجرد من ثوب هوائه أو كاد، وحتى أصبح فقراً هامداً لا ينبت عليه شجر، ولا يتنفس فيه دابة ولا بشر، بل لو بقي هواء الأرض وهو خال من بخار الماء لجمد البر وسطحها تجميداً، وانقبض الأحياء من وجهه حيث يقع شعاع الشمس عموداً، ثم لا يزال بساطهم يزداد ضيقاً على توالي الحقب إلى أن تموت آخر عشيرة منهم بالبرد والسغب^(٢)، فتدقها الثلوج حيث لا تنكشف رممها إلا يوم التلاقي، وتخط يد القضاء على أديم الأرض «سبحان الحي الباقي».

وهذا إذا لم تهرم الشمس فتقلب نارها برداً، ولكنه برد بغير سلام، فهتيم السيارات والآثار من حولها في فضاء من الزمهرير والظلام، ويومئذ لا ييزغ الصباح فيذهب آفاق المشرق، ولا يقبل الماء فيخيم على أرجائه بجيشه المطبق، ولا يكون إذ ذاك كسوف ولا خسوف، ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف، ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالأمس، وقد التف بكفن من الثلج فأوته منها إلى مثل ظلمة الرمس، ويومئذ تتجمد البحار فلا يكون موج يتنفس، ولا سحب ينبجس، ولا سيل يتدفق، ولا جدول يترقق، وتركد حركة الهواء، فلا تهب شمال ولا صبا^(٣)، ولا تجري نسمة على الوهاد والريى، وأنى والشمس مصدر الحركة في العوالم، وقوام الحياة لكل قائم، فإذا هبت الريح فالشمس هي التي تهب، وإذا دبت النسم فالشمس هي التي تدب، وإذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر، وإذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر. ألا وهي الشمس التي تجري في الأنهار، وهي التي تغرد في الأطيار، وهي التي تزهر في الرياض، وهي التي يسمع حفيفها في الغياض، وعلى

(١) الوشل: الماء القليل أو الكثير (ضد).

(٢) السغب: الجوع.

(٣) الشمال: ريح تهب من الشمال. والصبا: ريح تهب من مطلع الشمس عند استواء الليل والنهار.

الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها، وإذا ماتت الأفئدة فمحال أن تعيش أجسادها» ا. هـ.

وبعد، فلم ينبغ في لبنان أكتُب من الشيخ فيما أعتقد، ولا أجزلُ حظًا منه في علوم البيان، وندر أن كملت لغيره ما كمل له من عبقرية صقلتها العناية أيّ صقل، ومن قام بواجبه في خدمة اللغة، وسلك كل طريق نافع إلى غرضه، فقد قال فيه الأستاذ الإمام محمد عبده: إنه أكتُب من أديب بكثير، بل هو أكتب المعاصرين فيما أرى. وناهيك بها من شهادة. وقال فيه الأستاذ شيخو: إن كلامه يظهر لقارئه كأنه المرآة الصقيلة أو الماء الزلال، فكان لا يزال يردد النظر فيما كتب وينقحه مرارًا حتى يخرج منه كالبُرد القشيب والخميلة الناعمة.

وقال الأستاذ عبود: «إن إنشاء الشيخ ليس بالإنشاء المنمق العالي إذا استثنيا صدر مقالتي الزهرة والقمر، وفيهما ظهر أنه نائر فني من الطراز الأول، فخياله طريف فيهما، وسجعه أنيق ظريف، كأنه الشعر أو فوق الكثير من الشعر، وقد كتب جُلّ نثره بأسلوب العلماء والمؤرخين والكتاب الاجتماعيين، وتضلعه من اللغة، وإدراكه أسرارها أدى به إلى العدول عن المجاز. وله فضل على النهضة بتعابيره الصحيحة، وكان له أبعث الأثر في توجيه كُتّاب النهضة نحو الكلام الصحيح السليم، ولئن كان في إنشائه جفاف أساليب العلماء فلا تنس أن فيه صحة وشدة أسر».

كان سميت الشيخ سميت العلماء، وعلى جانبٍ عظيم من الوقار، تقرأ في طلعت جلال العلم وجمال الأدب، وتحس في كلامه كأنك في مجلس فنان، أفنى أيامه في التحقيق والتدقيق: عقل عالم، وحكمة حكيم، وعين فنان، وذوق شاعرٍ.

كان الشيخ مأخوذًا بعلمه، مخلصًا له، لم يتعلق من الحياة بغير المعنويات، دار حياته في دائرة ما حدثته نفسه أن يتخطاها قيّد أنملة، فلم يخرج فيها عن نشر العلم والآداب، وخدم لغة القرآن خدمةً لم يوفق إلى أكثر

منها أكبر علماء الإسلام. وعاش مُقْبَلًا متقشفًا لم يطرق أبواب الملوك، ولا قصد رجال المال ليستعين بهم على ما يضطلع به، ومع أنه سبق للدولة المصرية قبله أن عاونت اللبنانيين العظميين بطرس البستاني وأحمد فارس من رجال النهضة الأولى، فهو لم يجد من حكومة مصر العربية عونًا، وغفل أغنياء المصريين والشاميين عن الأخذ بيده، وكان يشير في الأحيان إلى هذا النقص في أخلاق الأمة ويردد: أن الأغنياء وأرباب الشأن بمعزلٍ عن نشدان المطالب العالية والمشاركة في الأمور النافعة.

عاش الشيخ عزيز النفس، وما أسفت إلى ما أسفت [إليه] أكثر علماء عصره، ومات لم يتزوج ولم يعرف سعادة البيوت وعطف الولد، ومن أغرب ما يسجل: أن حكومة لبنان اقترحت عليه أن توليه «قائم مقام»^(١) على زحلة، وهو عملٌ يقوم به بعض تلاميذه، على أنه لم يخلق للإدارة ولا للسياسة، وكافأته الجالية السورية في البرازيل بعد وفاته بأن صنعت له تماثلاً نصبته بيروت، في إحدى ساحاتها.

قلت فيه يوم نعيته في جريدة «المؤيد»: «قضى حياة المتعلم والمعلم والعالم على أكمل وجوهاها. وبرز خاصة في علوم العربية على أقرانه فَعُدَّ من أحاد زمانه. نشأ في بيتٍ كان ربه يتغنى ليله ونهاره بالشعر والأدب، فشب وشاب فيما نشأ عليه وأنشئ له. وناهيك بمن يرضع اللغة من صغره، ويعاني الأدب في جميع أدواره، لا يصل إلى سمعه غيره، ولا تقع عينه على ما سواه، والجميع مستحسن له ومصفق ومؤمَّن على أقواله ومصدق... ولا بد لمن يَتَمَحَّصُ للانتقاد أن يلاقِي ما لقي الشيخ اليازجي فيصاب ويصيب. والناس لم يألفوا الانتقاد، وكان أكثر المتقدمين يعدون الانتقاد ثلماً لشرفهم وإسقاطاً لأقدارهم، والناقد كيفما كانت الحال لا تصفو له القلوب»^(٢).

(١) منصب إداري يشغله من يدير أمور منطقة تشتمل على عدة قرى، ويقابله اليوم منصب «مدير المنطقة».

(٢) توفي بحلولان، وتحدث عن جنازته شاهين القرزي في كتابه (ذكريات) وأقيم له تماثل وضع =



أحمد الإسكندري (١)

١٢٩٢ - ١٣٥٧هـ

١٨٧٥ - ١٩٣٨م

ولد أحمد الإسكندري في مدينة الإسكندرية في ٢٦ شباط سنة ١٨٧٥، وبعد أن حفظ القرآن التحق بالمعهد الديني بالإسكندرية. ولما لم تشبعه مناهج التدريس أخذ يقرأ الكتب التي تقع تحت يده، فأولع بالأدب، وقرض الشعر، ورأى الأفق العلمي في الإسكندرية محدودًا فرغب في النزوح إلى القاهرة، فلم يوافق والده مع أنه كان يتعهده بالتعلم، فصمم على الرحلة، وجمع كتبه وحزمها، وخرج في غفلة من أهل الدار، وليس في جيبه إلا دريهمات، وركب مركبًا في ترعة المحمودية بلغ به كفر الزيات، وهنا نَفِدَ زَأْهُ ودريماته، فحمل كتبه على ظهره ومشى على قدميه حتى وصل القاهرة والتحق بالأزهر.

وفي سنة ١٨٩٤ دخل دار العلوم وهو أصغر زملائه سنًا، وكان من عادة المدرسة يومئذ أن تعقد في أول كل سنة دراسية اختبارًا عامًا لطلبة المدرسة

= عليه شيخ العربية إكليلاً من الزهور سنة ١٩٢٦ (انظر كتاب ذكريات وكتاب أحمد زكي لأنور الجندي).

(١) ترجمته في الأعلام ١٧٧/١ معجم المؤلفين ١٤/٢ وانظر معجم المطبوعات ٣٩٤، ٤٣٨ ومقالاته في مجلة المجمع العلمي، المجلد ٧ ص ٢٦٣، ٣٢٦ و٤٢١/٩، ٤٦١، ٤٦١/١١، ٤٣٩ وغيرها.

في كتب تعينها لهم وتختبر درجتهم في المعلومات العامة، فكان الإسكندري كل عام فارس الحلبة فتخصه المدرسة بجوائزها.

تَخَرَّجَ في دار العلوم سنة ١٨٩٨ واشتغل بالتدريس في المدارس الأميرية، ثم كان ناظرًا لمدرسة المعلمين في الفيوم فالمنصورة، وفي سنة ١٩٠٧ انتقل إلى دار العلوم لتدريس مادتي الإنشاء والأدب العربي.

وظل يزاول هذا العمل في تلك المدرسة زهاء سبعة وعشرين عامًا، ألف في أثنائها كتاب «الأدب العربي في العصر العباسي» وقد أجمع الأدباء على أنه كان المَعِين الذي استقى منه جميع من بحثوا في تاريخ الأدب بعده. وهو أول من اقترح تدريس فقه اللغة في دار العلوم، وكان غير معروفٍ من قبل في المدارس المصرية، فحمل عبء تدريسه. وقسمه قسمين: قسم فلسفي نظري يتعلق بنشأة اللغات والاشتقاق والنحت واختلاف اللهجات وغير ذلك، وقسم نظري يتناول وضع الألفاظ اللغوية للمسميات.

وفي سنة ١٩٢٢ عرض عليه كبيرٌ أن يزج بنفسه في المعترك السياسي فأبى إجابة مقترحه محتجًا بأن العلماء أحرى بهم ألا يكونوا ساسة. وجميع من تخرجوا في دار العلوم من سنة ١٩٠٧ إلى ١٩٣٤ تَلَمَّذُوا له ما عدا فرقتين ثنتين.

وفي سنة ١٩٣٣ عين أستاذًا للأدب العربي في قسم اللغة العربية بكلية الآداب، وكان في المكتب الفني عضوًا عاملاً، واشترك في وضع مناهج اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية، وفي مراجعة الكتب العربية لهذه المدارس. ولما أنشئ المجمع اللغوي الملكي في ١٣ كانون الأول سنة ١٩٣٢ وقع عليه الاختيار ليكون فيه عضوًا. ومن يراجع محاضر جلسات المجمع في سنواته الخمس يجد أنه كان المحور الذي تدور عليه المقترحات والمناقشات، ولقد ساهم في أكثر اللجان الفرعية فكان عضوًا في سبع لجانٍ من إحدى عشرة لجنة.

كان يحب العربية ويتعصب لها تَعَصُّبًا شديدًا، ويعتبر التساهل وفتح الباب للغات الأجنبية لغزو اللغة العربية جريمة شنعاء، ويعجب ممن يعيون على المجمع استعمال ألفاظ غريبة لمسميات جديدة، لأنه كان يرى أن هذه الألفاظ وإن بدت غريبة الآن، فإنها بالاستعمال تسهل على السمع وتجري على اللسان. هكذا كان يجاهد جهادًا شديدًا حتى وافق المجمع على عدم اللجوء إلى التعريب إلا لضرورة قصوى.

قال فيه أحد من ترجم له: «كان يعتقد أن اللغة جسم يمكن أن ينمو ويربو بوسائله الذاتية من غير لقاح أو غذاء خارجي. فتعلق بفكرة أن اللغة العربية لغة اشتقاق لا غير. ثم قَصَرَ إجازة الاشتقاق على الصيغ القياسية، والمقصود بالصيغ القياسية تلك الصيغ التي ورد فيها كثير من الكلمات المصوغة على وزانها. أما الصيغ الأخرى وهي الأكثرية الكبرى فكان يقول على مذهب قدامى اللغويين أنها صيغ سماعية، أي تُسمع عن العرب فقط ولكن لا يقاس عليها. بذلك تحصر الدائرة وتضييق، ويصبح وضع المصطلحات العلمية وأسماء الشؤون العامة مقتصرًا على استخدام وسيلة واحدة هي الاشتقاق من الصيغ القياسية في اللغة. هذا إلى جانب المجاز، وهو أن يوضع لفظ استعمال لمعنى قديم ليؤدى معنى جديدًا تجوُّزًا لعلاقة بين المعنيين، سواء كانت العلاقة كبيرة أو صغيرة».

«كان من مذهبه في اللغة أن الفصحى من كلام العرب وحده هو الذي يحق له البقاء، أما ما دون ذلك فدخيل لا حق له في الحياة أو البقاء. ومعنى الفصحى عنده: ما نقل عن العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري قبل أن يولد المولودون في اللغة شيئًا، وقبل أن تختلط اللغة الفصحى بعجمة العناصر البعيدة عن العربية السليمة. ولقد يسلم بنا هذا القول إلى أن اللغة العربية ملك للعرب، وليس للعرب عامة، وإنما للعرب الذين عاشوا إلى نهاية القرن الثالث الهجري. ذلك في حين أن الثابت على مقتضى حكمة النشوء والارتقاء

أن اللغة ملك لمن يتكلمونها ويستعملونها ويتخذونها أداة للتفاهم، تنمو بنماتهم وتتطور بتطورهم، وتصب في القوالب التي تدعو الحاجة إليها. والواقع أن لكل زمان حاجاته، وأن من التحكم أن نلزم تلك الأساليب التي انتحها أسلافنا كأننا غير مخلوقين لزمانٍ بعيدٍ عن زمانهم عشرات القرون».

أول مؤلفاته «تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي» ثم ألف كتابًا في اللهجات العامة قدمه لمؤتمر المستشرقين سنة ١٩١١ ثم كتابًا للمطالعة في المدارس الثانوية وسماه «نزهة القارئ»^(١)، ثم كتابًا جامعًا في الأدب العربي في جميع عصوره لم يطبع. وله مؤلفات في هذه اللغة، واشترك مع غيره في وضع كتب مدرسية في التاريخ العام وتاريخ الأدب والنصوص الأدبية. وفي سنة ١٩١١ سافر إلى مؤتمر المستشرقين في اليونان بصحبة الأمير فؤاد (الملك فؤاد الأول) وأحمد شوقي وأحمد زكي وحفني ناصف وغيرهم.

هذا غاية ما دُوّن من حياة الشيخ الإسكندري. وقد كُتِب لي أن عرفته وصحبته من سنة ١٩٠١، وكانت اجتماعاتنا تتوالى وتجري مذاكراتنا غالبًا في شؤون تعود علينا وعلى الناس بالنفع. وكان الجِدُّ يتجلى فيه ما أَحَبَّ غيره.

كان مثال رجل يحسن القيام بالواجب، وبلغ في الإخلاص بعلمه وعمله غاياته. أخلص في تلقي العلم، وأخلص في تلقيه ونشره فعدَّ حقًا من أركان نهضة العربية الأخيرة، وكل تلاميذه - ويُعدُّون بالمئات - معجبون بعلمه وأخلاقه، ذلك لأنه كان من الأساتذة الذين يجب^(*) أن يُخرَج الناشئة بأقصر وقت من أقصر طريق. كان على وداعة ظاهرة وتواضع محمود، بريئًا من الدعوى، يحسن الدفاع عما اعتقد صحته من القضايا العلمية، لا يصانع ولا يدالس، أحسن تهذيب نفسه وتهذيب من وُكِّلَ إليه أمرٌ تهذيبهم ليتولوا بعده تهذيب أبناء وطنهم. ولما انتخب عضوًا في مجمع فؤاد الأول للغة العربية كان

(١) طبع.

(*) الوجه أن يقال - لتستقيم العبارة - ... الذين يزؤون أن ... (المراجع).

لسأته وألسنة رُصفائه: العوامري ووالي وحمروش والجارم أطلق ألسنة اعتادوا الكلام أكثر من اعتيادهم حمل الأقلام، وذلك لمرانهم على الإلقاء منذ أن كانوا يتولون التدريس، وما كان ينقصهم إلا معرفتهم لغة غريبة ليتدبروا بأنفسهم أصل وضع اللفظ الذي يراد وضع مسمى له.

ويعد من مزايا الإسكندري: أنه ما خرج عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ كان غلاماً، وهجر دار أبيه في الإسكندرية ليطلب العلم في أزهر القاهرة، سار على وتيرة واحدة ما غير فيها ولا بدّل، ولا طمع بمالٍ ولا حدثه نفسه بمظهرٍ من المظاهر. وكان يعد السعادة ما هو فيه، ولسان حاله: أنه سعى فنجح سعيه وجدّ فنال ثمرة جده، وكان يخيل إلي أن صديقي لو سمع بأن في الصين رجلاً يخدم اللغة العربية لتقدم وعقد معه صلات ليعاونه فيما هو بسيله.

حدث مرة أن ألفت المجمع اللغوي لجنة للنظر في تعريف الأعلام الجغرافية فلما لم ير اسمي من أعضائها قام والغضب أخذ منه، وأقسم بالله أن كتابي «خطط الشام» أرقى من خطط المقرئزي، فمن يؤلف مثل «خطط الشام» كيف لا يضم إلى لجنة تبحث في الجغرافية، فبادرت وشكرته على حسن ظنه، ولم أقبل مشاركة اللجنة، واكتفيت بأن صححت لها مخطط الشام وكان محرّفاً تحريفاً مخجلاً، ولم أرض أن يذكر اسمي في المحضر بأنني صححت هذه الأعلام. ذكرت هذه القصة مثلاً من غيرة الشيخ الإسكندري على العلم وإنصافه بإنصاف المشتغلين به.

اختاره المجمع العلمي العربي^(١) عضواً مراسلاً فأكبر هذه الإشادة وعمد إلى مؤازرة مجلته بقدر ما اتسع له وقته على ما لم يفعل بعضه أكثر الأعضاء المصريين. ومما نشره في مجلة المجمع بحث مستوفى في حياة ابن خلدون

(١) بدمشق.

وفلسفته وتأكيّفه، وآخر في ابن خفاجة الأندلسي، وثالث في صفّي الدين الحلّي، ورابع في أثر الأدب الغربي في شعر شوقي.

كانت تأكيّف الإسكندري محصورة في تعليم الآداب العربيّة خاصّة وما تعداها إلى موضوعات أخرى. وهذا مما يعد أيضًا في باب غيرته على خدمة اللغة من طريقها الموصل المعبد. فاللغة هي التي دار في دائرتها الواسعة منذ جلس على مقعد التدريس، وما كان يلتفت إلى معالجة أبحاث غيرها.

ونثره النثر المرسل الخالي من التكلف، الحالي بالسلاسة، وما ترك له التدريس وقتًا يصرفه في الشعر، وإن علّمه ونقده وعرف جيده من رديئه، وخرج من تحت يده شعراء وكتاب وأساتذة يحق له أن يفاخر بهم، ويحق لهم بأن يفاخروا بالأخذ عنه.





أحمد تيمور^(١)

١٢٨٨ - ١٣٤٨هـ

١٨٧١ - ١٩٣٠م

كان جد أحمد تيمور من أكراد الموصل، جاء مصر وجدَّ أمير الشعراء أحمد شوقي بوصاية من والي عكا إلى محمد علي الكبير، فارتقى في وظائف الدولة، وأخلص الخدمة حتى أصبح من قواد صاحب مصر، وغدا ابنه بعده رئيس الديوان الخديوي، وخلف ثروة لا بأس بها، ومات وأحمد طفل، وكان وُلد سنة ١٢٨٨ فكفلته أخته عائشة التيمورية^(٢) الشاعرة المشهورة. ودرس في بيته مبادئ العربية والفرنسية والتركية والفارسية، ثم أدخل مدرسة

(١) نشر هذا البحث في جريدة الأهرام المصرية ١٩٥٧ للسنة ٦٤ تاريخ ١٠ ذي القعدة ١٢٥٦ الموافق ١٢ / ١ / ١٩٣٨م وهو محاضرة كان قد ألقاها في قاعة يورث التذكارية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

ترجمته في الأعلام ١/ ٩٥، ومعجم المؤلفين ١/ ١٦٦ وانظر معجم المطبوعات ٦٥٢ ومقدمة طه حسين لكتاب (أوهام شعراء العرب) وكذلك مقدمة خليل ثابت، ومرآة العصر ٢/ ٣٢٩ وانظر أيضًا مجلة المجمع العلمي ٢/ ١٤٧، ٢٨٩، ٣٢١، ٤٠/٩، ١٦٠ ففيها مقالات له.

وفي مجلة العربي العدد الرابع لسنة ١٩٧٤ مقال بعنوان: مجالس أحمد تيمور لأحمد الجندي.

(٢) شاعرة أديبة من نوايح مصر، كانت تنظم الشعر بالعربية والتركية والفارسية توفيت سنة ١٣٢٠هـ، ١٩٠٢م من مؤلفاتها: حلية الطراز (ديوان شعرها العربي)، نتائج الأحوال (في الأدب)، وكشوفة (ديوان شعرها التركي). (الأعلام ٤/ ٥ - ٦).

مارسيل الفرنسية، وكانت خاصة بأبناء الأعيان، ففضى فيها خمس سنين أتقن خلالها اللغة الفرنسية وأخذ العلوم اللسانية والدينية والعقلية من علماء عصره، ومنهم الشيخ رضوان المخلاطي، ولازم الشيخ حسن الطويل أعظم علماء عصره اثنتي عشرة سنة، ثم لازم الشيخ العدوي والشيخ الهوريني والشيخ الحسيني، وأخذ عن الشيخ محمود التركي الشنقيطي وعن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وصحب العلامة الشيخ طاهر الجزائري ثلاث عشرة سنة.

تخرج أحمد بهؤلاء الأعلام فجمع بين الثقافتين، وربما زادت ثقافته العربية على ثقافته الغربية، فقد استخدم ثقافته العربية طول حياته، وما كانت ثقافته الغربية التي تتفقهها في صباه إلا خادمة للثقافة الأخرى، وقلما نماها في كبره. ونشأ متديناً تقياً عطوفاً على الفقراء، باراً بالضعفاء، يقيم الصلوات ويمارس شعائر الإسلام، ويتصدق في السر تقريباً إلى الله واحتساباً، يعطي من حُرِّ ماله المئات من الجنيهات، وهو مع ذلك يرمى بالبخل.

لم يطمح أحمد تيمور في خدمة الدولة على النحو الذي كان عليه أبوه وجده، بل شغل نفسه بتهذيبها وتعليمها، فكان كل يوم من أيام صباه يزداد علماً ومعرفة، ولما كان من خلقه الابتعاد عن الناس، لم يجد حبُّ الظهور والتمجد والتعظيم مكاناً من قلبه. طمحت نفسه إلى ما هو أسمى من كل هذه المظاهر، طمحت إلى أن يكون عالماً باحثاً، وخادماً أميناً لأمته وتاريخها وأدبها، معالجاً أمراضها بدرياق العلم وبلسم الفضائل. والمرء حيث وضعته فطرته وبيته.

نشأ غرام أحمد تيمور بالكتب وهو طفل في المدرسة، وبدأ باقتناء المطبوعات، وما لبث أن أخذ يبتاع المخطوطات، ثم توفر على اقتناء كل مهم يقع له من الكتب المخطوطة، فيشتريها ويطالعها، ويعلق عليها ويفهرسها ويوبوها، حتى كانت في نظامها وفهارسها غاية في الإحكام. وترك بأخرة خزائنه وفيها ثلاثة عشر ألف مجلد، نصفها مخطوط، وقد حوت من النوادر الشيء

الكثير، ومنها ما هو بخطوط مؤلفيها، أو مما قرىء عليهم وأجازوه، ومنها ما أخذه بالتصوير الشمسي من خزائن أوروبا أو استنسخه من خزائن الشرق. عمل في هذه الخزانة سنين طويلة ثم أوصى بأن تكون وقفًا على أمته لتستفيد منها كما استفاد هو، وكان منذ جمعها لا يضمن على باحث ولا طابع ولا ناشر من أبناء الشرق والغرب بإعارته ما يريد إذا أيقن أنه يفيد منها ويستفيد.

ومن مكارم أخلاقه: أنه قد يعير المخطوط وهو في حاجة إلى أن يكون عنده. وقد يعرض له إشكال يقتضيه الرجوع إلى ذلك السُّفر فيذهب بنفسه للمراجعة فيه عند من أعاره إياه، ولا يُجوز أن يقول له أعد إلي كتابي فقد طال مكثه عندك. وكرمه في هذا الباب ظاهر، وهو لخدمة العلم يخاطر بأعز الأشياء على قلبه. وقد يعادل ثمن المخطوط وزنه تبرًا.

أريد أن أتوسع في أخلاق صاحبي؛ لأنها هي موضع العجب، كما هو مثال يعجب به لعلمه وبحثه، شهادته منذ تشرفت بزيارته بدرج سعادة^(١)، ثم في داره في عين شمس وفي الحلمية وفي الزمالك عزوفًا عن بعض الناس، يحنط فلا يتهور في اصطحاب من لا يعرف ماضيه وحاضره، ويكره طبعًا وتطبعًا كل من وقع في نفسه أنهم زاغوا عن محجة الدين، ووجد الإلحاد إلى قلوبهم سيلاً، وكل من وصم بهذه الوصمة ضَعُفَ حظُه من صداقته، وصان مجلسه عن ذكر اسمه.

ولما شاعت دعوة أنصار القديم والحديث، ودعوة الرجوع إلى الفرعونية والزهد في كل ما هو عربي، آلى على نفسه ألا يطالع من الجرائد إلا جريدة الأخبار لصاحبها أمين الرافعي رحمته الله، لأنها تدافع عن الإسلام، وتقاوم الإلحاد المعبر عنه في لسان العصر بالجمود أو الرجعية. ولما تعرض صديقه أحمد زكي باشا للمأمون وغمزه، أخذ يعالجه بالوسائط المنوعة حتى اعتدل وعاد

(١) أحد أحياء القاهرة.

للانتصار للعرب ومدنيتهم قائلًا: إنه لا سبيل إليه إلا أن يعود إلى سيرته الأولى التي لم ينل شهرته إلا بها. ولما سمي البرلمان بمصر باسم إفرنجي وعدلوا عن تسميته بدار الندوة أسف أن سُمِّي أكبر مظهرٍ من مظاهر الاستقلال باسم أعجمي مع وجود الاسم العربي عند العرب من زمن الجاهلية.

كان من عادته أن يتبسط في الحديث مع خاصته تبسطًا لا يخرج عنه حدود الأدب والدعابة البريئة والنكات والتنادر، ثم ينقلب إلى البحث في الكتب مطبوعها ومخطوطها، وفي المؤلفين وما يؤلفون، وفي الكتاب وما يكتبون. يخوض في كل ذلك من الجد بذوق وشوق وتقدير وإنصاف. ويهتم كثيرًا بأمر المسلمين والإسلام والعرب والعربية، لا يخص مصر فقط بعنايته، بل يُعنى بسياسة غيرها عنايته بسياستها.

وكان غرامه بصداقه رجال العلم والأدب من أهل عصره على اختلاف مذاهبهم، يوازي غرامه بكتب علماء السلف، فهو يحب الأحياء كما يحب الموتى، ولما سكن الإمام محمد عبده في عين شمس اتخذ دارًا في جواره مدة، ونقل إليها خزانة كتبه. فلما انتقل الإمام إلى جوار ربه اسودّت الدار في عينيه فانتقل إلى جهةٍ أخرى، وعرض دار عين شمس للبيع، وبادر فنقل خزانته إلى إحدى مزارعه في قويسنا من عمل المنوفية، وكانت هذه المزرعة محببة إلى أبيه وأمه، فنشأ هو على حبها أكثر من جميع ضياعه. ولما ذكرت له ما ربما يصيب خزانته من الحريق وهي بالقرب من مساكن الفلاحين والقصب في سفوف دورهم، طمّني بأنه ابتاع أرضًا في الزمالك، وأنه ينوي أن ينشئ فيها دارًا لخزانة كتبه. وبعد أن أنجز بناءها نقلها من قويسنا وقضى فيها بقية أيامه، وكانت داره هذه كسائر الدور التي سكنها من قبل أرباب القرائح والعبقرية. ومن خلقه: أن يشارك أصحابه في سعادتهم وشقائهم، ويرمضه^(١) أمرهم إذا نزلت بهم نازلة، وكان الوفاء لأصحابه من أيسر صفاته.

(١) أرمضه: أوجعه واحرقه.

قلنا: إنه كان يتصدق في السر بأن يجري مشاهرات على من قعد بهم الدهر عن الاكتساب، ويفضل على بيوت كثيرة من المحاويج المساتير، ويدر عليهم رواتب مقررة تأتيهم في بيوتهم رأس كل شهر، ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه إذاعة ما تجود به نفسه، لذلك أخذ العهود على من كان يعطيهم ما يقوم بأودهم ألاً^(*) يذكروا أنهم يرزقون منه. ولما باح أحدهم بالسر لضغط شديد وقع عليه شق ذلك على هذا المحسن فقطع المشاهرات والإدرات كلها متظاهراً بالضائقة، وعاد بعد مدة يرسل بواسطة المصرف حوالات مالية بأسمائهم وهم لا يعرفون مصدرها، بل إن المصرف نفسه لا يعرف حقيقة اسم المرسل، ولذلك صح لنا أن نقول: إنه كان لا ينفق ماله على غير العلم وعمل الخير، وبالغ في كتمان صدقاته حتى لا تدري شماله بما فعلت يمينه، وكان أطيانه^(١) تزيد، وريعها ينمو، ونعمته تفشو مع هذا البذل الكثير.

ولئن كانت أحداث الأيام قد تفرق بيننا بعض السنين، لا سيما زمن الحرب العامة، فما استطاعت أن تفرقنا بالمراسلة. وعندي من رسائله أكثر من مئة وأربعين رسالة هي في خزانتي أجمل ذخر وذكرى، وفيها صورة من علمه وأدبه وخلقه ومنازعه ومراميه. وقد جاء في بعضها كلام جميل يجدر اقتباسه؛ لأنه صادر من صديق إلى صديق يبوح له أبداً بذات نفسه، فمنها ما كتبه عندما وُجِّهت إليه رتبة الباشوية، وكيف ضاق صدره بها، وضاق صدره أيضاً لما صدر الأمر الملكي بتعيينه عضواً في مجلس الشيوخ، وحاول أن يستقيل غير مرة لولا حرصه على رضا الملك فؤاد الأول تَعَالَى الذي أنعم عليه بالرتبة والعضوية بدون توسط أحد. دعاه إلى هذا التشريف فرط محبته لتيمور وتقديره لنبله وفضله.

تولى أحمد تيمور أعمالاً علمية عامة كانت في نظره الذ من كل مظهر:

(*) يريد: «... العهد على من يقوم بإعالتهم الآ...»، لأن الأود: العوج (المراجع).

(١) أي ما يملك من الأراضي، وهي في اللغة المصرية الدارجة.

كان عضوًا في مجلس دار الكتب المصرية، وعضوًا في المجمع المصري، وعضوًا في المجمع العلمي العربي^(١)، وقد خدم هذه المجالس والمجالس خدماتٍ جليلة، وأحسن إلى مجمع دمشق أنواع الإحسان بمقالاته وأبحاثه التي نشرها في مجلته، وبإهداء أمهاتٍ من المخطوطات المصورة إليه، وبمنحه مجموعة نفيسة جدًا من النقود الذهبية والفضية والنحاسية والزجاجية انتهت إليه من جده وأبيه، وهي اليوم في متحف عاصمة الشام، تنادي بلسان الحال: أن أحمد تيمور كان يعطف على كل بلدٍ عربي عطفه على مصر، وما أنشئت خزانة كتبٍ في بلاد الشرق إلا كانت هدايا أحمد تيمور إليها أسبق الهدايا، وتنشيطه للقائمين بها أبلغ تنشيط.

قلنا: إنه كان عزوفًا عن الناس، يؤثر العزلة، وكان يود لو مكنته أعماله في القاهرة من الانقطاع إلى مزرعته في قويسنا، يأنس بجانب خزانتها، ويستخرج فوائدها لقومه. ثم إن هذا كان من الصعب عليه أيضًا؛ لأنه كان على عزوفه ألوفاً يألف من تربطه بهم وحدة الفكر ووحدة الروح. كتب إليّ في رجب ١٣٣٨هـ يقول: «وقد كان سيدنا وأستاذنا الشيخ طاهر الجزائري - رحمه الله ورضي عنه - مفزعي الوحيد عندما أكون في القاهرة، فشاء القدر أن يفجعنا به ولا يبقى لنا من تلك الأيام إلا الذكرى المؤلمة والأسف المتواصل. حالنا يا سيدي الأخ عجيب غريب في هذا التطور الجديد، فقد أصبحت العامة والخاصة، الجهال والعلماء في مستوى واحد من الآراء. ونعمت - والله - الحالة لولا أنه عمل صالح مرفوع إلى أسفل، ونتيجة منطقية تابعة للأخس من المقدمين، فقل لي، بعيشك، أي أنس في الاجتماع، وأية لذّة في المخالطة، وقد أصبح من المنتحتم على المرء قبول كل ما يقال على تغييره وتناقضه كل يوم، وإلا فالويل له ثم الويل، ولهذا: تراني في أكثر أوقاتي جانحًا إلى وحدتي بقويسنا، مكتفيًا بمنادمة كتي...».

وكتب في رسالة: «أما الأحوال العامة فسيدي عالم بها من الجرائد الضالة المضلة، والمصير مجهول، والله لطيف بعباده».

ولما أنشئ المجمع اللغوي الأول في مصر، وانضم إلى أعضائه كتب: «أنه انضم إليه من هب ودب، وأنه أميل إلى التشاؤم بعد أن سمع اقتراحات بعضهم بضم أشخاص اشتهروا بانتصارهم للعجمة، وفتح الصدر لكل دخيل» هذه صورة صغيرة من منازع أحمد تيمور وأخلاقه. بقي علينا أن نلّم الإمامة خفيفة بتأليفه، وبها تتبين صورة علمه وأدبه. فأهم ما كتب: «معجم الألفاظ العامة المصرية» بيّن فيه أصول تلك الألفاظ واشتقاقها وما يرادفها من الفصح، وهو من أفيد التأليف، يدل على تبحر مترجمنا في اللغة، وعلى بعد غوره في فنونها. وهو لم يطبع.

ومن تأليفه المطبوعة: «تصحيح أغلاط القاموس المحيط» و«تصحيح أغلاط لسان العرب» وهي رسائل تدل على دؤوبه وعبقريته ومعرفته الواسعة باللغة. هي بضع رسائل. وتعد من أهم الكتب، وقيمة التأليف بفائدتها وإمتاعها لا بطولها وعرضها وثقل حجمها وكثرة أوراقها. ومن كتبه المطبوعة: رسالة في اليزيدية، وأخرى في حدوث المذاهب الأربعة، وثالثة في العلم العثماني، ورابعة في قبر السيوطي، وخامسة في أبي العلاء المعري وعقيدته، وسادسة في الحلقة المفقودة في تاريخ مصر، وسابعة في الألقاب والرتب وغير ذلك.

ومما لم يطبع، أو طبع في إحدى المجلات العلمية «طبقات المهندسين»^(١) ألفه باقتراحي من إجابة لرجائي، وكنت آسف أن تضيع تراجم أولئك العظماء الذين خلفوا لنا هذه المصانع والعاديّات، وما رأيت أقدر من أحمد تيمور على وضع كتاب في سببهم.

(١) نشر أكثره في مجلة (الهندسة) بمصر. ثم زاد فيه وأفرده في جزء لطيف طبع بعد وفاته بمصر سنة ١٩٥٧ بعنوان: (أعلام المهندسين في الإسلام).

ومن رسائله: التصوير عند العرب، والأمثال العامية، وهي خمسة آلاف مثل عامي، ولعب العرب، ونقد القسم التاريخي من «دائرة معارف فريد وجدي» وذيل طبقات الأطباء، والآثار النبوية، ومفتاح الخزانة للبغدادي، وأعيان الشرق في القرن الثالث عشر، جعله ذيلًا لسلك الدرر للمرادي^(١)، ثم ألحقه بذيل في تراجم أعيان أوائل القرن الرابع عشر. ومنها: نوادر المسائل أو معجم الفوائد والبرقيات، وهي كلمات تؤدي كل منها معنى جملة كاملة. إلى غير ذلك من رسائله ومقالاته وتحقيقاته مما نشره في «المؤيد» والأهرام والمقتطف والضياء والمقتبس والهلال والهندسة والسلفية والآثار والزهراء ومجلة المجمع العلمي العربي ومنها ما نشر له بعد وفاته في «الرسالة» إلى ما كان يكتبه في المناسبات.

أما الكتب التي استرشد فيها العلماء والناشرون بأرائه فكثيرة جدًا، يتألف منها كتاب من أمتع الكتب في النقد والبحث، هذا إلى رسائله إلى علماء الشرق والغرب. وكان يكتب كل ذلك بيده، لا يعتمد فيه على كاتب أو مساعد، وهو سريع الإجابة على ما يرد عليه من الأسئلة، إلا إذا اقتضى الحال التعمق في البحث فإن جزازاته وتعليقه كانت متقنة يهتدي بها إلى ما يريد لساعته.

وبعد، فإني لا أعرف في بلاد العرب من أقصى شمالي إفريقية على البحر الأطلنطي إلى خليج فارس رجالًا جمع مثل هذه الصفات، وأحب العلم هذه المحبة الشديدة، وخدمه في نطاق طاقته هذه الخدمة، وهو في أصله من طبقة النبلاء وأرباب الثراء. فما أبطرته النعمة، ولا استهواه الغنى والجاه، وراح في كل أدوار حياته يبتعد عن الشهرة والشهرة تلحقه كعادتها مع من لا يتطلبها.

(١) في أعيان القرن الثاني عشر وهو في أربعة أجزاء والمرادي هو شيخ الإسلام محمد خليل بن علي بهاء الدين محمد المرادي مفتي الأحناف بدمشق توفي سنة ١٢٠٦هـ.

وربما كانت شهرته في البلاد الخارجة عن القطر المصري أوسع من شهرته هنا. وقد رأيت يتبرم بها ظاهرًا وباطنًا.

إن هذه الصيانة وهذه التقوى وهذا الرفق قلَّ حتى في رؤساء الدين مثله. هذا مع اتساع الفكر لكل جديد، وفتح الصدر لكل بحث إذا لم يصادم العقل فيه النقل.

كان إمامًا مدققًا في علوم اللغة والبيان، كاتبًا نقي العبارة، يكتب على أجمل ما يكتب نبغاء المؤلفين، لا تعمل ولا تصنع، يحيط بالتاريخ الإسلامي عامة وبتاريخ مصر خاصة إحاطةً واسعة، وقد رزق ذاكرة قوية، لا ينسى ما يقيد ولا ما لا يقيد، وغلب عليه التواضع، وتملكه الحياء، والحياء من الإيمان، فكأنه من جنس أولئك العلماء الذين ذكرهم الإمام محمد عبده يومًا في مجلسه، وكان ذلك فيما أذكر في دار أحمد تيمور بدرب سعادة، وقد سأله أحد الحضور أما آن لمصر أن تنشئ جامعة تخرج أبناءنا في العلوم بالعربية؟ فأجاب الأستاذ الإمام: حقًا لقد حان الوقت لذلك، ومتى تهيأت لنا الأسباب لتأسيسها نجلب، إن شاء الله، لتدريس بعض الفروع فيها أساتذة من سويسرا. فاستغرب أحد الحضور هذا التخصيص بالسويسريين، وسأل الأستاذ عن هذا السر فأجابه: نعم من سويسرا، ذلك لأن علماءها كالبنات العذارى إذا أحدقت(*) النظر في وجوههم أخذهم الحياء واحمروا خجلًا.

إن محصول الأستاذ أحمد تيمور في العلم لا يعد قليلًا إذا اعتبرنا جودة ما أتى به من الأبحاث، وإذا أدركنا أن التعليق على مخطوطاته استغرق جانبًا عظيمًا من وقته، وأن غرامه بالكتب كان يتقاضاه صرف الساعات الطويلة أيضًا، أكبرنا ما أتى به، خصوصًا إذا علمنا أنه كان يتولى كل أمرٍ بنفسه حتى كتابة الفهارس. ولو نبغ مثله عند أمةٍ غربية من الأمم الكبرى أو غيرها لكان

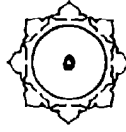
(*) هذا سهوٌ من الكاتب؛ لأن (أحدق) لا يأتي إلا لازمًا، يقال: (أحدق به القوم): أحاطوا.

ويقال: (حدق في وجوههم): شدّد النظر إليها (المراجع).

اسمه في كل لسان، ورسمه في كل عين، ولكن هو الشرق يكبر الصغير
ويصغر الكبير، وينسى رجاله أو يتناساهم؛ لأن الرجال فيه كُثُر، وقد يستفيض
شهرةً مَنْ لا يُحسِن، أكثرَ من استفاضة شهرة من يُحسِن، ولا يبجل في
الأغلب إلا من دجل ودلّس وعبث بعقول الناس، وكان وسطًا في قريحته^(١).



(١) انظر ما ورد فيه أيضًا أواخر ترجمة أحمد زكي القادمة. ومجلة المجمع، المجلد ١١ ص
١٢٩ ففيها محاضرة عنه للمؤلف.



أحمد زكي (١)

١٢٨٤ - ١٣٥٣هـ

١٨٦٧ - ١٩٢٤م

كان أحمد زكي إمامًا في التاريخ وعالمًا بأدب أمته، ومحكمًا أدب الإفرنج، وكان إلى ذلك خطيبًا مضقًا، ولد في المحرم سنة ١٢٨٤ بمدينة الإسكندرية، واختلف المترجمون في جده وأبيه، والإجماع على أنه من أصل مغربي رحل جده أو أبوه إلى يافا في فلسطين في التجارة، ثم انتقل إلى «رشيد»، إلا أن المترجم له كان يكتّم أن أباه ولد في يافا، وبعبارة أصرح: أنه فلسطيني الأصل. وكفله أخوه محمود رشاد، ودفعه إلى مدارس الحكومة حتى بلغت به خاتمة المطاف إلى مدرسة الحقوق، وكان اسمها مدرسة الإدارة في عهده. وظهرت أمارات النبوغ عليه منذ كان يدرس الدروس الابتدائية، ثم دخل في خدمة الحكومة بالمسابقة، ودخل أولاً مترجمًا في محافظة الإسماعيلية، ثم انتقل إلى قلم المطبوعات في وزارة الداخلية، حتى بلغ أمانة السر في مجلس النظار (١٨٨٩م) وأصبح في آخر أيام خدمته أمين سر هذا المجلس.

(١) ترجمته في الأعلام ١٢٢/١ ومعجم المؤلفين ٣٢٥/١ وانظر معجم المطبوعات: ١٧١
الراحلون: ٤٣ ومجلة المجمع مجلد ١٣ ص ٣٩٤ ومجلة العربي العدد الأول لسنة ٧٦ ص
٦٩ مقال للدكتور حسان حنوت، ولأنور الجندي كتاب عنه في سلسلة أعلام العرب برقم
٢٩ صادر سنة ١٩٦٤.

هذه نظرة عجلى في نشأة أحمد زكي وعمله الرسمي، ولو كان موظفًا كأكثر الموظفين ما سمع به أحد غير أهل بيئته والمحتفين به، ولا تعدت شهرته حدود مصر، ولكن كان أحمد زكي رجلًا من غير هذا الطراز. كان رجل علم وأدب وبحث منذ وعى على نفسه^(١) لم تشغله مشاغل الإدارة والكتابة عن عمله، ودرس فن الترجمة فزاد إحكامًا للغتين العربية والفرنسية، وقلّ من أتقن الفرنسية من أبناء مصر إتقانه، فقد كان ينشئ فيها ويخطب كما ينشئ أدباء الفرنسيين ويخطبون. وكان إذا سمع الخطاب العلمي في أحد المجامع بالفرنسية ينقله حالًا وبدون استحضار إلى العربية، وبالعكس لا يكاد يخرم منه معنى، ولا يتلجلج ولا يتلكأ، وهذا لم يكتب لغير أفراد قلائل من البلغاء.

سافر أحمد زكي ثلاث مرات إلى مؤتمرات المستشرقين في الغرب نائبًا عن الحكومة المصرية، وبذلك اتصل بأكثر المستعربين من علماء المشرقيات في الديار الأجنبية، كانوا يسألونه فيما يقع لهم من المشاكل فيحلها لهم أحسن حل، ويساعدهم على ما هم بسبيله من خدمة العلم، ولا سيما فيما له تماس بالمدينة الإسلامية. ولقد قال لي أستاذي الشيخ طاهر الجزائري، وكان من أعظم الرجال علمًا بالتاريخ الإسلامي ودقائقه ومشكلاته: إنه ليس على أديم الأرض رجلٌ عرف المدينة العربية والإسلامية كما عرفها أحمد زكي. بدّ في هذا الفرع المسلمين وغير المسلمين.

وأعانه اتصاله بالحكومة على اختصار صندوق الحروف العربية في المطابع، وبدأ ذلك بالمطبعة الأميرية، واختار النمط الذي راقه، وأملى إرادته في ذلك على أرباب الاختصاص. وكان درس الطرق لهذا الإصلاح في رحلتين له إلى الغرب، وهو الذي أدخل طريقة الاختزال إلى اللغة العربية،

(١) كذا الأصل، ولعل الصواب: وعى نفسه.

وكذلك طريقة الترقيم لتُعرف الجملة العربية إن كانت (*) في التعجب أو الاستفهام أو متصلة بما تقدمها ومنفصلة عما تأخر عنها. وسافر إلى اليمن في آخر أيامه لخدمة السياسة العربية فما نسي العلم، واتصل بإمامها، فوقف على كتب اليمن، واستنسخ ما راقه منها، وكتب جزازات مفيدة في أسماء بلاد اليمن وإرجاعها إلى أصولها القديمة، ورحل مرات إلى القسطنطينية، واستنسخ منها لنفسه أو لدار الكتب المصرية عشرات من أمهات الكتب العربية بالتصوير الشمسي.

أما خزانة كتبه التي وقفها على الأمة، فقد جُعِلت أولاً في جناح خاص في دار الكتب المصرية، ثم نقلت إلى قبة الغوري، ثم أعيدت بعد وفاته إلى دار الكتب مثل الخزانة التيمورية، وهي من الخزائن المهمة جداً.

كتب لي يوم ١٤ جمادى الأولى ١٣٣٧ (١٥ فبراير ١٩١٩): «ولعله يسرك أن تعرف أن خزانتي قد انتقل عديدها من الألفين فبلغ الاثني عشر ألفاً الآن، وأنا أشكر الله تعالى طلباً للمزيد».

وأتيح لي أن أصف بالتطويل خزانتي أحمد تيمور وأحمد زكي في مجلة المقتبس. وقد رأيت المخطوطات النادرة جداً في خزانة الأول، والمطبوعات النادرة في العرب والإسلام باللغات العربية والإفريقية في خزانة الثاني. لا جرم أن ثروة صاحب الخزانة التيمورية أعانته كثيراً على التوسع في اقتناء الأطايب من المخطوطات على ما اعترف بذلك أحمد زكي^(١) نفسه. أما صاحب الخزانة الزكية فقد بدأ بجمع الخزانة وهو تلميذ أيضاً بمدرسة الحقوق سنة ١٨٨٣ فكانت النقود التي يرضخ بها له^(٢) أخوه محمود رشاد يشتري بها

(*) استعمال (إن) في هذا التركيب شائع، وهو مُشْكِلٌ الوجه أن يقال: ... العربية، أهي في

التمجب أم الاستفهام... (المراجع).

(١) كذا الأصل، ولعل المراد أحمد تيمور.

(٢) رضى له: أعطاه عطاءً قليلاً. وبعضهم يستعملها بمعنى خضع وهو خطأ.

كتبًا إفرنجية، وأخوه يبتاع له الكتب الثمينة، فتولد فيه الغرام بالكتب كما قال. ولما دخل في خدمة الحكومة خصص نصف راتبه الشهري لشراء الكتب. وكانت الديون التي عليه إلى آخر أيامه للوراقين والطباعين وباعة الكتب العتيقة والجديدة في أوروبا ومصر. وأكثر كتبه الإفرنجية، ومنها ما كتب باللاتينية والألمانية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية، واجتمع له معظم الكتب العربية التي طبعها علماء الإفرنج منذ القرن الخامس عشر، والمخطوطات العربية التي ضمنتها خزائنه هي متقاة أيضًا، وأكثرها في التاريخ والأدب.

ومن خصائصه: أنه كان محيطًا بكل ما حوت خزائنه كفعل أحمد تيمور، وقد علق عليها شروحًا وحواشي، وشفعها بمفكرات وجزازات. أما تنسيقها فأقل من تنسيق الخزانة التيمورية؛ لأن صاحب هذه الخزانة^(١) انقطع إليها سنين، وما أضع أوقاته في الإدارة والسياسة والتوسع في معرفة الناس.

كانت زوج أحمد زكي من فضليات العقائل^(٢)، وعاونته بثروتها على الظهور والبذل، وكانت داره في جيزة الفسطاط في الثلث الأخير من حياته محط رحال رجال العلم والأدب من الأقطار الشرقية والغربية والأقاليم المصرية. واختار لها اسم «بيت العروبة» وهو اسم موفق، وافق فيها الاسم المسمى^(٣)، وأنشأ بجوارها جامعًا ومدفناً فلم يتم الجامع على ما يجب من الهندسة العربية والزخرف. نقول: «بيت العروبة» ويمكن أن يطلق عليه «بيت شعوب الخافقين» ولطالما دعا إلى داره عشرات من الآسيويين والإفريقيين

(١) أي: أحمد تيمور.

(٢) جمع عقيلة، وهي الكريمة المخدرة ويقصد بها اليوم الزوجة.

(٣) وزين جدرانها بثلاثة أبيات أجمل فيها هدفه وخطته في إحياء التراث العربي هي:

وقفت على أحياء قومي براعتي	وقلبي، وهل إلا البراعة والقلب
ولي كل يوم موقف ومقالة	أنادي ليوث الرب ويحكم هُبُوا
فإما حياة تبعث الشرق ناهضًا	وإما فناء وهو ما يرقب الغرب

انظر وحي القلم ج٣/٢٥٩.

والأوربيين والأميركيين فمزجهم مزجًا، وخطبهم واستخطبهم، وتجلت فيه مكارم الشرقيين بل مكارم المصريين.

كان يحب المناقشة. فإذا آتس من كاتبٍ غلطة استفظعها وكتب فيها المقالات، أو يُقرَّ له من قارف تلك الشنعاء معتذرًا، وهو قد يعتذر أيضًا إذا ارتكب خطأ، وقد يعترف به جهازًا، شأن العلماء. كان يبادر إلى إطلاع الناس على أعماله، وقد يبالغ فيها، فاستفاضت لذلك شهرته، وساعد على إنانها قوة بيانه وشدة عارضته، وتوفره على خدمة علماء الغرب في كل ما يعنّ لهم من الأسئلة، على حين كان يتلكأ عن إجابة المسترشدين به من علماء الشرق. فإذا آخذوه على إهماله زعم أنه كسول^(١).

كان أحمد زكي يتجاوز فيما لا يتجاوز فيه أرباب التقوى، فكأنه تخلق بأخلاق من عاصرهم وعاشرهم، وما رأى حرجًا في ذلك، ويضطره العبث واللعب إلى الإسراف. ولذلك: أنفق كل ما دخل في يده من مال قرينته أولاً، ثم من مال شقيقه ثانيًا، أنفق جميع ما خلفه له أخوه من نقد، وهو مبلغ لا يستهان به في سنين قليلة، غير حاسب للأيام حسابًا، وربما أفرط في ذلك، ولعل إفراطه لكونه لم يُعقب ولدًا. وقيل: إنه ترك خدمة الحكومة مختارًا، وقيل: إنه أريد على ترك الخدمة؛ لأنه أتى أشياء تخالف قانون الإدارة.

هذا ما عرفته من أخلاق أحمد زكي، وما أدركته مما نهض به من الأعمال، بقي أن ألمّ الإمامةً خفيفةً بتأليفه. وتأليفه على ما رأيت ككثير من العلماء أقل من علمه العظيم. وقد كان مما يؤاخذ عليه: أنه يريد الاستئثار بكل شيء، وأن يخوض عباب كل مبحث، ولما وضعت وزارة المعارف المصرية مبلغ ٩٣٩٢ جنيه مآلاً احتياطيًا خصصته لمشروع إحياء الآداب

(١) كسول، صفة للأنثى وكذلك كسلة وكسلانة ومكسال أما صفة المذكر فكسلان وكسل (بفتح فكسر).

العربية، وطُبِعَ سبعة وعشرين كتابًا من أهم كتب التاريخ والأدب والعلوم القديمة، أحب أن ينفرد وحده بهذا العمل العظيم. وإذا كان يحب التدقيق، ولا يثق بتحقيقات غيره، أبطأ بالطبيعة في إخراج العمل، فاستُرِجِع المبلغ الذي كان خصص لهذه الغاية.

ومن تأليفه: «الدنيا في باريز»، «السفر إلى المؤتمر» «قاموس الجغرافية القديمة» ومنها: محاضرات وأبحاث نشرت بالفرنسية والعربية أو بالعربية فقط في المجلات والصحف وكلها في موضوعه الذي هام به: «المدنية العربية، والآثار الإسلامية، وسيرة رجال الإسلام، وتاريخ المشرق». وقد طبع الجزء الأول من «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري^(١)، وأجاد في التعليق عليه. وطبع كتاب «الأخلاق» ونسبه للجاحظ، وعلق عليه، وبقي مصرًا على نسبه للجاحظ، وليس هو كذلك. وطبع كتاب «الأصنام» لابن الكلبي^(٢). و«نكت الهميان في نكت العميان» للصفدي^(٣)، وغير ذلك. وترجم من الفرنسية «الرق في الإسلام» والأصل لمؤرخ مصر صديقنا أحمد شفيق. ونقل «تاريخ المشرق» لمسيرو^(٤). وبينما كان يملي دروسًا في الحضارة الإسلامية على طلبة

(١) أحمد بن يحيى مؤرخ حجة في معرفة الممالك وخطوط الأقاليم والبلدان، له عدا هذا الكتاب كتب أخرى منها: (التعريف بالمصطلح الشريف) في مراسم الملك وما يتعلق به وغيره. وله: شعر في منتهى الرقة. توفي سنة ٧٤٩هـ = ١٣٤٩م (الأعلام ١/ ٢٥٤).

(٢) هشام بن محمد المشهور بابن السائب الكلبي (ت: ٣٠٤هـ = ٨١٩م) مؤرخ وعالم بأنسب العرب وأخبارها وأيامها، ومن أهل الكوفة، كثير التصانيف، له نيف ومئة وخمسون كتابًا، فقد أكثرها.

(٣) خليل بن أبيك، المشهور بصلاح الدين الصفدي (ت: ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م) أديب ومؤرخ وكثير التصانيف.

(٤) في معجم المطبوعات: ٩٧١ أنه مختصر لتاريخ ماسبيرو. أما جاستون ماسبيرو (Maspero) فهو مستشرق فرنسي من علماء الآثار، تعلم اللغات الشرقية وتضلع من الهروغلفية واشتهر بعد نشر كتابه «تاريخ أمم الشرق القديم» في باريس ١٨٧٥م وترأس بعثة فرنسية لدراسة =

الجامعة القديمة إذا هو يكتب في «رسائل إخوان الصفا» وتقويم العرب قبل الإسلام، ويبحث في اختراع البارود والمدافع وما قالته العرب في ذلك. ثم ينتقد العهدة النبوية الموجودة صورتها في دير الطور، ويكتب تقارير في الكتب العربية التي خلفها العرب في الأندلس، ويبحث في «الفيوم» وبلاده في أيام الأيوبيين، وفي تسامح المسلمين مع أهل الأديان الأخرى، وفي الترفيم وعلامته في اللغة العربية، وفي غرام العرب بالكتب، وفي علاقات المصريين بالأندلسيين، وفي أهل الكهف، وفي الأسباب التي ارتقى بها الإسلام، وفي الطيران في الإسلام، وفي مؤاسة العميان في دول الإسلام، وفي مصر وحظها من خدمة الجغرافية، وفي العرب وأميركا، وفي بقايا العرب الخالدة في أوروبا. وفي الشام والحرية، وفي التجارة في الإسلام، وفي سراديب خلفاء الفاطميين، إلى غير ذلك من أبحاثه الطريفة، وكلها نادرة في بابها، مفيدة لمن نظر فيها، وهي [أبحاث لا]^(١) يكاد يجيد فيها إلا من كان في [مثل علمه].

ومن أهم ما امتاز به [معرفته بالأموار] الجغرافية ولا سيما ما كان [منها خاصًا] بالأندلس والشرق، وقد ألف [فيها كتابًا] لم يطبع^(٢)، وحبذا لو توفرت [لجنة تشرف على] طبعه وطبع جزائره [ومفكراته التي حوت] كنوزًا مما التقطه من ذخائر [الكتب].

ولقد كان في الكهولة وما بعد [الكهولة] مرجع حكومته في كل ما تحتاج [إليه من] الوثائق والسجلات والأضابير مما [استند إليه] في المطالبة بحق مصر في الاستقلال [وفي] خزائنه من ذلك صنوف من المراجع [هي] عُدَّة المؤرخ والباحث والسياسي [اليوم] وكل يوم.

= الآثار في مصر. وأسس المعهد الفرنسي بالقاهرة وشغل مناصب علمية، له مؤلفات وبحوث. توفي سنة ١٩١٦م (المستشرقون: ٣٣٢).

(١) كل ما كان هنا ضمن قوسين معقوفتين أصله تالف فجننا بألفاظ ملائمة.

(٢) لعل الكتاب المقصود هو كتابه: (عجائب الأسفار في أعماق البحار).

كانت له أشياء يستخرجها من مخطوطاته أو من جزائزه ومفكراته، ويتحف بها العالم العربي الحين بعد الآخر يقصد بها التعليم والإدهاش. فِيمَا حدثنا به وهو مما استند فيه إلى مجموعته الكاملة للمؤلفات العربية الخاصة بالكتابات السرية المعروفة الآن بالشُّفرة^(١) وكيفيةها عند العرب واستخراجها قال: وكانت العرب تسمي هذا الفن بفن الترجمة، وحل التراجم، وحل المترجم، والذي يشتغل بذلك «المترجم» - بكسر الجيم - ولذلك نرى المؤلفين الأقدمين مثل ابن النديم^(٢) وغيره عندما يتكلمون على الكتب المنقولة عن اليونانية والفارسية يستعملون في الغالب لفظة النقل ولا يستعملون لفظة المترجم ولا الترجمة إلا نادراً. ولما كان هذا العلم خفياً خاصاً بأسرار الحكومات الإسلامية كان مضموناً به ولا يصل الجمهور إليه، ولذلك جهل كثير من الناس معنى هذه الكلمة، حتى إن كتب اللغة لا تشير إليها، بل إن شراح المقامات عندما أشار الحريري إليها في إحدى مقاماته جهلوا ولم يفسروها وتمحلوا فيها، بل إن صاحب «لسان العرب» نفسه لم يذكرها، وما كان عارفاً بهذا الفن تمام المعرفة، وكان هذا الفن مستعملاً في الدول الإسلامية من أيام المأمون إلى الحروب الصليبية، فأخذ الإفرنج عن المسلمين، وهؤلاء أخذوا مبادئه عن اليونانيين، ثم رده الإفرنج إلينا، ولجهلنا بمعارف أهلنا اخترناه باسمه الجديد عن الإفرنج وهو الشفرة، التي نقلها الغربيون عن كلمة صفر العربية واستعملوها بمعنى الأرقام؛ لأنهم استخدموا الأرقام بدلاً من الحروف في الكتابات السرية. ثم إننا جعلنا بدل الشفر لفظة الجفر لتقارب المخرجين

(١) كلمة مولدة، وهي المراسلة السرية المبنيّة على رموز لا يحلها إلا المتواضعون عليها، وقد تكون مأخوذة من كلمة (الجفر) الذي يطلق مجازاً على العلم المكنون. وقد وضع لها المجمع العلمي العربي بدمشق كلمة (الجفر، أو القلم السري)، ويقابلها بالفرنسية .Chiffre

(٢) محمد بن إسحاق المتوفى سنة ٤٣٨هـ = ١٠٤٧م صاحب كتاب «الفهرست».

خصوصًا، وإن كان الجفر يستعمل في الإلغاز بالحوادث المستقبلية، فصار من هناك شبه علاقة جعلت العامة تعتقد أن الجفرة المستعملة الآن هي مأخوذة من لفظة جفر المستعملة في كتاب «الملاحم»^(١) والصواب غير ذلك.

ومما حوته خزائنه الجزء الرابع من «تاريخ الجبرتي» ويُظن: أنه يحتوي على فصول كثيرة اضطروا إلى حذفها من النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق؛ لأن فيها مما يختص بمحمد علي، ولكنه لم يحقق ذلك بطريقة يقينية، غير أن ضخامة الجزء تجعل الظن أقرب إلى اليقين، خصوصًا والصفحة من المخطوط تعادل ثلاث صفحات من المطبوع على الأقل، فتزيد بأقل تقدير ١٥٣ صفحة من المخطوط، وإذا أُضيف إليها ٤٠ صفحة من المخطوط أيضًا فيكون المجموع المطبوع إلى النهاية العظمى - وعلى التسامح الزائد - معادلًا لألف صفحة من المخطوط. وربما كان ما يبقى بعد ذلك من المخطوط هو عبارة عن مجموع الفصول والجمل والعبارات التي استصوبوا حذفها من الأصل لبعض الاعتبارات.

ومثل هذه المسائل كان أحمد زكي يخرجها للناس ويشرحها ويدونها من العقول، ويحجب بنشرها إلى مَنْ يقرؤها، البحث والنظر، فكان بذلك صاحب رأي معين في التاريخ العربي، يهتم لدقائقه.

وكان علماء المشرقيات، من أجل هذا، إذا ذكروا علماء مصر ذكروه في الصفحة الأولى وهم عرفوه معرفة أكيدة لاختلاطهم به واستفادتهم من تجاربه وأبحاثه.

قلت في محاضرة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في أحمد تيمور وأحمد زكي: إن طريقة أحمد زكي فيما كتبه وترجمه ونشره أقرب إلى أن تكون غربية منها إلى أن تكون عربية. والعربية في آثار تيمور محسوسة أكثر من الإفرنجية، والإفرنجية في كتابات زكي شائعة أكثر من العربية، والروح الديني يتجلى في

(١) لعل المراد كتاب (الفتن والملاحم) لنعيم بن حماد المروزي المتوفى سنة ٢٢٨هـ = ٨٤٣م.

تيمور، والروح المدني غالب على زكي. فكأن هذا مستشرق شرقي، وذاك شرقي قبل كل شيء: شرقي بتقاليده وهدايته وتربيته وثقافته. وتيمور جال في دائرة ما أحب أن يخرج عنها طول عمره، وكذلك كان زكي، إلا أن الدواعي والبواعث كانت تضطر هذا إلى تجاوز الحد الذي رسمه لنفسه، ولئن كانت منطقته أوسع فلم تكن في كل حين أمنع وأمتع.

خاض زكي في المجتمع وتغلغل في تضاعيفه، وقبله بما فيه من حسنات وسيئات أكثر من صنوه تيمور. وهذا ابتعد عن المجتمع، ولم يحب أن يتعرف إلا بطبقة خاصة لا تنغص عليه عمله وسلامه. وهنا ظهرت بعض الشيء أرستقراطية تيمور وديمقراطية زكي. كانت حياة زكي مرحة يتمتع بمباهجها ومناعمها على ما يشتهي ويتعجل النعيم لا يرجئه، وحياة تيمور عابسة فيها شيء من الانقباض، وفيها عزوف. وكلاهما كان صادقًا في مشربه، صادقًا في سيرته، غير مدلس ولا مؤالس^(١)، ولا مُتَنَطِّس ولا مُتَمَتِّس ولا مُتَرَمَّت.

فني تيمور فيما أحب من صنوف الآداب، أما زكي فلم يفن الفناء كله، فأخذ من حياة العمال والسياسيين، وحياة المسرفين والمترفين، وكلاهما حكمت عليه بيئته أن يكون ما كان.

إن عدد من أخذ عنهم تيمور من الشيوخ كان أكثر من عدد من أخذ عنهم زكي، وكانوا في ذاتهم أشد تدينًا وغيرَةً على الدين. وكان عدد من أخذ عنهم زكي من العصريين أكثر من عديد من أخذ عن أمثال طبقاتهم تيمور. فجاء تيمور عالمًا إسلاميًا قبل كل شيء، يحب الانتفاع بما أنتج أهل الغرب، وجاء زكي عالمًا شرقيًا يشبه علماء الغربيين إلى حد بعيد. كلاهما اشترك في فضيلة الوفاء والكرم. وعُدَّ من عِظَمِ مروءة زكي وفاؤه للخديوي عباس بعد انتقال أحكام مصر إلى غير يده.

(١) الألس، بضم الهمة وسكون اللام: الخيانة والنش والكذب والريبة وأخطاء الرأي. وتنطس: تأنق، تغلر. وتنطس عن الأمر: بحث عنه واستقصى. ونمس الأمر: ألبسه وأبهمه.



أحمد شوقي^(١)

١٢٨٥ - ١٣٥١هـ

١٨٦٨ - ١٩٣٣م

ولد أحمد شوقي في القاهرة في سنة ١٨٦٦م. قال لي: أن جدّه لأبيه كردي من الجزيرة^(٢). جاء مصر واتصل بوالها محمد علي الكبير. فارتقى في أيامه في مناصب الحكومة. وجدّ والدته تركي كان من عمال والي مصر إبراهيم باشا، زوجه بمعتوقته تمراز، وهي يونانية كفلت شوقي وكان لها أثر في تخريجه. فهو كما ترجم لنفسه عربي كردي تركي يوناني جركسي، ومن حيث الدم والعنصر ساميّ آريّ يافثيّ.

دفعه ذوهه إلى الكتاب وهو لم يتجاوز الرابعة من سنه، ودرس الدروس الثانوية، وتخرج في العربية بالشيخ حسين المرصفي، ثم التحق بمدرسة الحقوق، ودرس فن الترجمة، وأحرز شهادتها. وفي مدرسة الحقوق تكشفت قريحته لأستاذ الأدب الشيخ محمد البسيوني البيباني. وكان الشيخ يدفع إليه شعره ليصححه، وذكر للخديوي توفيق: أن في بُردي شوقي نابغة في الشعر.

(١) ترجمته في الأعلام ١/١٢٣ ومعجم المؤلفين ١/٣٤٦ تاريخ الأدب العربي للفاخوري:

٩٨٠، الأدب العربي المعاصر في مصر: ٩٢ - ١٠٣، تاريخ الشعر العربي الحديث: ٧٤

الواحلون: ٤٣ - ٦٠ شعراء مصر للعقاد: ١٤٩.

(٢) المراد المنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من سورية.

ونظم الشاعر الفتى بعض القصائد في عزيز مصر فأرسله إلى باريز لإتمام الدراسة .

ولما عاد إلى مصر عين رئيساً للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس، وظل في هذا المنصب حتى نشوب الحرب العامة فأرادته السلطة على الخروج من مصر فاختر المقام في إسبانيا، وقضى في الأندلس أربع سنين، وعاد إلى مصر عقبى الهدنة فعين عضوًا في مجلس الشيوخ .

نشأ شوقي في الشعر كما ينشأ الشعراء عادة، يبدؤون بالمديح والهجاء، ووقى الله شعره من وصمة الهجاء وقول الهُجر، وأغرق في المديح، وبالطبع بدأ بمدح الخديوي توفيق، ثم مدح الخديوي عباس طوال مدة اتصاله بخدمته، واعتذر عن نظم المديح فقال: أنه لم يجد أمامه لأول نشأته غير دواوين للموتى، لا مظهر فيها للشعر وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحًا في مقام عال، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى، فما زال يتمنى هذه المنزلة ويسمو إليها حتى وفق إلى ما أراد، ولذلك أنفق معظم مديحه في عباس، ووفى له بعد اعتزاله الحكم، ومدح محمد علي وإسماعيل وحسين كامل وفؤاد الأول، وأشار إلى اعتزازه ببيت محمد علي بقوله^(١):

أخونُ إسماعيلَ في أبنائه ولقد وُلدتُ ببابِ إسماعيلِ
ولبستُ نعمتهُ ونعمةَ بيته فلبستُ جِرْلاً وارْتديتُ جميلاً
ووجدتُ آبائيَ على صِدْقِ الهوى وكفى بآباءِ الرجالِ دليلاً
ودافع عن مذهبه في الإشادة بالمناقب في قوله^(٢):

(١) لم أجد هذه الأبيات في ديوانه .

(٢) من قصيدة في ديوانه ج١/١٨٨ عنوانها: (يا شباب الديار) مطلعها:

غال في قيمة ابن بطرس غالي علم الله ليس في الحق غالي

يُظهِرُ المَدْحُ رونقَ الرجلِ الما
رُبَّ مَدْحٍ أَذاعَ في الناسِ فضلاً
وثناءً على فتى عَمَّ قومًا
إنما يَقدَّرُ الكرامَ كريمٌ

جِدْ كالسيفِ يزدهي بالصقالِ
وأناهم بقُدوةٍ ومثالِ
قيمة العِقْدِ حُسْنُ بعضِ اللآلي
ويقيمُ الرجالُ وزنَ الرجالِ^(١)

نعم مدح شوقي كثيرين من العظماء والنبلاء والأصدقاء، وبالغ في مدح عبد الحميد الثاني سلطان العثمانيين، ومدح سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد الخالق ثروة، ومدح مصطفى كمال، ثم عاتبه ومدح غيره من رجال السياسة، وهنأ أنقرة يوم أصبحت عاصمة، وكان معجبًا بفروق^(٢) ولطالما ردد آيات جمالها، وكان معظم حياته، لطول ملابسته الكبراء واتصاله بعزيز مصر، لا يقول إلا ما يروق للكبراء، ولا تلحقه تبعته: ينظم ما يتفق والرسميات، لذلك لم يَرثِ الإمام محمد عبده؛ لأن الخديوي كان غير راضٍ عنه وعمل فيه ثلاثة أبيات يخاطبه فيها أن يفسر له آية الموت، فكان لسان حاله يقول: سبحان من أنجى مصر منك بالموت. وكان إلى هذا على اتصالٍ دائمٍ بالأجانب من رجال السياسة والمال والأدب والفن، يرضيهم ويرضي نفسه، ويأخذ عنهم ويعجبون بأدبه.

وغريب من شاعر هو أسير خياله وإلهامه، في ليله ونهاره أن يخضع مختارًا لهذه القيود الثقيلة، ويشرب قلبه حبَّ المظاهر والرتب والأوسمة. والصحيح: أنه لولا ذل الخدمة أعوامًا طويلة ما ذهب الشاعر بهذا العز، والعز في الشرق ينبعث عن صاحب السلطان، والناس لا يرون فوق ذلك مظهرًا.

إن اتصال الشاعر بالخديوي كان منه الهبات والعطايا، ونفوذه في القصر

(١) قدره: عظمه.

(٢) فروق من أسماء الأستانة، ويقال لها أيضًا: استانبول.

دعا أرباب الغرام بالمراتب والرتب والأوسمة أن يتوسطوه في نيل ما تطمح إليه نفوسهم من الرغائب، فجمع من ذلك ثروة لم يحرزها شاعر من عصرنا، وفي كثير من العصور الماضية ونعم بالأطاييب في الحياة، وعاش عيش العظماء وأرباب القصور، واستطاع أن يبذل بعض ما يسترضي به من يخدمه فاتسعت شهرته في الآفاق، على ما لم يكتب لشاعرٍ أو كاتبٍ مثلها.

لاحظته عيون السعادة من شبابه إلى شيخوخته، وتحلل من هموم الدنيا، وتخللت قلبه مباهجها، وكان على نعمته صاحب ترتيب في كسبه وعطائه، يحاسب غرماءه حسابًا مدققًا، وينزل عن مال يرضي به الأدباء والشعراء والبانسين المعوزين، ولم تسمح نفسه أن يتساهل مع مديري الجوقات، فأغلى ثمن رواياته المسرحية كما قال لي، وتقاضاهم أكثر ما يمكن من مكافأة ليعلمهم احترام الأدب فيؤدوا لأجله بعض ما تستحقه قرائح الأدباء، وكانوا من قبل يهضمون حقوق المؤلفين، فلا يعرض بضاعته عليهم إلا من سدت وجوه الرزق في وجهه، وهم يستغلونه على ما يشاؤون.

أراد شوقي منذ صباه أن يعاني النثر كما عانى الشعر، وكتب بعض الروايات في آخر أمره، ووضع كتابًا أسماه: «أسواق الذهب» فما جود في الأول ولا في الآخر؛ لأن الكتابة لم تسلس له قيادها كما أسلس له الشعر قياده.

بميزاته: عرف شوقي بسعة خياله، جاءه ذلك من مجموع الدماء التي دخلت في دمه من أجداده وأمهاته، وعرف بنقاء ديباجته، وأحيا كثيرًا من فصيح اللغة ما كانت قبله من مألوف الكتاب والشعراء. وإذا وقعت له بعض هنات لغوية أو بيانية لما خلا من مثلها حتى المعدود من عظماء الشعراء.

ولم يخرج شوقي على أساليب العرب وقوالبهم في شعره، وزاد في موضوعات الشعر بابتداع المعاني الجديدة في قصائده، مدحًا كانت أو تشييبًا أو غير ذلك، يلبسها آخر زي من أزياء العصر، ولم يعل في نقله القصص

المثورة عن مستوى القصص المتعارفة وأسلوبها، وألف واحتذى حكايات للأطفال فاستجدها الناس واستظهرها فتيان المدارس، وخرج عن مألوف الشعراء في الملاحم التي نظمها، منها ملحمة أتى فيها على تاريخ وادي النيل ضمنها حكماً وعبيراً وسياسة، ومنها ملحمة أو قصيدته الكبرى التي نهج بها نهج البردة للبوصيري^(١)، وعرض فيها لما صح من معجزات الرسول ﷺ، ومنها ملحمة في الحرب العثمانية، وملحمة في دول العرب وعظماء الإسلام. إلى غير ذلك من القصائد المطولة.

والملاحمة قصة منظومة في وقائع الأبطال ومجد أمة وتاريخها وعظمتها عرفها اليونان والرومان، وعرفتها فارس والهند، ولم يعهد العرب مثلها؛ لأن من طبيعة العرب الاختصار، ولا يحبون إطالة القصيدة على روي وقافية واحدة، وإذا بلغت المئة أو أكثرها تبرموا بها.

وكان بعض أدباء الغربيين يُلَمِّزون الشعر العربي^(٢) لخلوه من الملاحم، فأكذبهم شوقي بما نظم، وناداهم بأن الشعر العربي لا يضيق عن عمل الملاحم، وقد برز فيما نظم من هذا القبيل.

ومن بدائعه سينيته في الأندلس، عارض فيها سينية البحري في وصف إيوان كسرى^(٣). وقصيدته التي عارض بها ابن زيدون في قصيدته إلى ولادة

(١) والتي مطلعها:

رهم على القاع بين البان والعلم
أما قصيدة البردة لي للأمام محمد بن سعيد البوصيري المتوفى سنة ٦٩٦هـ ومطلعها:

أمين تذكر جيران بلدي سَلِّم
مزجت دمًا جرى من مقلو بدم
(٢) اللمز: العيب، والإشارة بالعين ونحوها.

(٣) ومطلعها:

صنت نفسي عما يندس نفسي
وترفعت عن جدا كل جبس
انظر ديوان البحري ج ٢/ ١١٥٢.

بنت المستكفي بالله. وموشحته في صقر قريش عبد الرحمن الداخل الأموي، وقد نسج فيها على منوال الموشحات الأندلسية^(١).

وأهم ما امتاز به شوقي سعة نَفْسِهِ في كل ما خاض عبابه، وإجادته الوصف، وكان في نظم الحِجَم دون المتنبّي. ومن أهم ما عاناه في أخريات أيامه في تأليفه رواياتٍ مسرحية، صنف ستًا منها، ونظم مقاطيع في الغزل مؤنثه ومذكّره مَلَحَتْ في الأذواق، وخدم بها الموسيقى، ونقلت على أسطوانات الحاكي فرنّ شعره في كل أفق من آفاق اللغة العربية، وخدم برواياته فن التمثيل، وأثبت بملاحمه وقصصه ومقاطيعه أن اللسان العربي يتسع صدره لكل المعاني والصور والأخيلة القديمة والحديثة، وأنه يصلح لأكبر الملاحم صلاحه للإبداع في البيتين والثلاثة.

وكان يرتجل الشعر، ويتوفر على تنقيحه، ويؤثر أن ينظم بعد الهزيع الثاني من الليل. ينظم بين جلسائه، وفي المجالس، وفي القطار وفي المجتمعات، وفي السفينة، وفي الطريق، وفي الحديقة، وعلى رأس جبل وفي قاع الوادي، ولا يدرك جليسه أنه ينظم إلا إذا بدأ يغمغم وأخذت أسارير وجهه تبرق. وكان له ولع بالسينما، لا يكاد يفلت منه رواية جديدة، وقد يشهد الرواية الواحدة مرات، كما ولع بالموسيقا والألحان قديمها وحديثها.

لم يخض شاعر ما خاضه شوقي. أراد ألا يطرح شيئًا من موضوعاته القديمة، وأن يدخل كل ما يمكن إدخاله في الشعر من الموضوعات الجديدة، فجزيدة أشعاره طويلة، وربما كان يحسن اختصارها، والمرء لا يخضع لقانون خاص في حياته؛ لأن أدوارها وأطوارها تحكم عليه منذ وعيه على نفسه^(*)، إلى أن يدفن في رمسه.

(١) انظر الشوقيات ج ٤ ص ٤٤، ١٠٣، ١٧٠.

(*) يريد: منذ وَغِيهِ لِنَفْسِهِ، لأن فعل (وعى) يتعدى بنفسه (المراجع).

وشعر شوقي، على تشعب أغراضه، ما خلا من إبداع، ولو كُتب له نقلٌ إلى إحدى لغات الغرب لوجد فيه عشاق الخيال والغرائب ما وجدوه في بعض شعراء الشرق الذين نقل شعرهم إلى لغات الغرب.

وقال من ترجموا له: إنه تحامى الدخول في بعض المسائل الاجتماعية الكبرى مثل مسألة المرأة، فلم يرسل عنان فكره في إصلاحها، ولم يمعن في نصحتها وإرشادها، ولعل ذلك كان منه لأنه لا يرى نزع عادات رسخت، ولا يعاني موضوعًا قد تؤلم معالجته بعض النفوس، وهو الحريص على التماس الحظوة من الخلق. وَمَنْ خُلِقَهُ التَّلَطُّفُ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ لَا يَرَى إِزْعَاجَ غَيْرِهِ، وَلَا يَحِبُّ أَنْ يَزْعَجَهُ أَحَدٌ، وَاكْتَفَى مِنْ شَعْرِهِ أَنْ وَعِظَ وَنَصَحَ وَسَلَّى وَأَطْرَبَ، وَأَرْضَى وَمَا أَغْضَبَ.

يحمل شعر شوقي إشارات إلى أشياء كثيرة قرأها ومارسها، وإلى دراساتٍ قلَّ أن تمكن شاعرٌ من تمثُلها.

قرأ أجمل دواوين شعراء العرب، وقيل: إنه حفظ ديوان المتنبي في صباه، وإلى ذلك اطلع على جانب كبير من آداب الإفرنج لحذقه الفرنسية، فتأثر شعره بالقديم والحديث، وكان القديم فيه أعظم أثرًا. وما خرج على أساليب العرب وقوالهم في شعره، ووعاها كلُّها، وحرص على إحيائها.

قلنا: إنه كان يراعي الرسميات، ولا يعالج من الأفكار ما قد يتأذى به أحد، وقد يجيش صدره في موضوع فيردّه عن ورود حوضه مقامه في الدولة. كما وقع له أن نظم قصيدة يخاطب بها قبط مصر يوم هاجوا لمقتل أحد رجالهم بطرس غالي باشا، ولم ينشرها في حياته. ومما جاء فيها^(١):

بنو القبط إخوان الدهور وبيدكم هبوه (يسوعًا) في البرية ثانيا
حلتم لحكم الله صلب (ابن مريم) وهذا قضاء الله قد غال غاليا

ومنها:

قضاء ومقدار وآجال أنفس
 نبيد كما بادت قبائل قبلنا
 تعالوا عسى تطوي الجفاء وعهده
 ألم تك مصر مهدنا ثم لحدنا
 ألم تك من قبل المسيح ابن مريم
 فهلا تساقينا على حبه الهوى
 وإذا هي حانت لم تؤخر ثوانيا
 ويبقى الأنام اثنين: ميتا وناعيا
 وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
 وبينهما كانت لكل مغانيا
 وموسى وطه نعبد النيل جاريا
 وهلا فديناه ضفأفا وواديا

وتحلل شوقي من تَقْيِيَّتِهِ في الحرب العامة، وطفق يعالج أمورًا ما كان يعالجها إلى آخر كهولته. وبقي مع هذا على اعتداله؛ لأنه يقدر القوة، ويعرف مبلغ أصحابها من الحرية. والأمة التي ينشر بينها شعره راضية منه على أي حال، تقبل له كل ما ينشدها من شعره. والشعر ما كان على الأكثر موضوع حقائق سليمة وتاريخ صحيح، ولا يؤاخذ الشعراء بأقوالهم كما يؤاخذ المؤرخون مثلاً.

ذكر الشاعر الشام في شعره بعد الحرب، وما كان يذكرها من قبل؛ لأن آماله وآمال المصريين كانت معلقة في ذاك الجيل على دولة الخلافة وعلى الأتراك، ولما كان في الشام قال قصيدتين غرّاءين، وربما كانت قصيدته في دمشق مما لم يوفق إلى نظم مثلها شاعر على كثرة من نظم في عاصمة الأمويين منذ القديم إلى اليوم. وهي التي يقول فيها^(١):

(١) لم يذكر المؤلف الأبيات التي أرادها. وذكر على الهامش ما نصه: «تنقل بعض أبياتها» وهذه الأبيات التي أوردناها هي من قصيدته «دمشق» الواردة في ديوانه ج٢/٩٩ ومطلعها: قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان أما قصيدته الثانية في دمشق فقد جاءت في ديوانه ج٢/٧٣ ومطلعها: سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

[آمنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار لها الفيحاء بُسنان
جرى وصفق يلقانا بها بردى كما تلقاك دون الخلد رضوان]
كان شوقي يحب الشام كما يحب مصر، ويحب الترك كما يحب العرب،
ويعطف على المسيحية والمسيحيين كما يعطف على الإسلام والمسلمين،
ويعجب بالمدينة الغربية كما يعجب بالمدينة العربية، ويحيي التاريخ الفرعوني
كما يحيي التاريخ الإسلامي، ويردد أبدأ ذكر الإسلام والمسلمين، وعلى
معظم قصائده تتجلى مسحة جميلة من هذا المعنى يستهوي بها القلوب وتم
على اعتقاد. يقول للترك^(١):

الدهر يقظان والأحداث لم تَنَمِ فما رقادكم يا أشرف الأمم
فسيفها سيفها في كل معترك وعدلها طوق الإسلام بالنعم
ويقول خطابًا لسلطان العثمانيين^(٢):

نعم الرعية في ذراك ونضرت أيامها في ظلك الأحكام
في كل ناحية وكل قبيلة عدل وأمن سورف ووئام
ولو عاش شوقي شهرًا واحدًا في الديار التي حكم على عنصرها الحاكم
أنه أشرف أمة، وتغنى بأمنها وعدلها وأحكامها لما تلكا عن أن يكتب ديوانًا
برأسه في الشكوى من ظلمهم، ولكن هذه النغمة كانت زيبًا من الأزياء
المقبولة في مصر على عهده، أي: مدح بني عثمان والتزلف إلى العثمانيين.
ومن الغريب: أن هذه الأماديح في الخليفة العثماني وحملة عرشه ما كانت

(١) هذان البيتان هما البيت الأول والبيت الأخير من قصيدة في الشوقيات ٢٢٥/١.

(٢) من قصيدة في ديوانه ج ١ ص ٢٢٦ عنوانها (الأسطول العثماني) مطلعها:

هز اللواء بعزك الإسلام وعنت لقائم سيفك الأيام

تحوز القبول عندهم؛ لأنهم لا يفهمونها، ومن لا يفهم شيئاً وهو ينطوي على بُغض لغة أهله كيف يُقدَّر ما قيل فيه من روعةٍ وجلال؟

ولشوقي عشرات من القصائد في مسائل اقتصادية وأدبية وغزلية واجتماعية جُود فيها وعلم، ووقعت له فيها وفي غيرها حكم جميلة وآراء سديدة. وقد دوّن فيها كبريات حوادث مصر، وما له مساس بتاريخها. وهي إذا قرئت بعد قرن تنم على ما كان يهتم له أهل هذه الأيام من مشاكلهم ومتاعبهم.

وكان تبرم مصر بوطأة الغريب عليها من العوامل المهمة التي اضطرت كلاً من شوقي وحافظ إلى النطق^(١) بما نطقا، ونعم النطق نطقهما.

استغرق باب السياسة والتاريخ والاجتماع أكثر من ثلث ديوان شوقي (٣٦٤) صفحة ومنها ما قيل لغرض المدح أولاً. وضم الوصف (١٣٦) صفحة، والنسب (٤٢) صفحة، والمتفرقات (٦٠) صفحة، والمراثي الجزء الثالث من ديوانه برمته (١٩٦) صفحة.

جود من وراء الغاية في الوصف، وأحسن في النسب، وعلى شعره أبداً مسحة من دراسته، فهو يعرف استخدام التاريخ والانتفاع بعبره. وهو عارف بوقته قلما تفوته فرصة إلا وينظم فيها شيئاً، وخلا نسيبه من الألفاظ العويصة^(٢)، ولو طال عمره بضع سنين أخرى لأغنى الآداب العربية بقصصه ورواياته، وكان لمن بعده من المجددين في الشعر مثلاً يقتدى به. ولنا أن نقول إنه برع في الملاحم لأول أمره، وبرع في الروايات التمثيلية في آخر عمره، هذا عدا ما خص به شعره من جمال الديباجة واتساع الخيال مما يقل

(١) عبارة الأصل مضطربة؛ لأن المؤلف عدل الجملة التي سبقتها، ولم يعدلها، فلجأنا إلى تعديل طفيف كي تستقيم العبارة.

(٢) العويصة: الصعبة.

أن يصل إليه أحدٌ من المجددين من الشعراء العصريين، ترى قصائده ولو كانت في النسيب لا تخلو من حكمةٍ بالغةٍ وموعظةٍ حسنةٍ.

وقد رأيناه احتفظ بما رسمه من خطة لشعره في أول ديوانه القديم، إذ قال: إن إنزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئةً يجلب عنها ويتبرأ الشعراء منها. إلا أن هناك ملكًا كبيرًا ما خلقوا إلا ليتغنوا بمدحه ويتفننوا بوصفه. وهذا الملك هو الكون. فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى يقلب إحدى عينيه في الذر^(١) ويجعل أخرى في الذرا. يأسر الطير ويطلقه، يكلم الجماد وينطقه، ويقف على النبات وقفة الطل. فهناك ينفسح له مجال التخيل، ويتسع له مكان القول، ويستفيد من جهته علمًا لا تحويه الكتب ولا تعبُهُ صدور العلماء. ومن جهةٍ أخرى يجد من الشعر مسليًا في الهم، وشاغلاً إذا ملَّ الفراغ.

وسَّع شوقي - والحق يقال - دائرة الشعر، وتفنن في معانيه. وشعره ينم على صورة عصره، أو على بعض صفحات جيله في الجملة. وزاد في الإمتاع بشعره أنه نُشر في الآفاق بمختلف طرق النشر، فلم يبق عربي لم يسمع بشوقي، اللهم إلا في بَوَادِي نجدٍ والشام والحجاز وصحراء إفريقيا. ورأيناه كسائر الشعراء والكتاب، حسن في الموضوع الذي نفذ إلى روحه وشارفه عيانًا. فد وصف المرقص والرقص في الحفلات الراقصة والساهرة التي كان عزيز مصر يقيمها في سرايه^(٢) فأجاد إجادةً غريبة، فمنها ما نظمه في ليلة راقصةٍ في قصر عابدين^(٣):

حَفٌّ كَأَسْهَا الْحَبِّ فَهِيَ فَضْةٌ ذَهَبٌ

(١) الذر: صغار النمل.

(٢) السراية، والسرايا: بلاط الملك، أو مقر الدوائر الحكومية (فارسية معربة).

(٣) مطلع قصيدة في الشوقيات ج ٢ ص ٩ والحب: الفقايع التي تعلقو الخمر.

أَوْ دَوَائِرُ دُرِّ مَائِجٍ بِهَا لَبِّبُ^(١)
 أَوْ فَمِ الْحَبِيبِ جَلَا عَنِ جَمَائِهِ الشَّنْبِ^(٢)
 أَوْ يَدِ بَاطِنِهَا عَاطِلٍ وَمَخْتَضِبِ^(٣)

ومنها قصيدته المشهورة التي نظمها وهو طالب في باريز يتغزل بفتاة
 إفرنسية تدلُّه بحبها وهي^(٤):

خَدَعُوها بِقَوْلِهِمْ حَسَناءُ وَالغَوَانِي يَنْفُرُهُنَّ الثَّنَاءُ
 أَتَرَاهَا تَناسَتْ اِسْمِي لَمَّا كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الأَسْماءُ
 إِنْ رَأَتْنِي تَمِيلُ عَنِّي كَأَنْ لَمْ تَكْ بَيْنِي وَبَيْنِها أَشْياءُ
 نَظْرَةٌ فابْتِسامَةٌ فَسَلامٌ فَكلامٌ فمَوْعِدٌ فَلِقاءُ
 إلى آخر الأبيات.

وهذه القصيدة من المرقص، ولا سيما البيت الرابع، فإنه صور فيه جميع
 ما يتقدم به المحب حتى يلقي حبيبته في شبكته.

تقع لشوقي أبيات تمتاز عن غيرها في القصيدة الواحدة، شأن أكثر
 الشعراء، فمما جاء في ملحمة «الحوادث الكبار»^(٥):

وَلَدَ الرِّفْقِ يَوْمَ مَوْلِدِ عَيْسَى وَالْمَرْوَاتِ وَالْهَدَى وَالْحَياءِ
 وَسَرَتْ آيَةُ الْمَسِيحِ كَمَا يَسُرُّ رِي مِنَ الْفَجْرِ فِي الْوُجُودِ الضَّياءِ
 تَمَلُّا الأَرْضِ وَالْعِوالمِ نِوْراً فَالْشَرِي مَائِجٍ بِها وَضاءِ

(١) اللبب: موضع القلادة من الصدر.

(٢) الشنب: عدوية الأسنان.

(٣) الأصل: أو يدها.

(٤) مطلع قصيدة عنوانها: (خدعوها) في الشوقيات ج ٢ ص ١١١.

(٥) في الشوقيات ج ١ ص ١٧ مطلعها:

لا حسام لا غزوة لا دماء
مل نابت عن التراب السماء
حُشِّعَ حُشِّعٌ له ضعفاءُ
رسموا والعقول والعقلاء

ثان حتى انتهت له الأهواء
ف وأن تَغسل الخطايا الدماء
بعض أعضائها لبعض فداء
شقيت بالغباوة الأغبياء
فمن العدل أن يهول الجزاء
وقال في قصيدة «الأندلس الجديدة» في تعاليم السيد المسيح عليه الصلاة

والسلام^(١):
عيسى سبيلك رحمة ومحبة
ما كنت سَفَّك الدماء ولا امرءا
يا حامل الآلام عن هذا الورى
أنت الذي جعل العباد جميعهم
أنت القيامة في ولاية يوسف
كم هاجه صيد الملوك وهاجهم
البنفي في دين الجميع ذنية
والبوم يهتف بالصليب عصائب

لا وعيد لا صولة لا انتقام
ملك جاور التراب فلما
وأطاعته في الإله شيوخُ
أذعن الناس والملوك إلى ما
ومنها:

وتولى على النفوس هوى الأوى
فرأى الله أن تطهر بالسيب
وكذاك النفوس وهي مراض
لم يعاد الله المعبيد ولكن
وإذا جلَّت الذنوب وهالت
وقال في قصيدة «الأندلس الجديدة» في تعاليم السيد المسيح عليه الصلاة
والسلام^(١):

عيسى سبيلك رحمة ومحبة
ما كنت سَفَّك الدماء ولا امرءا
يا حامل الآلام عن هذا الورى
أنت الذي جعل العباد جميعهم
أنت القيامة في ولاية يوسف
كم هاجه صيد الملوك وهاجهم
البنفي في دين الجميع ذنية
والبوم يهتف بالصليب عصائب

(١) الشوقيات ج ١ ص ٢٣٠ مطلقا:

يا أخت أندلس عليك سلام

ويقول في رومة^(١):

ليت شمري إلام يقتتل النا
بلد كان للنصارى قتادا
وشعوب يمحون آية عيسى
ويهينون صاحب الروح ميتا
عالم قُلَّبَ وأحلام خلق
وقال في قصيدة الدستور العثماني^(٢):

الدين لله من شاء الإله هدى
ما كان مختلف الأديان داعية
الكُتُب والرسل والأديان قاطبة
محبة الله أصل في مراشدها
وكل خير يلقى في أوامرها
تسامح النفس معنى من مروءتها
تَخَلَّقِ الصَّفَحَ تسعد في الحياة به
وقال في قصيدة رحالة الشرق^(٣):

كم في الحياة من الصحراء من شبه
كلتاهما في مفاجأة الفتى شَرَعُ^(٤)

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ١ ص ٢٥١ مطلعها:

قف بروما وشاهد الأمر واشهد

(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ١ ص ٢٨٦ مطلعها:

بشرى البرية قاضيه ودانيه

(٣) من قصيدة في الشوقيات ج ١ ص ١٥٥ مطلعها:

أقدم فلبس الإقدام ممتنع

(٤) شرع: سواء. وفي الأصل: في مناجاة. وهو خطأ.

إن للملك مالكا سبحانه

حاط الخلافة بالدستور حاميه

واضح به المجد فهو البارح الصنع

لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع
تهب رياحهما أو يطلع السبع
من العواصف فيها الخوف والهلع
متى تحط رحالاً أو متى تَضَعُ
أن الدليل وأن أرداك متبع
إلا سراّب على صحراء يلتمع
وقال من قصيدة في وصف البسفور^(١):

وماء أم سماء أم نبات
وكيف طلوعها والوقت ظهر
كزهرة دونه في الروض زهر
كما ملكت جهات الدوح عُذْرُ
وتتصل المعازل شامخات
سما بَرُّ بها وانحط بَرُّ
وروض فوق روض فوق روض
كسطر في الكتاب علاه سطر
ولا يحصي معانيهن عِلْمُ
وان قرئت فرادى فهي نشر

وهو وصف يصححه في الأكثر من شاهد بدائع فُروق.

وآن لنا الآن أن تأتي بلمح من حِكْمِهِ. فمنها^(٢):

فلا بد من يسر ولا بد من عسر

وراء كل سبيل فيهما قدر
فلمست تدري وإن كنت الحريص متى
فلمست تأمن عند الصحو فاجئة
ولست تدري وإن قدرت مجتهداً
ولست نملك من أمر الدليل سوى
وما الحياة إذا أظمت وإن خدعت
وقال من قصيدة في وصف البسفور^(١):

جهات أم عذارى حاليات
وتلك جزائر أم نيرات
جلاها الأفق صفراً وهي خضرُ
لوى بحر بها والتف بحر
تلوح بها المساجد باذخات
طباقاً في العلى متفاوتات
وكم أرض هنالك فوق أرض
ودور بعضها من فوق بعض
سطور لا يحيط بهن رسم
إذا قرئت جميعها فهي نظم

إذا لم يكن للمرء عن عيشة غنى

(١) ديوانه ج ٢/٤٠ مطلعها:

على أي الجنان بنا تمر

(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ٢/١٢٥.

وفي أي الحدائق تستقر

ومن يخبر الدنيا ويشرب بكأسها
ومن كان يغزو بالتعلات فقره
ومن يستمن في أمره غير نفسه
ومن لم يقم سترًا على عيب غيره
ومن لم يجمل بالتواضع فضله
يَبْدُ مرها في الحلو والحلو في المر
فإني وجدت الكد أقتل للفقير
بخنه الرقيق العون في المسلك الوعر
يعش مستباح العرض منتهك الستر
يَبِينُ فضله عنه ويعطل من الفخر

* * *

وإذا القلوب استرسلت في غيها
وإذا النفوس تطوّحت في لذة
ومثله:

كانت بليتها على الأجسام^(١)
كانت جنابتها على الأجساد^(٢)
وقد يقع له أن يكرر الحكمة الواحدة في عدة قصائد، كما فعل هنا،
وكما فعل في حكمة:

لك نصحي وما عليك جدالي
آفة النصح أن يكون جدالاً^(٣)

* * *

فقال في مكان آخر^(٤):

عليك النصح إن صادفت أهلا
وقال^(٥):

آفة النصح أن يكون لجاجا
وأذى النصح أن يكون جهارا

* * *

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ٢/ ١٣٧.

(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ٢/ ١٢٠.

(٣) من قصيدة في الشوقيات ج ٢/ ١٢٣.

(٤) لم أجد هذا البيت في الشوقيات.

(٥) من قصيدة في الشوقيات ج ٢/ ١٢٨.

ومن عبث الدنيا وما عبثت سدى
وقال مخاطبًا أهل دمشق^(٢) :
الملك أن تعملوا ما استطعتمو عملاً
الملك أن تخرج الأموال ناشطة
الملك تحت لسان حوله أدب
الملك ان تتلاقوا في هوى وطن
ومما قال في القصيدة التي مطلعها^(٣) :
رمضان ولي هاتها يا ساقى
مشتاقه نسعى إلى مشتاق

* * *

وطني أسفت عليك في عيد الملا
لا عيد لي حتى أراك بأمة
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم
أيظل بعضهم لبعض خاذلاً
وإذا أراد الله إشقاء القرى
وقال من قصيدة^(٤) :
لا تقولوا حطنا الدهر فما
هو إلا من خيال الشعراء

(١) آخر بيت من قصيدة في الشوقيات ج ١١٨/٢ مطلعها :

بمد الدجى في لوعتي ويزيد ويبدئ بشي في الهوى ويعيد

(٢) من قصيدة دمشق في الشوقيات ج ٩٩/٢ التي مطلعها :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا

(٣) الشوقيات ج ٧٦/٢ .

(٤) من قصيدة في الشوقيات ج ٣/٢ مطلعها :

يا فرنسا نلت أسباب السماء وتمليت مقاليد الجواء

ظهرت في المجد حسناء الرداء
إنما السائل من لون الإناء

وفريق في أرضهم غرباء
فلها ثورة وفيها مضاء
ر فكيف الخلائق العقلاء
وقال في تحية غليوم الثاني لصلاح الدين في القبر^(١):

ويندبهم ولو كانوا عظاما
فتى يحيي بمدحته الكراما
وما يجزيهمو إلا كلاما
وقال في فضل العربية^(٢):

جعل الجمال ويسرّه في الضاد
يجدون كل قديم شيء منكرا
من مات من آبائهم أو عمرا
وإذا تقدم للبناية قصرا

هل علمتم أمة في جهلها
باطن الأمة من ظاهرها
وقال من ملحمة له^(١):

ففريق ممتعون بمصر
إن ملكت النفوس فابغ رضاها
يسكن الوحش للوثوب من الأس
وقال في تحية غليوم الثاني لصلاح الدين في القبر^(٢):

عظيم الناس من يبكي العظاما
وأكرم من غمام عند محل
وما عذر المقصر عن جزاء
وقال في فضل العربية^(٣):

إن الذي ملأ اللغات محاسنا
ومن قصيدته في الأزهر^(٤):
لا تحذ حذو عصابة مفتونة
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا
من كل ماض في القديم وهدمه

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ١/ ١٧.

(٢) الشوقيات ٥٦/٤ مطلع قصيدة.

(٣) آخر بيت من قصيدة في الشوقيات ج ١ ص ١١٣ عنوانها: (على سفح الأهرام) مطلعها:
نف ناج أهرام الجلال وناد
هل من بناتك مجلس أو ناد

(٤) من قصيدة في الشوقيات ج ١/ ١٥١ مطلعها:

وانثر على سمع الزمان الجوهرا

قم في الدنيا وحي الأزهر

وأتى الحضارة بالصناعة رثة والعلم نزرا والبيان مشثرا

إذا رأيت الهوى في أمة حكماً فاحكم هنالك أن العقل قد ذهباً^(١)

إذا الأحلام في قوم تولت أتى الكبراء أفعال الطغام^(٢)

لا تعدم الهمة الكبرى جوائزها سيان من غلب الأيام أو غلباً^(٣)
وكل سعي سيجزي الله ساعبه هيهات يذهب سعي المحسنين هبا

فإن السعادة غير الظهو ر وغير الثراء وغير الترف^(٤)
ولكنها في نواحي الضمير ر إذا هو باللوم لم يكتنف

قم للمعلم وقه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا^(٥)
أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشئ أنفساً وعقولا

إن الوفاء سباج أخلاق الفننى من حازه حاز المحامد أجمعا^(٦)

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ١/٧٦ مطلعها:

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا

(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ١/٢١١ عنوانها: (خاتمة رياض). وفي الأصل: تدلت.

(٣) من قصيدة في الشوقيات ج ١/٧٦ مطلعها:

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا

(٤) من قصيدة في الشوقيات ج ١ ص ١٥٩.

(٥) الشوقيات ج ١/١٨٠.

(٦) لم أجد هذين البيتين في الشوقيات.

وفاز بالحق من لم يأله طلبا

وفاز بالحق من لم يأله طلبا

كم من لبيب كان يرجى نفعه
رُتِبَ الشجاعة في الرجال جلائل
لكن أبى عدم الوفا أن ينفعنا
وأجلهن شجاعة الآراء^(١)

أرى وطنًا تحير ناشئوه
فلا أسس التجارة فيه قرّت
فما يجدون من عمل قواما^(٢)
ولا رُكُنُ الصناعة فيه قاما
مدارس لم تهيتهم لكسبٍ
ولم تبين الحياة ولا النظاما

جلال الملك أيام وتمضي
زمان الفرد يا فرعون ولى
ولا يمضي جلال الخالدينا^(٣)
ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض
على حكم الرعية نازلينا

من خانة الدهر خانته صنائعه
ولا ترى الناس إلا حرب مضطهد
وعاد ذنبًا له ما كان إحسانا^(٤)
وجالبين على المخذول خذلانا
والحظ يبني لك الدنيا بلا عمد
ويهدم الدّعَم الطولى إذا خانا

مثل القوم نسوا تاريخهم
كلقبط عي في الناس انتسابا^(٥)

(١) الشوقيات ج ٣/ ٢٢ من قصيدة في رثاء حافظ إبراهيم مطلعها:

قد كنت أوتر أن تقول رثائي
يا منصف الموتى من الأحياء
(٢) لم أجد هذه الأبيات في الشوقيات.

(٣) من قصيدة في الشوقيات ج ١ ص ٢٦٦ بعنوان: (توت عنخ آموت).

(٤) لم أجد هذه الأبيات في الشوقيات.

(٥) من قصيدة في الشوقيات ١٨/٢ مطلعها:

أنا من بدل بالكتب الصحابا
لم أجد لي وافيًا إلا الكتابا

أو كمغلوب على ذاكرة
وأنا المحتفي بتاريخ مصر
يشتكي من صلة الماضي انقضاباً^(١)
من يصن مجد قومه صان عرضاً^(٢)

ومما قال في نكبة دمشق^(٣):

بني سورية اطرحوا الأمانى
فمن خُدع السياسة أن تُغزوا
وكم صيد بدا لك من ذليل
فتوق الملك تحدث ثم تمضي
نصحت ونحن مختلفون داراً
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد
وقفتم بين موت أو حياة
وللاوطان في دم كل حر
ومن يسقي ويشرب بالمنيا
ولا يبني الممالك كالضحايا

وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
بالقاب الإمارة وهي رِقُّ
كما مالت من المصلوب عنق
ولا يمضي لمختلفين فتق
ولكن كلنا في الهم شرق
بيان غير مختلف ونطق
فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
يد سلفت ودّين مستحق
إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا
ولا يدني الحقوق ولا يحق

إنما الشرق منزل لم يفرق
وطنٌ واحد على الشمس والفص
أهله أن تفرقت أصقاعه^(٤)
حى وفي الدمع والجراح اجتماعه

(١) الانقضاب: الانقطاع.

(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ٢/٥٦ بعنوان: (أنس الوجود) مطلعها:

كالثريا تريد تنقضاً

(٣) الشوقيات ج ٢/٧٣.

(٤) من قصيدة في الشوقيات ج ٢/١٠١ في رثاء المويلحي مطلعها:

استخف العقول حيناً براءه
كاتب محسن البيان صناعه

وقال في قصيدة يخاطب أهل دمشق:

نصيحة ملؤها الإخلاص صادقة
والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم
وقال في ملحمة «نهج البردة» مخاطبًا الرسول عليه الصلاة والسلام^(٢):

علمتهم كل شيء يجهلون به
دعوتهم لجهاد فيه سؤدهم
لولاه لم نر للدولات في زمن
تلك الشواهد تترى كل آونة
بالأمس مالت عروش واعتلت سرر
أشباع عيسى أعدوا كل قاصمة
وحتى القنال وما فيه من الذمم
والحرب أسُّ نظام الكون والأمم
ما طال من عمد أو قرَّ من دعم
في الأعصر الغرُّ لا في الأعصر الدُّمِّم^(٣)
لولا القذائف لم تثلم ولم تصم
ولم نُعدَّ سوى حالات منقصم^(٤)
ومن قوله في قصيدة يوم الاعتداء على سعد زغلول^(٥):

أرى مصر يلهو بحد السلاح
وراح بغير مجال العقول
وما القتل تحيا عليه البلاد
ولا الحكم أن تنقضي دولة
ويلعب بالنار ولدانها
يجيل السياسة غلمانها^(٦)
ولا همة القول عمرانها
وتقبل أخرى وأعاونها

(١) الشوقيات ج ٢/ ٩٩.

(٢) الشوقيات ج ١/ ١٩٠.

(٣) الدم: المظلمة.

(٤) المنقصم: المنكسر.

(٥) من قصيدة في الشوقيات ج ١ ص ٢٦٣ بعنوان: (اعتداء) مطلعها:

نجا وتمائل ربانها ودق البشائر ركبانها.

(٦) الديوان: يجل السياسة.

ولكن على الجيش تقوى البلاد
فأين النبوغ وأين العلوم
وأين من الخلق حظ البلاد
كان شوقي يعرف قدر شعره ومبلغ انتشاره في الآفاق، ومما قاله في أهل دمشق^(١):

رواة قصائدي فاعجب لشعر
بكل محلة يرويه خَلْقٌ

نالت منابر وادي النيل حصتها
مني ومن قبل نال اللهو والطرب^(٢)

إن الذي قد ردها وأعادها
في بُردتيك أعاد فيّ البحري^(٣)

وكانه في الفتح عمورية
أسيمُ العصور بحسنه وأنا الذي
وله يخاطب عبد الحميد الثاني^(٤):

يا واحد الإسلام غير مدافع
أنا في زمانك واحد الأشعار

(١) الشوقيات ج ٢ ص ٧٣.

(٢) في الشوقيات المجهولة ج ١ ص ٧٦.

(٣) لم أجده في الشوقيات.

(٤) لم أجدهما في الشوقيات.

(٥) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ ص ٣٦ يصف فيها مشاهد الطبيعة وهو في طريقه إلى الآستانة
مطلعها:

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري
حتى أريك بديع صنع الباري

لي في ثنائك وهو باقٍ خالدٌ شِعْرٌ على الشُعْرى المنبِعة زاري^(١)
فاخر شوقي بشعره وحُقَّ له الفخر، وفاخرت به مصر ولها الفخر، وفاخر
به العرب شعراءهم الأقدمين.

ونشروا لشوقي الجزء الرابع بعد وفاته فحمل الغث والسمين، والغالب
أن فيه قصائد قد أغفلها الشاعر في حياته عن قصد، وكان عليه أن يضعها في
أماكنها من الديوان، كأما ديد الخديوي عباس، على أن هذا الجزء لم يخل
من أمور مهمة، ومنها مجموعة من الشعر السهل، نَظَمَهَا لتكون للأطفال أدبًا
وثقافة، ومنها حكايات على ألسن الحيوانات، وهي غير قليلة. ومما فيه، وقد
حوى معنًى عاليًا بيتان عنون لهما: «بيني وبين أبي العلاء» وهما:

بيني وبين أبي العلاء قضية في البر استرعي لهما الحكماء
هو قد رأى نُعمى أبيه جنايةً وأرى الجناية من أبي نعماء
إشارة إلى ما يروى من قول المعري:

هذا جناه أبي عليٍّ وما جَنَيْتُ على أحد^(٢)
وختم هذا الجزء بمداعباته للدكتور محجوب ثابت، آخرها قصيدة بعنوان
«براغيث محجوب»^(٣):

(١) الشعري: كوكب يطلع في الجوزاء في شدة الحر.
(٢) قال مؤلف (الجامع في أخبار أبي العلاء المعري) بعد أن ذكر هذا البيت: ذكر ابن خلكان
والذهبي والبديعي وغيرهم (انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ١٥٦، ١٨٤، ٢٠٨): أن أبا
العلاء لما قارب الموت أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت كما يروى أنه كان يقوله ويرده
في مرض موته، ولم أر هذا البيت على قبره، ولا أعرف أحدًا ذكر أنه رآه عليه، وهو غير
موجود في شيء من كتبه التي اطلعنا عليها، فلعل من أوصاهم بكُتِبَ لم ينجزوا كُتِبَ، وفي
«أوج التحري» وغيره: أن هذا البيت متعلق باعتقاد الحكماء، فهم يقولون: إن إيجاد الولد
وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه؛ لأنه يتعرض للحوادث والآفات ويروى: هذا
جناة... (انظر الجامع في أخبار أبي العلاء ١، ٤٤٣).

(٣) الشوقيات ج ٤/٢٠٩.

ولم أنس ما طعمت من دمي
وتنفذ في اللحم والأعظم
ت فجاء الخريف فلم أُخجِم
ق فباب العيادة فالسُّلم
كما رُشَّتِ الأرضُ بالسَّمَمِ
على الجلد والعلقِ الأشحمِ
وترفعُ أَلويةَ الموسمِ
رأيت البراغيت في البلغمِ
وفي شاربِيه وحدُّ الفمِ^(١)
مع السوس في طلب المَطْعَمِ
وقال شوقي في بنك مصر أو المصارف عامة^(٢):

براغيث محجوب لم أنسها
تشق خراطيمُها جوربي
وكنت إذا الصيف راح احتجم
ترحب بالضيف فوق الطريد
قد انتشرت جوقة جوقة
وترقص رقص المُواسي الحدادُ
بواكير تطلع قبل الشتاء
إذا ما ابن سينا رمى بَلْغَمًا
وتبصرها حول بيبا الرئيس
وبين حفائر أسنانه
وقال شوقي في بنك مصر أو المصارف عامة^(٢):

ونُنزِلُ لها الخزائنَ والنُّضادا
رجوعَ النحل قد حُمِّلِنَ زادا
وما سُقيت ولا طَعِمَت سادا
إذا رجعوا له أدى وزادا
جعلت أساسها ماسًا ورادا^(٣)
فرشت النيرَاتِ لها مهادا

نصون كرائم الأموال فيها
ونخرجها فتكسب ثم تاوي
ولم أر مثلها أرضًا اغلَّت
ولا مستودعًا مألًا لقوم
ولو ملكت كنوزَ الأرضِ كَفِّي
ولو أن النجومَ هَنَّتْ لحكمي

(١) الرئيس كناية عن الدكتور محجوب نفسه. ومن الأشياء الحبيبة إليه: التدخين في البيبا.

(٢) من قصيدة في الشوقيات ج٤/١٤ مطلعها:

نراوح بالحوادث أو نغادي

(٣) لعله يريد بالراد معدن الراديو.

وننكرها ونعطيها القبادا

وقال يشيد بالفن^(١):

والفن ربحان الملوك وربما
لولا أياديه على أبنائنا
كانت أوائل كل قوم في العُلا
لولا ابتسام الفن فيما حوله
جَرَّد من الفن الحياة وما حَوَّث
نبض الحضارة في الممالك كلها
إن صح فهي على الزمان صحيحةً
أوزاف كانت ظاهراً وطلاء
تَجِد الحياة من الجمال خِلاء
يَجري السلامة أو يدقُّ الداء
أرْضًا وكنا في الفخار سماء
لَمْ نُلَفْ أَمجدَ أمةِ آباء
خَلدوا على جنباته أسماء



(١) من قصيدة في الشوقيات ج٤/٤٩ مطلعها:

خطت يداك الروضة الغناء

وفرضت من صرح الغنون بناء



أحمد فتحي زغلول (١)

١٢٧٩ - ١٣٣٢

١٨٦٣ - ١٩١٤م

ولد في أبيان من عمل الغربية في مصر، وأخذ التعليم الابتدائي والثانوي من مدارس مصر^(*) والإسكندرية. كان الاسم الذي اختاره له أبوه «فتح الله صبري» فلما رأى ناظر المعارف ما كان يتجلى فيه من النبوغ سماه باسمه أحمد، واختار له من الألقاب «فتحي» فكان أحمد فتحي زغلول، وزغلول اسم أسرته. ثم أوفدته المعارف إلى أوروبا فحذق علم الحقوق في باريز، وتمكن من الآداب الفرنسية، وجاء مصر فتولى وظائف كبيرة حتى بلغ منصب وكيل وزارة العدل، وعُني بما طلب منه وضعه من اللوائح والقوانين، وهو الذي وضع لائحة إصلاح الأزهر، ولائحة إصلاح المحاكم الشرعية، وكان أتراه يشهدون بتفوقه عليهم في هذا المعنى.

قال فيه عبد الخالق ثروت من علماء مصر وقضاةها: إنه «نبغ في المعقول والمتقول، مع الأدب الجم، تزيينه البلاغة ويزينه المنطق الصحيح إلى العلم

(١) ترجمته في الأعلام ١/١٨٥ ومعجم المؤلفين ٢/٤٤ وأشهر مشاهير أدباء الشرق: لمحمد عبد الفتاح ٢/١١٤ وانظر معجم المطبوعات ١٤٣٥ - ١٤٣٧ والأعلام الشرقية ٣/١٤. ونشر هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في الجزء الرابع من المجلد السابع والعشرين الصادر في ١/١٠/١٩٥٢ ص ٤٨١ - ٤٨٥.
(*) يريد (القاهرة) كما هو شائع في ذلك القطر (المراجع).

الغزير، تثبته الحكمة، وتؤيده قوة العارضة إلى صفات نادرة في تصريف الأمور». وكان كاتباً مبدعاً وخطيباً مفوَّهاً، وذا ذوق سليم فيما لم يعانهِ من الفنون، وعلى جانب من دماثة الأخلاق والتواضع والبعد عن الدعوى، يجمع إلى هذا كله «شغفاً غريباً بحسن التنسيق والتنظيم» و«إن جهاده في عامٍ واحدٍ من أعوام حياته يقصر دونه جهاد رجال في أعوام، ولم يقصر همته على أعمالها الكثيرة العظيمة، بل كنت تجده عاملاً في كل شأن من الشؤون العامة» «حياة كلها جهاد، وعمل لم يؤت فيهما عقله وجسمه قسطهما من الراحة، مدفوعاً إلى ذلك بعوامل فطرية، مغالباً نوااميس الطبيعة».

كان رجل عمل يدعو إلى تحببهِ إلى الناس وتعليمهم طريقته الرشيدة، ولم يكن رجل ثورة؛ لأنه يكره الثورات ويعتقد مَصْرَّتْها. وعنده: أن القانون الحسن ما احتملته الأمة ونفذته راضية به مستعدةً له. ويرى أن خير التعاليم السياسية والاجتماعية مالاام طبائع الأمة، وكانت فيها قوة على خصمها وجبر مواطن النقص فيها.

«شهد له كل ذي علم وفهم في مصر بأنه بذَّ الأقران، لم يجمع مآلاً، ولم يتأنل عقاراً، ولم يترك درهماً ولا ديناراً». وقالوا في صفاته الشخصية: إنه كان حَسَنَ العِشْرَةِ، حلَّو المفاكهة، نزية النفس واللسان، يرضي كل جليس بغير دهان، لا يملّ جليسه جِدَّهُ، ولا يعبث بوقاره هزلُهُ، وكان متأنقاً في زيه ومعيشته من دون ما تكلف.

وقال الشيخ محمد الخضري، من أساتذة العصر في مصر: «أما خلقه فقد منح منه ما يحببه إلى النفوس، ويقربه إلى القلوب طلاقه وجو وسعة صدرٍ وتواضع الأشراف. كنا إذا أخذنا معه في مسألة رأيناها منا قريباً على رفعة شأنه وعلو مقامه، وربما بدرت منا الكلمة في تخطئة الرأي فيفسح لها صدره، ويلقاها لا تأفف ولا ضجر. وأما اطلاعه على دقائق الفقه وأسراره، فقد كنا نجلس إليه وقد مَحَضْنَا المسألة تمحيص من يريد النزول إلى الميدان

ومباهاة الأقران إلى ما يخيل إلينا أن الفقه علينا موقوف، وعن غيرنا مصروف. فلا نلبث أن نرى ذلك السيل الدافق وقد رجعنا إلى أول مرحلة من مراحل البحث بما يعارض به علل الفقهاء. وكان لشغفه بالقواعد العامة يستدرك على ما يخالفها من جزئيات المسائل، فكان يحمل جليسه على البحث والاستقصاء، ويعدل الفكر إذا زاغ. ولم يكن سمره وعمله إلا فيما يرضي ضميره من كتاب يؤلف أو يترجم، أو عمل صالح يقدم للجمهور من أمته.

أتقن من لغات العلم الألمانية والإنكليزية والفرنسية مئاة من المصريين والشاميين والتونسيين والعراقيين، فكانت لهم أدوات تفاخر لتوصلهم إلى الاستخدام في حكوماتهم، ولكن أحمد فتحي زغلول أحكم الفرنسية والعربية، وما غفل ساعة عن تعريب الكتب وتأليفها، يحملها لأمة فينير سبيلها إلى العلم، ويدعوها إلى النهوض، وما ألف ولا نقل من الغرب إلا ما اعتقد نفعه للناس، لا ليقال إنه ألف ونقل، فمما نقل وجوّده فيه، وكل تأليفه وترجماته كان مُجَوِّدًا فيه، «أصول الشرائع» لبنتام^(١) و«خواطر وسوانح في الإسلام» لدي كاستري^(٢)، و«سر تقدم الإنكليز السكسونيين»^(٣) لأدمون دي مولين، وهو الكتاب الذي أثر في العقول، ومما عرب عن الحكيم غوستاف لبون «روح الاجتماع»^(٤)، و«سر تطور الأمم»^(٥)، وترجم «جوامع الكلم»^(٦)، و«رسالة مصطفى فاضل إلى السلطان عبد العزيز ينصحه فيها ويذكر له ما أصيبت به دولته من الانحطاط»^(٧). ومن تأليفه «المحامة»^(٨)، و«رسالة في

(١) طبع في مجلدين.

(٢) طبع وعنوانه في معجم المطبوعات: «الإسلام، خواطر وسوانح».

(٣) طبع.

(٤) طبع بعنوان: (من أمير إلى سلطان).

(٥) طبع، وعنوانه في معجم المطبوعات (المحامة في كل زمان ومكان).

التزوير الخطي»^(١)، و«شرح القانون المدني»^(٢) ويقول علماء هذا الشأن: أن هذا الشرح من أمتع ما كتب علماء الحقوق^(٣). وكان له فضل في وضع المصطلحات القضائية التي لم تكن معروفة، فاختر من العربية ما ينطبق عليها. وكان دقيقًا فيما ينقل، يحافظ في ترجمته على أفكار المؤلف، لا يمسح ولا يحرف. وبلغ من تضلعه من الفرنسية أن كان يلقي نظرة على كتاب علم كتب بها وترجم عبارته بيان عذب لا يشعر جليسه أنه يترجم، بل يقرأ من كتاب. كان له اللسان الغربي أجمل أداة ينفع بها أمته، ورأى أن يحمل إليها الفائدة من طريق التعريب لعلّمه بتفوق الغرب علينا في جميع العلوم.

لم يهدف المترجم له للخمسين من عمره، وأخرج للعربية هذا المحصول الجيد من علم العلماء والمفكرين بلفظ جزلي سلس واضح. وكان مع هذا لا يحرم نفسه من مباحجها، ولا قومه من العناية بخصوصياتهم. يغشاهم في أفراحهم وأتراحهم، ويشاركهم في آمالهم وآلامهم، ويمتّع نفسه بنصيبها من الرفاهة والنعيم. ولو كان كل من تعلم على طريقة فتحي مثله، على جانب من بُعد الهمة ومعرفة الواجب بقومه عليه، لكان لنا من مجموع ما تخطه أقلامهم ويصدر من آرائهم وتجاربهم كنز نرجع إلى ركازه في تنمية ثروتنا العلمية والمادية.

نقل فتحي أفكار غيره أكثر مما دون لنا أفكاره الخاصة لإيقانه النفع العام في هذه الطريقة، فخالف بذلك طريقة صديقه محرر المرأة قاسم أمين، فإن هذا دون تجاربه وتصويره، وجرؤ على نشرها للناس. ولو مال إلى الإكثار من نشر أفكاره الخاصة أكثر من نشر أفكار غيره لتم الخير للعقول على يده أكثر

(١) طبع.

(٢) وطبع له أيضًا: (الأثار الفتحية) وهو خواطر في العلم والأدب والاجتماع، عني بجمع شواردها عبد العال حمدان و(الملاحظات القانونية).

مما تم. ولذلك كان أحد كبار أساتذتنا يقول: إن مقدمة «سر تقدم الإنكليز السكسونيين» أفيد من الكتاب الأصلي الذي عربه فتحي.

قال في مقدمة كتاب «سر تقدم الإنكليز السكسونيين» من تعريبه، وفيه مثال من حكم القاضي العادل على قصور أمته: «ضَعُفْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا نَرْجُو كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْحُكُومَةِ، فَهِيَ الَّتِي نَطَالِبُهَا بِحِفْظِ حَيَاتِنَا وَخِصْبِ أَرْضِنَا وَتَرْوِيجِ تِجَارَتِنَا وَتَحْسِينِ صِنَاعَتِنَا، هِيَ الَّتِي نَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تَرْبِي الْأَبْنَاءَ، وَتَعْلِمَ الْفُقَرَاءَ، وَتَرْزُقَ الْعِجْزَةَ، وَتَنْفِي أَسْبَابَ الْبَطَالَةِ، وَتَحْفَظَ الْأَخْلَاقَ وَتَلْمِ شَعَثَ الْعَائِلَاتِ، وَتَجْمَعَ أَشْتَاتَ الْقُلُوبِ. هِيَ الَّتِي نَطَالِبُهَا بِتَعْوِيزِ مَا نَقَصَ مِنْ إِرَادَتِنَا وَتَقْوِيمِ مَا اعْوَجَّ مِنْ سِيرِنَا وَسِيرَتِنَا، وَرَدِّ هِجْمَاتِ الْمَزَاحِمِينَ عَنَّا، وَالسَّهْرِ عَلَى مَصَالِحِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا، فَإِذَا تَأَخَّرْنَا فِي عَمَلٍ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ بِإِهْمَالِنَا، رَمِينَاهَا بِسَوْءِ الْإِدَارَةِ، وَاتَهَمْنَاهَا بِحُبِّ الْأَثَرَةِ، وَأَلْقَيْنَا عَلَيْهَا تَبْعَةً خَمُولْنَا كُلَّهَا.

ولا ريب أننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل، وإنما الحكومة وازع لا يكلف إلا ما اقتضته طبيعته، وشأن الحكومات في الأمم تأييد النظام وحفظ الأمن وإقامة العدل. وتسهيل سبل الزراعة، ومعاودة بعضهم بعضاً على ما يضمن حرية التجارة، وتشجيع أهل الصناعات والحِرَف، كما تقتضيه المصالح المشتركة، وعلى قدر ما تسمح به امکانات، وبالجملة: فالحكومة وازعُ عام لا واجب عليه إلا الأمر العام مما يدخل تحته جميع الناس، ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه، وعلى الأمة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام، وتنتهز فرصة الأمن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها، وتطلب الكمال في زراعتها وصناعاتها وتجاريتها، وفي نشر المعارف وإحياء العلوم، وفي أداء الواجب، والمحافظة على الحقوق».

كان أحمد فتحي زغلول يكبر شقيقه سعد زغلول بضع سنين، خلد اسم هذا بعمله العظيم لاستقلال مصر، وكان رجل ثورٍ، وخلد اسم فتحي بتأليفه، استفاد منها ابن مصر وأبناء العرب عامة، وحرص على النهوض بأمة من طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في النفوس.



أحمد كمال (١)

١٢٦٧ - ١٣٤١هـ

١٨٥١ - ١٩٢٣م

قلت يوم تأبين الأثري أحمد كمال في المجمع العلمي العربي: لما انتهى في مصر دور الناقلين والمترجمين والجامعيين والمقتبسين في بعض ضروب العلم، جاء دور الباحثين والمؤلفين والمبدعين، واستطاع المصريون بإصلاح شؤونهم الاقتصادية أن يتلقوا العلم الصحيح في جامعات الغرب، فكان لهم على الدوام بضع مئات من الطلبة. وكثر ارتحال الأوربيين إلى مصر، وطواف المصريين في أوروبا، واشتد التمازج بين المصري والغربي، فاقتبس المصري بعض ما ينقصه من أساليب النهوض، وكان للأزهر ولمدرسة الألسنة ولدار العلوم ولمدرسة القضاء الشرعي والحقوق والزراعة والهندسة ثم الجامعة وغيرها من المدارس العالية والثانوية، ما نراه من آثار نهوضها، مما ندهش له ونهش، وكلما كثر سواد المتعلمين هناك جاءت منهم طبقة أمثل من التي سبقتها، وتراجع كل نتفة في العلم والصناعات، وأصبحت الكلمة للمختصين والفنيين. وقد نبغ في مصر لمهدنا رجال ليسوا مفخرًا من مفاخرها فقط، بل هم مفخرة العرب والشرق عامة، ومنهم - والحق يقال - أفراد لا يَقلُّون عن أرقى علماء الغرب في بحثهم ودرسهم.

(١) ترجمته في الأعلام ١/١٩٠ ومعجم المؤلفين ٢/٥٣ وانظر معجم المطبوعات: ٣٩٦

وإيضاح المكنون ١/٢٨٤، ٢/١٠٥، ١٨٨، ٣٨١، ٤٣٧، ٥٧٨.

وأحمد كمال مترجمنا من جملتهم. فقد كان - أجزل الله ثوابه - مثال النبوغ المصري، وآخر طراز كامل من أفراد الدهر. رزق صفات العالم العامل، وصرف نقد عمره في خدمة الآثار المصرية، حتى أصبح الحجة الثبت فيها، فكان إذا ذكر علم الآثار المصرية في الشرق والغرب، يتمثل في شخصه وجهاده. عمل هذا بعيدًا عن الجعجعة، في زاوية صغيرة من بلده، وعمت مع هذا شهرته الخافقين.

كان السيد حسن والد أحمد من جزيرة كريت. ولد ابنه في القاهرة (١٢٦٧)، ودخل مدرسة «المبتديان» وقضى فيها أربع سنين، ومنها انتقل إلى المدرسة التجهيزية فصرف فيها سنتين، وفي سنة ١٢٨٦ دخل مدرسة اللسان المصري القديم، وحذق اللغات العربية والفرنسية والألمانية والتركية والقبطية والحبشية فلقب باسم (كمال) لنبوغه وأدبه، فصار له عَلمًا، وانصرف كل الانصراف إلى كل ما يزيد علمه في الآثار. وطاف متاحف أوروبا وبعض متاحف مصر، زارها زيارة العالم الباحث، وولع بمعارضة اللغات والعمل على كل ما يؤدي إلى الانتفاع بآثار بلاده، وتَحَرَّجَ به كثير من طلاب هذا الفن، وتولى أمانة المتحف المصري، واختلط بعلماء الآثار من جميع الأمم، وكتب في المجلات الغربية والصحف العربية نتائج أبحاثه، فأصبح الحجة الثبت في هذا العلم. وأسس مدرسة اللغات القديمة: الهيروغليفية والهيراتية والموتيكية والقبطية والعبرية واليونانية واللاتينية. وقام بحفريات في بعض أنحاء القطر، وأنشأ دور تحف في طنطا والمينا وأسيوط.

ألف أحمد كمال معظم كتبه بالعربية، وعني عناية خاصة بمعرفة أصول الاشتقاق والمعارضات باللغات السامية والهيروغليفية والقبطية. وله تأليف كثيرة يدور معظمها على الفن الذي أخذ من نفسه، وصرف في خدمته عمره. ومنها: «العقد الثمين في محاسن أخبار وبدائع آثار الأقدمين من

المصريين»^(١)، و«الفرائد الدرية في قواعد اللغة الهيروغليافية»^(٢) و«بغية الطالبين في علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين»^(٣)، و«الحضارة القديمة»، وهو مجموع ما ألقاه في تمدن قدماء المصريين إلى آخر الأسرة الرابعة عشرة على طلبة الجامعة المصرية وغير ذلك^(٤).

وله بالفرنسية بضعة كتب تدور حول موضوعاته. وأهم مؤلفاته التي لا تزال مخطوطة، وهو في اثنين وعشرين مجلدًا: «قاموس مقارنة اللغة الهيروغليافية باللغة العربية» يورد الكلمة ويقابل بينها وبين القبطية والحشية والإيرانية والعبرية وغيرها، يأتي باللفظ واشتقاقه، وما عرف عنه من الآثار. وهو كتاب لغة وتاريخ وآثار واشتقاق وفلسفة لغة، صرف في تأليفه نحو ربع قرن. وله مذكرات وإضبارات كثيرة كان يعدها لدروسه في الجامعة.

وغاية ما يقال في وصف هذا العظيم: أنه ما خلت ساعة من حياته في غير الدرس والتدريس والبحث والتأليف.

كان المثل الأعلى بجده وحزمه ورؤيته وجلده، قليل الكلام، كثير العمل، نسيج وجده في فنه وفي دؤوبه. لقي معاكسات كثيرة وأغضى عنها، وسار في طريقه فغلب حساده، وأغضى عن اعتادوا وضع العقبات في سبيل كل نابغة، فلم يذكرهم أحد بحسنة، وهو سيذكر بحسناته ما دام علم الآثار.



(١) طبع.

(٢) عنوانه في معجم المطبوعات: الفرائد البهية...

(٣) طبع.

(٤) مما طبع له أيضًا: الدر المكنوز في الخبايا والكنوز، (الجزء الأول بالعربية والثاني بالفرنسية)، اللآلي الدرية في النبات والأشجار القديمة المصرية، الدر النفيس في مدينة منفيس.



إدوار براون^(١)

BROUNE, EDUARD

١٨٦١ - ١٩٢٦ م

ولد إدوارد براون في سنة ١٨٦١، وكان أبوه سر بنيامين جبه من كبار المهندسين، وأمه من أسرة مهندسين، واشتهرت كلتا الأسرتين بحب الموسيقى، فورث من أهله دقة السمع، مما ساعده على تلقف اللغات دون الاعتماد على القواعد، وأدخله أبوه في مدرسة ايتن مدرسة أولاد الأغنياء، وكان أبوه غنياً، وخرج منها في السادسة عشرة. وفي الحرب العثمانية الروسية أحب الترك ودرس لغتهم لينتظم ملازماً في جيشهم، ثم عرض عليه أبوه أن يكون مهندساً فأبى واختار الطب، ودخل جامعة كمبردج سنة ١٨٧٩.

وأخذ العربية عن أستاذه بالمر^(٢)، وحصل منها في فصل واحد على أكثر مما تعلم من اللاتينية واليونانية في خمسة أعوام. ووفق يدرس الفارسية فنال

(١) ترجمته في «المستشرقون»: ٥٥٠٠ وولادته فيه سنة (١٨٦٢) والأعلام ٢٧٢/١ ومنه تاريخا الولادة والوفاة، وفي الأصل ١٩٢٥م فقط وانظر في مجلة المجمع العلمي العربي ٦/١٣٠ مقالاً عنه لمرجليوث. وانظر أيضاً كتاب في الأدب الحديث ١/٣٨٠.

(٢) عالم بالمشروعات. ولد في كمبردج سنة ١٨٤٠م وتوفي سنة ١٨٨٣، وكان مولعاً بعلم اللغات وذا قدرة عجيبة في إتقانها فأتقن الفرنسية والإيطالية والعربية والفارسية والأوردية وقرض الشعر العربي، من آثاره: قواعد اللغة العربية، والإنجليزية، وترجمة القرآن، وسيرة هارون الرشيد، ورحلة في شبه جزيرة سيناء (قام بها على صهوة جواد) المستشرقون:

بعد سنتين رتبته في العلوم الطبيعية. وزار الأستانة، ثم رجع إلى كمبردج ليقضي سنتين في درس اللغات الشرقية فبرز فيها، وكان الأول في امتحانها، وعاد إلى الطب فقضى ثلاث سنوات في أحد مستشفيات لندن. وسافر إلى إيران وقضى فيها سنة^(١). وفي عودته عين مدرسًا للغة الفارسية في جامعة كمبردج (١٩٠٢) ثم أستاذًا للغة العربية^(٢)، وظل على ذلك إلى آخر أيامه.

لم يمارس براون الطب ممارسة فعلية، ووضع كتابًا بلغته في تاريخ الطب عند العرب أعجب به قومه، كما وضع كتاب تاريخ الأدب الفارسي في أربعة مجلدات جَوَّد فيه كل الإجابة، وهو كتاب - كما قال مرجليوث^(٣) - مستوعب موضوعه، لم يسبق إلى مثله، وقلما يوجد في تواريخ الأدب كتاب يضاهيه في الاستقصاء والإحاطة وجمال الأسلوب وسلامة الذوق، كان برهانا على سعة العلم ومفاداته بالمال للحصول على خطوط وكتب مطبوعة وجرائد نادرة. مُقْتَنِيًا آثار التصنيف الفارسي من ابتدائه إلى أيامنا هذه فخلد به ذكره، وافتخر به وطنه.

وكان - خلال مقامه في بلاد العجم - درس مذهب البهائيين، واختلط بأهله فألف في مذهبهم تأليفًا مستوفى أصبح مرجعًا، كما أصبح هو المرجع الأول في الغرب في معرفة ما يتعلق بالبهائية والبهائيين. وساعد أحرار فارس في مسائلهم السياسية، وكان يكاتب الصحف الإنكليزية، وتطوع في الدفاع عن حرية الفرس والعرب، وعرف بهذه النزعة وأحبه العرب والفرس وأكبروا غيرته ونجدته في خدمة دعوتهم وبيان حقيقتهم.

(١) أستاذًا للطب.

(٢) خلفا للأستاذ تشارلز ريو Rieu, Charles (من مؤلفاته: فهرس المخطوطات العربية في المتحف البريطاني ج ٢، وفهرس المخطوطات التركية، وفهرس المخطوطات الفارسية) (المستشرقون: ٤٩٠).

(٣) مستشرق إنجليزي (١٨٥٨ - ١٩٤٠ م).

ونشر بالإنكليزية كتبًا وصف فيها حركات الأحرار والرجال الذين كانت لهم يدٌ طولى في الدعوى إلى الحكم النيابي والقضاء على الحكم الاستبدادي في الشرق. وحسّن لجامعة كمبردج جُلّب معلمين من الآستانة ومصر وإيران يلقنون لغاتهم تلقينًا حسنًا فتخرج بهم تلاميذ خدموا هذه اللغات أحسن خدمة.

ومن أهم ما خدم به العلم الإسلامي تزيينه لأبوي جيمزكب^(١) من علماء المشرقيات وَقَفَ مبلغ عظيم تطبع من فائدته كتب عربية وفارسية وتركية من لغات الشرق الإسلامي تخليدًا لذكر ابنهما، فألف لذلك لجنة دعيت لجنة تذكركب، ورأس اللجنة، واختار أعضاءها من كُفأة علماء المشرقيات فطبعت عشرات من الكتب كان من المتعذر طبعتها لقلّة من يرغب في اقتنائها من أهل الغرب^(٢).

ووضع فهارس الخطوط الإسلامية المحفوظة في خزائن كمبردج، ونشر تأليف عربية وفارسية مع ترجمتها بالإنجليزية. ومنها كتب عهد إلى تلاميذه وأصدقائه بنشرها وعاونهم على تجويد تصحيحها^(٣).

هذا عملٌ عظيم من علماء المشرقيات نفع الشرق والغرب بعلمه وعمله، ولم يصرف يومًا من حياته في غير نفع، ولقد كتب لي الحظ الأوفى أن تعرفت إليه في مجلس أستاذنا الشيخ محمد عبده في القاهرة، وقضينا ردحًا

(١) هو إلياس جون جيب Gibb, E. J. (١٨٥٧ - ١٩٠١) مستشرق اسكتلندي. تخصص بتاريخ الأتراك والفرس والعرب وآدابهم وفلسفتهم وأديانهم، خلده والدته بإنشاء لجنة تذكارية باسمه (المستشرقون: ٤١٩).

(٢) منها: مختار التاريخ لحمد الله صندوقي - مختصر بالإنجليزية.

(٣) منها: تذكرة الشعراء لدولت شاه، تاريخ الأدب الفارسي ٤ مجلدات، مجاميع عن الشعراء الفرس وخراسان والسلاجقة وأصفهان، ولب الألباب لمحمد عوني، تاريخ الطب العربي (بالإنجليزية) وهو عبارة عن عدة تأليف طبية عربية.

من الزمن نتعاطف ونتبأث الأفكار حتى زرته في كمبردج ففرح بلفائي بعد طول البعاد، وأراد أن يضيفني في داره أياماً فحال ضيق وقتي دون إجابة طلب علامةٍ اشتهر بالسخاء بالعلم والمال. وكان هذا آخر عهدي به ﷺ.





إدوار مونتيه (١)

MONTET, EDUARD

١٨٥٦ - ١٩٢٧ م

ولد إدوارد مونتيه في ليون سنة ١٨٥٦، وفيها درس الدروس الثانوية، ونال شهادة العالمية، ثم التحق بجامعة جنيف وبرلين وهايدلبرغ وباريز، ومن مدرسة اللاهوت البرتستانتي في باريز نال شهادة اللاهوت سنة ١٨٨٣، وقدم كتاباً من تأليفه في أصول الفرقتين الصدوقيين والفريسيين وتاريخهم إلى ولادة السيد المسيح. وفي سنة ١٨٨٥ عين في جامعة جنيف أستاذاً للعبرية والآرامية والعهد العتيق. ومنذ سنة ١٨٩٤ أخذ يدرس اللغة العربية وتاريخ الإسلام.

واستفاضت شهرة المترجم له لاضطلاع بالمدنيات السامية ولا سيما الإسلام، فدعته فرنسا لإلقاء محاضرات في مراكش مرتين، وفي كوليج دي فرانس بباريز، ورأس جامعة جنيف من سنة ١٩١٠ - ١٩١٢ وله مقالات في المجلات والصحف. ومن أهم تأليفه: «مختصر في نحو العبرية، والآرامية الكتابية» و«مبادئ النحو العربي»، و«تاريخ سكان مقاطعة الغو»، و«تاريخ شعب إسرائيل من العهد القديم»، و«رحلة إلى مراكش»، و«حاضر الإسلام

(١) ترجمته في (المستشرقون ١/٢٢٩).

و«مستقبله»، و«الاعتقاد بالأولياء في شمالي إفريقيا ولا سيما في مراکش»، و«دروس شرقية ودينية»، و«كتاب الإسلام».

وانتخب عضوًا مراسلًا في المجمع العلمي العربي، فأكبر هذا اللقب، وساعد المجمع ورفع من شأنه بين علماء الشرقيات، كدأب معظم الفرنسيين إذا آنسوا من علماء الشرق تقديرًا لعلمهم.

وعرفتُ مونتيه عندما نشر محاضراته الست في الإسلام ومستقبله. وقد طلب إليّ إعطاء رأيي فيها، فراقنتني صراحتي وإنصافه الإسلام في قوله: إن هذا الدين انتشر منذ أول ظهوره، وقل في الأديان ما شابهه، وإن دعوته ما انتشرت بالقسوة وقوة السيف فإن الواقع قد كذب هذا الظن. وإن مبادئ الإصلاح الإسلامي كانت دينية صرفة بادئ بدء، وإن محمدًا كان رسولًا عمل على أن ينقذ مواطنيه من دين بربري سخيف، وأن يخرجهم بهديه من مدينة منحطة وأخلاق ساقطة. وإنه لا شك بإخلاصه وحماسه الدينية، وإنه دعا إلى إصلاحه بعواطفه.

لما قرأت هذا ونشرته بالعربية بين قومي، ورأيت الإخلاص يتدفق من كلامه اتصلت به ثم زرته في جنيف، وشكرته على حسن ظنه بالإسلام. ومما قلت له يومئذ: إن من كتبوا مثلكم بدون تحزب عنا من الأوربيين قلائل جدًا، فالعلم يشكركم على إخلاصكم وصدقكم، وأكدت له أن معظم من يكتبون متأثرين بعوامل السياسة من الأمم الأخرى وإن ظهوروا في مظهر علمي يخالفونكم في رأيكم. فقال: هذا ما عرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم، وفوق كل ذي علم عليم.

ولما نشر كتابه في الإسلام وقعت فيه على أشياء من مثل ما قال في محاضراته، وعدد أعمال الرسول في الإصلاح، وأنصف الأقدمين من المسلمين، وقال: إن الرسول من أعظم من أحسنوا للإنسانية، واستحسن ما أتت به شريعته من تحريم الخمر على المسلمين، ودعاهم إلى أن يحافظوا

على هذا التحريم لأن فيه قوتهم. حتى إذا تكلم على المسلمين في شمالي إفريقيا وفي غيرها من ديار الإسلام التي استعمرها الإنكليز والهولانديون وغيرهم تكلم بلسان المستعمرين، وأشار على المسلمين أن يخضعوا لمن استعمرهم وقال: إن فرنسا ساعية في تعليم المراكشيين والجزائريين والتونسيين على النحو الذي قرأه فيما كتبه كتاب الاستعمار عنهم وسمعه من جماعتهم فظنه حقاً وصدقاً، وكان حكمه على الظواهر بما لا يليق بعالم من عياره، ولكن الرحلتين اللتين رحلتهما إلى مراكش، وكان فيها شيخ المستعمرين في هذا العصر المارشال «ليونتي» غيرتا من أفكاره. ولسلامة صدره انطبعت آراؤهم فيه، ورددتها في كتابه فرسخت أفكاره بطبيعة الحال ممن اجتمع إليه من الفرنسيين. وفاته أن شياطين السياسة يتحيلون لإغراء كل صاحب شهرة ليتابعهم على خدمة أهوائهم. وهذا مما نزع الثقة من كل كلام يصدر عن مستعمر أو عمَّن له علاقة ولو طفيفة به.





إسماعيل صبري (١)

١٢٧٩ - ١٢٤١هـ

١٨٥٤ - ١٩٢٣م

حظني الحظ بمعرفة أقطاب الشعر في مصر: محمود سامي باشا البارودي وإسماعيل باشا صبري وأحمد بك شوقي، وحافظ بك إبراهيم، وعرفت البارودي في مجلس الإمام الشيخ محمد عبده في عين شمس، وعرفت صبري مرة في المقهى، وكان أحيل على المعاش (وكيل وزارة العدل آخر وظائفه) أي إنني عرفت الشاعرين العظمين معرفةً بسيطةً في آخر أيامهما، أما معرفتي شوقي فكانت في المقاهي أولاً، ثم البيوت والحفلات في مصر والشام. وكانت عِشرتي حافظًا طويلة، وصدائقي متينة، واجتماعاتنا مختلفة في أعوام عديدة.

ومن عجائب الاتفاق: أن نشأة البارودي وحافظ جنديّة، ونشأة صبري وشوقي حقوقيّة، وكلهم نشؤوا في كنف الدولة ورعايتها، ولقّوا من أمتهم

(١) ترجمته في الأعلام ٣١١/١ ومعجم المؤلفين ٢/٢٧٢، مشاهير شعراء العصر: ١٥٨ الموسوعة العربية الميسرة: ٤٦١ شعراء مصر: ٣١ تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ٩٧٤ وله ديوان شعر طبع، دراسات في الشعر العربي المعاصر: ٢٨، في الأدب الحديث ٢/٣١٩، ٣١٧ تاريخ الشعر العربي الحديث لأحمد قيش: ٥٠ ولمحمد صبري كتاب (إسماعيل صبري: حياته وشعره).

ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ١٨ لسنة ١٩٤٣ ص٦ - ١٣ بعنوان: شعر صبري.

العطف والحظوة، هؤلاء الثلاثة لم يثوروا على المجتمع إلا بقدر معلوم، بخلاف الرابع أي: حافظ إبراهيم فإنه ثار عليه حينما كان حرًا طليقًا.

كان صبري أستاذ شوقي وحافظ، وكان شاعرًا موهوبًا شهد له العارفون بخفة الروح ورقة الحس، ودقة الخيال، وامتنياز الطبع، وحدة المزاج، وارتفاع الذوق. وعلى ذلك كان منذ صباه، فلما درس وتفقه، وذهب إلى فرنسا يدرس الحقوق تجلت شاعريته وعبقريته وتفردته بضرب من الشعر قل أن يدانيه فيه غيره.

كان الشعر الجميل الذي يصدر عنه منذ نشأته إلى آخر أيامه شعر العواطف والوجدان، وشعر الوصف الدقيق، لذلك كان شعره من أكثر ما غنى به المغنون؛ لأنه سلس ينم على خوالج النفس، ولا يخلو من عشق واكتئاب، وأثر له، عدا الشعر الذي تغنى به القوم، شعرٌ من شعر العامة، أو الزجل برز فيه أيّ تبريز.

هذه هي الناحية الجميلة من شعر صبري. أما موضوعات الشعر التي عالجه فقد شارك فيها غيره من المعاصرين والغابرين: مديح وثناء ومجاملات للكبراء والأصدقاء، ومقطوعات تقال في مناسبة لإرضاء فريق من الشعب أو لإرضاء نفسه فقط، وذكر بعض من ترجموا لصبري: أنه استسلم للشعر ولكن في قصد واعتدال فلم يتخذ صناعة، ولم يتوسل به إلى الرقي، ولم يتوسل به إلى الكسب. نعم هذا صحيح من جهة لولا أنه مدح أناسًا كان يتوقع خيرهم، وكان بيدهم رفعه وخفضه، ولولا مكانه من الدولة، وطموحه إلى الترقى في درجات أعمالها شأن كل عمالها ما حلاهم بشعره بحلية، ولا نظم فيهم بيتًا. وصبري كسائر الشعراء بل كجمهرة الناس، أحب أن ينتفع بشعره ولكن إلى حدٍّ معقول فيه الاعتدال ولا شك.

ونحن لا يهمنا منه إلا شعره الذي يجب أن يخلد، وهو يرقى ويعلم، ويسر ويحزن. وهذا جملة موضوعات الشعر المفيدة في نظرنا، وما عدا ذلك

من معانيه فمسائل يختلف فيها الاجتهاد. يهمننا من صبري قوله : وكأنه يصف كل نفس تحس وتحب، يخاطب فؤاده، ولحن فيه بعض المغنين^(١) :

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا
لو اذكرت ضحايا العشق أحيانا
من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
في الوصل نارا وفي الهجران نيرانا
لهفي عليك قضيت العمر مقتحما
ولحنوا له أيضا هذه الآيات الثلاثة^(٢) :

يا آسِيَ الحي هل فَتَّسَتْ في كَيْدي
أَوَاهِ من حُرْقِ أودثِ بأكثرها
يا شوقِ رفقًا بأضلاعِ عصفت بها
وقال^(٣) :

ولما التقينا قرب الشوق جهده
كأن حبيبًا في خلال حبيبه
وقال^(٤) :

تمسي تذكرنا الشباب وعهده
هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما
تثب القلوب إلى الرووس إذا بدت
حسناء مرهفة القوام فنذكر
أوفى على قدر الكفاية يسكر
وتُطلُّ من حَدَقِ العيون وتنظرُ

(١) ديوانه : ١١٦ .

(٢) ديوانه : ١١٧ .

(٣) ديوانه : ١١٠ .

(٤) ديوانه : ١١١ .

فإذا دنت من نحرها تستغفر
حتى يسود كبيرهن الأصفر

أيقظوا الفتنة في ظل اللواء
فاجمعي الأمر وصوني الأبرياء
فيه للأنفس ريّ وشفاء
دون بعض واعدلي بين الظماء^(٢)
سفن الآمال يزجيهما الرجاء^(٣)
بين لجّين عناءٍ وشقاء^(٤)
تقتفيها شدة هل من رجاء

للمحبين من عذاب السعير
لك غداً من صحيفة المقدور

وغدا يسلط مقلتيه عليه^(٦)
أنضت بأسرار الضمير إليه

وتبيّت تكفّرُ بالنحور قلائدُ
وتزيد في فمها اللآلئ قيمة
وقال^(١):

يا لواء الحسن أحزابُ الهوى
فَرَقَّتْهُمُ في الهوى ثاراتهم
إن هذا الحسن كالماء الذي
لا تذودي بعضنا عن ورده
أنت يَمُّ الحسن فيه ازدحمت
يقذف الشوق بها في مائج
شدة تمضي وتأتي شدة

وقال من قصيدة في ساعة الوداع^(٥):
ساعةَ البَيْنِ قطعةً أنتِ قُدَّتْ
لا تحيني، روعي الفداء لما حي
وقال:

لما تبوا من فوادي منزلاً
ناديته مسترحماً من زفرة

(١) مطلع قصيدة في ديوانه: ١٠٧.

(٢) لا تذودي بعضنا عن ورده: لا تمنني بعضنا عن مستقى الماء.

(٣) يزجيهما: يسوقها ويدفعها.

(٤) هذه رواية الديوان وفي الأصل: يقذف الشوق بنا.

(٥) آخر بيتين من مقطوعة في ديوانه: ١١٢ مطلعها:

أتزودت من ضياء البذور لليل كثيفة الديدجور

(٦) الأبيات في ديوانه: ١١٩ عنوانها: (إلى نزيل الفؤاد).

رفقًا بمنزلك الذي تحتله يا مَنْ يُحَرِّبُ بيئته بيديه
وله أبيات، وكان دخل كنيسة رمس المشهورة بفرنسا، فرأى مكتوبًا على
عقرب إحدى ساعاتها ما ترجمته: (كلهن جارحات والأخيرة القاتلة) يريد
ساعات العمر والساعة الأخيرة، فقال هذه القصيدة^(١):

كم ساعة ألمني مسها وأزعجتني يدها القاسية
فتشت فيها جاهدًا لم أجد هنيهة واحدة صافية
وكم سقتني المرأخت لها فرحت أشكوها إلى التاليه
فأسلمتني هذه عنوة لساعة أخرى وبني ما بيه
وبحك يا مسكين هل تشتكي جارحة الظفر إلى ضاربه
حاذر من الساعات ويل لمن يأمنُ تلك الفئة الطاغية
وإن تجد من بينها ساعة جمعتها من عُصَصِ خاليه
فألهُ بها لهُوَ الحكيم الذي لم يُنسه حاضرُهُ ماضيه
وامرح كما يمرح ذو نشوة من قُلَّةٍ من تحتها الهاويه^(٢)
فهي وإن بشت وإن داعبت محتالة ختالة عادية
عناقها خنق وتقبيلها كما تعض الحية الباغيه
هذا هو العيش فقل للذي تجرحه الساعة والثانيه
يا شاكي الساعات اسمع عسى تنجيك منها الساعة القاضيه^(٣)
وقال في راحة القبر^(٤):

(١) ديوانه: ١٨٨ .

(٢) القلة: أعلى الجبل .

(٣) المراد بالساعة القاضية: ساعة الموت .

(٤) ديوانه ص ١٩٠ .

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرب
 تلك أم أحنى عليك من الأم
 لا تخف فالممات ليس بباح
 كل ميت باق وإن خالف العند
 وحياة المرء اغتراب فإن ما
 وله أبيات في الشباب والشيب استوحاها من المثل الفرنسي الذي
 ترجمته: (ليت الشباب يعرف، وليت المشيب يُقَدِّر Si Jeunesse savait, si
 vieillesse pouvait).

يشير إلى ما في الشباب من قوة ونشاط يصرفهما في الغواية بغير عقل،
 وما في المشيب من عقل وتجربة لا يجد من القوة ما يعينه على الاستفادة
 منهما وهي (٢):

لم يدر طعم العيش شب
 جهل يضل قوى الفتى
 وقوى تخور إذا تشب
 بينما يقال كبا المغفل
 أوأه لو علم الشبا
 وللشاعر في هذه المعاني قصائد ومقطوعات حسنة جدًا جديرة بأن تتناقل
 وتستظهر، منها في أخلاق الناس (٤):
 غاض ماء الحياة من كل وجه
 فغدا كالح الجوانب قفرا

(١) الأوصاب: جمع وصب وهو الوجد.

(٢) ديوانه: ١٣٦.

(٣) طاش السهم: أخطأ المرمى.

(٤) القصيدة في ديوانه: ١٤١.

وتفشى العقوق في الناس حتى
أوجه مثلما نثرت على الأجـ
وشفاه يقلن (أهلا) ولو أدين ما
عَمَرَكَ اللهُ هل سلامٌ وداِدِ
عَمِيَّتْ عن طريقها أم تعامتْ
عَرَّها سَعْدُها ومن عادة السعد
فتجنَّتْ على الشعوب وشنَّتْ
إلى أن قال:

عَبَّرَ كُلُّها اللَّيالي ولكن
أين من يفتح الكتابَ ويقرأ
وهي طويلة قالها بمناسبة ظهور مذهب (هالي) المشهور في سنة
١٩١٠^(١).

ولصبري في باب المبتكرات في المعاني والألفاظ قصائد ومقطوعات
نادرة مثل قوله في الدواة^(٢):

يا دواة اجعلي مدادك ورذاً
وليكن كالزمان حالاً وحالاً
أكرمي العلمَ وامنحي خادميه
وابذلي الصافي المطهَّر منه
وإذا الظلمُ والظلامُ استعانا
واستمدا من الشرورِ مداداً

(١) هذا المذهب يظهر كل خمس وسبعين سنة، وسمي هذا الاسم نسبة إلى مكتشفه الفلكي (هالي).

(٢) مطلع قصيدة في ديوانه: ١٣١.

واقذفني النقطة التي بات فيها غَضْبُ القَاهِرِ المُذِلِّ كَمِينَا
إلى آخر ما قال .

وكتب إلى الأميرة الكسندرة أفيريويه (كريمة قسطنطين نعوم الخوري)
يرغب إليها في أن تعيد مجلتها «أنيس الجليس»^(١) إلى الظهور بعد احتجاجها
وذلك سنة ١٩٠٤^(٢) .

خَبْرِي القوم يا سَمِيَّة (اشكند
هل لوجه «الأنيس» بعد احتجاج
فنرى فيه كلَّ بحثٍ جديدٍ
إنَّ للغانياتِ حقًّا علينا

وله في هذه الأميرة صديقتيه أشعارٌ لطيفة، والغالب أن الأبيات التي
اشتهرت عنه قالها فيها، وهو مما كتبه تحت بيتين قالتها وهما^(٣) :

فَدَيْتُكَ يا هاجري
سهرتُ عليك الدُّجى
فقال^(٤) :

أهاجرني أطفئي
مضتُ في هواك السُّنونُ
إذا قبيلَ مات الأديبُ
فلما قرأت أبياته كتبت تحتها :

(١) هذه المجلة نسائية علمية فكاهية أدبية كانت تصدر كل آخر شهر. واستمر صدورها من ٣١/

١٨٩٨/١ حتى ١٢/٣١ ١٩٠٤ .

(٢) مطلع قصيدة في ديوانه : ٤٩ .

(٣) اثبت هذان البيتان في ديوانه : ١٢٠ على أنهما لأدبية معروفة .

(٤) ديوانه : ١٢٠ .

زَمَانُكَ قَبْلِي انْتَهَى وَلَا يَرْجِعُ الْمُنْتَهَى
فَحَسْبِي أَنْ أُرْزَهَى وَحَسْبُكَ أَنْ تَشْتَهَى^(١)

أراني استرسلت في نقل هذا الشعر العذب، وكل شعر صبري نمط واحد في العذوبة والسلاسة. ذلك لأنه كان ممن ينقح شعره قبل نشره، مثل حافظ إبراهيم. وقد قال في هذا المعنى^(٢):

سِغْرُ الْفَتَى عَرَضَهُ الثَّانِي فَأَحْرَبِهِ أَلَا يُسَوِّهُ بِالْأَقْدَارِ وَالْوَضَرِ
فَأَنْقَذَ كَلَامَكَ قَبْلَ النَّاقِدِينَ تَحَطَّ ثَانِي النَّفِيسِينَ مِنْ لَغْوٍ وَمِنْ هَذَرِ

وعلى الجملة فإن للشاعر العظيم مقطوعات أو بيتاً أو بيتين تحمل معاني كثيرة وتترك سامعها في فكرٍ وترهف حسه، وما أحلى قوله^(٣):

إِذَا خَانَنِي خِلٌّ قَدِيمٌ وَعَقْنِي وَفَوَّقَتْ يَوْمًا فِي مَقَاتِلِهِ سَهْمِي^(٤)
تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوَدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَكَسَّرَ سَهْمِي فَاثْنَيْتٌ وَلَمْ أُرْمِ^(٥)

وقال فيه أحد المترجمين له أنطون الجميل: إن صبري كان يصوغ هذه الأشعار السهلة بصعوبة، فكان جهاده الشعري طويلاً شاقاً، وهو يجد قوته في تجديد مجهوده، كان يستحث فنه دائماً للاستزادة من الإتقان وجمال الفن... وكان لا يزال يحور ويغير، ويقدم ويؤخر، وهو متعطش إلى مثل أعلى لم يدركه حتى كأنه يقول: «إن أجمل شعري لا يزال في صدري لم

(١) هذان البيتان وردا في ديوانه أيضاً: ١٢٠.

(٢) من قصيدة في ديوانه: ٥٩ في تقرّظ لمخترات محمود سامي البارودي الشعرية مطلعها: يا رائد الشعر لا تقرب منا له إلا وراء دليل صادق النظر وقد نوه بهما أحمد أمين في مقدمة هذا الديوان.

(٣) ديوانه ص ١٤٤.

(٤) فوق السهم: أعده للرمي.

(٥) هذه رواية ديوانه، وفي الأصل: فكسرت سهمي.

أتمكن من نظمه حتى الآن». ومن قصائده الخالدات على لسان فرعون مصر^(١):

لا القومُ قومي ولا الأعوانُ أعواني
ولستُ - إن لم تؤيدني فراعنةٌ
ولستُ جبارَ ذا الوادي إذا سَلِمْتُ
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً
ردوا المجرّة كدًّا دونَ مورده
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمُ
ومن هذه القصيدة في وصف الأهرام:

أهرامهم تلك حَيِّ الفنِّ متخذًا
قد مرَّ دهرٌ عليها وهي ساخرةٌ
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى
كأنها - والعوادي في جوانبها
من الصخور بروجًا فوقَ كيوان^(٢)
بما يضعضع من صرحٍ وإيوان
ما يأخذ النمل من أركانِ نهلان^(٣)
صرعى - بناء شياطينٍ لشیطان
وله كلمة مأثورة منثورة سامت شعره في معانيها، وكأنها أصبحت مثلًا
وهي قوله: أحب التوحيد في ثلاثة: الله والمبتدأ والمرأة، وأحب الحرية في
ثلاثة: حرية المرأة في ظل زوجها، وحرية الرجل تحت راية الوطن، وحرية
الوطن في ظل الله.

وكان من القائلين بالاكتماء بزوجةٍ واحدة، ومن قوله في ذلك^(٤):

(١) ديوانه: ١٧٢.

(٢) كيوان: اسم كوكب زحل.

(٣) نهلان: جبل عظيم في أراضي (نجد) في شبه جزيرة العرب.

(٤) ديوانه: ١٤٤.

يا من تزوج بائنتين ألا أتئد^(١) القيت نفسك ظالمًا في الهاوية
 ما العدل بين الضرتين بممكن لو كنت تعدل ما أخذت الثانية
 وقال معارضًا بيتي الشريف الرضي^(٢):

أرى بعد ورد الماء في القلب غلَّةً وإني لأقوى ما أكون طماعاً
 وإذا كذبت فيك المنى والمطامع فقال صبري^(٣):

يا مَورداً كنت أغنى ما أكون به عن كل صافٍ إذا ما بات بُروني
 عندي لمائك والأقداح طوعٌ يدي ملأى من الماء شوقٌ كاد يُرديني
 ولإسماعيل صبري في باب التغزل بدائع تسيل رقة وعذوبة ومنها^(٤):

لو أن أطلالَ المنازل تنطِطُ ما ارتدَّ حَرَآنَ الجوانحِ شَيِّقُ
 هل عند ذاك السَّربِ أنا بعده في الحي من آماقنا تندفقُ
 أو أن أضلُّعنا على ما استودعت يوم الفراق من الجوى تتحرقُ
 أمنازلَ الأعمارِ أهلكِ أسرفوا من النأي إسراف الغنيِّ وأغرقوا
 لو أنهم قد أنصفوك منازلًا ما حازهم في الكون بعدك مَشْرِقُ
 ومما قال في خلع السلطان عبد الحميد الثاني^(٥):

(١) هذه رواية ديوانه، وفي الأصل: يا من تزوج من اثنتين.
 (٢) هو محمد بن الحسين بن موسى الحسيني (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ، ٩٧٠ - ١٠١٥) مولده ووفاته ببغداد، شاعر مجيد، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده.
 والبيتان من مقطوعة في ديوانه ٥٠١/١ مطلعها:
 لقلبي بغوري في البلاد لبانة وإن كنت مسدودًا على المطالع
 (٣) ديوانه: ١١٧.
 (٤) مطلع قصيدة في ديوانه: ٥٤.
 (٥) من قصيدة في ديوانه: ١٧٦ مطلعها:

دَخَلْتِ فِي زَمْرَةِ الثُّمْرِ المِيَامِينِ - إن يرجع الخبير - نعم الخبير من عمل -
 حُدِدَتْ فِي صَرْحِهِ أَقْوَى الأَسَاطِينِ - أو يغلب الشر - لا كانت عصابته -
 شَيْخُ السَّلَاطِينِ كُنْ شَيْخَ الفِرَاعِينِ - إن لم تكن - لا ثناك الدهر عن أميد -
 صَيْدُ المُلُوكِ إِلَى الغَايَاتِ بِالدُّونِ - إنا عهدناك لا ترضى إذا استبقت
 مُسْتَأْنَفٌ عِنْدَ سُلْطَانِ السَّلَاطِينِ - لا يُرهِقَنَّكَ حَكْمُ النَّاسِ فَهُوَ غَدَا
 وقال ينادي الأقباط في الفتنة التي وقعت بينهم وبين المسلمين سنة
 ١٩١١ بمقتل بطرس غالي باشا رئيس الوزارة^(١):

مَت بَتَفْرِيقِنَا دَوَاعِي الشَّقَاءِ - مصر أنتم ونحن إلا إذا قا
 نَا وَإِلَّا فَمِصْرٌ لِلغَرِبَاءِ - مصر ملك لنا إذا تماسك
 بَذَرُوا بَيْنَنَا بَذُورَ الجَفَاءِ - لا تُطيعوا متا ومنكم أناسا
 رَ مَا فِي قَلُوبِنَا مِنْ صَفَاءِ - لا تُؤلوا وجوهكم شطر من عك
 فِي وَيَنْهَى عَنِ حُطَّةِ الجُهَلَاءِ - إن دين المسيح يأمر بالمر
 وَأَخْتَمَ هَذَا بِنمُودِجَاتٍ مِنْ أغَانِي صَبْرِي. قَالَ^(٢):

مِنْ غَيْرِ مَكَابِرِ - أدك أمير الأغصان
 عَلَى الأَزَاهِرِ - وورد خدك سلطان
 يَا أَلْبَ حَاذِرِ - والحب كله أشجان
 جِزَا المَخَاطِرِ - والصد ويا الهجران

= يا ناظر الترك قد فارت مراحلهم
 قالها في ثورة الأتراك وخلق السلطان عبد الحميد وتولية محمد الخامس سنة ١٩٠٩ .

(١) من قصيدة في ديوانه: ١٨٠ مظلما:

مِعْشَرِ القِبْطِ يَا بَنِي مِصْرَ فِي السَّرَاءِ - قد كنتم وفي الضراء

(٢) ملحق ديوانه: ١ وظاهر أنه جار على كلام العامة.

يا ألب أد أنت حبيت
صبحت تشكي ما لأيت
و رجعت نندم
صدأت أولي ورأيت
لك حد يرحم
يا ما نصحتك ونهيت
ذل المُتَيِّم
لو كنت تفهم

أعرض لحسبك أورا
وأبات صريع الأشواء
واكاتب وادون
وهجر وصبابة وفراء
وأحب وأخمن
وارحم ألوب المُشَاء
يا رب هـون
دا شيء يجنن

ومما ينسب إليه من المواليا قوله^(١):

في ظل أهداب عيونك ورد خدك آل^(٢)
والشمس ويا الأمر في حسنهم لك آل^(٣)
وحسن يوسف ميراث عنه لوجهك آل^(٤)
لو ألت للصب آل. كل الملاح جندي

ولي الجمال أجمعه من غير مشارك، آل

قالوا: إن الشعراء على اختلاف درجاتهم لقبوا إسماعيل صبري بأستاذ الشعراء، وهي تسمية في محلها، ولقبه بعضهم بشيخ الشعراء، وقد قال فيه أحد من ترجموا له: إن صبري كان كامرئ القيس، لم يقل الشعر راغبًا ولا راهبًا، وإنما كان يقوله عن عاطفة تختلج في صدره كقطرة الندى فيصوغها باللفظ كاللؤلؤة الصافية، كانت القوى تجول في خاطره فتصفي أذنه لحفيفها

(١) ملحق ديوانه: ٦.

(٢) يريد القيلولة في وقت الحر.

(٣) آل يؤول: رجع.

(٤) آل: أهل.

فيوقع نغمها إيقاعًا شائقًا. ولم يكن مزهره كثير الأوتار، بل كان يضرب على وترين أو ثلاثة كما رأينا فيستخرج منها نغمًا شجيًا بعيد القرار، يصدر عن خففة فؤاد فيتقلب متماوجًا حتى يستقر في تضاعيف الفؤاد كالموجة تقذف بها لجة البحر، وتتكسر متلاشية على ساحل البحر.

ووصف خليل مطران طريقة صبري في قرض الشعر فقال: أكثر ما ينظم فلخطة تخطر على باله، من مثل حادثة يشهدها، أو خبر ذي بال يسمعه، أو كتاب يطالعه. ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراته نفسه على ما تدعوه إليه فالغالب في أمره أن يقول الشعر متمشيًا. وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه، وله بين حين وحين أنه بمثل ما تنطق لفظة «أيه» مستطيلة، وقال: إنه ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة، وقلما يزيد على هذا المقدار إلا حيث يقصد قصيدة، وهو نادر. شديد النقد لشعره، كثير التعديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش في صدره شعر فيرسل بيته إطلاق زوجي الطائر، فيذهبان في الفضاء ضاربتين من أشطرهما بأجنحة ملتزمة شاديين على توقيع العروض إلى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان. وذلك هو شعر للشعر. اهـ ما أصدق هذا الوصف.

وللأستاذ العقاد رأي غريب في شعر صبري قال: إن شعره لطيف لا تَعْمَلُ فيه، ولكنه كذلك لا قوة فيه ولا حرارة. ونقده نقد بصير عارف بالزيف كله، ولكنه غير بصير ولا عارف بالصحة كلها، وأثره في تهذيب الأذواق ونفي ما كان فاشيًا من زيف التشبيه وفساد الخيال أثر واضح لا ريب فيه، لكنه بعد هذا أثر محدود بذلك النطاق المرسوم. وإن شئت فقل إن أدب الرجل كان أدب اللوق، ولم يكن أدب النزعات والخوارج، أدب السكون، ولم يكن أدب الحركة والنهوض، وأدب الاطلاع الحسن ولم يكن أدب الابتكار المستكشف الجسور.

وأوردَ الدليلَ على هذا الرأي بعضَ قصائد لصبري في الغزل والتشبيب
مثل قصيدته^(١):

يا لواء الحسن أحزابُ الهوى أيقظوا الفتنة في ظل اللواءِ
فقال: إنها ذوق وكياسة وليس فيها عشق وحرارة، وقال: ولن نذكرنا
هذه الأبيات بعاشق يهوى معشوقًا يقف عليه نفسه ويطلب إليه أن يقف نفسه
عليه، وإنما نذكرنا بنديم قاهري في سهرة من سهرات الطرب، يلتف مع
صحبه بغانية أو مغنية، يتلطف في الزلفى إليها، والثناء عليها، فلا يشعر من
وراء ذلك بلوعة ولا غيرة من المنافسين، قناعة منه بالراحة بين الأحزاب
والعدل بين الظماء.

نعم إن صبري مُقِلٌّ من قول الشعر، ما إخاله نظم أكثر مما نظم حافظ،
والبارودي وشوقي كانا مكثرين مع الإجادة، ومعاورة حافظ لشعره بالنقد
والتشذيب كمعاورة صبري له، تَحْيِيرُ الموضوعات الشعرية يتشابه فيها حافظ
وصبري، ولكل واحدٍ مزية تفرد بها، فقد تفرد صبري بأغانيه، وحافظ
باجتماعياته، وشوقي بوصفه، والبارودي بِحِجَمِهِ، وكلهم حاولوا أن يدمجوا
حِجَمًا فكانوا دون المتنبّي، وربما كانت العاطفة في شعر صبري أبرز مما هي
في شعر غيره من شعراء الطبقة الأولى، حتى ليسوغ لنا أن ندعو شعره بالشعر
العاطفي والغنائي.

ولطالما قلت وأنا أتلو شعر الشعراء الأربعة، أو أجمع إليهم وأسمع
حديثهم: حبذا لو أسعفهم الزمن فعزلهم عن الوظائف. وألقاهم في ناصيته
ينظمون لأنفسهم ولمجتمعهم أحرارًا غير مقيدين بقيود الاستخدام الثقيلة،
وربما جاء من كل واحدٍ منهم شاعر كشكسبير وكيوتي وموليير ودونونزيو من

شعراء الإفرنج، ولكانت تجلّت قرائحهم فأبدعت إبداعًا يبقى يثيمة في عنق
 الدهر، وقد قيل^(١):
 يموت رديء الشعر من قبل أهله وجيّدُهُ يبقى وإن مات قائلُهُ



(١) القائل هو دهب بن علي الخزاعي (١٤٨ - ٢٤٦هـ، ٧٦٥ - ٨٦٥م) شاعر هجاء، أصله من الكوفة، وكان صديق البحري وله كتاب (طبقات الشعراء) وكان طوآلاً ضخماً والبيت من مقطوعة له في مجموعة شعره الذي جمعه الدكتور عبد الكريم الأشر ص ١٧٧ والعمدة ١ / ١١٤ وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢ / ٢٣٨ وزهر الآداب ٣ / ٦٦٥ ومطلع هذه المقطوعة:

تَعُوْني وَلَمَّا يَنْعَني غير شامت وغير عدو قد أصيبت مقاتله



كولد صهر (١)

GOLDZIHHER IGNAZ

١٨٥٠ - ١٩٢١م

ولد اغناطيوس غولدصهير في هنغاريا سنة ١٨٥٠، وتلقى العلم في جامعات بودابست وليبسيك وبرلين، وتخرج في العلوم الشرقية بالعلامة فميري المجري، من أكبر علماء المشرقيات في عصره، ودرس اللغات السامية، وأخذ العربية والشرع الإسلامي في الأزهر، وجاء دمشق في شبابه، واختلط بعلمائها وأدبائها، وصحب أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري، وكان يطيب له أن يوقع كتبه هكذا: «الفقيه أجتاس غولد صهير المَجْرِي الأزهري»، وانتظم عضواً في المجامع العلمية والجمعيات الآسيوية والمؤتمرات الشرقية. وكتب مقالات وأبحاثاً في مجلات المشرقيات، وكان يحسن بضع لغات ومنها الخرواوية الصربية. من أبحاثه: خطابه في مذهب داود الظاهري، وقد طبع له بعض كتبه، كما طبع «المحلى» لابن حزم، ومنها خطابه في المراثي عند العرب، وكتب أكثر مؤلفاته بالألمانية والفرنسية والإنكليزية، ومنها كتابه في اليهود (وهو يهودي النُّحلة) وفي آداب الجدل عند الشيعة، والأساير الميثولوجية عند اليهود. و«كتاب في الإسلام»^(٢)، و«دروس في الإسلام»

(١) ترجمته في «المستشرقون»: ١٩٦ والأعلام ج ١/ ٨٠.

(٢) لعله كتاب (المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن) الذي نقده الأستاذ أحمد محمد جمال في

كتابه (مع المفسرين والكتاب) ص ١٣٨ - ١٥٤.

نشرها بالألمانية في مجلدين، و«بحث فلسفي في اللغة العربية» في مجلدين... وأحيا من المخطوطات العربية ديوان الحطينة، وكتاب محمد بن تومرت، ومعاني النفس ومقالة لكاتب إسرائيلي في أسماء الله الحسنى وصفاته تعالى، ورسالة «التَّقِيَّةُ في الإسلام». وألف بالفرنسية رسالة اللامسائية في مسألة السامري وعجل الذهب^(١):

ولما نُميت إليه مزاعم بعض علماء المشرقيات في قصور العرب بتمحيص الرواية، ومعرفة درجات الرواة في أصول علم الحديث وقواعد الجرح والتعديل، عزم أن يضع كتابًا يكشف القناع عن الحقائق، ويظهر مكانة العرب من التمحيص، وبيننا هو يرصد المعدات لتأليف كتاب في هذا الشأن ظهر كتاب «توجيه النظر إلى علم الأثر» للعلامة طاهر الجزائري. ورأى فيه من التحقيق ما سرّه، وترجم عما في نفسه فقال: لقد كفانا الشيخ طاهر مؤونة التأليف في هذا الموضوع، وترجمه بالألمانية.

ومما نشر «رسالة في الحسين بن منصور الحلاج» ونقد كتاب «الطواسين» الذي نشره العلامة ماسينيون، ونشر كتاب المستظهري «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية» للغزالي.

ولما عرَّجتُ على بودابست كان مشغولاً بتصحيح هذا الكتاب والتعليق عليه فسألني ثلاث مسائل أشكلت عليه فاهتديت إلى حل واحدة، وحل الشيخ طاهر الثانية، وبقيت الثالثة بلا حل. وأطلعني على خزائنه، وكان فيها كل

(١) قصة السامري وعجل الذهب وردت في القرآن الكريم سورة طه الآيات ٨٥ - ٩٧ ملخصها: أن الله تعالى دعا نبيه موسى تالله لتكليمه، فترك قومه وخَلَفَهُ فيهم أخوه هارون، وكان موعده ثلاثين ليلة، ولكن الله تعالى جعلها بعد ذلك أربعين، فلما طال غيابه أضلهم السامري، وهي نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة واسمه: موسى بن مظفر، وكان منافقاً فصنع لهم عجلاً من ذهب له خوار فعبدوه وتركوا عبادة الله، فعوقب في الدنيا وحرّم على الناس ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته ومسه فتحماماه الناس.

ما ينبغي لعالم مثله اقتناؤه من الأمهات المطبوعة في الشرق والغرب ومعظمها باللغة العربية، ومما جمع فيها المراسلات التي دارت بينه وبين علماء الشرق وغيرهم، ليرجع إليها على عادة الغربيين في استفادتهم من كل فكرٍ وحفظه للرجوع إليه حين الحاجة. وابتاعت خزائنه الجامعة العبرية في القدس وضممتها إلى خزائنها العظيمة.

ولقد نشرت مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريز كتابًا بعد وفاته من تأليف الأستاذ هير المجري ذكر فيه ما صنفه غولد صهير من الأبحاث الإسلامية واليهودية، في اللغات المجرية والألمانية والإنكليزية والفرنسية والروسية والسويدية والخرواتية والعربية، منها ما جاء في كتب ضخمة، ومنها ما كان مقالات في المَعْلَمَات الغربية وفي المَجَلَّات العلمية على اختلاف لغاتها.

شغل الأستاذ أكثر عمره بتدريس تفسير القرآن والأصول والحديث والملل والنحل في جامعة بودابست. سألته وقد تقوض المجلس وهو يستأذن بالانصراف: إلى أين تذهب الآن؟ فقال: لإلقاء درسي، فقلت له: ما درُسُك؟ قال: تفسير القرآن، فضحكت وقلت له: ذكرتني حالك الآن بما قاله العلامة أحمد زكي المصري لما زار الأستاذ درنبرغ في مدرسة اللغات الشرقية بباريز وهو يدرّس القرآن فقال: إسرائيلي يدرّس كتاب المسلمين لجماعة من النصارى.

ودعاني لتناول طعام العشاء من الغد في بيته وقال لي: إنه سيكون معنا ابنه غولدن صهير المهندس وقرينته، ولما قدمني إلى كُتَّته قال: تُحسِن خمس لغات تكتب بها وتتكلم بطلاقة، وهي عارفة بالآثار المصرية. فقلت: ما كان يخطر لي ببال أن أرى في الديار المجرية فتاة تشارك الرجال في عملهم الذي يتوقف درسه على معارف متنوعة، فإن كان نساؤكم على هذا المثال في الغرام بالعلم، فلا عجب إن جاء من رجالكم كل عجيبة. ولما انصرف المدعوون استبقاني وسألني كيف وجدت كنتي، فأثنت عليها وقلت له: بارك الله

لزوجها بها فقال: هي متعلمة وجميلة وغنية أيضًا، أو متعلمة وغنية وجميلة أيضًا، لا أذكر العبارة بالضبط.

طلبت إليه لما تزاورنا أن يعرفني إلى بعض أرباب الصحف في بودابست لأخذ عنهم ما يهمني الوقوف عليه من حال هنغاريا فقال: وما الحاجة إلى هذا الاجتماع وأنت عربي ومتشبع بعروبتك، وأنت تعلم أن المجرين يحبون الأتراك، ولا ينسون عطف الدولة العثمانية على من التجؤوا إلى بلادها من قوادهم عقبى إحدى الثورات على النمسا، فحمتهم وأكرمت وفادتهم. وإني لأحشى إذا اجتمعت إلى الصحافيين أن تبدر منك أو منهم كلمات تؤدي إلى جدال لا تحمد مغبته، فالأولى أن تسألني ما تحب الاطلاع عليه، وبذلك تتفادى من الوقوع فيما ليس من الحكمة الوقوع فيه.

طالعت بعض ما كتب غولد صهير بالفرنسية، ومنه ما نقل إليها مقالاته في الفقه وما إلى ذلك مما نشره في معلمة الإسلام فرأيت طريقته طريقة العلماء يعشقون الحقائق ولا يعبؤون بما عداها، ولا عجب إن أصبح غولد صهير مرجع علماء المشرقيات الإسلامية في ديار الغرب لعده. ومن أحصى ما نشر من أبحاثه باللغات المختلفة يأخذه العجب مما وصل إليه من مقامات العلم، ولا يكاد يصدق أن عمر الإنسان القصير يتسع لتأليف ما ألف فيه من الأبحاث الصعبة. وأن الدراسات التي وجهت إليها^(١) همة غولد صهير مما يعز حصول مثله لعالم شرقي. ذلك لأن الشرقي بعيد عن الإتيان. يصاب بالملل ولا سيما يوم تعرض له مشاكل تحتاج إلى أناة طويلة وطول تفكير.

(١) (١) الأصل: إليه.



أمين المعلوف (١)

١٢٨٨ - ١٣٦٢هـ

١٨٧١ - ١٩٤٣م

هو من أسرة لبنانية كبيرة ظهر منها مع انتشار التعليم في ربوع لبنان المؤرخ والطبيب والشاعر والسياسي. ومن نوابغهم أمين هذا.

درس الطب في الجامعة الأمريكية فكان الصدر المقدم فيه بين أقرانه. وكان غرامه بالأدب يوازي غرامه بالطب، فكان أبرز شاهد على تعدد المواهب في إنسان، من كمون الموهبة العلمية في بعض زوايا نفسه، فإذا آتت فرصة تجلت أعظم تجلٍ وكسفت المواهب الأخرى. فقد احترف الطب، وكان ذا حذق نادر في تشخيص العلة، ولكن ظهرت فيه في الوقت نفسه الموهبة المدفونة في دفتي صدره وقرارة نفسه، وهي موهبة البحث العلمي، وانبثقت فيه انبثاق الإلهام والوحي، وظهرت طواعها في كثرة التنصي والسؤال والمطالعة.

توفر سنين طويلة على وضع كتاب «معجم الحيوان» على الأصول الغربية من البحث الدقيق حتى جاء كتابه آية تتجلى فيها العناية، وجعله على حروف الهجاء. ذكر فيه الاسم العربي والاسم الإنكليزي والاسم العلمي، وأحياناً

(١) ترجمته في الأعلام ١/٣٦٠ ومعجم المؤلفين ٣/١٢ وانظر مقالات له في مجلة المجمع العلمي ٧/٢٨٩ ٣٢١/٩٠، ٤٠، ١٦٠ وهو أمين بن بن فهد بن أسعد المعلوف، ومن أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق الراحلين وتوفي بالقاهرة إثر شلل أصابه.

الاسم الفرنسي، ووصف كل حيوانٍ فيه وصفًا دقيقًا يقربه من ذهن القارئ. وهذا من الكتب الخالدة^(١). وألف أيضًا المعجم الفلكي، ألمّ فيه بذكر الثوابت والكواكب السيارة وصور النجوم وبعض الاصطلاحات الفلكية^(٢). وكان يعد كتابًا ثالثًا في النبات، نشر منه في مجلة المجمع العلمي العربي مبحثين في المجلدين السابع والثامن، ولم يطبع. وبدأ بتأليف معجم إنكليزي عربي ولم يتمه، وله أبحاث في الاصطلاحات الطبية، وتعليقات على كثير من الألفاظ التي أخطأ العلماء فيها.

«ولقد كان رحمه الله من أصدق الناس وطينةً وأسماهم أخلاقًا، وأخلصهم للقضية العربية. خدم بلاد العرب في الجيش المصري وفي الثورة العربية، وفي الجيش العراقي، وخدم لغة الضاد في جميع أدوار حياته، فكان في كل ذلك نعم الخادم العالم الصادق الأمين».



(١) طبع بعنوان: معجم الحيوان.

(٢) طبع بعنوان: المعجم الفلكي.



أنستاس الكرملی (١)

١٢٨٣ - ١٣٦٦هـ

١٨٦٦ - ١٩٤٧م

ولد في بغداد من أب لبناني وأم بغدادية. ودرس في مدينة السلام الدروس الابتدائية، والتحق بعد ذلك بمدرسة اليسوعيين في بيروت. ودير الكرمليين في شفرمون ببلجيكا، وفيها سيم^(*) قسًا سنة ١٨٩٤ فسمى نفسه أنستاس ماري الكرملی. وكان اسمه قبل أن يذهب بطرس بن ميخائيل جبرائيل عواد، وعاد إلى وطنه وقد أتقن العربية والفرنسية، ودرس اللاتينية واليونانية وتخرج بالآداب العربية بعلامة العراق السيد محمود شكري الألوسي، وما زال يعامله إلى آخر حياته معاملة التلميذ أستاذه.

وأخذ منذ دخل دير الكرمليين في بغداد يُعنى بالبحث عن أصول المفردات العربية وعلاقتها باللغات السامية وغيرها، فاقتضاه ذلك أن يلم إمامًا خفيًا بالسريانية والعبرانية والحبشية والمندائية والفارسية والتركية، ثم الإنكليزية والإسبانية والبرتغالية على مثال علماء المشرقيات في الغرب وتلقنهم اللغات التي تنبعث همتهم إلى تذوقها قليلًا.

وساعده فراغه في ديره، فكان بعد قيامه بواجباته الدينية لا يصرف ساعة

(١) ترجمة في الأعلام ٣٦٦/١ ومجمع المؤلفين ١٧/٣ وانظر معجم المطبوعات ٤٨١ ومجلة

المجمع المجلد ٢٣ ص ٦٠٨.

(*) من سَامِه يَسُوْمُهُ الأَمْرَ: كَلَّفَهُ إِيَّاهُ (المراجع).

في غير الدرس والبحث، فألف في الموضوع الذي أخذ من نفسه، أبحاثاً وكتباً ورسائل. ونشر في المجلات العربية أبحاثاً ممتعة، ولا سيما في «المشرق» و«المقتبس» والمباحث والمسرة والزهور والزهراء والمقتطف والهلل ومجلة المعلمين، ومجلة المرأة الجديدة ومجلة المعهد الطبي العربي، ومجلة المجمع العلمي العربي ومجلة فؤاد الأول وغيرها. وكان يوقع مقالاته في هذه المجلات بتوقيعه الصريح أو بإمضاء مستعار. وقد أنشأ في بلدته مجلة «لغة العرب» صدر منها ثمان سنين وأنشأ مجلة دار السلام أربع سنين.

وألف في الدين والمواعظ كتباً ورسائل اشتهرت بين أبناء طائفته، وتأليفه العلمية تتناول اللغة والتاريخ على الأكثر، ومنها رسالة في «الكتابة العربية المنقحة» و«نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها»^(١) و«أغلاط اللغويين الأقدمين»^(٢) «خلاصة تاريخ العراق»^(٣) و«النقود العربية وعلم النميات» وغير ذلك. ونشر من كتب الأقدمين الجزء الثامن من «الإكليل» للهمداني^(٤)، وجزءاً من كتاب «العين» للخليل بن أحمد^(٥)، و«نخب الذخائر في أحوال الجواهر» لابن الأكفاني. وله تأليف أخرى لم يكملها. وحدثني غير مرة: أن له معجماً مطولاً في العربية سماه: «المساعد» لم يوفق إلى طبعه.

كان رصيفي في المجمع العلمي العربي بدمشق، وفي مجمع فؤاد الأول اللغوي في القاهرة. وهنا كانت تظهر عند المناقشة في الألفاظ سعة علمه بها حتى ليخيل للسامعين أن معظم الألفاظ التي يهيمه معرفة أصولها قد وضع لها

(١) طبع.

(٢) وهو في أنساب حمير وملوكها، وفيه وصفٌ لليمن وآثارها. والهمداني هو الحسن بن أحمد بن يعقوب، والمعروف بابن الحائك (ت ٣٣٤هـ).

(٣) الفراهيدي، المتوفى سنة ١٧٠هـ، إمام اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وكتابه (العين) معجم لغوي.

جزازات يرجع إليها كلما أراد. وهذا دليل دؤوبه في خدمة اللغة وطول أناته في البحث والدرس. وكانت كتابته سهلة، خالية من الألفاظ التي تعلو عن أفهام جمهور القراء، لكن ديباجتها لا تناسب كتابة رجلٍ عاش عمره في وسط كتب بلغاء العرب. أي: إنه ما كان كاتبًا بليغًا، وتعرض له الركاكة أحيانًا.

وكان يُصلح لبعض علماء المشرقيات بعض أبحاثهم وكتبهم، وبأخذ منهم ما يرتفق به، وليس هذا ما يؤاخذ عليه، وهو يؤاخذ عندما بالغ في مجلته برفع شعر أحد شعراء الناشئين فوق شعر أكبر شعراء العصر، وبالتنويه بمعجم هو يعترف أن كل صفحة من صفحاته لا تخلو من عشرات الأغلاط، وذلك مقابل مبلغ من المال تقاضاه من الشاعر والمؤلف حتى يمدح عملهما بما لا يستحق. وجرى في ذلك على طريقة الصحف الفرنسية في التنويه بمؤلفين متوسطين ومؤلفات حقيرة مقابل دفع شيءٍ للكاتب والناشر. وفي ذلك افتتات على العلم. وغمط لحقه.

وكان يعجب من خطتي في تطليبي نقد ما ألفت ونشرت، ويقول: لم أر في الشرق والغرب من جرى على هذه الطريقة، فقد جرت عادة المؤلفين في الأكثر أن يتطلبوا تقرير كتبهم، ويسوؤهم أن تنتقد، وأنت تتطلب نقد ما تؤولف وتنشره للناس! فكنت أجيبه: إن النقد حياة العلم، وإن لمن ينقدي ثلاث ممن علي: يفيدني، ويفيد الناس، ويفيد العلم. أما التقرير والمدح فلا ينفع أحدًا.

جمع الأب العلامة خزانة كتبٍ عظيمة قدرت في آخر أيامه بخمسة عشر ألف مجلد، فيها معاجم من اللغات المختلفة، وكتب في التاريخ والأدب، ومنها مجموعة من كتب العرب التي أحيهاها الغربيون بالطبع، ومنها مخطوطات عربية، وفي الحرب العالمية الأولى احتل ديرُه سريةً من جنود الترك، فاشتد عليهم البرد في بعض الليالي، فلم يروا وقودًا أقرب إليهم من أخذ بعض المخطوطات وجعلها طعامًا للنار، ثم تناولتها أيدي النهب ففقد

مئات من مجلداتها، وعاد بعد الحرب فاسترجع المسروق، وما عوَّض المحروق. وكان إذا ذكرت له خزانته يتألم لما حلَّ بها. وقد وقف هذه الخزانة على الدير، كما خص طائفته فقط بما ترك من ثروة جمعها في الأكثر من المسلمين وحكوماتهم.

غضب ذات يوم على أحد رهبان ديره فضربه بالعصا فحكمت الرهينة عليه بالنفي إلى دير الكرمليين في حيفا، على أن لا يكتب ولا يؤلف، فكتب لي بذلك سرًا، فرجوت بعض المقرئين من ملك العراق فيصل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يتدخل في الأمر لتُطلق للأب حرّيته، فطلبه الملك من رئيس ديره بحجة أن له أشياء يريد استفتاءه فيها، فما وسع صاحب الدير إلا إجابة الطلب، وعاد أنستاس إلى حرّيته يؤلف ويصنف وينفع اللغة والآداب.

كان المترجم له لا يرحم أحدًا يعبث باللغة، أو يقول فيها بلا علم. اشتد بنقده على الأموات والأحياء، وأكثر من ضربه ضربًا مبرحًا أصحاب المعاجم العصرية، فكان للبستاني وغيرهما حظ جزيل من نقده وسخريته، لما وقع في معاجمها من الشطط، ولم يخلِ اليسوعيين أنفسهم من نقد معاجمهم والحملة على ما أحيوه من كتب العرب. وكان الرجاء معقودًا على نشره معجمه الذي صرف فيه شطرًا كبيرًا من حياته، وإلى الآن لم تتعلق بذلك همة بعض الناشرين.



جرجي زيدان (١)

١٣٧٨ - ١٣٣٢هـ

١٨٦١ - ١٩١٤م

لبناني ولد في بيروت من أسرة فقيرة. تعلم في بعض مدارسها الابتدائية، ودخل الكلية الأمريكية لتلقي الطب فلم يتِمَّ له نيل الشهادة، وهاجر إلى مصر، وتولى تحرير جريدة الزمان، ثم رافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ بوظيفة مترجم. ثم عاد إلى بيروت، ودرس فيها اللغتين العبرية والسريانية، ووضع كتابه «الفلسفة اللغوية»، ثم رحل إلى لندن وعاد إلى مصر. وعين محرراً في إدارة «المقتطف»، ثم أنشأ مجلة «الهلال» ١٨٩٢ وانقطع إلى التأليف.

كتب اثنين وعشرين مجلداً من «الهلال» وخلف بضعة من تأليفه الأدبية والعلمية عدا ٢٢ رواية وقصة أخذ أكثرها من تاريخ العرب. ومن أهم كتبه «تاريخ التمدن الإسلامي» في خمسة مجلدات، ومنها «تاريخ مصر الحديث»، و«تراجم مشاهير الشرق» و«التاريخ العام»^(٢)، و«تاريخ الماسونية»، و«تاريخ

(١) ترجمته في الأعلام ١٠٨/٢ امرأة العصر: ٤٥٧ قداماء ومعاصرون: ١٥٦، عصاميون عظماء من الشرق والغرب: ٥٩ - ٨٠ مقال إبراهيم الطناحي، تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ١١٢٥ وانظر معجم المطبوعات: ٩٨٦ والرائد: ٧٤٥ وفي آخر الجزء الرابع من كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) ص ٦٨٣، رجال عرفتهم: ١٩١.

(٢) كرر هنا في الأصل كتابه السابق (تاريخ مصر الحديث).

اليونان والرومان»، و«تاريخ العرب قبل الإسلام» و«تاريخ اللغة العربية» و«تاريخ آداب اللغة العربية»، و«أنساب العرب القدماء» و«علم الفراسة الحديثة»^(١) إلخ.

محصول كبير أخرجه المؤلف بسرعة، وما توخى أن يكتب للمخاطبة، بل كتب على الأكثر للعامة والطبقة الوسطى، وكان ضعف^(٢) أسلوبه في البيان معواناً له على فهم العامة ما يكتب، وهي مزية لم يوفق إلى مثلها أكثر من سبقوه ولحقوه من أرباب الأقلام، وليس بث الآداب في السواد الأعظم مما يسهل على كل من تصدى للتأليف. وما كان المؤلف، على ما بدا لنا لا يهتم أن تخلد كتاباته، بل يقصد منها تكثير جمهوره المطالعين في الزمن الذي نشرت فيه.

نقده كثيرون على هذه الخطة، وما كان بعضهم إلا من حساده، ومن يكثرون النقد يجبنون عن العمل. وفي الحق أن طريقة المؤلف السهلة التناول حبيت إلى كثير من قراء العربية الرجوع إلى التاريخ الإسلامي، وكان من قبل وفقاً على خاصة المسلمين والمشتغلين بالعلم، فهذه منقبة يجب ألا ينساها الناقدون والطاعنون.

كان زيدان من أول من خاض بحر الأدب العربي واستخرج دُرَرَه وصاغ أكثرها في قصصه صياغة مقبولة، يحملها إلى القراء، وكانوا على عهده قلائل. وما زال يطالعهم بما نشر ويتدرج بهم في الموضوعات التي يبتدعها فيسمعهم نغمات لا عهد لهم بها، ويحمل إليهم بضاعة تروقهم يسترخصونها ولا تثقل عليهم، ألفاظها سهلة، تراكيبها مرسله لا صعوبة فيها ولا تعلق عن مستوى عقول قراء الصحف اليومية، فصادف ما نشره إقبالاً، وزاد في قبولهم له أن كتاباته كانت منسقة مبوبة مفهرسة تدخل إلى النفس من أيسر السبل.

(١) انظر معجم المطبوعات.

(٢) عبارة الأصل (وكان له ضعف) بزيادة (له) دون مسوغ.

ولو امتد به الأجل لرجع على معظم ما كتب وزاد فيه ونقص منه، شأن معظم المؤلفين إذا حالت الأعوام على ما كتبوا. وليس هذا مما يعاب عليه ما دامت بشرة المرء - كما قالوا - تتبدل كل سبع سنين. والمؤلف بالحري (*) أن يبدل بعض أفكاره في بضع سنين أيضًا.

كان من الخاصة من يزعم أن زيدان يشوه التاريخ الإسلامي ويتعمد تحريفه، ومنهم من يذهب إلى أنّ ما يحمله إلى قرائه يحجب إليهم النظر في الموضوعات العربية، وفي كتابة «تاريخ التمدن الإسلامي» مواضع ما كان فيها على صواب نقدها عالم الهند العلامة شبلي النعماني، وممن انتقده أحمد الإسكندري ورفيق العظم ولويس شيخو.

أما زيدان فأدرك تقصيره في بعض الأبحاث الإسلامية واعتماده على ما كتبه الإفرنج فيها، ومنها ما كانت ترشح من كتابات رهبان القرون الوسطى، فقد شهدناه لما نشر «تاريخ آداب اللغة العربية» ارتكب أغلاطًا حمله عليها ما وجده أمامه من مادة، وغير فكره فيها لما كثر بحثه، ونشرت مواد كثيرة كانت مجهولة في عصر تأليفه. قال بما لم يقل به أئمة التاريخ والثقات من رواة الأخبار: من أن المسلمين أبادوا مكاتب (***) فارس ومصر، كما أرادوا هدم إيوان كسرى وأهرام مصر. والمعروف الثابت عند المحققين من علماء العرب والإفرنج: أن نسبة حريق خزائن الفرس ومصر للمسلمين فريّة افتراها خصوم الفاتحين. وما أحب المأمون هدم الأهرام، بل أراد أن يعرف ما في داخله، فأمر بثقب جهة واحدة منه خدمةً للتاريخ والآثار. ورأيناه في هذا الكتاب يفضل كلام شاعرٍ على شاعرٍ وهو غير شاعر، وأن السبب في تكاثر شعراء العشق هو انتشار التسري، وركون القوم إلى الرخاء، فكان من ذلك التهتك والتخنث، إلى كثيرٍ من الآراء ما كانت ناضجة، جرى فيها من نظروا إلى

(*) يريد: حَرِيٌّ بأن... (المراجع).

(**) يريد: مكاتب (المراجع).

المدنية الإسلامية نظرةً عابرةً خاطئة. وربما ما كانت تقع له تلك الهنات لو اتسع له الوقت ليحقق كل ما خاض عبا به. وما دام القصد نفع العامة فقد وفّت تآليفه بغرضها، وما استطاع أحد أن يقلده في طريقته، يوسع أمام القراء أفق النظر، ويصل لهم ماضيهم بحاضرهم بقدر ما تسمح به البيئة.

قالوا: إن المعلم العظيم هو الذي يحسن تلقين الأطفال العلم، والكاتب العبقري هو الذي يملي على العامة ما يرقى بهم إلى مصاف الخاصة.

وكان زيدان آية في هذا الباب، وخصّ بطول النفس، وطرق موضوعات كتب لها الرواج فانبعثت همته إلى الإكثار منها. وكان على صفات حسنة من جمال الأدب وطول الأناة وبعد الهمة.

طالت صداقتي له، وكان يعطف عليّ عطف الأخ الكبير على الأخ الصغير، ويطلعني على ذات نفسه، ويأخذ رأبي في بعض ما ينشره، وكثيراً ما يتنازل ويعمل به إن رآه صواباً. دليل فرط أدبه وسعة صدره، وكثيراً ما أرادني على أن أتخلى عن المؤازرة في الصحف السياسية، وأنقطع إلى العلم فقط، مما يدل على صدقه وغيرته على الآداب.





جميل صدقي الزهاوي^(١)

١٢٧٩ - ١٣٥٤هـ

١٨٦٣ - ١٩٣٦م

هو جميل صدقي بن محمد فيضي الزهاوي مفتي بغداد، وأصلهم من أسرة بايان الكردية. كان بعض رجالها أمراء السليمانية. سكن جده زهاو من فارس فنسب إليها.

ولد جميل سنة ١٢٧٩هـ، ١٨٦٣م، وتلقى علوم الدين والعربية فظهر ذكاؤه، وبرز على الأقران وهو في ميعه شبابه، وقال الشعر وهو في الخامسة عشرة، وحذق الفارسية والتركية والكردية. قال من ترجموا له: ثم حبيب إليه التحلي بالعلوم الكونية العصرية، ولكنه لم يجد الطريق إليها نهجاً؛ لأن هذه العلوم تتطلب دراسة منظمة زيادة على التضلع من لغة أوربية، ولم تكن البيئة التي نبت فيها المترجم مساعفة للوصول إلى تلك الغاية. فما كان له بد من الرجوع إلى المجلات والكتب العصرية التي كانت تنشر بالعربية أو التركية. وكان حسن التصرف بما يحذقه من تلك المباحث. ولقوة ثقته بنفسه واعتداده

(١) ترجمته في الأعلام ١٣٣/٣، معجم المؤلفين ١٥٩/٣ وملوك العرب ٣٨١/٢، تاريخ الشعر العربي الحديث: ٣٧٩، دراسات في الشعر العربي المعاصر: ٧١، ساعات بين الكتب: ١٩٧، ٢٢٣، تاريخ الأدب العربي للفاخوري ١٠٢٩، رجال عرفتهم: ١٢٩، الراحلون: ٦١، وله مقالات في مجلة المجمع ٢١٢/٨، ٧٦٢/١١، وانظر مقدمة ديوانه المطبوع ليوسف نجم، ولصالح العلي الصالح كتاب (الزهاوي، حياته وآثاره).

بمواهبه كان يعمد إلى العويص منها وينظر أهله فيه، ويباحثهم حتى يكوّن له رأيًا خاصًا ينافح عنه ويناضل دونه. خذ مثلاً لذلك رأيه في الدافعة فإنه مع علمه بما يرتكن إليه موضوع الجاذبية من المقدمات الرياضية والحقائق الطبيعية، ذهب فيه مذهبًا خالف فيه جميع علماء هذا الشأن، فهو يرى أن المادة لا تجذب المادة، بل تدفعها، فليس في الكون جذب وإنما هو دفع. ولشدة وثوقه بصحة رأيه هذا وضع فيه مؤلفًا خاصًا. وله آراء كثيرة من هذا القبيل انفرد بها، وقد أودع خلاصتها كتابًا أسماه: «المجمل مما أرى». ومن أغرب كتبه كتاب «الكائنات» عتب في مقدمته على أبيه أن جعله في مدرسة صومعية ولم يرسله إلى إحدى جامعات العرب ليكون منه الفيلسوف الذي يفيد الإنسانية ويقلل من شقاء البشرية. ومنها: «الفجر الصادق في إثبات الخوارق» وهو من كتبه الغربية أيضًا. وأكثر ما برز فيه الشعر، فقد كان يبتده ويكثر، وله عدة دواوين. ويقول العارفون بالشعر: إن ما اقتبس من الفارسية وضمه شعره هو أحسن ما نظم، وهو يعد في شعراء الدرجة الأولى من أهل هذا العصر. وأحسن شعره ما نقحه وشذبه، وقد أبان عن ذوقه في الشعر بما اختار للشعراء في مجموعة بلغت ألفي بيت.

وقال في وصف شعره المستعرب «ويدمر» الألماني: إن قدرة الشاعر ليست بنظرياته العلمية الطبيعية، وإنما هي في شعره من حيث المبنى أو المعنى، وفي مدخل ديوانه «اللباب» صورة من آرائه في الشعر والشعراء. قال: ونجد في الشاعر أمرًا جديدًا غير مألوف في غيره، وهو: أنه مفتوح القلب لآثار الطبيعة، وأنه لا يصغي إلا إلى أصوات ذلك القلب. وبلغ الكثير من شعره غاية الرقة، والشاعر يترسم خطأ المعري في كثير من آرائه الفلسفية. وقصيدته: «الثورة في جهنم» تذكرنا برسالة الغفران، وهي معقدة السبك؛ لأن قيود القافية قد قيدت الشاعر فضاقت ذرعًا في التعبير عن عواطفه. وهو في شعره المنثور الطليق يعبر بسلاسة وبيان، أما نثره فلغته بيّنة واضحة لا تشمل

على جملي مزخرفة فارغة، مما يكثر في مؤلفات المقلدين لأساليب المتقدمين. ومن شعره^(١):

طمعنوك يا وطني المفدى في الصدر حتى كدت تردى
والطاعنوك بنوك أنفـت كسوتهم لحمًا وجلدا

تولى الزهاوي عدة وظائف علمية في بلده وفي استانبول. وفي هذه العاصمة درس الفلسفة والآداب العربية، وفي بغداد درس الحقوق. وألحق بالبعثة العلمية الإسلامية إلى اليمن. وحدثني من سمعه يعظ في جامع صنعاء أنه كان يذكر مناقب أحد الدجالين من المنظور إليهم في حكومة السلطان عبد الحميد بما يتنافى وآراءه الحرة، ولما قيل له: أنه في رده على الوهابية أبان عن غرض خالف به الحقائق قال: هكذا اقتضت السياسة.

وأرسل لي إلى مصر عدة قصائد من شعره فيها حظ من الأديان وأرادني على أن أنشرها في «المقتبس» باسم المجلة، فأجبت: أن «المقتبس» إذا قال في مقدمته أنه لا يتعرض للأبحاث الدينية، فليس معنى هذا أنه يطعن بالأديان، ثم إن صاحب «المقتبس» لا ينظم الشعر فكيف له أن يدعيه؟!.

وبعث لي من بغداد مجموعة من القصائد من نظمه ونظم غيره، ومنها ما عزاه إلى رجلٍ من أهل التقى من علماء بغداد، وخلاصة هذه القصائد التي حوت ضروب الإفذاء والسفاهة أن شاعرًا اسمه الطالقاني ورد على بغداد، واشتبك مع أدبائها بالهجو السفيه، وطلب إلي أن أطبع هذه الجذاذات في مجلة من المجلات المصرية أو في كتاب برأسه، فأجبت: إن بغداد التي كان

(١) لم أجد هذين البيتين في ديوانه، إنما فيه قصيدة من نفس البحر والروي عنوانها: (حقد أم نقد) ومطلعها:

ملاوا صدور الصحف حقدًا والحقد قد سموه نقدا
ولعلها من أبياتها. (انظر ديوانه: ٢٠٤).

كما وردت بعض أبياتها في ديوانه المسمى (اللباب) وفيه المختار من شعره في أدوار حياته.

فيها الجاحظ وبشر المريسي^(١) إذا نشرت هذه القصائد باسم علمائها لعهدنا ثبت انحطاطهم ليقول العارفون في هذا العصر: إن المسلمين أصبحوا عبثًا ثقيلاً على الأرض.

الزهاوي مولع بالفرائب ومخالفة الجمهور، اخترع حروفاً عربية بدعوى أن حروفنا لا تصلح للكتابة، فضحك العارفون منه، وما قدر لحروفه الانتشار والذوبوع وقال: إن الشعر العربي تقيده قوافيه فاخترع شعراً لا قوافي له ولا أوزان، فسقط اختراعه أيضاً. وقال أيضاً باعتماد اللغة العامية دون اللغة الفصحى في التأليف فما سمع له. وقال بمثل ذلك من الآراء يقصد بها مخالفة العرف والعادة والأديان والمذاهب. وكان جسوراً في بث آرائه، ويكتب كثيراً، ويدون كثيراً ويطلع كثيراً. وهو على جانب من الرفاء لأصحابه أحياء وأمواتاً. وقد اشتهر بنكاته ودعابته. ومن نكاته: أنه حضر مجلس بعض كبراء الأتراك في بغداد، فدار الكلام على الخرافة المشهورة، وهي أن بعض المبتدعة يمسحون خنازير بعد موتهم، فأجمع الحاضرون على القول بذلك، وتصدى بعضهم لسرد وقائع في هذا الشأن زعم أنه رآها عياناً. فالتفت صاحب المجلس إلى المترجم له وقال: ما رأيك في هذا يا أستاذ؟ فأجابته: هذا أمرٌ مفروغٌ منه، أنا رأيت بعيني بشراً أحياءً - وأشار إلى الحاضرين - مسحوا حميراً، فكيف لا يجوز مسح الميت خنزيراً؟.

ومن نكاته قوله في مجلس النواب العثماني، وقد عرضت موازنة البحرية فكان من فصولها مبلغ لقراءة البخاري لسلامة الأسطول، فقام ورفع صوته وقال: يا سادتي إن الأسطول يسير بالبخار لا بالبخاري، فضحك المجلس لهذه النكتة.

اتهم الزهاوي بالإلحاد والزندقة، واضطهد من أجل ذلك، وكان من

(١) هو بشر بن هياث بن عبد الرحمن المريسي، فقيه معتزلي، رأس الطائفة المريسية، عاش نحو سبعين عاماً وتوفي ببغداد سنة ٢١٨هـ، ٨٣٣ م (الأعلام ١/ ٢٧).

أنصار حرية المرأة فسبب ذلك له مشاكل حرمة بعض منافعه المادية، فعاش في آخر أيامه في ضنك. وربما كان شذوذه من اختلال في صحته، فقد ذكر من ترجم له من الغربيين أنه أصيب، وهو في الخامسة والعشرين، بمرض «عُقَام»^(١) وهو النخاع الشوكي Moelle épinière وفي سن الخامسة والخمسين فلجت رجله اليسرى فكان أعرج. وقال عن نفسه: إنه كان في صباه يسمى المجنون لحركاته الغريبة، وفي شبابه الطائش لخفته ورعونته، وفي كهولته الجريء لمقاومته الاستبداد، وفي شيخوخته الزنديق لمجاهرته بآرائه الفلسفية. أي: إنه كان شاذًا من أول أمره إلى خاتمة عمره وما حداه على كل ذلك إلا ليقال عنه إنه فيلسوف مجدد. ويشهد لذلك أنه ادعى في كتابه «الكائنات» أن للإنسان رجعة إلى الدنيا بعد مئة ألف عام بالصورة التي يختارها إنسانًا أو حيوانًا .

ولو كُتِب له الاعتدال في آرائه، وقبض له من يرشده إلى الصواب. ويربيه تربية على ما يتربى الرجال لجراء عالمًا نافعًا من كل وجه، وخلد بعمله وعلمه بما خص به من الذكاء النادر والجرأة والدؤوب.

والزهاوي في حقيقته شاعر فحل، وبالشعر اشتهر، والفلسفة عليه عارضة، لم تعطه قيادها، وما أثر بها إلا ما كان من إلقاء الشك في بعض الشبان. قال: إنني تعلمت كثيرًا من علوم الأولين فلم ترقني، ومن علوم الآخرين فولمت بها. وقال في نزعتة إلى الشعر: الشعر ما ينظمه الشاعر من إحساس يجيش في نفسه بأوزان موسيقية فيهز به السامع.

إذا الشعر لم يهزرك عند سماعه فليس خليقًا أن يقال له شعر^(٢)
وقال:

(١) مرض عقام (يفتح العين وضمها والضم أفصح): لا يبرأ.

(٢) ديوانه طبعة نجم ج ١ ص ٢٣٧ وروايته فيه: إن الشعر.. وعمله غلط.

- أرى الشعر بعد الوحي أكرم هابط
وقال:
من المملأ الأعلى إلى المملأ الأدنى^(١)
- الشعر للروح مثل القوت للبدن
وقال:
وإنه زينة الأقبام والمدن^(٢)
- أحسن الشعر ما يكون عن القلب
وقال:
وآلامه لنا ترجمانا^(٣)
- بل الشعر معنى رائق يوقظ الهوى
وقال:
ولفظ رقيق مثلما يطلب الفن^(٤)

الشعر صوت الروح قد ذاق الأذى وأنين مجروح من الآلام^(٥)
قال: ولا أرى للشعر قواعد بل هو فوق القواعد، حر لا يتقيد بالسلاسل والأغلال، وهو أشبه بالأحياء، وفي اتباعه سنة النشوء والارتقاء، يتجدد - وأحر به أن يتجدد - بحسب الزمان، ويرتقي من الأدنى إلى الأعلى، ومن البسيط إلى المركب.

قال: إنه ينزع في شعره إلى سبيل الحياة الطبيعية متجنبًا المبالغات وكل ما ليس حقيقيًا، ويحرق التقاليد التي ورثها الأبناء من الآباء فيقول ما يشعر به هو لا ما يشعر به آباؤه، وأنه كلما رجع إلى نفسه يحيد عن الطريق الذي يمشي عليه غيره معتقدًا أن الطبيعة أولى بالتقليد.

(١) ديوانه - ط المطبعة العربية: ٢٥٩ من قصيدة مطلعها:

ظننت بأن الشعر يخني لما أغنى
وكم شاعر في موقفٍ أخطأ الظنا

(٢) من قصيدة في ديوانه (المطبعة العربية): ٢٤٦.

(٣) من قصيدة في ديوانه (المطبعة العربية): ٢٤٧.

(٤) من قصيدة في ديوانه (المطبعة العربية): ٢٥٥.

(٥) من قصيدة في ديوانه (المطبعة العربية): ٢٥٦.

ومازلت في جو من الفكر طائرًا ومن عادني أن لا أطبر مع السرب^(١)
وقد جرده ما استطاع من الصناعات اللفظية والخيالات الباطلة، وحرص
على أن يكون منطبقًا على الواقع، خلّوًا من الإغراق، ماشيًا مع العصر،
وحسبه أن توحى الطبيعة إليه فيقول ما يقول.

قال: «ولا أرى مانعًا من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من القصيدة
عند الانتقال من فصلٍ إلى آخر لإراحة الشاعر من كد الذهن، فإن الإتيان
بالقافية الواحدة متمكنة ليس في قدرة كل شاعر. وأجيز للشاعر أن ينظم على
أي وزنٍ شاء، سواء أكان من أوزان الخليل أو غيرها. والجديد هو أحسن ما
تنزع إليه النفس الوثابة، ولو لم يتجدد الليل والنهار لَمَلَّهما الناظر»^(٢).

سُئِمْتُ كُلَّ قَدِيمٍ عَرَفْتُهُ فِي حَيَاتِي^(٣)
إِنْ كَانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ مِنَ الْجَدِيدِ فَهَاتِ

قال: وما أنا مادح شعري، غير أنني أعتقد أنه إذا صادف قلبًا ذا شجون
مدفونة فهو يثيرها، ولا أدعي أنني أجدت، بل غاية ما هنالك أنني قلت. وإذا
ألفى أحد في شعري ما يمس شعوره أو معتقده فلا يغضبني علي، فإني لم أتعمد
إيلامه، ولطالما سمعت ما يخالف رأبي ولم أتذمر، ولم أجد على كاتبه^(٤).
ومن شعره المرسل^(٥):

(١) من قصيدة في ديوانه: ٣٣٤ مطلقها:

تباركت للتهذيب من منتدى رحب
ومن مورد صاف لوزاده عذب
(٢) من مقدمة ديوانه (المطبعة العربية) بقلمه، بتصريف قليل الصفحة ب.

(٣) من رباعياته. انظر ديوانه، المطبعة العربية: ٤٠٢.

(٤) انظر مقدمة ديوانه بقلمه صفحة ز. ولم أجد: لم أغضب من (وجد يجد وجدًا وموجدة) إذا
غضب.

(٥) هذه الأبيات منتقاة من قصيدة من الشعر المرسل وردت في ديوانه ص ٣١١ وقد غير بعض
عباراتها في طبعة أخرى للدويان.

يكون بها عبئًا ثقيلاً على الناس
وتسعة أعشار الأنعام مناكيد
يخفف ويلات الحياة قليلا
وأن بطون الأكثرين تجوع^(٢)
فما لي عن هذا السؤال جواب
وإن مات لاقى منكراً ونكيراً
وإن لم أقل حقاً أخاف ضميري^(٣)
من الناس أعداء لكل جديد
وفاتني أحقابٌ - رجعت إلى الدنيا
قريباً، وفي الدنيا كأني لا أفنى
فما حيلة الإنسان إن فسد الملح
عدو وإن لاقيته فصديق^(٤)
محاسن قوم عند قوم قبائح
فذاك لساني ثم ذاك لساني

لَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ مَعِيشَةٍ
بِعَيْشِ رَخِي الْعَيْشِ^(١) عَشْرٌ مِنَ الْوَرَى
أَمَا فِي بَنِي الْأَرْضِ الْعَرِيضَةِ قَادِر
أَفِي الْحَقِّ أَنْ الْبَعْضُ يَشْبَعُ بَطْنَهُ
أَسْأَلْتَنِي عَنْ غَايَةِ الْخَالِقِ اسْكُنْتِي
إِذَا حَيِيَ الْإِنْسَانُ صَادَفَ مِنْكَرًا
إِذَا قَلْتَ حَقًّا خَفْتُ لَوْمَ مَخَاطِبِي
أَرَى النَّاسَ إِلَّا مَنْ تَوَفَّرَ عَقْلُهُ
تَمَنَيْتُ لَوْ أَنِّي - وَقَدْ عَبَّرْتُ عَلَى
رَغْبَتِي عَنِ الدُّنْيَا كَأَنِّي مَيِّتٌ
يَقُولُونَ إِنْ الْمَلْحُ يَصْلِحُ فَاسِدًا
وَمَنْ النَّاسُ مِنْ إِنْ غَبْتَ عَنْهُ فَإِنَّهُ
كَذَلِكَ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي كُلِّ حَقْبَةٍ
إِذَا كَانَ فِي الدُّنْيَا عَدُوٌّ يَضُرُّنِي
وَمِنْ رِبَاعِيَاتِهِ^(٥):

تُ اقْتَنَاءَ عِنْدَ لِمَسِي^(٦)

رَبِّ مَالٍ هُوَ لَوْ شَاءَ

(١) الرواية الأخرى: نعيم البال.

(٢) الرواية الأخرى: جياح.

(٣) الرواية الأخرى: وإن لم أقله خفت لوم ضميري.

(٤) هذا البيت حذف من إحدى طبعتي الديوان. وهو موجود في طبعة المطبعة العربية.

(٥) ديوانه طبعة يوسف نجم ج ١ ص ١٧٨ و ٢٠٨.

(٦) الرواية الأخرى: تحت لمسي.

إنما تمنعني من نيله عزة نفسي

إنما الشعر سيد ليس يفضي على القذا
حبذا ذلك الإبا ء من الشعر حبذا

أنت يا شعر خالد أنت يا شعر هالك
أنت يا شعر كل ما أنا في الكون مالك

أنا للشعر في العرا ق أديب مجدد
أنا في جنب دجلة عندليب يفرد

قد مدحت الذين لم يستحقوا مدائحي
أحبوها على ضرو رتها من قبائحي

فلسفة الزهاوي مبثوثة في شعره أكثر مما هي مبثوثة في كتبه ومقالاته،
وقد يقع له البيتان أو الأبيات إلى قصيدة من قصائده يعجب بسلاستها
ومعناها:

يريدون مني أن أغني باسمهم وأي هضم باسم أعدائه غني^(١)

وإني على شيخوختي وزمانتي أريد بشعري في الحياة التجردا^(٢)

(١) من قصيدة في ديوانه (ط.المطبعة العربية): ٢٦٠.

(٢) هذه الأبيات في ديوانه (ط.المطبعة العربية): ٢٦٠ بعنوان: (على شيخوختي).

ولا خيرَ في شعرٍ مضى اليومَ عهدُهُ
وما شاعرُ العصرِ الجديدِ سوى الذي
ومن كان ذا روحٍ مع العصرِ نائر
أخو الشعرِ قد يَزْدَى ويُبقي وراءه
فأكبرُ بشعرٍ كان حرًّا كَرَبِّهِ
أرى العلمَ يرمي للبعيدِ بقصدهِ
يريد أناسَ منيَ الشعرَ جيدًا
وقال من قصيدة عند نكته في الدفاع عن المرأة^(١):

هي الحقيقة أرضاها وإن غضبوا
أقولها غيرَ هيَّابٍ وإن حَنَقوا
إن يقتلونني فكم من شاعرٍ قتلوا
ولستُ أوَّلَ من أبدى نصيحته
لَهْفِي على أمةٍ مازلتُ أرشدها
نَصَحْتُ للقومِ في شعري وفي حُطْبِي
طلبتُ إصلاحهم في كلِّ ما كتبتُ
وأذعبيها وإن صاحوا وإن جَلَبُوا
وإن أهانوا وإن سَبَّوا وإن ثَلَبُوا
أو ينكبوني فكم من عالمٍ نكبوا
لقومه فأتاه منهم العَطْبُ
إلى سبيلِ هُداها وهي تجتنبُ
فما أفادهم شعري ولا الحُطْبُ
لهم بَنانِي ولَمَّا ينجحِ الطلْبُ

* * *

وقال من قصيدة^(٢):

اليومَ يا نفسُ لا بغدادُ منكِ كما
الناسُ للمالِ في بغدادَ قد عبدوا
كانت ولا أهلُ بغدادَ كما كانوا
كأنما المالُ في بغدادَ أوثانُ

(١) مطلع قصيدة في ديوانه ط. المطبعة العربية ص ٣٠٦ بعنوان: (هي الحقيقة).

(٢) من قصيدة في ديوانه ط. المطبعة العربية ص ٣٦٣ بعنوان: (بيروت ولبنان).

وهكذا الناس دُوبانٌ وجَمَلانٌ
وما على الخير في بغدادَ أعوانٌ
يومًا فلا يرحم الإنسانَ إنسانٌ
تكثرُ هنالكَ أحقادٌ و أضغانٌ
فهؤلاء لفجرِ المجدِ عُنوانٌ
ولا على الضيمِ تُغضي منه أجفانٌ
وإنَّ بغدادَ فيها أمةٌ مانوا^(١)
هذا نشيظٌ وهذا بَعْدُ كسلانٌ
أما نصيبُ الكسالى فهو حرمانٌ
على البسيطة أوقامٌ وبلدانٌ
والناسُ في الشرقِ بعد الحربِ قد هانوا
والغربُ أكثرُهُ للحقِ مدْعانٌ
بل الحروبِ انقلاباتٌ وأكوانٌ
يومًا على سببِ العاداتِ عِصيانٌ

يبغي القويُّ افترامًا للضعيفِ بها
تَلقى على الشرِّ أعوانًا قد اتفقوا
كلُّ امرئٍ مضمِرٌ فثُكًا بصاحبه
إن يكثُرِ الجهلُ في أبناءِ مملكةِ
ألا شبابًا أولي عزمٍ ومعرفةِ
مِنْ كلِّ حرٍّ فلا يرضى بذلَّتِهِ
وإنَّ بغدادَ فيها أمةٌ صَدَقُوا
الغربُ والشرقُ حتى اليومِ ما استويا
يفوز مَنْ كان ذا عزمٍ بمطلبه
تغيرت بعد حربٍ ثار ثائرها
الناسُ في الغربِ بعد الحربِ قد سَعِدُوا
والشرقُ أكثرُهُ للحقِ مهتَضِمِ
وما الحروبِ بأطماعٍ كما زعموا
لا ترتقي أمةٌ حتى يكون لها





حافظ إبراهيم (١)

١٢٨٧ - ١٣٥١هـ

١٨٧١ - ١٩٣٣م

ولد حافظ إبراهيم حوالي سنة ١٨٧٢م على سفينة كانت ترسو على شاطئ النيل أمام بلدة ديروط. وكان يسكنها أبوه إبراهيم فهمي المهندس وزوجته الست هانم ليشراف على قناطر ديروط.

وشاعر النيل - وقد لقب بهذا اللقب - ولد في النيل، وأبوه مصري صميم، وأمه من أصل تركي. مات أبوه وهو في الرابعة من عمره فكفله خاله، وتعلم في المدارس الابتدائية في القاهرة. وقبل أن ينجز دروسه الثانوية انتقل

(١) ترجمته في الأعلام ٦/٣٠٤، المورد: ٦٣١، الأدب العربي المعاصر في مصر: ٨٢. الشعر العربي المعاصر: ٩ - ٢٨. الرائد: ٦٣١، شعراء مصر للعقاد: ١٠، تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ٩٧٦ وانظر مقدمة ديوانه المطبوع واسمه الكامل: محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس، تاريخ الشعر العربي الحديث: ٨٦، عصاميون عظماء: ١١٩، حافظ وشوقي لطف حسين، حافظ إبراهيم لعبد اللطيف شرارة، حافظ إبراهيم الشاعر السياسي لروفائيل، حافظ إبراهيم شاعر النيل للسندوبي، حافظ إبراهيم كتاب المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر، حافظ إبراهيم الشاعر الإنساني لمحمد المصري. نشر الشطر الأول من هذه الترجمة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٢ ص ٧٤٤ - ٧٤٩ والشطر الثاني نشر في جريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٤/٣/١٩٣٧ وهو كلمة ألقاها في مهرجان أدبي كبير أقيم في ٧ و٦ آذار ١٩٣٧ بدار الأوبرا الملكية بالقاهرة تخليداً لذكرى حافظ إبراهيم ونشرت إلى جانبه بعض القصائد التي ألقاها الشعراء في ذلك المهرجان.

مع خاله إلى طنطا، وكان مهندسًا أيضًا، فظهرت عليه أمارات النجابة، وأصبح يقول الشعر، وكان يستظهر جيده منذ كان يافعًا.

واشتغل مدة في المحاماة في مكتب بعض المحامين في طنطا، فلم يجد في هذه الصناعة أمنيته، وانقلب إلى القاهرة، ودخل المدرسة الحربية فخرج منها ضابطًا في سن العشرين، ثم سافر إلى السودان فما طاب له المقام فيها، وظل يحن حنين الواله إلى عيش القاهرة، ويتغنى بطيب نعيمها، وكان اللورد كيتشنر يكره حافظًا لعصيانه النظام. وكذلك رؤساؤه يشكون منه؛ لأنه لا يقوم بواجب الجندي، ولا يتذوق العمل الذي وُسد إليه. وكان حافظ يتولى الدفاع عن رفاقه من الضباط إذا سيق أحدهم إلى محكمة عسكرية فيربح الدعاوى بفصاحته وفضل حيلته غالبًا.

ولما نشبت ثورة سنة ١٨٩٩ في السودان اتهم بالاشتراك فيها ثمانية عشر ضابطًا كان حافظ من جملتهم، فأحيل على الاستيداع، ثم طلب إحالته على التقاعد. ولولا أن صيته بدأ يستفيض، ويرغب الأدباء الوجهاء أن يمدوا يد الصداقة له لسدّت أبواب الرزق في وجهه.

وعطف مفتي مصر الشيخ محمد عبده على حافظ عطفًا خاصًا، وأخذ يلقنه من طرفٍ خفي ما يجب إدخاله في الشعر من تجدد، ويريده على أن يطرق معاني جديدة في الإصلاح من حض المصريين على النهوض، ودعوتهم إلى تحسين الأخلاق والتربية، وإلى الاعتصام بحب لغتهم، والإعجاب بتاريخهم، والمحافظة على شخصيتهم وشعائهم، وإنكارهم ظلم القابضين على أمرهم. إلى ما شاكل ذلك من الآلام والآمال. معانٍ ما سبق لشاعر عربي أن خاض عباها إلا في النادر وفي مقاطيع قليلة.

صادفت قصائد حافظ في هذه المعاني الجليلة هوى في أفئدة القوم، وتناولت الصحف قصائده، ورددت المحافل والأندية صدى أدبه الحديث، وحفظ الناشئة ما تجود به قريحته الرقّادة. ومن خصائص مصر: أن من يستحق

الشهرة تتاح له بسرعة كما يخمل ذكره بسرعة على الأغلب، كالنبات في تربتها يسرع نموه لمكان الحرارة، ولا يلبث قليلاً حتى يصوّح^(١).

ما زال حافظ في ضيق من العيش، يحسب نفسه بائساً، وما يؤسه إلا نسبي؛ لأن الخديوي وبعض أعيان مصر ما انفكوا يصلونه بما يرون أن يعيش به عيش المتوسطين المرفهين. ومن أصحابه من عاش في قصرهم ثلاث سنين على أحسن حالٍ من الرفاهية، يأخذ ما شاء من أموالهم، ويفضل أيضاً على كثير من قاصديه من المتأدبين المفلوكين^(٢). ولكن ما عرف به حافظ من عزة النفس كان يحدوه إلى التأفف من هذه الطعمة، ويريد أن يكون له رزق ثابت في أحد^(٣) الدواوين أو في الصناعات الحرة كالصحافة مثلاً فلم يتيسر له ذلك.

وفي سنة ١٩١١ عين رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية ومازال يتدرج في الدرجات حتى صار راتبه ثمانين جنيهاً في الشهر، وأحيل إلى التقاعد في سنة ١٩٣٢ أي: قبيل وفاته بأربعة أشهر.

لحافظ دوران في شعره: دور الخصب، وبدأ بتركه خدمة الجيش في شبابه إلى السنة التي عين فيها في دار الكتب، وهي عشر سنين. والدور الثاني دور الجذب أو الإقلال، وقد طال هذا الدور مع الأسف أكثر من عشرين سنة، أي: منذ عاد فصار موظفاً إلى أن ترك الخدمة. وكان معظم قصائده في دور الخصب في الأغراض الوطنية والاجتماعية التي رقص لها الجمهور وأورثته شهرة. واقتصر في أيام جذبته على أغراض الشعر المتعارفة من رثاء ومديح وبعض القصائد الحكمية والتاريخية، فما كان لشعره تلك الروعة

(١) صوح: تشفق.

(٢) المفلوك: الرجل غير المحظوظ، والمهمل في الناس لإملاقه، أو الفقير.

(٣) الأصل: إحدى.

والعبقة^(١)، ولا تلك الوثبة والعاطفة، ذلك لأن عمله يضطره إلى السكوت عن بعض ما يغضب الحكام، وهو الذي عرف منه غير هذا في شبابه.

ولو عاش حافظ بائسًا كعهده الأول يوم استخدامه المرة الثانية، لأتى في دوره الأخير من أنواع الإبداع ما لا يعرف مداه، ولكن هكذا قُدِّرَ للأدب أن يفقد كثيرًا من ثمرات تلك القريحة الجنية، والنفس السمحة الحساسة. وقاتل الله الفقر وما يجنيه على صاحبه، فقد يَطَأُ رأسه لتحصيل رزقه مرغماً.

عظمت شهرة حافظ لأنه شعر بما شعر، وقد تألمت نفسه من الظلم لأول نشأته، فردد نغمة وقعت من النفوس موقعاً عظيماً، وكان يحس مطالب الشعب؛ لأنه ابن الشعب وربيبه، يستمع باختلاطه به لشكواه وبلواه. ومافتى منذ تطوع في خدمته ينطلق بما يفرج عنه كربته، ضارباً على الوتر الحساس، داعياً الأمة إلى النهوض، شاحداً منها العزائم يريد لها على أطراح سفاسف الأمور. والتذرع بما يبقي على ثروتها، ويعيد إليها مجدها لتستوي شعباً فاضلاً في المدينة الفاضلة. يكثر أبداً من هذه المعاني الشريفة. واتفق أن كانت الأمة المصرية في ذاك الدور تحاول بلوغ هدفها الأسمى في نشدان الاستقلال والخروج على الاحتلال. وكانت الحرية التي^(*) يتمتع بها وبني قومه من دواعي تصريحه بما كان يصرح به. ومما قال قي ذلك^(٢):

كاشفَ الكهرباء لبتك نُعنى باختراع يروض منا الطباعا
آلِةَ تسحق التواكل في الشُر قي وتلقي عن الرباء القناعا
قد مَلِلْنَا وقولنا فيه نبكي حسبًا زائلًا ومجدًا مضاعا^(٣)

(١) عبقت الراححة بالشيء عبقًا وعباقة: لزقت به.

(*) إذا قبل (... التي يريد أن يتمتع...) اتسقت العبارة مع ما سبقها (المراجع).

(٢) من قصيدة في ديوانه ج ٢٥٩/١ عنوانها: إلى رجال الدنيا الجديدة، ومطلعها:

أي رجال الدنيا الجديدة مدوا لرجال الدنيا القديمة باعا

(٣) بعده في الديوان:

ليت شعري متى تنازع مصر
ونراها تفاخر الناس بالأحد
ويقول يمدح الشاميين بتقلهم في الأرض لطلب الرزق^(١):
ض ويتم عن النفوس نياما
ر وأحيا بموتها الأناما
د ولا أن تواصل الإقداما
وترى العار أن تعاف المُقاما
ض يبارون في المسير الغماما
موقع النيرين، خاضوا الظلاما
ش ويبرون للنضال السهاما
يرقبون القضاء عامًا فعاما
في بلاد رويت فيها الأناما
وَبِنُوكَ الكرامُ تشكو الأواما^(٢)
ل وأغرى بنا الجناة الطغاما^(٣)
في سبيل الحياة ذاك الرُخاما
ويقول^(٤):

- = وسئنا مقالهم كان زيد
(١) من قصيدة في ديوانه ٣١٦/١ عنوانها: غلاء الأسعار، ومطلعها:
أيتها المصلحون ضاق بنا العيب
(٢) الواغل: الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون دعوى، والأوام: شدة العطش.
(٣) الطغام: أراذل الناس.
(٤) من قصيدة في ديوانه ج ١١٦/٢ عنوانها (الإخفاق بعد الكد)، مطلعها:
ماذا أصبت من الأسفار والنصب
وطيك العمر بين الوخذ والخب

لغير مُرْتَهَبِ لِه لمرْتَقِبِ
جادت جفوني لها باللولو الرطب
قَرْمُ تردد بين الموت والهَرَبِ^(١)
وان سكتُ فإن النفس لم تطبِ
بالماء لم يتركوا ضرعًا لمحتلبِ

حواشيه حتى بات ظلماً مُتَّظِماً
وأن أصبح المصري حرّاً مُنْعَمًا
فإنني رأيت المنّ أنكى وآلما
فأغليتم طينًا وأرخصتم دما
فلا أطلعت نبئًا ولا جادها السما

وقلتُ فأكبروا أربي^(٤)
به ضاق الرجاء وبني
سوى الألقاب والرتبِ
بمالٍ غير مكتسبِ
لشعبٍ جدّ في اللعبِ

متى أرى النيل لا تحلو موارده
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت
كأنني عند ذكرني ما ألمّ بها
إذا نطقتُ ففأع السجن مُتَّكأً
والقوم في مصر كالإسفنح قد ظفرت
وقوله وقد أبدع كل الإبداع^(٢):

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت
تمنُّ علينا اليوم أنْ أخصبَ الثرى
أعد عهد إسماعيل جلدًا و سُخْرَةً
عملتم على عز الجماد ودلّنا
إذا أخصبت أرض وأجذب أهلها
وقال في الامتيازات الأجنبية^(٣):

سكتُ فاصفروا أدبي
وما أرجوه من بلد
وهل في مصر مفخرة
وذي إرثٍ يكاثرننا
وفي الروميّ موعظةً

(١) القرم: السيد العظيم والشجاع البطل.

(٢) مطلع قصيدة في ديوانه ج ٢/٢٥ عنوانها: (شكوى مصر من الاحتلال) وهي من ثمانية أبيات.

(٣) مطلع قصيدة في ديوانه ج ٢/١١٠ عنوانها: (الامتيازات الأجنبية) وهي من ثمانية عشر بيتًا.

(٤) الأرب: العقل.

يُقَتِّلُنَا بِلَا قَوْدٍ وَلَا دِيَّةٍ وَلَا زَهَابٍ^(١)
 ويمشي نحو رأيته وقد نقص من الديوان في الطبعة الجديدة فيما أذكر بيتان وهما^(٢):

وهذا بائع الزيتون والسردين في الملب
 يراكم دونه شَرْفًا وأنتم بضعة العرب

ويلاحظ: أن حافظًا إذا مدح الغربيين أو تبرّم بهم، وإذا مدح الدُخلاء من الشاميين والأورام وغيرهم، أو عرض بهم فإنما يتوخى حث المصريين على النهوض وتطهير أخلاقهم وعاداتهم. وقد زاد إعجابه بالشاميين فذكرهم كثيرًا في شعره. صحب طبقة مثلى منهم التجؤوا إلى مصر أمثال البستاني والعظم والجزائري وشميل والكواكبي وصروف وعمون ورضا ومطران وبركات، وصحب أمثالهم من علماء المصريين وأدبائهم أمثال قاسم أمين، حسن عاصم، أحمد فتحي زغلول، أحمد زكي، عبد العزيز شاووش، محمد المهدي، حفني ناصف، أحمد إبراهيم، عبد الوهاب النجار، علي أبو الفتوح، أحمد الإسكندري، عثمان غالب، محمد هلال، توفيق البكري، مصطفى المنفلوطي، إبراهيم المويلحي، محمد بيرم، علي يوسف، مصطفى كامل، محمد فريد، وأضرابهم من رجال مصر اختارهم أو اختاروه، دع الأمراء والأعيان ممن كانوا يعشقون قربه ويتلذذون بعشرته أمثال آل بدر، وواسطة العقد الأستاذ محمد عبده، وكان منزله في عين شمس مجمع العلماء والأدباء يضم إليه أصناف الرجال وألوان أرباب القرائح والعبقرية.

حافظ في الواقع وليد النهضة المصرية، حبه إلى القلوب جرأته، فكان لسانها العذب وبلبلها الصداح. تمثلت الديمقراطية والشعبية في شعره، فكان

(١) القود: القصاص.

(٢) لم أجدتهما في ديوانه طبعة دار الكتب.

شاعر الاجتماع وشاعر الوطن والوطنية في مصر، يهز أوتار القلوب بشعره، يفرّج بأناته ما حرّز في نفس أمته، ويرجع بنغماته ما تستطيب منه تردادته. ليس في كلامه تشاؤم كثير، بل فيه دعوة شديدة إلى الأخذ بأسباب الإصلاح، وصرخة في وجه الظلم، وتنفير من القاسطين، وإهابة إلى التآلف والتعاطف. وشعره إن مدح أو رثى أو هجا أو تغزل أو تحزب أو تعتب، يرمي إلى مقاصد نبيلة، ويحمل أجمل المعاني. سار به مع حاجات العصر، فأثر به هذا التأثير القليل النظير، واحتظى به هذه الحظوة.

لم يرزق حافظ حفاً كبيراً من صناعة النشر، حاول أن يشارك فيه فكتب «ليالي سطوح» و«عرب البؤساء» لهوغو، فكان منشوره جيد الألفاظ خالياً من روعة شعره.

كان في نثره نخاتاً ماهرًا، وما كان بناءً مهندسًا، فما وفق إلى الصنعة المتوخاة منه، ولا نَمَّ على تفوق في تذوق الجمال.

والبلاغة في الأسلوب والتركيب لا في اختيار جيد الألفاظ فقط، وصعبٌ على كل إنسان أن يبرز في الصناعتين: صناعة الشعر وصناعة النثر.

ولئن عصى بيان حافظ على التبريز في النثر، فقد كان لسانه مطواعًا له إذا حدّث وحاضر.

كان سحر المجالس إذا سمعته يتحدث ويتنادر، وراوية العرب إذا أخذ يعود بك إلى الماضي لا يذكر لك شيئًا من محفوظه. واسمُ حافظٍ لفظٌ وافق مسماه، فهو يحفظ من شعر القدماء، وأقاصيصهم ومجالسهم ما يبهرك حقًا، ويدخل السرور إلى نفسك. كان بحضور ذهنه وغريب بديهته على ما يندر في الأدباء مثله، ولا أذكر أن أدهشتني حافظة أديب كما أدهشتني حافظة حافظ، ولا أخذ بمجامع قلبي حديث شاعر كحديثه. وقلُّ أن رأيت مرّحًا كمرحه وتنادرًا كتنادره. يورد في الجلسة القديم من قصصه بالعبارات التي رويت بها ويردّها بما يوائمها من حاضر الوقت. أما أجوبته وعبهت فلا أعلم كثيرين في

الأدباء يستطيعون أن يشقوا غباره. ولذلك: كان أهل مصر على اختلاف الطبقات مولعين بأدبه، مفتونين بحديثه فنتتهم بشعره وزيادة. والدعابة وحب المرح وخفة الروح غالبية على طباع المصريين، ومن أجدر منهم بتقدير من نبغ فيهم على هذه الصفات؟

كان حافظ يتبسّط في أحاديثه مع جلسائه، يلقي على مسامعهم كل صنف في ساعة، ما تجمد حافظه غيره عن إيراده في أيام، وقد قارن زكي مبارك بين حافظ في حديثه وشوقي في صمته فقال^(١): «ولو أن شاعرنا حافظًا^(٢) كان يكتب كما كان يتكلم، لكان سحره في اللغة العربية شبيهاً بسحر أناطول فرانس في في اللغة الفرنسية.

وبراعة حافظ في الحديث هي التي قضت بأن ينتصر عليه غريمه شوقي... كان حافظ يتحدث إلى أن تنفذ قواه فلا تبقى له قدرة على الغناء. وكان شوقي يصمت ويصمت ليستجم فتبقى له قدرة على السجع والتهافت. والقوى الإنسانية لها حدود، وإلا فكيف جاز أن يكون المدرسون أعجز الناس عن الشعر والخطابة والتأليف؟ ألا يرجع ذلك إلى أنهم يضيعون نشاطهم في الدرس فلا تبقى لهم عافية يساورون فيها تلك المواهب الأدبية. أراد حافظ أن يتمتع أهل زمانه فأضاعوه. كان زينة الأندية والمحافل، وكان حديثه أشهى من وعد الحبيب بعد طول الجفاء».

إن طبع حافظ أن يخلص في حبه أصحابه، فإذا فجع بأحدهم رثاهم وبكاهم، وإلى هذا الخلق إشارة في آخر قصيدة حيّا فيها الشام وأهله قال^(٣):
ولى الشباب وجازتني فتوته وهدم السقم بعد السقم أركاني

(١) مجلة الرسالة السنة التاسعة العدد ٤٤٣ ص ١٥٣٤ (المؤلف).

(٢) الأصل: حافظ.

(٣) من قصيدة في ديوانه ج ١/١٣٢ عنوانها: (تحية الشام) مطلعها:

حيا بكور الحيا أرباع لبنان وطالع اليمن من بالشام حياني

وقد وقفت على الستين أسألها
 شاهدت مصرع أترابي فبشرني
 كم من قريب نأى عني فأوجعني
 من كان يسأل عن قومي فإنهم
 إنني مِلَلْتُ وقوفي كلَّ آونةٍ
 إذا تصفحت ديواني لتقرأني

وحقيقة: إن الرثاء يكثر في ديوان حافظ؛ لأنه وفي لأصحابه، ولذلك قال شوقي في رثائه^(٢):

قد كنتُ أوتر أن تقول رثائي

يا منصف الموتى من الأحياء
 عرف حافظ بالوفاء والمروءة والأريحية إلا أنه كان ملولاً لا ثبات له .
 تزوج مرة فما دام زواجه أكثر من أربعة أشهر اضطر بعدها إلى الطلاق، ولم يتزوج بعدها. وما كان يحرص على الكتب كما أنه لا يحرص على المال. ولذلك لم يشهدوا في بيته كتاباً تاماً بعد وفاته ولا ورقة ولا دواة ولا قلمًا، كأن صدره خزانة كتبه، وحافظته قمطره. قرأ دواوين العرب. وأولع خاصة بالأغاني والعقد الفريد وكليلة ودمنة، والمكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب. ولكثرة ما تعاورها بالقراءة استظهر أكثرها.

وكان يتمثل ما يقرأ ويهضمه، ولم أعرف راوية يختار مروياته مثله. وكان يعاور شعره بالتصفية والتزويق، ويقرؤه على أصحابه المرة بعد المرة قبل نشره ليعرف مبلغ رنته في آذانهم، ومدى وقوعه من ألبابهم، وليقوموا له اعوجاجًا إن كان، ويوردوا عليه نقدًا لغويًا أو بيانياً، فيستفيد من أذواق من يقرأ عليهم ومن علمهم وأدبهم.

(١) الواني: المتأخر عنهم.

(٢) مطلع قصيدة شوقي في رثاء حافظ (الشوقيات ٣/٢٣).

قلنا: إنه كان غير حريص على المال، ما حدثته نفسه بجمعه واستثماره، وقد كان طول حياته كاسبًا واهبًا، يسخو سخاء غني كريم، وهو في الواقع مقل، وقد يكون أحيانًا مدققًا مقترًا عليه في الرزق. وربما أعطى طالب نواله كل ما يملك خصوصًا إذا كان صاحبه من المتأدبين أو المتشاعرين.

كان يسكن حلوان فركب القطار ذات يوم إلى القاهرة، وما إن نزل حتى استجداه أحدهم، وكان لا يملك أكثر من ريالين فأعطاه الواحد وقال في نفسه: أبتاع بالآخر اللفافة (هافانا) وهي بنصف ريال وأجلس في القهوة، وما كاد يعطي ما عنده حتى رآه أحد عمال البلاط متلهفًا وقال: إنه يفتش عليه منذ أيام، وأنه يحمل له مئة جنيه، وله من ذلك أشياء كثيرة لكم أن تجعلوها في باب التوكل، أو باب المصادفات، أو في أي باب إن أردتم.

وكما كان حافظ يسخو على البائسين، كان لا يرضن على نفسه بما يتمتعها بمباهج الحياة، وينعم بأطيب المأكول والمشروب، ويدخن أئمن اللفائف، وينفق إنفاق المرفهين المترفين. فهو مثال من بسطة اليد على نفسه وعلى طلاب صدقاته، وله في ذلك قصص يطول المقام بسردها.

طبع كتابه «البؤساء» فريح منه نحو ألفي جنيه أنفقها في الشهر الذي جاءته فيه.

هذه بعض صفات حافظ، وهذا أدبه. عاش كالمفؤود الموتور إلى آخر أيام شبابه، وما تهنأ الحياة ولا عرف سعادة البيوت وعطف البنين. عاش للمجتمع، وشقي ليسعد الناس. قال لي مرة: أنا إذا مت لا تبكي عيني؛ لأنني لا أخلف ورائي لا أمًا ولا أبًا ولا زوجًا ولا ولدًا فأجبت: أنت إذا مت يا حافظ تبكي عليك عيون العرب وكفى بهم أسرة كبيرة. وكذلك كان.

بلغت المدائح والتهاني في ديوان حافظ ١٥٨ صفحة. والأهاجي ثلاث صفحات فقط، والإخوانيات ٤٢، والوصف ٣٤، والخمريات ٧، والغزل ٤، والاجتماعيات ٦٨، والسياسيات ١٠٧، والشكوى ١٩، والمرثيات ١١٨

صفحة. وإذا اعتبرنا أن بعض الصفحات شغلت بضعة أسطر منها بالشرح اللغوي، وأكثرها شغل بالهوامش والحواشي يبقى حجم الديوان صغيراً. وقد ضاع بعض شعره؛ لأنه ما كان يعنى بالتقييد في دفاتر أو جزازات، وبعضه، وهو قليل، مما أغفله الناشرون لبعض الاعتبارات. ولولا أن أكثر ما نظم الشاعر العظيم نشرته الصحف في إبانه ورجع الناشرون إليه لضاع أيضًا مقدار من شعره، وإذا اعتبرنا أن المدائح والأهاجي والوصف والخمريات والغزل والمراثي هي من المعتاد في ديوان كل شاعرٍ عربي، لا يبقى لنا إلا الاجتماعيات والسياسيات، وهذه هي قصائده الممتعة التي اشتهر بها في الحقيقة. فمقدار شعر الغزل قليل في شعر حافظ، وقد أشار إلى هذا المعنى عندما قال في تهنته الأستاذ الإمام بمنصب الإفتاء^(١):

بَلَّغْتُكَ لَمْ أَنْسُبْ وَلَمْ أَتَغَزَلِ
وَلَمَّا أَصَفْ كَأَسَا وَلَمْ أَبْكْ مَنْزِلًا
فَلَمْ يُبْقِ فِي قَلْبِي مَدِيحُكَ مَوْضِعًا
وَقَوْلُهُ يَخَاطِبُ الشَّعْرَ^(٢):

ضِعَّتْ بَيْنَ النَّهْيِ وَبَيْنَ الْخِيَالِ
ضِعَّتْ فِي الشَّرْقِ بَيْنَ قَوْمِ هَجُودِ
قَدْ أَدَالُوكَ بَيْنَ أَنْسِيبِ وَكَأْسِ
وَنَسِيبِ وَمِذْحَجَةٍ وَهَجَاءِ
وَحِمَاسِ أَرَاهُ فِي غَيْرِ شَيْءٍ
وَلَوْ كَتَبَ لِحَافِظِ إِحْكَامِ الْأَدَابِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ لِتَأْتِرَ بِهَا وَأَخَذَ مِنْ رُوحِ

(١) مطلع قصيدة في ديوانه ٤/١ عنوانها: (تهنته الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بمنصب الإفتاء ١٣١٧ هـ، ١٨٩٩ م).

(٢) مطلع قصيدة في ديوانه ٢٣٧/١، عنوانها: (الشعر) في أحد عشر بيتاً.

شعرائها. ولئن كان المديح في الشعر العربي من الأزياء القديمة التي لا يستحسنها أبناء هذا العصر كثيرًا، فإن حافظًا ببراعته لما اضطر إلى أن يقول المديح في أناس قد يستحقونه أو أكثره، تَلَطَّفَ وأبدى براعته في معالجة هذا الزي البالي، وما خلت مع ذلك قصيدة له في هذا المعنى من حكمة أو موعظة أو دعوة إلى عمل نافع.

تحمل المدائح في شعر حافظ منازع لطيفة، وربما كانت المبالغات فيها أقل من أماديع غيره، لكنها لا يقال عنها إلا أنها تزُيد على كل حال. والمبالغة في المديح عرف بها العرب منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا.

قال حافظ في تحيته شوقي لما رجع من منفاه في الأندلس زمن الحرب العامة^(١):

واذكر لنا الحمراء كيف رأيتها	والقصرَ ماذا كان من بنيانهِ ^(٢)
ماذا تحطم من ذراه وما الذي	أبقت صروف الدهر من أركانهِ
وأما عليه وأهلِهِ وبُناتِهِ	أيامَ كانَ النجم من سكانهِ
إذ مُلِكَ أندلسٍ عريضٌ جاهةٌ	وشبابه المبكي في زَمانهِ
الفتح والعمران آيةً عهده	وكتائب الأقدار من أعوانهِ
لبست به الدنيا لباس حضارة	قد كان يخلعه على جيرانهِ
إلى أن قال:	

ولعل نكبته هناك تفرَّق	وتعدّد قد كان في تيجانهِ
عبر رأيناها على أيامنا	قد هَوَّنت ما نابهِ في آنهِ

(١) من قصيدة في ديوانه ج ١/٩٨ عنوانها: (تحية أحمد شوقي) مطلعها:

ورد الكنانة عبقرى زمانه فتنظري يا مصر سحر بيانه

(٢) يريد قصر الحمراء في غرناطة والذي كان يقيم فيه سلاطين بني الأحمر، ولا يزال يعد أجمل

ما في الأندلس.

وقال في مديح شوقي^(١) :

قل للذي قد قام يشوُّو أحمدًا
الشمر في أوزانه لو قسته
هذا امرؤٌ قد جاء قبل أوانه
وما قال فيه من قصيدة وفيه^(*) إشارة إلى أن شوقيًا^(٤) أرسطراطي وأن
حافظًا ديمقراطي، وهو يغبطه أو يحسده على حاله^(٥) :

نَمَتِكَ ظِلَالٌ وارفَاتٌ وأنعم
ولَيْنَ عَيْشٍ فِي مَصِيفٍ وَمَرَبَعٍ
وَمَنْ كَانَ فِي بَيْتِ الْمَلُوكِ نَوَاؤُهُ
يُنْشَأُ عَلَى النِّعْمِ وَيَمْرَحُ وَيَرْتَعِ

وعلى الجملة: فإن المديح في شعر حافظ فياض بالحكم والمعاني التي
تعم الناس ولا تخص الممدوح فقط. خذ لذلك ما قاله في قصيدته يوم
مهرجان شوقي فيما يجب على شوقي أو على الشعراء أن يسيروا عليه^(٦) :

وخذ بزمام القوم وانزع بأمله
وقفنا على النهج القويم فإننا
ملأنا طباق الأرض وجدًا ولوعة
إلى المجد والعلباء أكرمَ مَنْزِع
سلكنا طريقًا للهدى غير مَهْبِيع^(٧)
بهنيدٍ ودعدٍ والربابِ وبَوَزَعِ^(٨)

(١) من القصيدة نفسها.

(٢) يشوُّو: أي يبلغ شأوه، غايته، وأحمد: هو أحمد شوقي.

(٣) المراد: أنه إما أن يعد من الفحول القدماء فيكون قد تأخر، وإما أن يعد ممن سيجود بهم
الزمان في المستقبل فقد سبق.

(*) إذا قيل: ... قصيدة إلا وفيها إشارة... تستقيم العبارة (المراجع).

(٤) الأصل: شوقي.

(٥) من قصيدة في ديوانه ج ١/ ١١٩ عنوانها: (تهنئة أحمد شوقي) مطلعها:

بلا بل وادي النيل بالمشرق اسجعي
بشعر أمير الدولتين ورجعي

(٦) من القصيدة نفسها.

(٧) المهيع: الطريق الواضح البين.

(٨) هذه رواية الديوان، وفي الأصل:

وأقوامنا في الشرق قد طال نومهم
 تغيرت الدنيا وقد كان أهلها
 وكان بريدُ العلمِ غيرًا وأينفًا
 فأصبح لا يرضى البخارَ مطيةً
 وما كان نوم الشعر بالمتوقع
 يرون متون العيس أليَن مضجع
 متى يُعِيها الإيجافُ في اليد تظلع^(١)
 ولا السلكُ في تياره المتدفع
 ومن مديحه في تحيته جمعية المرأة الجديدة^(٢) :

يقولون نصفُ الناس في الشرق عاطلٌ
 وهذي بنات النيل يعملن للنهى
 وفي السنة السوداء كنتنَّ قُدوةً
 وقفتنَّ في وجه الخميسِ مُدَجَّجا
 وما هالكنَّ الرمحُ والسيفُ مُضَلَّتَا
 تعلَّم منكنَّ الرجال فأصبحوا
 نساءً قَصِين العمرَ في الحُجراتِ
 وتغرسنَ غرسًا داني الثمراتِ
 لنا حين سال الموت بالمُهجاتِ
 وكنتنَّ بالإيمان معتصمات^(٣)
 ولا المدفع الرشاش في الطرقاتِ
 على غمرات الموت أهل ثباتِ
 يشير إلى مظاهرة قامت بها السيدات في الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ في
 مدينة القاهرة.

وفي مطلع قصيدة له يصف ثورتهم قال^(٤) :

خرج الفواني يَحْتَجُّجُ — نَ وَرَحَتِ أَرْقَبَ جَمْمَهُنَّ
 ومن أبدع ما نظمه في المدة الأخيرة قصيدة كبيرة في وصف أمير
 المؤمنين عمر بن الخطاب وصفاته وأعماله، وأخرى في وصف رحلته إلى

= ملأنا طباق الأرض مجدًا ولوعة

(١) أيتًا: جمع ناقة، والإيجاف: الإسراع، وتظلع: تعرج في مشيتها.

(٢) من قصيدة في ديوانه ج ١/١٣١ مطلعها:

إليكن يهدي النيل ألف تحية

(٣) الخميس: الجيش.

(٤) القصيدة في ديوانه ج ٢/٨٧ عنوانها: (مظاهرة السيدات) وهي في سبعة عشر بيتًا.

إيطاليا في سنة ١٩٢٣ ومطلعها من أجمل المطالع يصف فيها سفينته وما لاقته من العواصف، وما شاهد من مظاهر مدنية إيطاليا، ثم وصف ماعاور إيطاليا من زلازل وثوران بركان فيزوف فقال^(١):

شمسهم غادة عليها حجاب فهي شرقية حوتها الخدورُ
شمسنا غادة أبت أن توارى فهي غربية جلاها السفورُ
جَوْهم في تقلبٍ واختلاف غير أن الثبات فيهم وفيرُ
جَوْنَا أثبتَّ الجِواء ولكن ليس فينا على الثبات صَبورُ
ولديهم من الفنون لبابٌ ولدينا من الفنون قشورُ
إلى أن قال بعد وصف إيطاليا وأهلها:

قد وقفنا عند القديم وساروا حيث تسري إلى الكمال البدورُ
والجوارى في النيل من عهد نوح لم يقدر لصنعها تغييرُ
وَلَع القومُ بالنظافة حتى جُنَّ فيها غنيهم والفقيرُ
فإذا سرتُ في الطريق نهارًا خِلْتُ أني على المرايا أسيرُ
أفرط القومُ في النظام وعندي أن فرط النظام أسرٌ ونيرُ
ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر أو أميرُ
فإذا ما سألتني قلتُ عنهم أمة حرة وفردُ أسيرُ
ذاك رأيي وهل أشارك فيه إنه قولُ شاعرٍ لا يَضيرُ
وجَوْد في زلزال مسينا سنة ١٩٠٨ ومما قال بعد أن ذكر ما فعله الزلزال من الأهوال في الساكن والمساكن^(٢).

(١) من قصيدة في ديوانه ج ١/٣٢٧ عنوانها: (رحلة إلى إيطاليا) مطلعها:

عاصف يرتمي وبحر يغير أنا بالله منهما مستجير

(٢) قصيدته في هذا الزلزال جاءت في ديوانه ج ١/٢١٥ ومطلعها:

وشكا الحوت للنسور شكاءً
أسرفا في الجسموم نقرا ونهشاً
لا رعى الله ساكن القمم الشئ
قد أغارا على أكفِّ براها
كيف لم يرحما أناملها الغد
وقال من قصيدة في حرب طرابلس الغرب^(٢):

عَجَزَ الظُّلْيَانُ عَنْ أَبْطَالِنَا
كَبَّلُوهُمْ قَتَلُوهُمْ مَثَلُوا
ذَبَحُوا الْأَشْيَاحَ وَالزَّمْنَى وَلَمْ
أُحْرِقُوا الدُّورَ، اسْتَحَلُّوا كُلَّ مَا
بَارَكَ الْمَطْرَانُ فِي أَعْمَالِهِمْ
أَبْهَذَا جَاءَهُمْ إِنْجِيلُهُمْ
ومن بدائعه يفضل الجاهلية على هذه المدنية التي دعت إلى إهلاك
الإنسان بأساليب القتال التي لم تعرفها الأمم السالفة^(٦).

= نبشاني إن كنتما تعلمان مادمي الكون أيها الفرقدان
(١) الكظة: البطنة، وما يعتري الإنسان من الامتلاء من الطعام.
(٢) من قصيدة في ديوانه ج ٦٦/٢ عنوانها: (حرب طرابلس) مطلعها:
طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق واحذر أن تضاما
(٣) أهلوا: سقوا.

(٤) الزمنى: جمع زمن (بفتح ثم كسر) ذو العاعة.
(٥) إشارة إلى معاهدة لاهاي التي عقدت بين الدول سنة ١٨٩٩ للقضاء على أسباب الحرب بتقليل السلاح، وحل الخلافات بالطرق السلمية.
(٦) وردت هذه القصيدة في ديوانه ج ٨٦/٢ بعنوان: (الحرب العظمى).

لا هُمَّ إنَّ الغُربَ أَصْبَحَ سُفْلَةً
 العلمُ يذْكي نارها وتُشِيرها
 ولقد حَسِبْتُ العلمَ فينا نعمةً
 فإذا بنعمته بلاءٌ مرهقٌ
 عجز الرماة عن الرماة فأرسلوا
 تتموذ الآفاق منه وتنشني
 وتنابلوا بالكيمياء فأسرفوا
 وتنازلوا في الجو حين بدا لهم
 نَفَسوا على الحيتان واسعَ مُلكها
 ملكوا مسابحها عليها بعدما
 إن كان عهد العلم هذا شأنه

وقد يضع حافظ في قصائده قواعد في بعض المسائل الاجتماعية المهمة.
 قال من قصيدة في إحدى مدارس البنات في القطر^(٣):

الأُمُّ مدرسةٌ إذا أَعْدَدْتها
 الأُمُّ روضٌ إنَّ تَعَهَّدته الحَيَا
 الأُمُّ أسنّاذ الأساتذة الألسى
 أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً
 يَنْدُرْجَنَ حيثُ أَرْدُنَ لا مِنِّ وازِع
 أَعْدَدْتَ شَعْباً طَيِّبَ الأَعْرَاقِ
 بالرِّيِّ أورقَ أَيِّمّا إِيراقِ
 شغلت مآثرهم مدى الآفاقِ
 بين الرجال يَجُلُنَ في الأسواقِ
 يحذرنُ رِقَبَتَه ولا من واقِ

(١) الفليق: الجيش العظيم.

(٢) نفس عليه الشيء: حسده عليه.

(٣) الأبيات من قصيدة في ديوانه ج ١/ ٢٧٩ بعنوان: (مدرسة البنات ببور سعيد) مطلعها:

في حب مصر كثيرة العشاق

كم ذا يكابد عاشق ويلاني

يفعلن أفعال الرجال لَوَاهِبًا
 في دورهنَّ شُرُونَهْن كَثِيرَةٌ
 كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
 ليست نساؤكم حُلَى وجواهرًا
 ليست نساؤكم أثانًا يُقتنى
 تتشكل الأزمان في أدوارها
 فتوسطوا في الحاليتين وأنصفوا
 ورأيه في السفور والحجاب متوسط، وهو أشبه بالحجاب الشرعي.
 خاطب قاسم أمين^(٢) صاحب «تحرير المرأة» بقوله^(٣):

أقاسمُ إن القوم ماتت قلوبهم
 إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم
 فلو أن شخصًا قام يدعو رجالهم
 ولو خطرت في مصر حواء أمنا
 وفي يدها العذراء يسفر وجهها
 وخلفهما موسى وعيسى وأحمد
 وقالوا لنا: رَفَعِ النِقَابِ محلَّل
 وكثيرًا ما تقرأ التشاؤم والأنين والبؤس في شعر حافظ أكثر مما كنت
 تقرأه على وجهه، أو تسمعه من فمه في مجالسه. ومن ذلك قوله^(٤):

(١) المزراق: الرمح.

(٢) انظر ترجمة له في هذا الكتاب.

(٣) لم أجد هذه الأبيات في ديوانه.

(٤) من قصيدة في ديوانه ج ٢/ ١٢١ (أرسلها من السودان إلى بعض أصدقائه) ومطلعها:

سمعت وكم سعى قبلي أديب
وما أعذرتُ حتى كان فعلي
وحتى صيرتني الشمس عبداً
وحتى قلّم الإملاق ظفري

وقال في الشكوى أيضاً يصف سعيه المتواصل ويؤسه وإياه^(١):

سعيْتُ إلى أن كِدْتُ أنتعلُ الدِّمَا
لحى الله عهد القاسطين الذي به
إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
إلى آخر تلك القصيدة البديعة.

ومما ينصرف إلى هذا المعنى قوله^(٢):

إن قام منا منايدٍ قال قائلهم
أو نابنا حادث نرجو إزالته
فما سمونا إلى نجدٍ نحاوله
يا مصر هل بعد هذا اليأس مُتَسَعِّعٌ
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا

وقال في ختام قصيدته التي يخاطب بها سعد زغلول^(٥):

= رميت بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب

(١) مطلع قصيدة في ديوانه ج ٢/ ١١٤ بعنوان: (سعي بلا جدوى).

(٢) من قصيدة في ديوانه ج ١/ ٢٦٥ بعنوان: (الحث على تعزيد مشروع الجامعة) مطلعها:

إن كنتم تبللون المال عن رَهَبٍ فنحن ندعوكم للبذل عن رَعَبٍ

(٣) سورة الغضب: حدثه.

(٤) العطب: الهلاك

= (٥) من قصيدة في ديوانه ج ١/ ٢٦٤ بعنوان: (إلى ناظر المعارف سعد زغلول) مطلعها:

أنا لا ألوم المستثنا
فسبيله أن يستب
هي سنة المحتل في
وقال في تحية العام الهجري يخاطب نابتة البلاد^(١):

لا تياسوا أن تستردوا مجدكم
مدت له الآمال من أفلاكها
فتجشموا للمجد كل عزيمة
من رام وصل الشمس حاك خيوطها
عاراً على ابن النيل سبّاقِ الوري
أو كلما قالوا تجمّع شملهم
وقال في قصيدة الحرب اليابانية الروسية^(٢):

تسوؤنا الحرب وإن أصبحت
أتى على الشرقي حين إذا
ومر بالشرق زمانٌ وما
حتى أعاد الصُّفْر أيامه

تدعو رجال الشرق أن يفخروا
ما ذكر الأحياء لا يُذْكَرُ
يمر بالبال ولا يخطُرُ
فانتصف الأسود والأسمر^(٣)

== ما لي أرى بحر الميا
(١) من قصيدة في ديوانه ج ٢/ ٥٨ مطلعها:
لي فيك حين بدا سنك وأشرق
(٢) هذه الأبيات هي آخر أبيات قصيدة وردت في ديوانه ج ١٠/ ٢ مطلعها:
أساحة للحرب أم محشر
(٣) بعده:
فرحمة الله على أمة
سة لايني جزرا ومدنا
أملٌ سألت الله أن يتحققا
ومورد الموت أم الكوثر
يروى لها التاريخ ما يؤثر

وقال من قصيدة^(١):

مضى زمن التنويم يا نيل وانقضى
وقد كان «مُرْفِينُ» الدَّهَاءِ مَخْدَرًا
شعرنا بحاجات الحياة فإن ونت
شَعَرْنَا وَأَحْسَسْنَا وبياتت نفوسنا
إذا الله أحيأ أمة لن يردها

وقال من قصيدة باسم آمالنا وآماننا خاطب بها الأمير حسين كامل قبل
أن يلي سلطنة مصر^(٢):

أجمل بالأديب أديب مصر
ويصرفه الهوى عن ذكر مصر
بكاءُ الطفل أرقه الفِطَامُ
ومصرٌ في يد الباغي تُضَامُ

لعمرك ما أريئتُ لغير مصرٍ
ذكرتُ جلالها أيامَ كانت
وأيامَ الرجالِ بها رجالٌ
فأقلق مضجعي ما بات فيها
وما لي دونها أملٌ يُرامُ^(٣)
تصول بها الفراعنة العظامُ
وأيامَ الزمانِ لها غلامُ
وبياتت مصر فيه فهل ألامُ

(١) من قصيدة في ديوانه ج ٢/٣٧ (تحية العام الهجري) مطلعها:

أطل على الأكوان والخلق تنظر
هلال رآه المسلمون فكبروا

(٢) من قصيدة في ديوانه ج ٢/٥٣ عنوانها: (إلى البرنس حسين كامل) مطلعها:

لقد نصل الدجى فمتى تنامُ
أهمُّ ذاد نومك أم هيامُ

ونشرت في ١٠/١١/١٩٠٩. والسلطان حسين كامل ولد سنة ١٨٥٣م وتولى عرش مصر سنة

١٩١٤م وتوفي سنة ١٩١٧م.

(٣) الأصل: أمد يرَام.

أرى شعبًا بمدرجة العوادي
إذا ما مرّ بالبأساء عامٌ
سرى داء التواكل فيه حتى
قد استعصى على الحكماء منا
هلاك الفرد منشؤه توانٍ
وموت الشعب منشؤه انقسامٌ

وبعد فإن شعر حافظ في كل الضروب التي عاناها منه، تتجلى فيه منازعة على حساب المناسبات وبيث آراءه من طرفٍ خفي وجلي، يوجه كلامه إلى أمته وإلى ولاة أمرها وإلى نفسه، وينتزع من كل فرصة حكمة. وقال في عيد تأسيس الدولة العثمانية^(٢):

يقولون في هذي الربوع تَعَصَّبُ
فيا شرق إن القرب إن لأن أو قسا
فخف بأسها في الرأس والرأس بصطلي
وبا غربٌ إن الدهر يطفو بأهله
أراك مقر الطامعين كأنما

وما أحلى قوله في حادثة دنشواي، وفيها قتل المحتلون بضعة أشخاص سنة ١٩٠٦ انتقامًا لرجل منهم قتل وهو يصيد الحَمَام في أرضهم^(٣).

أكرمونا بأرضنا حيث كنتم
إنما يكرم الجوادُ الجوادا

(١) المدرجة: الطريق، والعوادي: النواب، وتمخخ العظام: إذا أخرج مخه، والداء العقام: الذي لا يرجى البره منه. وفي الأصل: تمخخ.

(٢) الأبيات الأخيرة من قصيدة لي ديوانه ج ١٧/٢ مطلعها:

أیحصي معانيك القريض المهدب
على أن صدر الشعر للمدح أرحب

(٣) الأبيات من ديوانه ٢٠/٢ مطلعها:

أيها القائمون بالأمر فينا
هل نسيتم ولاءنا والودادا

علمتنا السكون مهما تمادى
من رماها وأشفقت أن تُعادي
حسرةً بعد حسرة تنهادى
وقال^(١):

إن عشرين جِجَّةً بعد خمسٍ
أمةً النيل أكَبَّرَتْ أن تُعادي
ليس فيها إلا كلامٌ وإلا
وقال^(١):

شكوت من العميد إلى العميد
رأيت الممنَّ داعية الجحود
بعهد المصلحين إلى الورود
بفضل وجودكم معنى الوجود
فإن الناس في جَهْدٍ جهيدٍ
صباح المشفقين من المزيد
وكنَّ قد اندمَلْنَ على صديدٍ

بناتُ الشعر إن هي أسعدتني
ولم أجد عوارفه ولكن
أذيقونا الرجاء فقد ظمنا
ومُتوا بالوجود فقد جَهلنا
إذا اعلولى الصباح فلا تلمنا
على قدر الأذى والظلم يعلو
جراحُ في النفوس نَفْرُنَ نَفْرًا
إلى أن التفت وغير لهجته وقال:

إلى العباس أم عبد الحميد
تروِّعنا بأصناف الوعيد

إلى من نشتكى عَنَّتَ الليالي
ودون حماهما قامت رجالٌ

ثم تذلل وأخذ يطالب بحقوق مصر بقوله:

يطولكم ولا ركنٍ شديدٍ
يَبِينُ به القويُّ من الرشيدي
أضرَّ بأهله نقض المعهود

فما جئنا نطاولكم بجاءٍ
ولا بتنا نماجزُكم بعلمٍ
ولكننا نطالبكم بحقٍّ

(١) من قصيدة في ديوانه ج ٣١/٢ عنوانها: (استقبال غورست) نشرت في ١٠/١٠/١٩٠٧م ومطلعها:

فهذا يوم شاعرك المجيد

بنات الشعر بالنفحات جودي

وبعد أن ذكر كرومر بأعماله في سلب حق مصر وإنحائه في تقاريره على أهلها قال:

فليت كرومرًا قد دام فينا يُطَوِّقُ بالسلاسل كلَّ جيدٍ
ويتحف مصرًا أتًا بعد آنٍ بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدٍ
لننزع هذه الأكفانَ عنا وتُبَعَثَ في العوالم من جديدٍ
ثم ألم بما كان من مستشار المعارف دنلوب:

هَبُوا (دَنْلُوبَ) أَرْحَبِكُمْ جَنَانًا وأقدركم على نزع الحقوقِ
وأعلى من (غِلَادِستونَ) رأبًا وأحكم من فلاسفة الهنودِ
فإننا لا نُطِيقُ له جِوَارًا وقد أودى بنا أو كاد يُودي
مَلِينًا طول صحبته ومَلَّتْ سوابقنا من المشي الوثيدِ
بحمد الله ملككُم كبيرٌ وأنتم أهل مرحمة وجُودِ
خذوه فأمتِعوا شعبًا سوانا بهذا الفضل والعلم المفيدِ
إذا استوزرت فاستوزر علينا قَتَى كالفضلٍ أو كابن العميد^(١)
ثم ذكر غطرسة المحتلين على شيوخ مصر فقال:

شيوخٌ كلما هَمَّتْ بأمرٍ زارتهم دونهم زَأْرُ الأسودِ
لحى بيضاء يوم الرأي هانت على حُمُر الملبس والخذودِ
أترضى أن يقال وأنت حر بأنك قَيْنٌ هاتيك القيودِ
وهل في دار ندوتكم أناسٌ بهذا الموت أو هذا الجمودِ

(١) الفضل: هو الفضل بن سهل، وزير هارون الرشيد، والملقب بذي الرئاستين؛ لأنه كان رب

السيف والقلم توفي سنة ٢٠٢ هـ

وابن العميد: هو أبو الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة علي بن بويه. وكان محط

رحال الشعراء والأدباء والعلماء، توفي سنة ٣٦٠ هـ.

كفانا سائح النيل السعيد
بمصر موارد العيش الرغيد
وضاق بحملهم دزُجُ البريدِ
على التشريع في ظل العميدِ
إذا أنصفتنا نظر الودودِ
بأن الذل شُنْثِنَةُ العبيدِ^(١)
لغير إلهها دُلُّ السجودِ

كما قال فيها أبو الطيبِ
ونحن من اللهو في ملعبِ
فرازِ السليم من الأجرِ

لمن بات يأبى جانب الظلم جائئُهُ
حياتي و لا أشقى بما أنا طالبُهُ

وعَفْتُ البيانَ فلا تعنبي

فنتح غضاضة التاميز عنا
أرى أمراءكم ملكوا علينا
وقد ضقنا بهم وأبيك دزُجُها
أكلُ موظف منكم قديرُ
فضع حدًا لهم وانظر إلينا
وخبرهم وأنت بنا خبيرُ
وأن نفوس هذا الخلق تأبى
وقال من قصيدة^(٢):

وكم ذا بمصر من المضحكات
أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يمرُّ
وشعبٌ يفرُّ من الصالحات
وقال يخاطب المصريين أيضًا^(٣):

ينامون تحت الظلم والأرضُ رحبةٌ
فيا ليت لي وجدان قومي فأرتضي
وقال مخاطبًا مصر^(٤):

حَطَمْتُ البِرَاعَ فلا تعجبي

(١) الشنثنة: المادة والطيمة.

(٢) من قصيدة في ديوانه ج ٢٥٦/١ مطلعها:

حطمت البراع فلا تعجبي

وعفت البيان فلا تعنبي

(٣) في ديوانه ج ٤٨/٢ قصيدة من هذا البحر ومن هذا الروي عنوانها (عيد الدستور العثماني) مطلعها:

هنيئًا لهم فليسحب الذيل ساحبه

أجل هذه أعلامه ومراكبه

(٤) مطلع قصيدة في زواج الشيخ علي يوسف صاحب (المؤيد) في ديوانه ج ٢٥٦/١.

فما أنت يا مصرُ دار الأديب
وقال للشرق^(١):

متى أرى الشرق أدناه وأبعدهُ
تجري المودة في أعرافه طُلُقًا
لا فرق ما بين بُوذِيٍّ يعيش به^(٢)
ما بال دنياه لما فاء وارُقها
ومن أبدع قصائده قصيدة رثى بها نفسه ومطلعها^(٣):

أذنتُ شمسُ حياتي بمغيبِ
إلى أن يقول:

قد وقفنا ستةً نبكي على
وقف الخمسة قبلي فمَضُوا
وردوا الحوض تباعا فمَضُوا
وردوا الحوض تباعا فمَضُوا

وهؤلاء الستة الذين وقفوا على قبر الشيخ محمد عبده يؤيدونه هم: الشيخ

(١) من قصيدة في ديوانه ج ١/١٣٣ بعنوان: (تحية الشام) مطلعها:

حيا بكور الحيا أرباع لبنان
وطالع اليمن من بالشام حيَّاني

(٢) الرسنان: النائم

(٣) الأصل: في أناء أفنان. وهو تصحيف.

(٤) الأصل: لا فرق بين بوذي، فيتكسر البيت.

(٥) ديوانه ج ١/٢٠٣ بعنوان: (ذكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده) وقد أنشدها في الحفل

الذي أقيم في الجامعة المصرية يوم الثلاثاء ١١/٧/١٩٢٢ وضمنها رثاء المرحوم حفتي

ناصر.

أحمد أبو خطوة، ثم حسن عاصم، ثم حسن عبد الرزاق، ثم قاسم أمين، ثم حفني ناصف ثم حافظ إبراهيم.

واتفق أن مات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم في الرثاء فلاحظ ذلك حفني ناصف، فبعث إلى حافظ بهذه الأبيات^(١):

أُتذَكَّرُ إِذْ كُنَّا عَلَى الْقَبْرِ سِتَّةً نَعُدُّ أَثَارَ الْإِمَامِ وَنُنْدِبُ
وَقَفْنَا بِتَرْتِيبٍ وَقَدْ دَبَّ بَيْنَنَا مَمَاتٍ عَلَى وَفْقِ الرِّثَاءِ مَرْتَبُ
أَبُو خَطْوَةٍ وَلَى وَقْفَاهُ عَاصِمٌ وَجَاءَ لِعَبْدِ الرِّزَاقِ الْمَوْتُ يَطْلُبُ
فَلَبَّيْ وَغَابَتْ بَعْدَهُ شَمْسُ قَاسِمٍ وَعَمَّا قَلِيلٍ نَجْمٌ مَحْيَايَ يَغْرُبُ
فَلَا تَخْشِ هُلُوكًا مَا حَيِّتُ وَإِنْ أُمْتُ فَمَا أَنْتَ إِلَّا خَائِفٌ تَتْرَقُبُ
فَخَاطِرٌ وَقَعَ تَحْتَ الْقَطَارِ وَلَا تَخَفُ وَنَمَّ تَحْتَ بَيْتِ الْوَقْفِ وَهُوَ مَخْرَبُ
وَحُضٌّ لُجَجِ الْهَيْجَاءِ أَعَزَلَ أَمْنَا فَإِنَّ الْمَنَايَا عَنْكَ تَنَأَى وَتَهْرَبُ

عرفت^(٢) حافظ إبراهيم سنة ١٩٠١. وكان كلانا في ميعة الشباب نطلب الأدب ونولع به، ونستمع إلى ما يقال في مجالس أهله، وكان حافظ كثيرا ما يختلف إلى قهوة (ماتاتيا) في الأزيكية، يجتمع إلى ثلثة من العلماء والأدباء، ومعظمهم من العارفين بأدب اللغة من متخرجي دار العلوم.

وكان من كبار علماء تلك الحلبة إذ ذاك عثمان باشا غالب بحكم علمه ومنصبه وسابقته وباشويته.

فكان حافظ يأتي في أكثر الليالي يدخن (الشيشة) ويتلو علينا بعض ما أوحى إليه من الشعر، فيطالعه إخوانه بما يعين لهم من الملاحظات، فإذا لم يكن لديه شيء جديد يقص علينا من قصص القدماء ما يسلينا به، ويتنادر إلينا

(١) وردت هذه الأبيات في المنتخب من أدب العرب ج ٢/٥٠٤.

(٢) من هنا يبدأ الشطر الذي القاه المؤلف في المهرجان الذي أشرت إليه في بداية الترجمة.

ونتأدر إليه. ويرسل بعضنا النفس على سجيتها، ونحن إلى ذلك نعجب بجودة ذاكرته وحافظته وبديهته. ونسأل عنه إذا غاب، وقد يسأل عن بعضنا إذا تخلف. وهو صنّاعة الأدب في ذاك المجلس وبلبله الغرّيد، وإن كان بعض الحضور يبذونه في دساتير العلم وقوانين الثقافة فهو يبذهم بإلهامه وخياله.

وكانت مصر إذ ذاك تتحفز للوثبة مطالبة باستقلالها، والنهضة الفكرية والعلمية بدأت^(١) تنبعث انبعاثها الحاضر، فطالعتها حافظ بنوع من الشعر الاجتماعي والسياسي هز به قلوب بنيها على ما لم يكادوا يعهدون مثله.

ولقد شهدت حافظًا في مجلس أستاذنا الشيخ محمد عبده في عين شمس مرة، وفي المجلس عظيمان من عظماء مصر: محمود سامي باشا البارودي وبطرس باشا غالي، وقد قبض حافظ على ناصية الكلام في المجلس، يورد على عادته من محفوظه ما يمزجه بفكاهات الأقدمين وأفأكيه المحدثين، بيان سحر به عقول الحاضرين. ولما أفاض على هذا النحو من معينه العذب ساعة وبعض ساعة التفت إلى رب الدار معتذرًا عن إكثاره، فقال له هاشًا باشًا بلهجتة العذبة: لا بأس، زدنا من أدبك يا حافظ.

وعدت إلى مصر أواخر سنة خمس وتسعمئة^(٢) فزادت صلاتي بحافظ، وكانت أحكمت أواخي الإخاء بيننا سنة كاملة في المرة الأولى، وأصبح لنا إذ ذاك منتديان: أحدهما قهوتنا القديمة (ماتاتيا) والثانية قهوة (اسبلنديبار) وفي هذه مثوى رجال الصحافة وبعض رجال القضاء والأدب والعلم.

وكان من جملة أصحاب حافظ في (اسبلنديبار) جماعة من صفوة الشاميين، ومنهم سليمان البستاني وشبلي شميل وطاهر الجزائري ورفيق العظم وعبد الرحمن الكواكبي وداود بركات ورشيد رضا وكلهم كانوا معجبين بأدب

(١) الأصل: على أن تنبعث...

(٢) أي ١٩٠٥ م

حافظ. وتزداد حلقة حافظ كل يوم سعة لضربه على الوتر الحساس في الناس، ولتوفره على صقل شعره وتجويده وديباجته. وجاور حافظ رفيق العظم في عمارة البابلي بشارع خيرت، وكنت أساكنهما في ذاك الحي مدة، فكنا نلقى حافظًا على عزلة من الناس، ثم أعود فألتقي معه أو هو يجمعني إلى عظماء من أهل ذاك الوقت، أمثال أحمد فتحي زغلول وحسن عاصم وقاسم أمين.

في هذا الدور كان اجتماعي بحافظ كثيرًا. وهو كل يوم يجلي للناس نبوغه العظيم، وتفردته بالقاء دروس على المصريين كان غيره يعرفها وتعرفه أحواله عن أن يبوح بها. وأصبحت أتبسط معه كثيرًا في الأحاديث، وهو يكيلني الصاع صاعين، إلا أنه وقع في نفسه شيء لما كتبت في جريدة «المؤيد» أن الشاعر العراقي معروف الرصافي مبرز في الاجتماعيات يصح أن يدعى شاعر الاجتماع أو الشاعر الاجتماعي. فأخذني حافظ على هذه الفكرة، وكأنه يحرص على الاستئثار بهذا اللقب، كما يحرص على لقب «شاعر النيل». وناقشني لما انتقدت في «المؤيد» كتابه: «ليالي سطوح» بحضرة الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد، وعزَّ عليه أن أقول: إنه شاعر عظيم، فما باله يتطلب دعوى الكتابة وهو لم يخلق لها؟ وكان صدره في هذا الباب أوسع من صدري، فحاسنني بعد أن كان يخاشنني، ولم يغرَّ الصداقة فتور، ولا حمل في نفسه حقًا علي.

أنشدني ذات يوم قطعة من شعره يشكو بها بؤسه، ويعرض لما يبئد من الأموال ويُتلى من الأدعية على قبر السيد البدوي، فقلت له: الحقُّ أقول: إن القومَ ربما آذوك، ومنزلة السيد من بعض النفوس منزلة، فأياك وهذا التصريح في بلدٍ كثر سواد القبوريين فيه. فأجاب جواب من لا يبالي. ولما طبع ديوانه أثبت الأبيات بنصها، وكان حذف منها بيتين، وهذه بنصها التام^(١):

(١) وردت هذه القصيدة في ديوانه ج/٣١٨/١ عدا البيتين الثاني والثالث.

وأحيائنا لا يرزقون بدرهم
 للسيد البدوي ملكٌ دَخَلُهُ
 وأنا أعدَّب في الوجود وليس لي
 من لي بحظِّ النائمين بحفرةٍ
 يسعى الأنام لها ويجري حولها
 ويقال: هذا القطب باب المصطفى

وكان ﷺ إذا أصاب النكتة أثرها مهما كلفته من وجع الرأس، فقد
 خاطب الأستاذ الإمام (٢) لما كانت تُشدُّ الحال إلى طنطا لزيارة السيد البدوي
 بقوله (٣):

إمام الهدى إني أرى القوم أبدعوا
 رأوا في قبور الميتين حياتهم
 لهم يدعًا عنها الشريعة تعزف
 فقاموا إلى تلك القبور وطوفوا
 على صنم في الجاهلية عُكِّف
 وباتوا عليها جاثمين كأنهم

كنت أشعر أن حافظا شاعر بكل ما في الشاعرية من معنى، وأعرف أنه
 كاسب واهب. وكان يعاتبني على شدة تعلقي بأحد العلماء الموقرين ويقول
 لي: «مالك وله وهو شحيح؟» فأقول له: «إن صداقتنا بنيت على أنني غير
 محتاج إلى تناول شيء من ماله». وكان في حكمه على صديقي مخطئا؛ لأنه
 كان للرجل صدقات في السر عظيمة لو أراد إعلانها لقلَّ له لقب «المحسن
 الكبير» الذي يعطى لمن يعطي التافه، ويريد أن يشار إليه في الصحف وبنوه
 في المجالس.

(١) أم دفر: الداية.

(٢) أي: الشيخ محمد عبده.

(٣) من قصيدة في ديوانه ج ١/ ٢١ مطلعها:

صدفت عن الأهواء والحر يصدف

وأنصفت من نفسي وذو اللب ينصف

شهدت حافظًا مرات يعطي ما معه أو أكثر ما معه لطالب نواله، ولا سيما إذا كان من المتأدبين. والمتأدبون في عهده كانوا مفلوكين مغمورين^(١). وكانوا حقًا أصحاب الصناعة المجفوفة. ومن جملة من كان يعطف عليهم عطفًا خاصًا الشاعر إمام العبد^(٢) وهو من جماعة قهوة «ماتاتيا» أيضًا. وحدث مرة: أن غضب إمام على حافظ، وكان يبهر كثيرًا، فقال في خلال حديثه - ونعوذ بالله من غضب السود -: ومن هو حافظ حتى يُدَلَّ علينا بشعره؟ أنا خلقتة وأظهرته للناس. ومضت أيام وأضاق إمام العبد، فاجتمع إلى حافظ وطلب إليه أن يسلفه عشرة قروش فأجابه حافظ على الفور: «أنا والله يا مولاي كما خلقتني» فضحك إمام وانتبه للنكتة وضحك حافظ، وهو الذي كان يعطي إمامًا بالجنيهات فكيف يضمن بالقروش على شاعرٍ لطالما ظرف وملح في شعره وحديثه وهو من الشعراء المتصعلكين البائسين؟

وأعلنت الحرب وانقطعت كل صلة بين مصر والشام أربع سنين، فلما عاد التواصل إلى مجراه قال لي إنه كان يظن أنني أقتل لا محالة في الحرب. فقلت له ولحفني بك ناصف: «إن أجلي حالٌّ دون ما أراد العدو الجافي، ولو ساء ذلك أمثالكما». ولما وضعت الحرب أوزارها. وأنشأتُ المجمعَ العلمي العربي في دمشق، انتخبه المجمع في جملة أعضائه، فسُرَّ بذلك. وبعد مدة أقيمت في

(١) المفلوك: الفقير.

(٢) كتب المؤلف حاشية بخط يده جعلها ملحقه بما نشر في جريدة الأهرام هذا نصها:

قيل إن إمام العبد كان جالسًا مع حافظ إبراهيم ذات عشية، فطلع عليهما نفر من الشبان فسألهم صاحبي: من أين أقبلوا قالوا: من حفلة المدرسة التحضيرية حيث سمعنا إمامًا ينشد قصيدة له لم ينظم الشعراء قط مثلها بلاغةً وسبحرَ بيان. قال: فأنشدوني. قالوا: وكيف لنا بحفظ شعر نسمعه لأول مرة؟ قال: كيف عرفتم مبلغ القصيدة من البيان قالوا: لأنه نال من آيات الاستجادة ومن التصفيق ما لم ينل غيره، وكانت في نفس حافظ ذلك اليوم لأمرٍ ما مؤجدةً على إمام. فقال: «والله ما صفق الناس لبلاغة إمام ولا لجودة شعره، وإنما هو عبد كان لما يعمر اللبنة كويس يقولوا له برافو يا إمام، فكيف بهم إذا رأوه ينشد شعرًا».

المجمع عدة محاضرات حللت بها شعر حافظ وما كان له من الأثر الطيب في الأمة المصرية خاصة والشعوب العربية عامة^(١)، فأبرق لي شاكرًا وتهلل لما قلت فيه.. وكان كلامي مشوبًا بروح الإخاء وأماراته ظاهرة على ما قلت.

ولما أقيم مهرجان شوقي^(٢) قبل نحو عشرة أعوام في هذه (الأوبرا) خرجت وحافظًا نستجم وراء هذا المدرج فقال لي مازحًا: «إنك أثبت هذه الليلة أنني من بني آدم» فقلت له: «ما كان أولاك بمثل هذا التكريم يا حافظ.» فقال: «اسكت. يسمعك شوقي». وكان حافظ يحاذر من كل ما يتأذى به شوقي، وإن كان يعرف أنه ربما كان لشوقي يد في إبعاده عن القصر حتى يكون هو المستأثر وحده بنعم عزيز مصر يومئذ.

وجاء حافظ يرافقه صديقه وصديقي خليل مطران إلى ربوع الشام فألقى قصيدة في الجامعة الأمريكية في بيروت. ثم سعى له مطران أن يمنح لقب وطني بعلبكي، وبعلبك مسقط رأس أختنا مطران مشهورة بديبها ودبسها! ولما أقام المجمع العلمي العربي بدمشق حفلة تكريم لحافظ ومعه بالطبع دليله البعلبكي وقد فاز بلقب الوطني البعلبكي! كان حافظ يبكي من تأثره من كلام الخطباء والشعراء فيه، ويدرك أن مكانته خارج مصر لا تقل عن مكانته داخلها، وسعيت بأن قُلِّدَ ورفيقه وسام الاستحقاق السوري. فقلت له ونحن نعلقه على صدره: «يحق لحكومة سورية اليوم أن تغتبط بأنها نَيْسَنْتَكَ». والنیشان هو الوسام أو الرمي إلى الهدف بالرصاص، فضحك وأنسيت ما ورد على لسانه من النكات.

وأحب أدباء دمشق أن يتعرفوا بحافظ في جلسة خاصة، فدعوته ودعوتهم كلهم إلى داري. وكانت عبارة الدعوة: (أرجو حضوركم لتناول قُدحٍ من الماء

(١) اصطلاح فيما بعد على أن تكون الأمة أشمل في معناها من الشعب. والأمة العربية جامعة للشعوب العربية في كل قطر.

(٢) يقصد مهرجان شوقي الذي بويج فيه بإمارة الشعر عام ١٩٢٧.

المثلج مع شاعر النيل) فاستبدع حافظ هذه الدعوة. فقلت له: إن الشهر أعظم شهور القيظ آب اللّهاب أي: (أغسطس) ولأن يقال: «قدح من الماء المثلج» أغرى للنفس من أن يقال: «قدح شاي». ولما جلس يشرب الماء المثلج جثته بطبقٍ فيه حلوى يسمونها «كل واشكر» فوضعت في حجره، فضحك وقهقه، وقلت له: «كل هذا واشكر» وقد قال ذاك اليوم في الماء المثلج وما ورد عن العرب في هذا المعنى، ومعنى الحرارة والبرودة ما لو كتب لجراء بحثاً من أمتع أبحاث الأدب. وكانت تلك الزيارة آخر عهدي بحافظ.

إن إعجاب أصدقاء حافظ بشعره، وأنا من أصغرهم، لا يقل عن إعجابهم بحديثه وجمال روايته، كان يلعب بالعقول والقلوب حتى يُنسي سامعيه كل مهم لهم. وهو جدّ طروب، جدّ لعوب، لا يحزن إلا لفقد حبيب. ولا تنقبض نفسه إلا إذا حلت بأمته كارثة فيكون من طليعة من يواسيها ويعلمها (*).

نعم، كان حافظ بهجةً نفوس أصحابه، وزين كل نادٍ حلّه، ما عهد له شبيه ولا نظير في بابهِ فيما رأيت، وقد أعرب عن هذا المعنى شاعر العرب صديقي خليل مطران يوم رثاه بقوله^(١):

أين زين النّديّ منهم وهم في الظّ
كُلّ حفلٍ شهّدته كنت فيه
ياخذون الحديث عنك كما يش
فإذا ما تنادروا وتنادر
فظنّ نشرح الصدور ومأثرو
ربما كانت العظمت الغوالي

(*) لملها (ويُعرّبها) [المراجع].

(١) من قصيدة في رثاء حافظ إبراهيم وردت في ديوان خليل مطران ج ٤/ ١٣٥ من (١٧١) بيت مطلعها:

عظم الله فيك أجر الضاد وبنيتها من حاضرٍ أو بادي



حسين والي (١)

١٢٨٦ - ١٣٥٤ هـ

١٨٦٩ - ١٩٣٦ م

ولد ببلدة «ميت أبي علي» الملحقة بمركز الزقازيق من أعمال الشرقية بمصر، كان أبوه من كبار علماء الأزهر. وفي مكتب قريته حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة والحساب، وحمله والده إلى القاهرة فأدخله مدرسة ابتدائية، ثم أحقه بالأزهر طالبًا، وهو يناهز الثالثة عشرة، فدرس فن التجويد والقراءات، ثم أخذ بتلقي العلم على مشايخ مشهورين كالشيخ الأشموني والأنبائي والبشري. ونال شهادة العالمية وعين مدرسًا في الأزهر، وقد عرف بالتدقيق وطول الأناة في البحث، وكان الشيخ محمد عبده مفتي مصر يحيل عليه استفتاءاتٍ مشكّلةً ترد عليه من الأقطار الإسلامية، فيتحرى فيها الحقيقة والصواب. ولما أنشئت مدرسة القضاء الشرعي عهد إليه تدريس علوم الأدب العربي والإنشاء والمنطق وأدب البحث والمناظرة، وبعض العلوم الشرعية فأبان عن جلادة وتدقيق في مراجعة ما يكتب تلاميذه. وعين منشئًا عامًا للأزهر والمعاهد الدينية، ورئيس الامتحانات في الأزهر، ثم نصب وكيلاً في معهد طنطا. ولشغفه بخدمة اللغة العربية، أراد أن يضع حدًا لخطأ بعض العلماء والطلبة، فكان يكتب بعض الكلمات المتداولة على اللوح يبين وجه

(١) ترجمته في الأعلام ج٢/٢٥٤ ومعجم المؤلفين ٤/٤ والأعلام الشرقية ١٠٧/٢ وهو

حسين بن حسين بن إبراهيم بن إسماعيل والي الحسيني.

الصواب فيها، وينبه على الخطأ، ويعرض لوحته في فناء المعهد مرتين كل أسبوع. فاستفاد العلماء والطلبة بهذه الطريقة، ثم جعل كاتب السر العام في الأزهر والمعاهد الدينية، ولما عرضت الحكومة على الأزهر أن تمده بعشرين ألف جنيه في السنة مقابل إشرافها عليه سعى بلباقة بإبطال هذا المقترح حتى يبقى الأزهر على استقلاله.

وفي سنة ١٩٢٤ رشح الفقيه نفسه لعضوية جماعة كبار العلماء ببعض مؤلفاته المطبوعة مثل كتاب «أدب البحث والمناظرة» وكتاب «الاشتقاق»، و«رسالة التوحيد» و«رسالة الإملاء» وله مؤلفات كثيرة لم تطبع، وذلك في الفقه والتوحيد وأدب اللغة. وكان شاعراً يجيد الشعر التاريخي، وينظم القصائد الطوال يرمز أحد مصراعي كل بيت للتاريخ الهجري، ويرمز الآخر للتاريخ الميلادي. ثم اختير عضواً في مجلس الشيوخ مرتين، فعمل على مقاومة التبشير وتحفيظ القرآن. وعين عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية منذ أول إنشائه سنة ١٩٣٢، وهنا صحبته وأعجبت بمناقشاته وجميل بديهته وسعة حافظته، فكان يأتي بما ورد في مطولات النحو والصرف بألفاظه، لا يتقدم عليه في هذا الباب أحد ممن كان معنا من كبار الأزهريين، فظهرت في المجمع اللغوي مواهبه وسعة مادته في اللغة وقواعدها، وكان رأيه فصل الخطاب في بعض المناقشات. وجمهرة أعضاء المجمع لأول أمره كانت من المصريين الذين درسوا في الأزهر، ومنهم من بعده دراساتٍ أخرى.

كان الشيخ والي صورة جميلة من علماء الأزهر ببيانه وجداله وحماسه في عرض آرائه على رُصفائه^(١). وهو إلى ذلك مفطور على ذوقٍ جميلٍ وأدبٍ غرض، يجمع إلى الأناة إقداماً، تقرأ في طلعه النبيل والشرف، غيور على اللغة، داعية لتحببها والعناية بها. تحسُّ إذا اجتمعت إليه، سعة المادة وأدب

(١) جمع رصيف، وهو الأليف المرافق.

النفس. ولاقتصاره على ما أخذه من مشايخه لم تكتب له شهرة في غير بيئته وبيئته ضيقة لا تتعدى علم اللسان وعلم الدين.

حدثني أن له تأليف كثيرة في فنون مختلفة لم تطبع، وله في هذا شركاء بين العلماء والأدباء أهمهم التأليف وما اهتموا لنشرها، فكانهم ألفوها لأنفسهم، أو ليفرحوا فقط بوضعها في خزائنهم، أو كانوا على سنن من كان قبلهم من المؤلفين قبل أن يظهر الطبع. فتبقى مؤلفاتهم مخطوطة. ومن ألف وما طبع تَعِبَ بالغرس وما قطف الثمرة. وما كان صاحبي هذا ممن يعجزهم نشر تأليفهم في حياتهم، وبعض رسائل في موضوعات سبق المؤلفون فألفوا فيها لا توازي علم عالم من عيار الشيخ حسين والي. حفظ الدساتير والقواعد، وكان فيها أقعد من العلماء الذين استخدموا منها ما لا بد منه، ولكنهم أجروا أقلامهم في ميادين العمل، فكان الانتفاع من علمهم أضعاف الانتفاع من علماء النظريات.





خليل مطران^(١)

١٢٨٨ - ١٣٦٨هـ

١٨٧١ - ١٩٤٩م

كتب إلي ما نصه: «بعلبك مسقط الرأس وكتاب التهجي. بها كبا بي الجواد وتهشم وجهي، فكانت الكبوة الأولى في ميدان الحياة ولما أناهز السابعة من سني، زحلة كتّاب القراءة الأولى ومبدأ تنبه الفكر. بيروت المدرسة التي بلغت فيها التأديب، رُضْتُ قلمي فيها بالنثر والشعر، وأستاذاي قبيل الإجازة هما المرحومان الشيخ خليل ثم الشيخ إبراهيم اليازجي، وفضلهما وفضل أبيهما من قبل لا يجحد على قرّاء العربية في عهدهم، وخاصة على تلاميذ الكلية البطريركية للروم الكاثوليك.

أخذت من اللغات العربية والفرنسية أصلاً والإنكليزية والتركية والإسبانية مشاركة، واللغة المذكورة آخرًا قد نسيتها إلا كلمات قليلة.

وفي بيروت بدأت عملي الصحفي فنشرت مقالات في «لسان الحال»^(٢)

(١) ترجمته في الأعلام ج ٢/٣٦٨ ومعجم المؤلفين ج ٤/١٢٢ ونثر الأفكار: ١/١٥٨، تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ١٠٣١ تاريخ الشعر العربي الحديث: ١٩٣، قدماء ومعاصرون: ٢١٤ الأدب العربي المعاصر في مصر: ١٠٣، قدماء ومعاصرون: ٢١٤ الأدب العربي المعاصر في مصر: ١٠٣ دراسات في الشعر العربي المعاصر: ١٢٢، أشهر مشاهير الشرق: ١٣٠ من الأدب المعاصر للكياي: ١٩٨.

(٢) لسان الحال: جريدة يومية أسسها خليل سركيس، وصدر أول عدد لها في ١٨ تشرين الأول ١٨٧٧ في بيروت، ولخليل مطران قصيدة في عيدها الخمسين في ديوانه ٣/٢٥٢ مطلمها: =

وأنا تلميذ، واستُكُتبت في صحيفة «الأحوال»^(١) من يوم تأسيسها إلى أن هاجرت.

الإسكندرية موطني بعد رحلة رحلتها إلى أوربة، وفي ذلك الثغر انتظمي سلك تحرير «الأهرام». ثم وليتُ مراسلتها من القاهرة حتى إذا نُقلت هي من الإسكندرية إلى هذه الحاضرة اضطلعت برياسة تحريرها إلى أن أحللت محلي المرحوم داود بركات. وانصرفت إلى شؤون أخرى أُطلب منها في مجال أوسع رزقي ورزق من أكفل. وفي خلال اشتغالي بهذه الشؤون أصدرت «المجلة المصرية» عامين وبعض الثالث، ثم أصدرت «الجوائب المصرية» اليومية أربعة أعوام وبضعة أشهر، وأنا آنئذ لا أمنح المهمة الصحفية من وقتي إلا أقله.

وفي أثناء ما ذكرت من عملي في القاهرة، كنت أنظم الشعر أو أترسل في شتى الأغراض حينًا بعد حين. ولي ديوان تبلغ جملته الآن أضعاف ما احتواه «ديوان الخليل»^(٢) ولي من الكتب النثرية «مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام» و«الموجز في علم الاقتصاد» عاونني فيه محمد حافظ إبراهيم بك. وقصص إخبارية وتمثيلية مترجمة، ومجلدات عدة في علم النفس وتقويم الأخلاق، ومباحث اجتماعية وفنية كثيرة لم تنشر مجاميعها لضيق وقتي دون تمثيلها بالطبع.

وهذه جملة أمري وليست بالشيء الخليق بالتدوين في الكتب، ولكنني أطعت بإيرادها إرشاد الحكيم الذي قال: من سئل فليُجِبْ.

= خمسون لا تنسى من الأحوال مرت وأنت بها لسان الحال

(١) الأحوال: صحيفة الحبيب يوسف أنشأها في القاهرة في ٢٨/٦/١٩٠٨.

(٢) وقف بنفسه على طبع الأجزاء الثلاثة الأولى من ديوانه وعلى جانب يسير من الجزء الرابع

والأخير ثم توفي فأكمل بعد وفاته.

ولخليل عدة تمثيلات نقلها عن الإفرنجية مثل «عطيل» و«همت» و«مكبث» و«تاجر البندقية» و«السيد»^(١) عدا مقالاته.

واشتهر بأنه من شعراء الطبقة الأولى في هذا العصر، ولم يشتهر بأنه أيضًا من كتاب الدرجة الأولى، فغطى شعره على نشره وهو فيهما آية وغاية. ومن أحسن ما كان مفطورًا عليه أريحيته ونجدته، ما قصده فاصد إلا لباه وعاونه وواساه من ماله ومن مال غيره. وكان مقامه في مصر مقام سفير انتدبته الشام ليفرج كربة المكروب من أبنائها، ويهب لإغاثة الملهوف، فالكرم في طبعه، والوفاء لا معدى له عن القيام بواجباته، وكان المصريون يعرفون فيه هذه الصفات، ومنهم ومن أغنياء السوريين من كانوا يحكّمونه في أموالهم لكنه لا يأخذ منها إلا للمحاويع بالقدر اللازم، ولم يُبق له كرمه في آخر أيامه ما يستند إليه في معاشه، فقيل أن يكون كاتم سر النقابة الزراعية وأن يكون مدير الفرقة الوطنية في التمثيل. ذهب من الدنيا كيومٍ وَلَدَتْهُ أمه، وذهب أيضًا بسيرة زكية وأدبٍ راقٍ أفاد كل من ثقفه، وقد أدخل إلى الشعر روحًا جديدًا، سرى إليه من اطلاعه على أدب الغرب اطلاعًا واسعًا عرف كيف ينتفع به.

كان كريم النفس وجود بماله وجاهه، وكان في شعره كريمًا أيضًا، إذا جادت قريحة غيره بالمديح بالأبيات جاد هو بالعشرات. ويمدح من يعرف، وقد يمدح من لا يعرف إلا بالسماع يجاري في ذلك المادحين، ولا يمتن بما يعطي ويهب. جاد على أصحابه وغير أصحابه من شعره بما لا يكاد يتسع له غير صدر الكريم، وحلاهم بحلى أدبه، ومنهم النكرة الذي لا يعرف بأدبٍ ولا علمٍ، ولا اشتهر بما يشتهر به الرجال من الصفات التي ترفعهم.

وكما كان سمحًا بمديحه كان سمحًا برثائه، والرثاء أخو المديح، هذا

(١) التمثيلات بلغة اليوم هي المسرحيات. والأربع الأولى لشكسبير، والأخيرة لكورني الفرنسي.

للأحياء وذاك للأموات، يقول: كل ذلك بداعي الوفاء ورقة الشعور أو مجارة
لجمهرة الشعراء في عهده.

نظم وقائع كثيرة بشعره العذب وتوسع في بعضها وأطال، ومنها ملحمة
الفريدة في حياة نيرون، بلغت نحو ثلاثمئة بيت جاء بها على قافية واحدة،
مما لم يسبق إليه شاعر عربي، وجرى فيها على مثال ملحمة هوميروس ودانتى
وملتون. وفي ملحمة صديقي مطران أدب وحكمة وعبرة، قدم لها مقدمة
منثورة أثبت فيها أنه نابغة في الصناعتين، كما أثبت بمحاضرتة في الجامعة
السورية «في اللغة العربية وخزائنها الأدبية»^(١) وربما امتاز نثره عن شعره في
الأحيان، ولكن بالشعر اشتهر، شهرته به الدواعي والبواعث، وقديماً كان
الشعر أشيرَ من النثر، والشعر يستملحه الخاصة والعامة، والنثر لا يقدره قدره
إلا الخاصة.

ومن أبياتها^(٢):

إن روما جعلت نيرونها	وهو شر القوم مما كان شراً
بلَّغته المُلْك عفوًا فبغى	كل ملك جاء عفوًا راح هدرا
يقدرُ الشيءَ مُعاني كسبه	فإذا ما هان كسبًا هان خُسرا
عاث فيها مستبداً مسرفاً	دائب الإجمام عَوَادًا مُصرًا
وهو لا يمنحها من باله	غيرهمَّ الخطر المكسوب قَمرا ^(٣)
ليس في تشنيعه من بدعة	إن للخامل عند الذكر ثأرا
لا ولا في ظلمه من عجب	إن للظالم عند العدل وترا

(١) الملحمة ومقدمتها في ديوانه ج ٣ ص ٥٠ وما بعدها مطلعها:

ذلك الشعب الذي آتاه نصرًا هو بالنسبة من نيرون أخرى

(٢) ديوانه ج ٣ ص ٦٩.

(٣) الخطر: الشرف، قمرًا: باللعب بالقمار.

خاب من خال النصرى هلکوا
 فالذي أولده الفتك بهم
 ثم أضحى ملك روما ملكهم
 هكذا الفكرة من أرهقها
 من يلم نيرون اني لائم
 أمة لو ناهضته ساعة
 فاز بالأولى عليها وله
 كل قوم خالِقو نيرونهم
 وقال في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام من قصيدة^(٤):

ما أثمرت هجرة الهادي لأمته
 وسودتها على الدنيا بأجمعها
 بدا وللشرك أشباع نوطده
 والجاهليون لا يُرضون خالقهم
 مؤلهون عليهم من صناعتهم
 مستكبرون أباة الضيم عُرُّ ججى
 لا ينزل الرأي منهم في تفرقهم

(١) مستحراً: مثنتاً.

(٢) كهفته: عبست له وانتهرت.

(٣) اثبجر: ارتدع وتراجع.

(٤) ديوانه ج ٢ ص ٣٩ وما بعدها ومطلعها:
 هلُّ الهلال فحَيُّوا طالع العيد

(٥) لدان: جمع لدن وهو اللين، والأماليد: جمع أملود وهو الغصن اللين.

حيرا البشير بتحقيق المواعيد

إلا كما صيح في عُفْرِ عباديد^(١)
 لدى لواءٍ على الأهواء معقود
 وأي عزمٍ مذل القادة الصَّيد
 شملاً جميعاً من الثَّر الأماجيد
 بل آية الله إذ يُبْقَى بتأكيد
 وأخذُهُم بعد إشراك بتوحيد
 بعهدہ للمسيحيين والهود
 ما شاءه الله عن عدل وعن جود
 فمن يفتنُّه أولى بتفنيده^(٢)
 وبس ما قيل: شعب غير محدود^(٣)
 والعام ليس إذا ولى بمردود
 يفيدها قائل: يا أمتي سودي

ولا يضم دعاءً من أوابدهم
 ولا يطيقون حكماً غير ما عقدوا
 بأي حلم مبيد الجهل عن ثقة
 أعاد ذاك الفنى الأميُّ أمته
 لتلك تالية الفرقان في عجب
 صعبان راضهُما: توحيد معشرهم
 وزاد في الأرض تمهيداً لدعوته
 وبدنه الحكم بالشورى يتم به
 هذا هو الحق والإجماع أيده
 أي مسلمي «مصر» إن الحدَّ دينكم
 طال التقاعسُ والأعوام عاجلة
 هُتِّبوا إلى عمل يجدي البلاد فما
 ومن قصيدة يصف قلعة بعلبك^(٤):

فإذا مرَّ فهي في الأثارِ
 ينقضني والفتى به غير داري
 فإذا بان عاش بالتذكار
 بعد طول النوى وبعد المزار

همَّ فجر الحياة بالإدبار
 والصِّبا كالكرى نعيم ولكن
 يغنم المرء عيشه في صباه
 إيه آثارٌ «بعلبك» سلام

(١) العفر: ج أفر وهو الظبي، عباديد: متفرقة.

(٢) التفنيد: التخطئة والتكذيب.

(٣) محدود: محظوظ.

(٤) مطلع قصيدة في ديوانه ج ١ ص ٩٧.

ووقبت العفاء من عرصات
ذكريني طفولتي وأعيدي
مستطاب الحالين صفواً وشجواً
يوم أمشي على الطلول السواجي
نزقاً بينهن غراً لعموياً
مستقلاً عظيمها مستخفاً
خرب حارت البرية فيها
معجزات من البناء كبار
ألبتها الشموس تفويت در
وتحلت من الليالي بشاما
وسقاها الندى رشاش دموع
زادها الشيب حرمةً وجلالاً
رب شيب أنم حسناً وأولى
معبد للأسرار قام ولكن
مثل القوم كل شيء عجيب
صنعوا من جماده ثمرًا يُجد
وضروبًا من كل زهر أنيق
وشموماً مضيئةً وشعاعاً
وطيورًا ذواهباً آيات

مُقبوياتِ أو اهلٍ بالفخار^(١)
رسم عهد عن أعيني متوار
مستحب في النفع والإضرار
لا افترار فيهن إلا افتراري^(٢)
لاهيًا عن تبصر واعتبار
ما بها من مهابة ووقار^(٣)
فتنة السامعين والنظار
لأناس ملء الزمان كبار
وعقيق على رداء نضار
ت كتنقيط عنبر في بهار
شربتها ظوامئ الأنوار
توجتها به يد الأعصار
واهن العزم صولة الجبار
صنعه كان أعظم الأسرار
فيه تمثيل حكمة واقتدار
نى ولكن بالعقل والأبصار
لم نفتها نضارة الأزهار
باهرات لكنها من حجار
خالدات التمدد والإبكار

(١) عرصات: ديار، مقبويات: خاليات من السكان، وأقوى المكان: خلا.

(٢) الافترار: الابتسام.

(٣) بعده ١٣ بيتاً لم ترد هنا.

بصنوف النجوم والأنوار
 ويروع السكوت كالتزآر
 باديات الأنياب غير ضوارٍ
 وبالحاظها سبولٌ شَرارٍ
 كل آن روائعَ الزوار
 دقٌ حتى كأنها في انتشار
 معقلٍ فيه والمعقلُ بعدَ الباري
 ما تحج القلوب في الأنظار^(١)

في جنان معلقات زواهِ
 وأسودًا يُخشى التحفز منها
 عابسات الوجوه غير غضابٍ
 في عرائينها دخانٌ مُثارٌ
 تلك آياتهم وما برحت في
 ضمها كلُّها بديع نظام
 في مقام للحسن يعبد بعد الـ
 منتهى ما يجاد رسمًا وأبهى



(١) تمة القصيدة تقع في ١٥ بيتًا.



رفيق العظم (١)

١٢٨٤ - ١٣٤٣هـ

١٨٦٧ - ١٩٢٥م

ولد في دمشق في حدود سنة ١٢٨٠ هـ ونشأ نشأة أبناء الأعيان الذين يهيتون أنفسهم للدخول في خدمة الحكومة، واتصل بعالمين عظيمين: طاهر الجزائري وسليم البخاري^(٢) فأخذ عنهما ما استنار به عقله وخرّجه للتزول في مضمار الجهاد، لبث الأفكار الصحيحة وإنكار الظلم. وأخذ يكتب فصولاً في الإصلاح وفي مسائل وطنية ينشرها في الجرائد والمجلات، ويقرض الشعر في أغراض. سرت إليه الشاعرية من والده محمود العظم. وصحب بعض

(١) ترجمت في الأعلام ٥٦/٣ ومعجم المؤلفين ج ٤/١٧٠ حلية البشر ج ٢/٦ - ١٠. قداما ومعاصرون: ١٦٦ وانظر مقدمة الكتاب الذي جمع آثاره وعنوانه مجموعة آثار رفيق العظم بقلم محمد رشيد رضا، ومعجم المطبوعات: ١٣، ١٣٤٣.

(٢) تنظر ترجمة طاهر الجزائري ص ٢٣٢، أما سليم البخاري فعالم دمشقي، من طلائع الإصلاح الديني واليقظة الحديثة في سورية، قرأ علوم الدين واللغة والأدب على علماء عصره، وتولى منصب الإفتاء في الفيلق الخامس من فيالق الجيش العثماني، واستمر نحو ربع قرن، وجاهر بأرائه في الإصلاح الديني والسياسي، وكان مهيباً وقوراً، ألف بعض الكتب والرسائل، وجمع مكتبة حافلة بالمخطوطات النادرة، وهو من أوائل أعضاء المجمع العلمي بدمشق، كما تولى منصب رئاسة العلماء، ثم اعتزل معتكفاً إلى أن توفي سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م عن ٧٧ سنة (الأعلام ٢٧٦/٣).

أحرار الترك النازلين في بلده فأفاد منه روحًا جديدًا وتلحح فكره بآراء حرة، ومن أيسرها مقاومة الاستبداد والمستبدين والتنبه على فساد الإدارة العثمانية.

دام ينقد ما كان في وسعه نقده من أعمال الأعمال^(١) حتى اضطر إلى الهجرة إلى مصر في حدود سنة ١٣١٠هـ، وقد ورث من عمته حصة في وقف أهلي في مصر، وكان أبوه بدد ثروته بالسفاهة، ولم يبق له ولشقيقه إلا ما لا بال له^(٢)، فحسنت حاله بعض الشيء، وانقطع إلى العلم والكتابة، واختلف إلى مجالس الأستاذ الإمام محمد عبده وبعض جماعته النبهاء أمثال قاسم قاسم^(٣) وحسن عاصم وفتحي زغلول وكثير من أساتذة دار العلوم أمثال عبد العزيز جاويش ومحمد المهدي.

وكان من مؤسسي جمعية «الشورى العثمانية» الحرة، وقد أصدرت جريدة تركية فتولى إنشاء القسم العربي منها، ومن هنا اتصل بجماعة حزب الاتحاد والترقي حتى صار موضع ثقتهم. ولما نشب الخلاف بين الجمعية وأحرار العرب كان الفقيه في جانب العرب وناهض الجمعية وكشف عن مساوئها.

وحدّث به وطنيته الصادقة أن يساهم في معظم ما يعتقد أنه يؤدي إلى استقلال العرب أو يُبئلهم بعض حقوقهم في ظل الهلال العثماني. وأنفق من وقته وماله في هذه السبيل جانبًا لا يستهان به.

وكتب رسائل ومقالات كثيرة في الإصلاح، وخطب في الموضوعات، ينه الأفكار باعتدال وبعد نظر، جمع بعضها في كتاب. وأشهر مصنفاته كتاب

(١) لعل المراد: (من أعمال العمال).

(٢) والده محمود بن خليل العظم، شاعر، نشأ في نعمته وترف، وأضاع ثروته وتصرف، وكان لوعًا بالصناعات البدوية. له مصنفات وديوان شعر (الإعلام ٨/ ٤٥).

(٣) كذا في الأصل، ولعل المراد قاسم أمين.

«أشهر مشاهير الإسلام^(١)» كتب منه أربعة مجلدات راجت وأعيد طبعها إلا أنه لم يتم تأليفه، وبه استفاضت شهرته في العالم الإسلامي.

ومن مصنفاته كتاب «الدروس الحكيمة للناشئة الإسلامية^(٢)» و«البيان في أسباب التمدن والعمران^(٣)»، و«البيان في كيفية انتشار الأديان^(٤)»، و«تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام^(٤)» و«الجامعة الإسلامية وأوروبا^(٤)» إلى غير ذلك من الأبحاث التي تدل على بعد غوره في الشؤون الإسلامية^(٥).

مثل صديقي الرفيق في جميع أدوار حياته الوطنية الصحيحة في نبل خالٍ من كل غرض، وأسمع صوت أمته في ديار العرب وغيرهم، وحذر الأتراك عواقب الطغيان، وحققت الأيام ظنه، وخدم الجامعة العربية الإسلامية خدمة كان من أول من جالوا فيها مغتربين. وقد عُرف بشممه وعزة نفسه وكرمه وصبره وجَلده، وكان عفَّ القلم واللسان، لا يذكر من يذكر إلا بالخير، ويسكت عن المساوي ويكتمها، وفيه حسن وفاء وجميل عواطف يستميل القلوب ويسترق الأفتدة بحسن معاملته وإخلاصه، ويسير مع الرقي كيفما سار. تشعب بروح التاريخ واستخراج عبره الماضية للانتفاع بها في العصر الحاضر. ويتغنى أبدًا بمجد رجال الإسلام، ويبكي على ما صار إليه أهله من التدنّي بفعل الملوك وعلماء السوء، وتُخصّ بشعور عالٍ، وشارك أمته في خطوبها منذ

(١) في الحرب والسياسة.

(٢) طبع.

(٣) رسالة.

(٤) طبع.

(٥) جمع شقيقه عثمان بعد وفاته طائفة من مقالاته في كتاب سماه: (مجموعة آثار رفيق العظم) طبع. وله أيضًا: (السوانح الفكرية في المباحث الطيبة)، ومن مآثره إهداؤه إلى المجمع العلمي العربي بدمشق خزانة كتبه، وهي نحو ألف مجلد، وتوفي بالقاهرة.

صدر الإسلام إلى يوم الناس هذا. ولم يترك بابًا يعتقد فيه إصلاحها إلا ولجه، وما بالي المصاعب. ولا تخلى عن استعمال كل قوة تنهض بها إلا حرص على تحقيقها.

كتب إليّ من القاهرة يوم ٥ ذي القعدة ١٣٢٢ يقول: «وبودي ألا توزع قواك التي وهبت لك في أجزاء منثورة وفصول مبتورة، وأن توجه نفسك إلى تأليف كبير يكون لك ذخراً وللأمة نافعاً، وأفضل ما يحتاجه قومك الآن التاريخ لاسيما تاريخ الأندلس، فإذا رأيت نفسك في متسع من الوقت وارتياح لطرق هذا الباب فامض في هذه الوجهة، وأعد لهذا العمل الشاق عدته من كتب إفرنجية وعربية وفهارس للعلوم من كل الخزائن الأوربية لتقف على ما كتبه الغربيون بشأن تلك المملكة الإسلامية، إذ ما كتبه مؤرخونا لا يكفي لهذا الغرض، والمطول من تاريخ الأندلس مفقود، والمختصر مقتضب مبتور محرّف الأسماء معمى الأخبار. مثاله: إذا قرأنا في تواريخنا خبر غزوة عبد الرحمن الغافقي^(١) في بلاد فرنسا نقرأ بخبر هذه الغزوة، التي لو تم بها الفتح لقلب كيان العالم، أسطراً قليلة مؤداها أن ذلك الفاتح الكبير غزا بلاد الإفرنج وقتل^(٢) الطاغية، لكن ما هي البلاد؟ وأين موقعها؟ وما اتساعها؟ ومن كان يحكمها؟ ومن ذلك الطاغية؟ كل هذا مفقود من تواريخنا وموجود في تواريخ الغربيين. فإذا ضممننا هذه إلى تلك، وطابقنا^(٣) بين صوابهم وخطئنا، وخطئهم وصوابنا أخذنا تاريخاً جامعاً نافعاً لتلك المملكة التي كاد يأتي الزمان على تاريخها كما أتى على أهلها ودولها...».



(١) غير واضحة في الأصل.

(٢) الأصل: وقتله.

(٣) الأصل: طابقنا.



سعيد الشرتوني (١)

١٢٦٥ - ١٢٣٠هـ

١٨٤٩ - ١٩١٢م

ولد المعلم سعيد الشرتوني - والمعلم لقبٌ غلب عليه؛ لأنه علّم ودرّس كثيراً - في «شرتون» من قرى الجرد في شوف لبنان. وبدأ بتعلم القراءة والكتابة وهو في الثالثة عشرة عقيبَ حادثة غريبة وقعت له. ذلك أنه شاهد فتاة في قريته متسلقة على شجرة تين، فرشقها بحجر فذعرت وزلّت قدمها فسقطت على الأرض وماتت على الأثر، فخاف مما جرى وهام على وجهه في الجبال حتى وصل إلى عبيّة، فسفّق عليه المرسلون الأميركان وأدخلوه في مدرستهم، فمكث فيها عامين (١٨٦٢)، ومنها انتقل إلى مدرسة «سوق الغرب» الإنكليزية، ودرس مبادئ العربية والإنجليزية وقضى خمس سنين معلماً في «عين تراز»، ومنها انتقل إلى التعليم في دمشق، فدرس فيها حتى سنة ١٨٧٥ وأخذ خلال مقامه الفقه الحنفي عن أكبر فقهاء عصره العلامة عبد الغني^(٢) الغنيمي الميداني، تلميذ سيد الفقهاء المتأخرين العلامة السيد محمد عابدين

(١) ترجمته في الأعلام ١٥١/٣ ومعجم المطبوعات ١١١٢، وهو سعيد بن عبد الله بن ميخائيل بن الياس بن الخوري شاهين الرامي، ومعجم المؤلفين ٢٢٦/٤ وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢٤١/٤، تاريخ الصحافة العربية ج٢/١٥٤.

(٢) هو عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقي الميداني (١٨٠٧ - ١٨٨١)م من فقهاء الحنفية بدمشق، نسبته إلى محلة الميدان، له (اللباب) في الفقه ورسائل في الصرف والتوحيد (الأعلام: ١٥٩/٤ معجم المؤلفين ٢٧٤/٥).

صاحب الحاشية^(١)، وكان يقصد من دَرَسِ فقه أبي حنيفة أن يعود إلى لبنان ويتولى القضاء فيه، وكانت الشريعة نافذة الأحكام، ولا سبيل إلى تفوق القضاة في أفضيتهم إلا بالبراعة فيها.

ومن دمشق انتقل مترجماً إلى بيروت فدرّس في كلية الآباء اليسوعيين خمس عشرة سنة، ثم دَرَسَ في مدارس أخرى في بيروت، منها البطريركية الكاثوليكية، ومدرسة الحكمة المارونية، وتولى تصحيح مطبوعات اليسوعيين اثنتين وعشرين سنة، وفي غضون ذلك عهدوا إليه تأليف معجم عربي مرتباً على طريقة تسهل بها المراجعة فألف كتاب «أقرب الموارد» في جزأين ضخمين، وأتبعهما بذييل استدرك فيه ما فاته فيهما.

والشرتوني مدين بشهرته لأقرب الموارد. وله من التصانيف: «حدائق المنثور والمنظوم»، و«السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب»^(٢)، و«الشهاب الثاقب في صناعة الكاتب»، و«مطالع الأضواء في مناهج الكتاب والشعراء»، و«المعين في صناعة الإنشاء» و«نجدة اليراع» وغير ذلك^(٣).

ترجم له الأستاذ رشيد عطية في «المقتطف» ومما قاله فيه: «أنه كان بحائة مدققاً فيما يجمعه ويدققه على الحواشي، بيد أنه تحدى في الجزأين الأولين من معجمه «أقرب الموارد» قاموس «محيط المحيط» فم يزد على ما جاء فيه، ولا أصلح ما بدر من الهفوات في شرح بعض الألفاظ، بل أثبتها

(١) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين. فقيه الديار الشامية، وإمام الحنفية في عهده، مولده ووفاته بدمشق، والحاشية المذكورة هي كتابه (رد المختار على الدر المختار) وهو في فروع الفقه الحنفي، وله كتب أخرى غيره كثيرة، توفي سنة ١٢٥٢هـ = ١٨٣٦م (الأعلام ٦/ ٢٦٧).

(٢) غنية الطالب ومنية الراغب كتاب في الصرف والنحو وحروف المعاني لأحمد فارس الشدياق (١٢١٩ - ١٣٠٤هـ) = (١٨٠٤ - ١٨٨٧م).

(٣) وله أيضاً: الغصن الرطيب.

على علّاتها، لم يغير فيها حرفًا. فكان في ذلك مقلدًا أكثر منه مؤلفًا مدققًا. ولكن حسناته في الجزء الثالث، الذي سماه ذيلًا لأقرب الموارد، ترجح على سيئاته في الجزأين الأولين، فإنه استقصى فيه شوارد اللغة، ولم يدع أبدًا^(١) إلا قيدها، ولا شاردة إلا ردّها إليه، فبلغ في ذلك غاية ليس وراءها مذهب لطالب ولا مضرب لرائد.

قال: ولو كان له حظ وافٍ من لغة أجنبية أو لغة شرقية سامية غير العربية لكانت مؤلفاته أتم فائدة. ولكنه أكبّ على العربية وخصّها ببحثه ولم يشأ أن يشرك معها لغة أخرى. وكان فوق ذلك كثير المحفوظ، قوي الذاكرة بعيد النسيان، لا يقرأ شيئًا إلا يعيه على ظهر قلبه. وهذا ما أعانه على التفوق في اللغة العربية، وجعله قوي الحجة، سريع الاستشهاد في كتابته وحديثه.

«وحكم على إنشائه فقال: «إنه يترجى فيه طريقتين: إحداهما سهلة المأخذ، واضحة المنهج، رقيقة الألفاظ، والثانية صعبة المرتقى، خشنة المركب. أما الأولى فكان يلجأ إليها في تأليفه، وأما الثانية فكانت لغة المناظرة وما شاكلها يعمد إليها في مساجلة نظرائه وفي مقدمات مؤلفاته. وقال: إنه قضى أعوامًا طويلاً يزاول حرفة التعليم، فلم يبلغ فيها الحد المطلوب، ولا برع في التدريس كما برع في اللغة والإنشاء والتأليف. فكان يلقي على تلاميذه بلغة لا يفهمونها، ولا تنطبق على درجة أفهامهم، فيضيع الطالب بين إسهاب في الشرح ووفرة الاستشهاد. وما كان شاعرًا، نظم أبياتًا قليلة دلت على أن صناعة الشعر لم تسلس له قيادها».

وقال في وصف أخلاقه: «إن بعضهم كان يزعم أنه لم يكن جميل الرعاية، ولا وفيًا بالعهد. أما أنا فقد خالته^(٢) وخبرته فوجدته كما وجدته كثيرون من المنصفين وثيق الدمة، حافظًا للعهد، صحيح الدخلة، مأمون الضمير، إذا أبرم

(١) ج أو ابد وهي: الدواهي وغرائب الكلام والقوافي الشرد، وما ينفر منه وهو مجاز.

(٢) خاله: اتخذه خليلًا، والخيّل: الصديق.

ميثاقاً مع شخص احتفظ به وأحكم عراه، وإذا انقلب الزمان فبات الصديق معادياً له قابله بالحلم. ويقال على وجه الإجمال: إنه كان عفيف النفس، شريف المقاصد حريصاً على صداقة أصحابه حرصه على الارتقاء باللغة العربية، متمسكاً بعُرا الدين، طيب القلب، وقلبه أصفى من مرآة الحسناء.

قال: وقد فجعته الدهر بموت فتاتين له كانت لهما شهرة في الأدب فحزن عليهما حزناً شديداً، وجمع ما كتبتاه في سفر سماه «نفحة الوردتين» قرّظه بعض العلماء والشعراء. وكان فَعْدُ ابنتيه مما عجل به، وأصبح لا يستطيع الكتابة والتأليف. واعتزل الناس في بيت ابتاعه في قرية الشياح من ضواحي بيروت، وقلما كان يخرج منه حتى وافاه أجله.

صادفته مرة في ساحة البرج في بيروت يتأبط كتباً، فسألته عما معه قال: أما سمعت الضجة القائمة هذه الأيام بدعوى أن الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني لا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس؟ فقلت له: سمعت ذلك، فقال: إني أنوي أن أدفع هذه الفرية عن الفقه، ولا يتيسر لي ذلك إلا إذا رجعت إلى الفقه الروماني نفسه وعارضته بالفقه الحنفي، ولما كانت لغتي الفرنسية ضعيفة أجيب أن أقويها لأتمكن من نقل قانون يوستينيانوس من الفرنسية إلى العربية ثم أقابل بين مواده وبين فقهننا. فأنا منذ أشهر أشتغل بإحكام اللغة الفرنسية. وبعد حين نشر في مجلة «المقتطف» سلسلة مقالات دفع فيها عن الفقه الإسلامي ما افتراه المتحللقون عليه، وكأنه بعمله هذا كافاً شيخه العلامة الغنيمي على تلقينه فقه الإسلام في زمنٍ كان غيره من فقهاء دمشق يابون أن يعلموه إياه جهلاً وتعصباً.

وسألني عن سبب زيارتي بيروت فأجبت: إني سمعت أن عند أحد الأدباء نسخة من «دائرة المعارف» الفرنسية ويريد بيعها، فأتيت أحمل خمسين ديناراً عثمانياً لأبتاعها، فقال: إني ناصح لك، اصرف النظر عن ابتياعها، واشتر بهذا المبلغ نصف فدان أرض في بلدك فهو أعود عليك من الكتب، ولطالما

صرفنا فيها دراهمنا وما أتت بالثمرة التي كنا نتوقعها منها. ولما عدت إلى بلدي قصصت على صديقه وأستاذه الشيخ طاهر الجزائري صورة الحديث الذي دار بيني وبين المعلم سعيد فقال: كان عليك أن ترد عليه نصيحته وتقول له: أنت لولا الكتب هل كنت تقبض ألف دينار عثمانى لتأليف معجم صرفت في تصنيفه أشهرًا؟ وهل كان لك في المصرف هذا المال الذي جنيته من التعليم والكتب؟ أما أنا فأحسن ظني بالعلم، وما أظن نصيحته إلا صادرة عن سذاجة هي سذاجة أكثر العلماء.

خدم الشرتوني اللغة العربية خدمة عظيمة، ولقنها تلاميذه في كل مدرسة تولى فيها التدريس، فخرَّج به كتاب وأدباء ذاقوا لغة العرب، وساروا بسيرته في تلقينها ونشرها، فهو، وإن لم يأخذ اللغة عن إمام مشهور، ولا دخل مدرسة عالية، قد اتكل في أحكامها على نفسه، وجارى أقطابها الذين نشرها في لبنان وأحسنوا نشرها أمثال بطرس البستاني وناصيف اليازجي ونجليه إبراهيم و خليل، وإبراهيم الحوراني ويوسف الأسير، وإبراهيم الأحذب، وأحمد عباس، وعبد الله البستاني وأضرابهم. ورأينا كتبه تنتشر في الأقطار العربية لحسن تنسيقها وسهولة الأخذ منها، وجمال طبعها وإخراجها، وهي جديرة بهذا الرواج.

وكان طيب السريرة، مخلصًا في عمله، دؤوبًا عليه، وكفاه مَنَقَبَةٌ أنه عاد فأحكم دراسة الفرنسية، وما كانت سِنَّهُ أَقْل من ستين سنة، ليرُدَّ على أعداء مدينة الإسلام. وأي همة أعظم من هذه الهمة، وأي غرام في نصره الحق أكبر من هذا الغرام؟

صرف وكده تعالى في خدمة الأدب العربي، وجرى على طريقة معاصريه بالجمع في كتابته بين المرسل والمسجوع، ونشر في المجلات العربية ما اعتقد فائدته في نشر هذه اللغة التي استولى حُبها على أعصابه وشرايينه. ولئن خلت كتاباته من أفكار جديدة فما قصرت في تربية ملكة العربية في أبناء هذه اللغة.



سليمان البستاني (١)

١٢٧٢ - ١٣٤٣هـ

١٨٥٦ - ١٩٢٥م

بيت البستاني في لبنان بيت علم وأدب، جاء منهم العالم والكاتب والطبيب والمحامي ورجل الدين، ومن نوابغهم سليمان هذا. ولد في بكشتين على مقربة من قرية الدّبية في أقاليم الخروب من عمل الشوف، وفي سن السابعة دخل المدرسة الوطنية لمؤسسها قريه المعلم بطرس البستاني، ف قضى فيها ثماني سنين، وبعد إتمام الدراسة انضم إلى معلمي مدرسته، فمارس التعليم فيها زمنًا، وهو يكتب في صحف نسيبه «الجنان» و«الجنة» و«الجنية»، ثم عاونه في إنشاء «دائرة المعارف»، وانتظم في سلك جمعيته «زهرة الآداب» ورأسها مرتين. ودعاه قاسم الزهير من أعيان البصرة لإنشاء مدرسة وجريدة في بلده فلبى الطلب، وكان في الحادية والعشرين من عمره، وأنشأ في البصرة أول مطبعة وأول جريدة، ثم انصرف إلى الأعمال التجارية، وقضى في العراق ثماني سنين، زار خلالها بلاد العرب والعجم والهند، وجمع معلومات مفيدة عن قبائل العرب وعاداتهم، وإحصاء نفوسهم وشعرهم، وقال إن عرب الصليب «الصلبة» النازلين بين بادية الشام والعراق هم من نسل الصليبيين

(١) ترجمته في الأعلام ٣/١٨٥، معجم المؤلفين ٤/٢٦٠، تاريخ الصحافة العربية ٢/١٥٩ والأعلام الشرقية ١/٨٤، رواد النهضة الحديثة: ١٣١، تاريخ الأدب العربي للفاخوري:

أوغلوا في البادية بعد الحروب الصليبية وتعربوا وبقيت في عاداتهم وأخلاقهم خصائص تنبئ بأصلهم، ومنها سحناتهم وبياض بشرتهم وزرقة عيونهم.

ومما قاله في مقالة له في الصليب نشرتها مجلة «المقتطف»: «إننا إذا خرجنا من دمشق الشام إلى عرب عنزة والرولة، وضرينا في البادية حتى اتصلنا إلى شمر الجبل وانعطفنا يمينًا إلى العجمان، وتوغلنا في البرّ حتى بلغنا الضفير ومطير، وسرنا من الرقمتين شمالًا إلى أن أدركنا المنتفق على الفرات، وعبرنا دجلة إلى بين كنانة وربيعه، وانعطفنا شرقًا وجنوبًا إلى بني أسد وبني لأم حتى اتصلنا إلى كعب في بلاد العجم، لما^(*) رأينا اختلافًا في أخلاقهم فوق ما نرى بين أهالي بيروت وإحدى قرى لبنان، وكأن في البداوة سرًا ليس في الحضارة، فإن الطبيعة قد قضت على الحضر بالتقلب والتخلق وعلى البدو بالثبات على حالة واحدة».

وفارق البستاني العراق راجعًا إلى بيروت يؤازر في «دائرة المعارف» للبستاني، ثم شخص إلى الأستانة، وتعرّف إلى ساسة تلك الأيام وعاشرهم وصاحبهم، ثم عاد إلى بغداد ثانية، وقضى فيها مدة، ثم قفل راجعًا إلى الأستانة فمكث فيها سبع سنين، وجاء مصر يضارب بالأراضي. قال أحد أصحابه إنه ملّ من الأدب وطمعت نفسه أن يغنى، فضارب وغامر فخر ماله. ومع هذا ما كان يغفل العناية بالعلم، ومن ذلك انصرافه أعمامًا إلى تعريب إلياذة هوميروس من اليونانية. وإحكام الترجمة درس اللغة اليونانية القديمة واليونانية الحديثة واستعان بترجماتها الإنكليزية والفرنسية والإيطالية. عربها شعرًا في أحد عشر ألف بيت، وقدم لها مقدمة عظيمة في مئتي صفحة دلت على علو كعبه في أدب العرب والإفرنج، وكانت أطروحة تنطق بطول نَفْسِهِ في البحث والتنقيب.

(*) الصواب: (ما رأينا اختلافًا)، لأن اللام لا تقع في جواب (إذا) الشرطية (المراجع).

ولما ظهرت الإلياذة صفق لعمله عشاق التجدد وأكبروه ونوّهوا به، قال فريق ممن يقدرّون الأمور بما ينجم من نفعها: «إنَّ الفائدة من الإلياذة لا توازي التعب في نقلها وصرف المؤلف الوقت الطويل في تأليفها، ولو نقلها نشرًا لكان يرجى أن تفهم». وروى البستاني في مقدمة الإلياذة: أن العلامّة السيد جمال الدين الأفغاني، رأسَ النهضة العربية، قال له بمحضر الأدباء: «إنه ليسرنا جدًّا أن تنقل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوه قبل ألف عام ونيف، وبأ حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا بادئ ذي بدئ إلى نقل الإلياذة، ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها». ونرى أن هذا الرأي أشبه بآراء من يتشوقون لنشر ما ضمته خزائن الكتب من المخطوطات القديمة من دون أن يطالعوها، ككتب التصوف والفلسفة، حتى إذا ظهرت ألفؤها أقلّ مما كانوا يتصورون، ورأوا أنّ لا نفع منها في دين ولا دنيا. يقول أناتول فرانس الأديب المشهور: «إنَّ الإلياذة شعر الطفولة، وهي مع هذا أجمل شعر يُتلى. وأصفى الشعر شعر الشعوب في طفولتها. والشعوب كالبلبل يغتني ما دخل السرور في قلبه، فإذا شاخ أصبح على جانب من الرزانة والمعرفة والهم».

ها قد ترجمت الإلياذة، ونشرت بعدها «الشاهنامة» بِحُلَّتْها العربية، فهل أجدنا على الأدب ما ارتفع به درجة عما كان عليه، وما كان من نشرها إلا إشباع شهوة أنصار الغرائب والمبهمات. أما نحن فقد رأينا مع طائفة من العارفين أن مقدمة الإلياذة أكثر فائدة من الإلياذة نفسها، فهي كتاب أدب جامع بأسلوب رقيق وبحث دقيق. قالوا: إن مقدمات الكتب هي الجزء الذي لا يقرأ من الكتاب. ونحن نقول: إن مقدمة الإلياذة هي الجزء الذي يقرأ منها فيخرج قارئها بزبدة نفعه وتفيده.

انتخب سليمان البستاني سنة ١٩٠٨م نائبًا عن بيروت في مجلس النواب العثماني، وأبان في مهمته الجديدة عن اقتدار وحسن سياسة وعناية بما ينفع

العرب ويمتعهم بحقوقهم في دولة الترك، ومنها ألا يوظف في ديارهم تركي لا يعرف العربية، وله غير ذلك من المطالب التي يتوخى منا مصلحة أمته، وتحقيقها لا يضر بالدولة. كان سفير خيرٍ وصلته واثم بين الدولة العثمانية ودول أوروبا. وقد أقنع ساسة الغرب أن الدستور لا يناقض الإسلام إذا فهم على حقيقته. وكان شأنه في دار الملك أن يقرب بين قلوب الترك والعرب، ويفهمهم أن لا سلامة لهم إلا بالتآلف والتعاطف، وانتدبت الدولة في مهمات سياسية إلى أوروبا غير مرة، فقام بحق السفارة أحسن قيام، ثم عين عضوًا في مجلس الأعيان. وفي سنة ١٩١٣ أسندت إليه وزارة التجارة والزراعة فأبان عن كفاءة وعلم وأنه رجل عمليات لا يعاب بالنظريات كثيرًا.

ولما قرر حزب الاتحاد والترقي صاحب الأكثرية المطلقة يومئذ في مجلس النواب إشراك الدولة في الحرب مع ألمانيا، بين لِساسة الترك فساد رأيهم، وإذ لم يسمع لنصحه استقال من الوزارة، وانقلب إلى سويسرا فأقام بها خمس سنين. وفي مصر لقبته واختلطت به وصادقته وأحببته وقد تمت أدواته، وتجلت أخلاقه وما فطر عليه من الأناة والاعتدال^(١). وكان يحدثني بما شاهده من الغرائب في رحلاته الطويلة، واستفدت منه فوائد عن جزيرة العرب والعراق وغيرهما قلَّ أن كتب لغيره معرفتها. وذكر لي أنه زار الرقمتين المشهورتين بتغزل شعراء العرب بها. وقال لي إنه اجتمع إلى كثير من أكراد أهل بلد جَدِّي «السليمانية» وأثنى على ما هم عليه من النظافة، وعلى حرصهم على عاداتهم وأخلاقهم، وعجب أن رأى جمهرتهم تغلب عليهم معرفة الرياضيات.

ومما نسب إليه إيجاده وضع أسلوب الاختزال (ستينوغرافيا) بالعربية، كتب فيها مبحثًا في دائرة معارف البستاني. واخترع أداة لقلب أوراق النوطه

(١) وتوفي بنيويورك ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه.

على البيان وغيره وابتدع في الشعر «المثنى» وذلك ببناء القصيدة على قافية يرجع إليها في كل بيتين مرة وعروض البيت الثاني فيه مطلقة من القافية على ما اصطلاح عليه المتأخرون في «الرباعي» الذي سموه «الدوبيت الأعرج» وله قصائد وأبيات مفردة كثيرة، وشعره لا بأس به. ومن تأليفه: «المطول في تاريخ العرب» ورحلاته في الأقطار العربية وغيرها. وأملى بالإنكليزية مفكراته في ألف صفحة، ولم يطبع له شيء من كل هذا، وكتب مقالات وأبحاثاً في كثير من المجلات العربية وفي الصحف الفرنسية والإنكليزية، وألف الثلاثة الأجزاء الأخيرة من دائرة المعارف البستانية.

كان عارفاً بلغات كثيرة، يحسن العربية والسريانية والفارسية والتركية، ويكتب الإنكليزية والفرنسية كتابة جيدة، وكان يلم بالألمانية والإيطالية واللاتينية والعبرية واليونانية القديمة واليونانية الحديثة، ساعده على تعلم كل هذا جودة ذاكرته وحافظته وكثرة تنقله في الشرق والغرب، فكان شأنه في هذا المعنى شأن بعض علماء المشرقيات من الغربيين، يتقنون لغتهم ويدرسون عدة لغات معها بالقدر الذي يهمهم منها ويعينهم على البحث والدرس، والرجوع إلى ما كتب فيها من ضروب المعارف والآداب، فصحح أن يوصف العلامة البستاني بأنه وحده «دائرة معارف» أي معلّمة تامة.

كان صاحب هذه الترجمة طول حياته يدرس ويؤلف حيث نزل وينفع قومه بعلمه ودرسه. وكان لا يتوقف عن الأخذ من كل ما يسقط عليه من فنون المعارف، ودام في مدرسة العالم يعد نفسه تلميذاً حتى وافاه أجله. وبارك الله له بأيام عمره فقضاها في النفع والخير يزينه الصدق والجد.
ومن شعره:

ولو أهلت الأرض أنذالها	شؤون ذوي الشأن مرعية
فإما عليها وإماليها	وللمرء ما كسبت نفسه
فلا تبخس الناس أعمالها	ولا يعرف الفضل إلا ذوره

وله تعريب معنى فارسي:

قضيتَ إلهي بالعذاب وما ترى
فليسَ عذابٌ حيثما أنتَ كائنٌ
بأيِّ مكانٍ بالعذاب تدينُ؟
وأيُّ مكانٍ فيه لستَ تكونُ؟

ومن قوله:

نظرتُ إلى جبل الأمانِي فخلَّته
تناولتُهُ بالراحَتين إذا به
مُنيلي الذي ما ناله أحدٌ قبلي^(١)
تَبَّتْكَ بالكفين وانقطع الحبل^(٢)



(١) قبلي: لعلها (قبل) بضم اللام.

(٢) تبَّتْكَ: انقطع.



شبلې شمیل (۱)

نحو ۱۲۶۹ - ۱۳۳۵هـ

نحو ۱۸۵۰ - ۱۹۱۷م

ولد شبلې شمیل في كفر شيما من قرى ساحل بيروت. كان أبوه أديبًا وشقيقاه ملحم وأمين من أرباب الأقلام والمثقفين، ودرس الفرنسية وأتقنها حتى أصبح يعد من كتابها المجيدين، وعانى الأدب ونظم الشعر منذ عهد الصبا، ثم دخل الجامعة الأميركية في بيروت ودرس الطب فنال شهادته سنة ۱۸۷۱ بتفوق عظيم، وقضى في أوروبا سنة خَصَّها بالدرس، ثم هبط مصر وصرف فيها عمره^(۲) كله وفيها ظهر فضل عبقرته.

كان يجري في معالجة مرضاه ووصف الأدوية لهم حسب القواعد المقررة، وما أخذ بالمحتملات، ولا استهوته المكتشفات الجديدة.. كان نابغة في التعليل، ألمعيًا في اكتشاف الحقائق، وكان من مشاهير الأطباء في التشخيص الطبي كأنما يوحى إليه، وبلغت منه الفراسة أن علل حوادث كثيرة بالاستهواء الذاتي قبل أن شاع هذا التعليل في أوروبا.. وخصَّ بذاكرة ماضية

(۱) ترجمته في الأعلام ۳/ ۲۲۷، وولادته فيه سنة ۱۸۵۳م. وانظر تاريخ الصحافة العربية: ۳/ ۷۴ ورود النهضة الحديثة: ۱۹۸ ومعجم المطبوعات: ۱۱۴۴، اسم والده إبراهيم، وفي معجم المؤلفين ج ۴/ ۲۹۴ ولادته سنة ۱۲۷۶هـ، ۱۸۶۰م، ووفاته موافقة للتاريخ المذكور آنفًا.

(۲) توفي بالقاهرة فجأة.

وقوة استحضار فائقة، فلم يكن يندر أن يقول لك إنني كتبت منذ ثلاثين سنة مقالة قلت فيها كذا وكذا، ويسرد لك صفحة أو أكثر غيبًا. أو نظمت قصيدة قلت فيها الأبيات التالية، ويسرد لك عشرين بيتًا أو أكثر.

«وكان أنيس المحضر، حسن المحاضرة، فكه الحديث، فات الستين واشتد عليه الرُّبُو^(١) وبقي بشوشًا طلق المحيا، ويتعشقه خلانه وأصدقاؤه وكل الذين عاشروه، لما يرونه من حسن الطوية وإخلاص الحب والإنصاف والانتصاف، ولاسيما لشجاعته الأدبية المفرطة، فلم يكن يخشى أن يقول للظالم يا ظالم، ولو ملكًا، ومع عزته على الظالمين المتغطرسين كان من أودع الناس مع الضعفاء والمساكين».

«تقرأ كتاباته فتظنه ماديًا من غلاة الماديين، وهو في الحقيقة من غلاة الروحيين. حتى كان يعتقد بالسعد والنحس، وحاول مرة أن يجد قانونًا للمصادفة، ولو جَمَعَ إلى مهارته في علم الطب شيئًا من المهارة في اكتساب المال من التطيب لعاش في سعة وتوفي عن ثروة طائلة.

كان واسع الرواية، قوي الحججة، ولاسيما إذا كان بين قوم يدركون معانيه، وكان الموضوع يتطلب الحماسة، فإنه كان يتدفق كالسيل حتى يدهش منه سامعوه، ولو كانوا من كبار الأطباء».

«كان طبيبًا وجراحًا ومولّدًا، ويمارس فروع الطب العملي، أي الطب الباطني، وطب العين والأذن والأنف والحلق والجلد، ويعمل العمليات الجراحية على أنواعها، ونشر بعض الكتب الطبية القديمة كفصول بقراط وأرجوزة ابن سينا وشرحها، وأنشأ أكبر مجلة طبية باللغة العربية، وهي مجلة «الشفاء» وكان يحررها كلها».

«واشتغل بمذهب النشوء، وترجم كتابًا مفصلاً فيه، وهو شرح «بخنر»

(١) مرض يصيب الصدر.

على مذهب دارون^(١)، ثم توسع في هذا الموضوع وطبقه على كل ما في الكون، حاسبًا إياه وسيلة لغاية سامية، وهي إصلاح حال المجتمع الإنساني. ولو أتيح له أن يخدم بلاده في منصب لأدخل فيه إصلاحات كثيرة، صحية وقضائية وتعليمية واجتماعية؛ لأن مذهب النشوء لا ينحصر في تفسير تولد أنواع الحيوان والنبات بعضها من بعض، بل يتناول تولد الأخلاق والشرائع والقوانين وكل أعمال البشر.

«وكانت مزيته الكبرى: التنديد بالظالمين وبالمصائب على أنواعها، والمجاهرة بما يعتقد حقا ولو خالف به جميع الناس، سواء كان في العلميات أو الأدبيات أو الاجتماعيات. وقلمه ولسانه في ذلك سيان. وطالما حبر المقالات السياسية ونشرها في «البصير» و «المقظم» و «المؤيد» وغيرها من الجرائد السيارة، ينتقد بها معايب الحكام بما لا مزيد عليه من الصراحة. وقد عاش عيشة الاجتماع الذي تمناه فكم آسى فقيرا بلا أجر ولا شكر، وكم تناول الدرهم من الغني ليعطيه للفقير، وكم حث على إنشاء مستشفى للفقراء وبذل في ذلك وقته الثمين».

هذا بعض ما قاله فيه تربيته العلامة يعقوب صرّوف، لا جرم أنه كان من نوابغ العلماء الأحرار. دعا إلى ما اعتقد فيه النفع، وعمل لخير الجماعة، وخدم العلم والفكر والصحة والأخلاق. وأكد لي بعض عارفه أنه كان من عادته إذا زار مريضا ورآه على حالة رثة من الفقر الشديد، لا يعتم أن يدفع إليه بضعة جنيهات ليبتاع بها طعاما مغذيا، ثم يرسل له سريرا وفراشا ولحافا ومقعدا وما يلزم غرفته من الأواني، ويداويه ويدفع له ثمن الدواء مدة تريضه.

كان مرماه من طبه خدمة الإنسانية دون النظر إلى ما يجنيه منه، فهو من الأفاضال الذين عظمت الفائدة منهم.

(١) هو الدكتور الألماني لويس بخنر، وقد طبع.

قال لي العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي وأنا أودعه لأغادر القاهرة إلى دمشق: قل لي من عرفت من رجال مصر. فذكرت له أسماء بعض من تعرفت بهم، فقال: أما زرت الدكتور شمائل؟ فقلت: لم يسعدني الحظ بزيارته. فقال: إن لم تجتمع إليه فكأنك لم تر مصر، فهو أعظم دماغ أخرجته سورية، فبادرت إلى زيارته فقرأ عليّ ساعة التقينا لائحة بالفرنسية كتبها حديثاً، وضمتها رأيه في إصلاح الدولة العثمانية، وقد أجاد في عرض أفكاره، وأبان أنه آية في فهم أمراض الدولة ووصف دوائها، وأنه طبيب أرواح وإشفاح^(١). واتصلت به اتصالاً وثيقاً بعد جلسة التعارف، أخذ عنه وأعجب بصفاته الغر.

يلقب الناس الدكتور شمائل بالفيلسوف، وما كان يرضى عن هذا اللقب. قال: «وأنا أقدر أن أتكلم في آرائي الدينية والاجتماعية والعلمية، ولا أقول الفلسفية؛ لأنني لا أحب أن أعنى كثيراً بالفلسفة إلا ما كان منها من قبيل الاستقراء العلمي فقط، ولما تجرُّ إليه غالباً من السفسطة البالغة إذا شردت عن العلم. بل أنا أكره جدًّا الانتساب إليها.. فأرائي الدينية والاجتماعية والعلمية ليست غريبة عن العلم اليوم، وهي ليست من الآراء الفلسفية التي يتسع مجال التخريج فيها لكل مفكرٍ مقيدٍ بقيدٍ علمي. بل هي نتيجة لازمة لأبحاث علمية خارجة من معمل الطبيعي وداخلة في موقف الكيماوي، وواقعة تحت مشراط الجراح، ولا سبيل للخروج عنها إلا بالوقوع في الغريب، ولا يجوز أن ترمى بالغرابة إلا إذا جاز أن تكون الأحكام الاجتهادية أصدق من الدليل الاختباري، والنظر المجرد أصدق من الحس».

قال: «إنني لم أتعمد في مباحثي نفي الأديان لغرض في النفس، ولم أنفها بكلام ألقيته جزافاً، ورأيي فلسفي خاص أو مقتبس كما يتوهم أكثر الذين يسمعون بي ولم يقرؤوا مني شيئاً.. التزمت جانب العلم.. وأريد بالعلم العلم

(١) المشفح: المحروم.

الطبيعي القليل الانتشار اليوم، لا علم الجدل النظري الذي يستطيع أن يطرقة كل مفكر، بل أنا أكره جدًا كل بحث مبني على النظر المجرد. وفي اعتقادي أن وقوف العمران متباطئًا في السير، متباطئًا في الارتقاء ومتقهقرًا أحيانًا كثيرة، سببه الأكبر أن أكثر علومه حتى اليوم علوم مجردة، ولطالما صرفته في الماضي عن القريب منه إلى البعيد عنه. أليس من الغريب أن يكون الإنسان قد خبر غير المنظور، وبحث في السماوات العلى وقاسها بالشبر، وعرف طوائف الجن، وعدد الملائكة والأبالسة قبل أن يتعرف أديم الطبقة الأولى من الأرض التي تطوها قدمه كل يوم؟ والتي هي منشأ غذائه ومنبت كسائه ومنبع مائه، والتي هي مهده، والتي هي لحدّه».

«أنا لم أنظر إلى الأديان نظر المستخف، بل بحثت فيها كما بحثت في كل ما يتعلق بالإنسان على أنه كائن طبيعي تقلب على أطوار مختلفة في نشوئه. ولا أظن أنه يوجد بين المؤمنين أنفسهم من هم أشد إعظامًا مني لواقعي الأديان، وأنا أعتبرهم من أكبر رجال الإصلاح.. إن اليوم الذي ينصرف فيه الإنسان عن تنسيق الكلام إلى إتقان العمل هو اليوم الذي تقوم فيه طباعه، فتقل سخافته، ويكثر جدّه ويقل رباؤه، وينشط من الذل، ويرتقي ارتقاء حقيقيًا. ويحق له أن يعد نفسه إنسانًا».

وإلى الدكتور شميل يعزى نثر مذهب النشوء والارتقاء في الشرق العربي، وقد وصف هذا المذهب، فقال: «والحق أن فضل دارون العظيم الذي ليس في فكرة وضع أساس هذا المذهب، بل بتأييده له بالأدلة العلمية الطبيعية، وجعله صالحًا لأن يطبق لا على الأحياء وحدها بل لأن يشمل الطبيعة كلها، لا في الأرض ومواليدها: الجماد والنبات والحيوان فقط، بل في السماء وأجرامها أيضًا».

ولم يرض أرباب الأديان عن خطة شميل في نقله مذهب داروين، وجاراهم في إنكارهم عليه جماعة المقلدين أذعياء العلم، أما هو فقد ثبت

وما حاد عن اتزانهِ، وما توقف عن نشر دعوته بالحكمة وطرق الإقناع. وظل إلى آخر أيامه يبث أفكاره بمختلف أساليب النشر. كتب في ذلك كثيرًا في الصحف والمجلات وفي رسائل وكتب. ومما نشره رسالة «المعاطس» على نسق «رسالة الغفران» للمعري، و«شكوى وآمال» ومجموعة مقالاته. ونقل إلى العربية كتاب «الأهوية والمياه والبلدان» لأبقراط.

كان ينظم الشعر في أغراض اجتماعية وفلسفية. وشعره دون نثره، وحاول نشر مذهب التحول في الشعر العربي، كما نشر مذهب التحول في الأحياء، أي صرف الشعر عن الأساليب المتبعة من الغزل والنسيب والإغراق في المدح والرثاء والبكاء على المنازل والأطلال إلى وصف الطبيعة وما فيها، وتجريد المعاني من المكتشفات العلمية والمخترعات العصرية التي غيرت وجه الأرض وأحوال سكانها، ونظم في هذه المعاني قصائد ومقاطع.

وهو خطيب وصاحب بديهة، ويزين بيانه صحة برهانه وصدق لهجته وتمثله مذهبه كل التمثل. ولما أعلن القانون الأساسي في السلطنة العثمانية كناية جماعة من أهل حلقاته جد فرحين، وهللنا للانقلاب الجديد فقال لنا: كان عليكم يا أصحابي أن تحزنوا وألا تعدوا هذه الثورة خيرًا لنا فإنها ما خرجت عن الترقيع في جسم هذه الدولة، والترقيع المؤقت لا يفيدها، وهي المريضة والأمل منقطع من شفائها وكان مصيبًا في رأي وتدبر.

كان الحكيم شمिल صورة رائعة لعالم مؤمن بعلمه، متفاني في بته والعمل به، كان فردًا في طبقتة قل أن نشأ للعرب في العهد الأخير رجل مثله في رجاحة العقل، وغريب العلم، وسماحة الخلق، وعظم النفس، اللهم إلا الإمامين العظيمين: طاهر الجزائري ومحمد عبده. ما صانع ولا اتقى ولا تسفل ولا تدلل، وكان ظاهره صورة من باطنه، وما جعل للمال والمظاهر منزلًا في نفسه. وكان همه نشر دعوته العلمية والاجتماعية. لا لذة له بغير قول

الحق ونشر النَّد، وعمل الخير وتخفيف الآلام. كان صدره طاقة أزهار جمع فيه آخر ما أبدع العلماء وما هدته إليه قريحته ودرسه نَكَلَّةً .
ولو قدر للشرق القريب أن يكثر فيه أمثال شميل بعلمه ودؤوبه وإخلاصه لغيروا وجه حضارته، وقضوا على خرافاته وضلالاته، ولصانوا الأديان عما يحط من مقامها، ويضيع الفائدة المرجوة من تعاليمها النافعة .





شكيب أرسلان^(١)

١٢٨٦ - ١٣٦٦هـ

١٨٦٩ - ١٩٤٧م

جاء الأرسلاونيون الشام، ويتصل نسب بني أرسلان بالمنذر بن النعمان المعروف بأبي قابوس^(٢). جاء جدهم الشام في أول دولة الأمويين وتصرفوا إليهم.

ولد شكيب في الشويفات^(٣) سنة ١٨٦٩، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والقرآن على شيخ من أهل قريته. ثم دخل مدرسة الأميركان في حارة العمروسية، وأخذ فيها مبادئ اللغة الإنكليزية. وبعد ذلك دفعه أهله إلى مدرسة الحكمة المارونية في بيروت، ونال شهادتها سنة ١٨٨٦. وقد أتقن فيها العربية والفرنسية، وتخرج بإمام اللغة الشيخ عبد الله البستاني، وكان هذا

(١) ترجمته في الأعلام ٢٥١/٣، وفي معجم المؤلفين ج٤/٢٠٤ و٣٩٣/١٣، في الأدب الحديث ٢١٦/٢ ومجلة المجمع العلمي بدمشق ٢٧٥/٤، ٣٥/٥، ٢٩٣، ٥٤٩/٧، ٩/٦٥، ١٧٨، ٤٣٩/١٠، ورواد النهضة الحديثة لمارون عبود: ١١، رواد القومية العربية: ١٥٧، تاريخ الشعر العربي الحديث: ٨٧ وألف في سيرته كل من عارف النكدي ومحمد علي الحوماني وهو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة، وبعثت بأمير البيان، ومن أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق الراحلين.

(٢) أول المناذرة ملوك الحيرة والعراق (ت نحو ١٥٤ ق. هـ ٤٧٣م) والنعمان ابنه، أبو قابوس، من أشهر ملوك الحيرة، وهو ممدوح النابغة الذبياني. وقد توفي نحو ١٥ ق. هـ، ٦٠٨م.

(٣) بلدة في لبنان قرب (عاليه) تشرف على البحر.

كثيرًا ما يقول: إن شكيبًا أنبغ تلاميذي. ثم انتقل إلى المدرسة السلطانية، فاتصل بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وكان أستاذًا فيها مدة نفيه من مصر، فلازمه وأفاد منه، وفي الكهولة درس التركية ثم الألمانية، وتولى في لبنان بعض الأعمال الإدارية في شبابه^(١)، ثم عين نائبًا عن جبل الدروز في مجلس النواب العثماني، ولما فصلت الولايات العربية عن الدولة العثمانية رحل إلى أوروبا، وأقام فيها نحو خمس وعشرين سنة حتى آخر سنة من حياته.

نظم شكيب الشعر وهو في منتصف العقد الثاني من عمره، وظهر نبوغه في الكتابة فبدأ يرسل جريدة الأهرام المصرية بتوقيع «ش» وظل على ذلك سنين فاستفاضت شهرته، وكان دؤوبًا على العمل حتى آخر أيامه، لا يحس الملل.

وأصيب وهو في سويسرا بمرض في عينه فاتخذ كاتبًا يملي عليه أفكاره ورسائله حتى آذن الله بالشفاء. ومما يلاحظ أن كتاباته عدل مطالعته، منوعة كثيرة، وكان في الموضوعات السياسية المفرد العلم، وفي الاطلاع على آداب العرب وتاريخهم وتاريخ الغرب الحجة الثبت، يستشهد بالوقائع ويمليها كأنها مما مر به الساعة، أو كأنه لا يعرف من علوم البشر غيرها، حاضر الذهن، قوي البديهة، وقلمه أبدًا مطواع لقريحته الفياضة.

دارت سياسته طول حياته على خدمة الإسلام والعرب، وكان يحاسن العثمانيين ويناضل عن دولتهم، وما كان يصانع في دعوته، بل يجامل مجاملة قد تضطره إليها حالة يتصورها. ولك أن تقول: إنها مداراة ومداورة. غضب على أحد أصحابه لطمعه في نسب صاحب الحجاز طعنًا بذنيًا مختلفًا، وعاد فطبع له كتابًا حمل آراءه السقيمة. ويقدر ما كان يكتب في تقرير من لا يستحقون التقرير، كان يجيد عندما يكتب من دون مؤثر، كما وقع له عندما

(١) منها: منصب قائم مقام (مدير منطقة) الشوف مدة ثلاث سنوات.

كتب مقدمة كتاب «نقد الأدب الجاهلي» للعلامة محمد أحمد الغمراوي^(١). وله أشياء تعد عليه من هذا القبيل، تتجلى فيه طريقة السياسيين. وربما ما كان الداعي إلى الوقوع فيها غير سلامة صدره، وتحسين الظن في الخلق، أما خطته في جهاده السياسي فلم يَغْرِها تبدُّلُ محسوس، اللهم إلا ما دعت إليه سياسة الزمن، وأي سياسي لم يغير سياسته طول عمره؟.

أذاق الفرنسيس والبريطانيين من رشاشات يراعه بالعربية والفرنسية ما عرَّض به نفسه لاضطهادهم وعداوتهم. وحمل على الاستعمار والمستعمرين حملات معقولة. ولو جَوَّز مهادنتهم لَكَسَّوهُ الخز والدبياج وأغرقوه بالمال والمظاهر.

ومن أجل هذه الخطة كان المستعمرون يضمرون له أشد العداوة، ويتابعهم أذنا بهم في الشرق، ويتحينون الفرص لإسقاطه. وكان خصوم سياسته ينالون منه، ويقلبون، لرداءتهم، حسناته سيئات. وهو الذي تتجلى فيه أخلاق المسلم البار في عامة حالاته، وتبدو أريحيته مع من يعرف ومن لا يعرف. يبادر إلى إغاثة الملهوف، لا يفرق بين أهل المذاهب المختلفة، وكان في الحرب العالمية الأولى يحمي أهل وطنه من اللبنانيين على اختلاف طوائفهم، يحميهم وهو أمير من أمراء الدروز. مسلمٌ جماعي لا غبار عليه. واتهموه بأنه صانع موسوليني ملك إيطاليا، وما كان ذلك منه إلا ليرقق قلبه على مسلمي طرابلس وبرقة، وبذلك أعاد ثمانين ألفاً منهم إلى أوطانهم بعد أن شَرَّدوا عنها منذ الحرب العثمانية الإيطالية.

كتب لي مرة: «وبينا نحن على أهبة العمل في كتاب الأندلس، إذ جاءتنا التزرية المعهودة، فأخذت من وقتنا شهرين وزيادة، لا عمل لنا فيها إلا تحرير

(١) الذي ألفه للرد على كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) وعنوان كتاب الغمراوي: (النقد التحليلي).

المقالات، والدفاع [عن] ^(١) أنفسنا في شيء نحن نعلم وأعداؤنا يعلمون هم أنفسهم أننا براء منه. وقد أحصيت ما كتبته من مقالات وكتب خصوصية في هذا الموضوع فبلغ ألفين وخمسمائة صفحة، أي لو لم أقع في هذا الافتراء الذي افتراه عليّ من لا يخشى الله، ولا يستحي من عباد الله لكنت أتممت جزأين وثلاثة من كتاب الأندلس».

وقد تناول معاونات مالية من بعض ملوك العرب وأمرائهم. ومنها ما كان مقداره ذا شأن في الجملة، ومنها ما كان تافهًا، على أنها كلها لم تكفي، وهو يجاهر وينشر آراءه. وباع بعض ما يملك في سورية ولبنان من أرض وعقار وأنفقه في الغرب. ومع هذا أضاق ^(٢) أكثر أيامه.

اقترحت على الدولة المنتدبة وأنا في وزارة المعارف أن أنزل له عن رئاسة المجمع العلمي العربي فلم تقبل مقترحي، وأراد المجمع أن ينيب الأمير عنه في مؤتمر المستشرقين في هولندا فما وافقت فرنسا أيضًا، وفي العهد الوطني أرادت الحكومة أن توسد إليه رئاسة المجمع فسعيت ليحرز أكثرية الأصوات، وعينتته الحكومة، وكان على أن يشخص إلى دمشق لتسلم هذا العمل، فأعلنت الحرب العامة ^(*)، ونادت فرنسا بأن مصلحتها أن تحكم سورية مباشرة فرجع الأمير من مصر، ولم يتول هذا المنصب، وهو أقل ما يعهد به إليه بعد طويل جهاده.

رزق الأمير حظوة كبيرة في العالم الإسلامي، وأكثر الشعوب تبيجيلًا له وإعجابًا بجهاده الشعوب المبتلاة بالاستعمار من أبناء الشرق والغرب، دأب على نجدتها وكشف كربتتها وتخفيف آلامها. وكان يضيع جانبًا من وقته في مراجعة المراجعين والمستفتين والمستنجدين فيصدر عن مروءة ووفاء. وما فتى

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل.

(٢) أضاق الرجل: ذهب ماله.

(*) يريد: العالمية الثانية (المراجع)

أرباب الصحف إلى آخر أيامه يطلبون إليه أن يؤازره صحفهم، وهو يستحي أن يرد لهم طلبًا، وقلّ أن قصر في الإجابة على سؤال يوجه إليه؛ لأنه أميل إلى أن يرضي كل الناس، كأن شهرته في المعاصرين من أرباب السياسة تقتضيه هذا الثمن الغالي، وهو إضاعة وقته للنظر في شؤون كل من يلتمس منه غرضًا.

طلبت إليه مرة أن يجمع مقالاته التي تصلح للانتفاع بها في المستقبل، وأن يطبعها في كتاب برأسه، وأن يؤازر مجلة المجمع العلمي العربي، فأجابني من لوزان (٩ مارس ١٩٣٠) بما يأتي: «وأما ما أشرت به من الكتابة في مجلة المجمع العلمي فواجب، وإن لم نكتب فيها فأين نكتب؟ ولكن يا أخي أصبحت من هذه الكتابة في خَطْبٍ وأي خطب. كلما قرأ الناس لي مقالات في الجرائد انهالوا عليّ بالافتراحات، ولا أبالغ لك إذا قلت: إن الجرائد والمجلات التي تبغيني أن أكتبها تزيد على أربعين... ومن الغريب أن هؤلاء السائلين هم يعرفون ما الكتابة، ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحى بها وحياً، ولا يقال لها كوني فتكون... وأنا مضى عليّ ٤٤ سنة وأنا أحرك قلمي وأكتب إلى الجرائد مجاناً، لا أبتغي جزاءً ولا شكوراً، وأدفع أجرة البريد من كيسي، فلو حسبتُ، لا ثمنَ وقتي بل أجر البُرْد من ٤٠ سنة إلى اليوم لكانت مبلغاً لا يستخف به، فأنا أسامح بكل ما تعبت وكل ما أنفقت من ذهني وعيوني ومالي، وأنا أستمطر دموع شفقتهم أن ينظروا إلى رجل وطئ ساحة الستين، وصار محتاجاً إلى الراحة، وتشيرون بأن نجتمع ما كتبناه أو شيئاً مما كتبناه، وهو أمر يحكّ في صدري دائماً، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك؟ إنني أريد أن أجمع كل ما كتبته، إنه يملأ أجلاً وأجلاداً، ومن يقرأ هذا كله؟ ومن يؤدي كلف صنع كل هذا؟ ولكنني أفكر في انتقاء الأحسن وجمعه، وإعادة النظر عليه، وتصحيح شيء، وحذف شيء، وإضافة شيء يسير إن وجد ضرورياً. وهذا كله يستلزم وقتاً. فأما طبع كل ما خطه بناني فغير

مستطاع؛ لأنه مفقود منه الشيء الكثير، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم، فإنني في أوروبا منذ اثنتي عشرة سنة، وفي الشهر الواحد من هذه المدة كنت أحرر لا أقل من ١٠ مقالات في الشهر، ففي السنة ١٢٠ مقالة ففي الاثنتي عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة فإذا جعلت كل مقالة ٣ صفحات من قطع هذا المكتوب، فهذا فوق أربعة آلاف صفحة، أي ثمانية مجلدات كبار وهذا عن ١٢ سنة. وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة وأنا أكتب، فلا يقل المحصول في هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتي عشرة سنة الأخيرة، فهذه عشرة آلاف صفحة بالأقل^(١). كلا هذا لن أقدر على طبعه، وهذا كله ذهب في الجرائد الطائرة، وهذا كله أنفقت فيه جوهر حياتي، وكفنته بأجرة «البوسطة»^(٢) من كيسي، وأجره على الله.

وكتب الأمير بعد سنتين: أنه متخذ بكل ما يكتبه سجلاً يومياً يذكر فيه كل ما يكتبه من مكتوب خصوصي، أو مقالة أو غير ذلك. وعندما انتهت سنة ١٩٣٢ جمع منتج القلم هذا العام فبلغ (١١٥٣) مكتوباً خصوصياً، و(١٠٨) مقالات، وقصيدة واحدة، نحواً من ألف صفحة من علاوات على «حاضر العالم الإسلامي»، وصفحات أخرى لم يحصها بعد من كتب أخرى. قال: «وكانت المقالات السنوية تبلغ المئتين والمكتوبات الخصوصية تبلغ في السنة الألفين، وقد كان يمكن أن تكون المقالات أكثر من هذا القدر بكثير. وكذلك ما أزعمه من التأليف. لولا كثرة المكاتيب أو المكتوبات المتواردة من جميع العالم الإسلامي. فهذه المراسلات الخاصة تأخذ أكثر وقتي، ولا مندوحة لي عن الجواب؛ لأنني أعد رد الجواب كردّ السلام، وأرى عدم الرد نقصاً في

(١) كتب بما يماثل هذا إلى صديقه هاشم الأتاسي عام ١٩٣٥ وهو: أنه أحصى ما كتبه ذلك العام فبلغ ١٧٨١ رسالة خاصة و١٧٦ مقالة في الجرائد و١١٠٠ صفحة كتب (الأعلام ٣/ ٢٥١).

(٢) المراد: البريد.

المروءة. واني أتألم من ضياع الوقت في كثير من الرسائل الخصوصية التي خمس أو ست منها فقط تأتي على النهار كله.

هكذا اقتضت أخلاق مترجمنا أن يضيع أوقاته في إجابة رغائب الصحافيين المستجدين والمراسلين والفضوليين، ولطالما رجوته أن يخفف من هذه السخرات التي تعوقه عن إتمام مؤلفاته النافعة. أما هو فكان يهون عليه غمط حق نفسه، يرضي من لا يرضيهم إلا الوصول إلى فائدة منه يستفيدونها هم ولو بإمراضه وإفلاسه، ولذلك جاءت تأليفه أقل مما كان يرجى من عالم كاتب فياض مثله. يكتب في شهر ما لا يكتبه غيره في سنين مع الإجادة في أكثر ما يخط يراعه».

وزع قواه على أشياء لم يرحمه في الحصول عليها راحم، وأهمل كتبه مضطراً، وهو سيذكر في العصور الآتية، ومنها ما لم يوفق إلى إنجازه، مع شدة الحاجة إليه، لا أقول إن الفوضى كانت آخذة بأعماله، فهو مثال التنظيم، ولكنه حُبب إليه استمالة القلوب، وجبر الخواطر، والاستكثار من الأنصار والأحباب فخرس وقته. وخسرت الآداب بعض نفثاته.

ويتصرف على مجاملته لأرباب الصحافة مجاملته لبعض المؤلفين، ومنها مصانعه في تقريظ بعض كتب المعاصرين، وهي لا تستحق التنويه؛ لأنها منقولة من الكتب وليس فيها رأي للمؤلف. وبذلك أضعف أيضاً من مكانته الأدبية أو كاد. والعلم أشرف من أن يمسح جماله في إرضاء من يتطلبون الإشادة بهم بالباطل.

ومن أنفع تأليفه تعليقاته على كتاب «حاضر العالم الإسلامي» المنقول عن الإنكليزية بقلم الأستاذ عجاج نويهض. وكان الأجدر بهذه التعليقات المفيدة أن تطبع في كتاب برأسه، فإن فيها أموراً من أخبار العالم الإسلامي صممت عن ذكرها أكثر الكتب المتداوله.

ومنها: «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» وهو تاريخ شامل

للأندلس، طبع منه مجلدان، وهو في ثمانية مجلدات و«محاسن المساعي في مناقب الإشمام أبي عمرو الأوزاعي» الأصل لزين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب، صدره بمقدمة وعلّق عليه^(١).

ومن المطبوع: «الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» وهي قصة رحلته إلى الحجاز. والجزء الأول من «رسائل الصابي»، و«الدرة اليتيمة لابن المقفع». ومما ترجمه عن الفرنسية «أناطول فرانس في مبادله».

وألف: «غزوات العرب في فرنسة وشمالي إيطاليا وفي سويسرة» كتب لي بصدده ما يأتي: «وأما غزوات العرب في أوربا فهو كتاب لم يؤلف بالعربية مثله في بابها، وقد توخيت أن أترجم فيه كتاب المستشرق الإفرنسي رينو، وأعززه بتاريخ ألماني وتواريخ إيطالية حتى تزداد ثقة القراء، ويعلموا أنني نقلت من علماء الإفرنج، ولم أكتب من عندي؛ لأن العادة اليوم عند ناشئة العرب أن لا يعولوا إلا على ما جاء في كتب الأوربيين. وعلى هذا فقد أوردت في هذا الموضوع بعض الروايات العربية المطابقة للتواريخ الأوربية».

وله رواية: «آخر بني سراج» شفعتها بملخص تاريخ الأندلس. و«لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم» وهو من كتبه الممتعة.

وله مؤلفات أخرى مخطوطة منها: بيوتات العرب في لبنان، ومذكراته.

ومما نشره: «الباكورة» ديوان شعره الأول، و«ديوان الأمير شكيب أرسلان»، و«السيد رشيد رضا» أو إخاء أربعين سنة، و«شوقي» أو صداقة أربعين سنة، و«تكملة تاريخ ابن خلدون» وتعليقاته على كتاب المبتدأ والخبر. و«الروض الشقيق» ديوان شقيقه الأمير نسيب. و«القول الفصل في رد العامي إلى الأصل»، والجزء الثاني من «رسائل الصابي» وكتيب عن البلاشفة،

(١) ذكر الزركلي في ترجمة الإمام الأوزاعي (الأعلام ٩٤/٤): أن مؤلفه مجهول وقال: لعله

ورحلته إلى ألمانيا أيام الحرب. وهذان كتابان نشرا في جريدة «الجهاد» المصرية، ولم ينشرا على حدة.

وجميع هذه الكتب والرسائل التي ألفها تكاد تكون دون ما يُتطلب من رجل عرف هذا الشرق الأقرب وقسمًا عظيمًا من أوروبا وأميركا معرفة ثاقبة، وعرف أكثر البلاد الأوربية، ولم تبق مدينة منها إلا دخلها، وربما بدل المرة الواحدة مرارًا، وقتل أحوالها درسًا واختبارًا، ولم تفتته إلا الأصقاع الاسكندنافية في الشمال، كما قال عن نفسه.

كانت كتاباته مرسله تصدر عن طبع لا تكلف فيه، وفي بعض الحالات التي كان يرى أنها أليق بأن تصدر مزدوجة على طريقة الصابئ^(١) والقاضي الفاضل^(٢)، فكان في هذه الناحية من الأدب مقلدًا ومحافظًا. وكان في الأحيان يعتمد على غريب اللغة، وتحدثه نفسه أحيانًا بإحياء بعض فصيحها فيقول: «حماطة الجُلْجُلان» بدلًا من سويداء القلب، و«الإرث العُدْملي» بدلًا من القديم. وفي كتابه: «أناطول فرانس في مبادئ» وديوان الروض الشقيق وغيرها نموذجات من هذه الألفاظ الحوشية القليلة الدوران في كتابة البلغاء.

بدأ شكيب يقول الشعر كما بدأ به شعراء عصره ومن كانوا قبل عصره، أي بالمديح والغزل والرثاء، فلما تعينت مقاصده وأخذته الكتابات السياسية ندر أن تفيض قريحته بالشعر إلا في المناسبات، وفي إنشائه نمط المترسلين المطبوعين، وانقلب ينشئ ستين سنة وهو ينفع بأفكاره، وهذا قلٌّ أن وفق إليه أحد من المعاصرين. وغطت كتابته على شعره، وكتابته في الذورة العليا قلٌّ أن يدانيه فيها أحد من كتّاب السياسة بهذا الفيض العظيم. وبلغ شعره مئات

(١) إبراهيم بن هلال (٣١٣ - ٣٨٤هـ، ٩٢٥ - ٩٩٤م) نابغة كتاب جيله، تقلد دواوين الرسائل والمظالم أيام الخليفة العباسي المطيع لله وغيره، (الأعلام ٧٣/١).

(٢) عبد الرحيم بن علي اللخمي (٥٢٩ - ٥٩٦هـ، ١١٣٥ - ١٢٠٠م) وزير ومن أئمة الكتاب كان من وزراء صلاح الدين الأيوبي، ولم يخدم أحدًا بعده. (الأعلام ١٢١/٤).

من القصائد، ونثره ألوفاً وألوفاً من الصفحات، واتهمه بعض خصومه بأنه هجا أحدهم، فقال: إنه في حياته كلها لم يهج مخلوقاً ولو هجواً بسيطاً.

وأردته أن ينقد كتابي «الإسلام والحضارة العربية» فقال: إنه لا يتذكر أنه وجد فيه مأخذ حتى ينشرها كما رغبت إليه. وإذا افترصت له فرصة فقد يعيد النظر عليه ويخبرني، قال: وعساني أجد محل انتقاد، حينئذ فلا أهادنك ولا أداجيك، فأما أن أنتقدك لأجل لذة الانتقاد وحب المعارضة فليس هذا من مشربي.

وقال مرة عندما كادت تتفق سورية مع فرنسا: «ونحن يا أخي - كما تعلم - لا نقاتل ولا نقاوم حباً بلذة القتال والعراك، بل توصلنا إلى غاياتنا الوطنية، فإذا لاحت تباشير تؤذن بالوصول، بصورة جدية أكيدة، فليس أقرب منا إلى السلم والسكون، وكل ما يقال خلاف ذلك فهو كذب».

وقال: «إن أحمد نامي كان من أعز أصدقائي، ووالده كان يحبني حباً جماً، فلما رأيتهم متهاكماً على الإمارة بأي وجه كان، ولو بإهدار حقوق السوريين نفضت يدي منه نفصاً باتاً».

وكتب لي: أن ما شرحتموه من جهة خدمة الوطن بطريق التعليم لا غبار عليه، بل لو أعطينا استقلالاً أوسع من استقلال فرنسا وإنكلترا وكنا جهلاء فقدناه في أقل من شهر. أشبه بالولد الصغير الذي لو أعطيته أمضى سلاح لم يحسن استخدامه، بل ربما أهلك به نفسه. فالعلم قبل السياسة، والعلم هو الذي يجر السياسة من أنفها، والعلم هو القوة التي لا تقف في وجهها دولة عظيمة ولا جيش عرمرم، والعلم هو الحياة، والأمة العالمية هي الأمة الحية. عبثاً يحاول المتغلب أن يستعبد أمة متعلمة، كل هذا أسلم معك به، ولكني لا أزال أرى نفسي أضعف من أن أقاوم التيار الوطني الحالي الذي يرى أن البلاد مهضومة، وإن لم تكن بلغت الدرجة التي تبتغيها من العلم والتعليم، فهي ليست بالمكان الذي تحاول السلطة المحتلة أن تحصرها فيه.

ثم عرض لما أصابه من آلام الغربية، ومن بغضه البعد عن الأوطان التي هواها طبيعي والشوق إليها مبرح لي ما لا يعلمه إلا الله، ويكفي منه أنني فقدت أخي، ولم أشاهده، وأن هناك والده أفكر فيها كل ساعة... فأحبُّ شيء إليَّ أن أتمكن من دخول البلاد ومشاهدتها ومشاهدة الأهل والإخوان والتراب الذي هو أول تراب مسّ جلدي، وأن أستنشق الهواء الذي هو أول نسيم تروحت به رثتي، وأكرع الماء الذي هو أول ما دخل على كبدي...^١.

ضاعت - ويا للأسف - كتابات صاحبنا في الصحف، ومن الصعب إيراد نموذجات منها.

ومن شعره في حفلة الهلال الأحمر في مصر لجمع الإعانات لحرب طرابلس الغرب، وكان يتولى قيادة متطوعة الدرّوز فيها^(١):

مواطن إخوان تملوا من الردى	كوؤسًا تساقوها بملء الحلاقم ^(٢)
دفاعًا عن الأوطان إن دفاعها	لدى كل قوم كان أولى المكارم
تهيبهم فيها العدو مهاجمًا	فجاء دبيب اللص في ليلٍ قاتم
وليتن في إقباله من إهابه	وهل يخدع الإنسان لين الأراقم
فشاروا وما كانت زعانف رومة	من العرب أكفاء الليوث الضراغم
وحسبك منهم كل قوم نمتهم	أرومة قحطان ونبعة هاشم
وكم وقفوا يستنصفون عدوهم	وهزوا من الأملاك جذع المراحم
فلما رأوا عجز الدليل تطلبوا	لدى الصارم البتار صدق التراجم
فلم يك مثل السيف كالיום قاضيًا	ولا العهد مثل الآن أحلام حالم
أخلاي سوقًا للمنايا مقامةً	تباع حفايفها خوالي الجماجم

(١) من قصيدة في ديوانه: ١٠٨.

(٢) الأصل: نساقوها.

فهل لكم في سوق بر ورحمة
غيباً لمظلوم ونصراً لصارخ
تنالون فيها باقيات المغانم
وضمداً لمجروح وقوتاً لصائم
ومع أنه كان على يقين أن الدولة العثمانية دب فيها الهرم، ومن المتعذر
شفاؤه، كان ينصح للعرب ألا يخرجوا عليها، حفظاً لبيضة الإسلام. فمما قال
في ذلك^(١):

فيا وطني لا تترك الحزم لحظةً
وكن يقظاً لا تستنم لمكيدةً
بعصرٍ أحيطت بالزحام مناهلهُ
ولا لكلام يشبه الحقَّ باطلهُ
وكيدٌ على الأتراك قيل مصوّبٌ
ولكن لصيد الآمنين حَبائلهُ
تذكر قديم الأمر تعلم حديثهُ
فكل حديث قد نمته أوائله^(٢)
إذا غالت الجُلَى أخاك فإنه
لقد غالك الأمر الذي هو غائله
ولو لم يُفِذنا عِبْرَةً خَطْبُ غيرنا
لهانَ ولكن عندنا من نُسائله
سيعلم قومي أنني لا أغشهم
ومهما استطال الليل فالصبح واصله

وله في هذا الضرب قصائد حسنة تنادي بوطنيته وبعد نظره في مصائر
الشعوب، وتثبت أنه شيخ في الصناعتين. ومنها قصيدته في وقعة حطين
وبحيرتها وصلاح الدين، وهي أشبه بملحمة، ومنها^(٣):

يا يوم حطين كم حططت من الـ
هَبّوا من الغرب كالجراد فلم
إفرنج شأنا ما كان ينكسرُ
يكن لشرقٍ بردهم قَدْرُ
بَغصَ عليهم بدوٌ ولا حَضْرُ
واستفتحوا القدس والبلادَ ولم

(١) هذه الأبيات هي الأخيرة من قصيدة في ديوانه: ١٠٩ مطلعها:

إذا افتخر الشرق النديم بسيد

تميد بذكراه ابتهاجاً محافله

(٢) رواية الديوان: فكل أخير قد نمته أوائله.

(٣) القصيدة المشار إليها وردت في ديوانه ص ١١٣ ومطلعها:

واذ بحيث الأردن ينفجر

أحسن ما فيه يسرح النظر

وهددوا المسجد الحرام وكم
ومنها :

وقيل دار الإسلام قد حُصرت
يوم تلاقى الجمعان والتظت الـ
الشرق والغرب بعد طول وغي
فأمطرتهم قِسِيَّ جيشِ صلا
ذاق العدا من سلاف طعنهم
لما بدا الأمر غير ما حسبوا
ولوا ظبا يوسف ظهورهم
قاصمة الظهر للفرنج غدت
كأن علياء حطين مبتدأ

دعا مُلَبِّ فيه ومعتمرُ
وَحَفَّ باقي بلاده الخطرُ^(١)
هيجاء حتى كأنها سَقَرُ
توافقا والبراز مختصرُ
حِ الدين نَبْلاً من دونه المطرُ
كأَسَا بغير العنقود تختمرُ
والناس من فوق صبرهم صبروا
تأخذ منها فوق الذي تَذُرُ
وقعة قرني حطين مذ ظهروا
وكل فتح من بعده خبرُ

وكان في بعض السنين (١٣٢٣) نازلاً ضيفاً على ابن عمه الأمير أمين
أرسلان في ذومة من غوطة دمشق، فاتهمت بتهمة الطعن في والي سورية.
وفتشت داري وأخذوا أوراقه، ثم تبين أنني بريء مما قُرفت به، فنظم شكيب
قصيدته وهو ملثا المزاج، يصف بها الحال، وقد جمع في قوله بين الهزل
والجد. بدأها بقوله^(٢):

الأقل لمن في الدجى لم ينم
ومن أرقنته دواعي الهوى
فكم من الزوايا تَحَبَّ فتى
يرى الأرض ضيفاً كشق البيرا

طلاب المعالي سمير الألم
فدون الذي أرقنته الحكم
طريد الكتاب شريد القلم
ع وهوى على ذا الوجود العدم

(١) هذه رواية الديوان. وفي الأصل: خطر.

(٢) ديوانه: ٢٨ بعنوان (حادثة سياسية استحالته فكاهة أدبية).

على مثل جمر الغضافي الضَّرم
 ولو بات يرعى هناك الغنم
 كسرّاً بصدر الأديب انكتم
 ويخشى النسيم إذا ما نسّم
 تورقه في صوتها والنفم
 أديم السما بالنجوم اتسّم
 يظن عمود الصباح انحطم
 م لتهدى إلى مسكه عن أمم
 توهمه نحوه قد هجم
 وقد أمكن الظلم لولا الظلم
 فما بالسهولة يخفى العَلَم
 ديار بها قد أوى واعتصم
 وكم بالمليحة من متهم^(٤)
 وآواه منها الوفا والكرم
 طريداً يعاني الجوا والسَّقم
 وبرد العشبات أغلى الفَحَم

وكم ذا بجسرين من ليلية^(١)
 تمنى الأديب بها نُذحةً
 وكم سرورة تحت جنح الظلام
 يخاف بها حركات الغصون
 وإن تَشُدُّ وَرَقَاءَ فِي أَيْكَةِ
 وكم بات للنجم يرعى إذا
 وطال به الليل حتى غدا
 ومن ذعره خال أن النجو
 إذا ما السماك غدا رامحاً^(٢)
 ولولا الدجى لم يتم النجا
 والله در القرى إذ خَفَّتْه
 فجرين، زبدین، والأشعري^(٣)
 ونحو «المليحة» رام الخفا
 ديار أبي أهلها غدره
 ولا شك رَقُوا لأحواله
 ليال كانون في الأربعين

(١) جسرین قرية من قرى غوطة دمشق الشرقية، للمؤلف فيها أملاك.

(٢) الديوان: بدأ رامحاً.

(٣) جسرین، زبدین، الأشعري، المليحة: قرى في غوطة دمشق الشرقية.

(٤) تورية لطيفة؛ لأن المليحة قرية عبد الوهاب الإنكليزي، من نوايح العرب، وكان من المتهمين في نظر الدولة العثمانية بسياسة تخالف سياستهم، وصلبته مع من صلبتهم من شبان العرب الشاميين في الحرب العالمية الأولى (المؤلف).

بأرض تراها سماء وماء
يجول وقد صار مثل الخيا
فوق الخدود كلون البهار
وفي كل يوم سؤال وبحث
وقد كان في كُبْسهم بيته^(٣)
فكانت على كتبه غارة
وقالوا: سينفى إلى رودس
وقالوا: سيحمله أدهم
وقد قيل «فران» من دونه
وبعض بسجنٍ عليه قضى
و«كرد علي» غدا عبرة
فيا كرد لا تحزننك الخطو
ومن رام أن يتعاطى البيا
فذي حرفة القول حريفة
وكم كُتْبة أعقبت نكبة
ومن بالكتابة أبدى هوى

ف فوق السواقي وتحت الديم
لِ ودق فلو لاح لم يقتحم
وتحت المآقي كلون العنم^(١)
وأنى تولى وكيف انهزم^(٢)
بجلق قال وقيل عَمَم
كفارات عرب الصفا بالنعم^(٤)
وقالوا سيجزى بما قد جرم
بمرقاة لا تستريح القدم
وتلك السموم وتلك الحمم^(٥)
وبعض بضربٍ عليه حكم
ففات ومنه الرجاء انصرم
ب فإن الهموم بقدر الهمم
ن توقع أن يبئلى بالنقم
وكم أدركت من لبيبٍ وكم
وكم من كلامٍ لقلبٍ كَلَم^(٦)
فإن الكآبة منه القسم

(١) العنم: شجرة حجازية لها ثمرة يشبه بها البنان المخضرب.

(٢) الديوان: وأين انهزم.

(٣) كبس البيت: داهمه على حين غرة.

(٤) عرب الصفا مشهورون بالنهب والسلب.

(٥) هذا البيت لم يرد في ديوانه.

(٦) هذه رواية الديوان. وفي الأصل المخطوط: وكم نكتة.

فيا كردُ صبرًا على محنة
وصبرًا على ورقات لها
وواها لباقات زهر غدو
أزاهر تسهر في جمعها
وما نَمَّ إلا بنشر ذكي
فقولوا لواشٍ بكرد علي
إلى آخر ما قال ووصف به الحال^(١):

فكم محن شيبت من لَمَم
عيون المعاني يبكين دم
ت لها جامعًا يا أخي من قدم
فلا غروا إن فاح عَرَفُ فَنَم
وطيبٍ يفوق عرار الأكم
نشرت الشنا حين حاولت ذم



(١) تنمة القصيدة تقع في ثمانية أبيات فقط.



طاهر الجزائري (١)

١٢٦٨ - ١٣٣٨هـ

١٨٥٢ - ١٩٢٠م

هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري. هاجر والده من الجزائر إلى دمشق في سنة ١٢٦٣، وكان من بيت علم وشرف، وتولى بدمشق قضاء المالكية. دخل طاهر المدرسة الجقمقية الإعدادية، وتخرج بالأستاذ عبد الرحمن البستاني، أخذ عنه العربية والفارسية والتركية، ومبادئ العلوم، ثم اتصل بعالم عصره الشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي، وكان فقيهاً عارفاً بزمانه واسع النظر، بعيداً عن التعصب والجمود، على قدم السلف الصالح بتقواه وزهده. ودرس الشيخ العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية. ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أتقن العربية والفارسية والتركية ونظم بالفارسية كما ينظم بالعربية، وتعلم الفرنسية ومبادئ السريانية والعبرانية والحشية. وكان يعرف القبائلية البربرية لغة مواطنيه، ويعنى عناية خاصة بعلاقة اللغة العربية باللغات السامية. وأولع منذ صغره باقتناء

(١) ترجمته في الأعلام ٣/ ٣٢٠، في معجم المؤلفين ج ٥/ ٣٥ وانظر كنوز الأجداد ٥/ ٤٦، تراجم أعيان دمشق ١٢٠ والأعلام الشرقية ٢/ ١١٤، معالم وأعلام ١/ ٤٢٣ وانظر محاضرة لمحمد كرد علي عنه في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - المجلد ٨ ص ٥٧٧ - ٥٩٦ و ٦٦٦ - ٦٧٩ ونعاه المجمع في مجلته، المجلد الأول: ١٧، وللشيخ محمد سعيد الباني الدمشقي كتاب عنوانه: (تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر) طبع.

المخطوطات والدشوت، فاجتمع له منها مع الزمن مجموعة عظيمة أعانته في مقبيل أيامه على الارتفاق من ثمنها وقد تضاعفت أسعارها لما تنافس المستعربون من أهل الغرب في اقتنائها. ولغرامه بالكتب المطبوعة والمخطوطة، عرف الجيد وغيره من أصنافها، وعرف طبقات المؤلفين وتراجم الرجال، وأماكن المخطوطات والنسخ المتفرقة منها في الخزائن الشرقية والغربية، ساعده على إتقان ذلك قوة حافظته، فإنه ما مر خاطره بشيء ونسيه.

تولى التعليم لأول أمره في المدرسة الظاهرية الابتدائية، وفي سنة ١٢٩٤ دخل في الجمعية الخيرية، وهي التي استحالت بعدُ ديوان معارف، فعين سنة ١٢٨٥ مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية المنشأة على عهد المصلح مدحت باشا والي سورية، فاقتضاه ذلك تأليف كتب التدريس للصفوف الابتدائية في جميع الفروع، وأخذ على نفسه تعليم المعلمين أصول التدريس، يوهمهم أنه يتعلم منهم وهو يعلمهم. وأنشأ في هذه الأثناء دار الكتب الظاهرية (١٢٩٦)، استعان ببعض المغمورين من العلماء، فهددته أكلة أوقاف المدارس بالقتل إن لم يكفَّ عن جمع الكتب في مكان واحد؛ لأنه استولى بسيف الحكومة على جميع ما أبقته أيدي النهب من الكتب المخطوطة، وكانت مفرقة في عشر مدارس. وبعد مدة أنشأ في القدس خزانة سماها المكتبة الخالدية، وهي كتب الشيخ راغب الخالدي ضمت إليها كتب أسرته.

قلت في الترجمة له^(١): «وإنه يندر في المتأخرين من علماء دَور الانحطاط الفكري نبوغ رجل مثله. وعى صدره من ضروب المعارف ما وعى، وطبق مناصل الشريعة على علوم المدنية، فقد كان متضلعا من علوم الشرع وتاريخ الملل والنحل، منقطع القرين في تاريخ العرب والإسلام وتراجم

(١) في صدر كتابنا: «كنوز الأجداد». ترجمة حافلة لأستاذنا الشيخ طاهر الجزائري (المؤلف).

رجالها، ومناظرات علمائه وتأليفهم ومراميتهم. كان إمامًا في علوم الأدب واللغة. إذا سألته حل مسألة تظن الشيخ لا يعرف غير هذا العلم، وإذا استرشدته في الوقوف على مظان موضوع تريده، أطلعتك من ذلك في الحال على ما يتيسر لغيره الظفر به بعد الكشف عنه أيامًا، وهكذا هو في علوم الشريعة، ولا سيما التفسير والحديث والأصول. وكان يعرف السياسة، وما ينبغي لها، وحالة الغرب واجتماعه، والشرق وأمه وأمراضه معرفة مختص لا معرفة نَتْفَة. ولا يكاد جليسه يصدق - إذا انكفأ الشيخ يتكلم في هذه الموضوعات، خصوصًا إذا كان غريبًا - أن محدثه شيخ من شيوخ المسلمين، يعيش في أمة قد لا تقيم وزنًا لهذه المعارف.

كان لا يقول بالموسيقا والتمثيل، ويتسامح بالتصوير والرسم والنقش، ويقول: إن أجيال الفرنجة أفرطوا في الغرام بالتصوير والتعويل عليه في كل أمرٍ فأضعفوا بذلك قوة التفكير والتصوير. ويدعو المسلمين إلى تعلم أصول دينهم، والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الحسنة، وأخلاقهم القويمة، وأن يفتحوا قلوبهم لعلوم الأوائل والأواخر على اختلاف ضروبها. وكان يأخذ بأصح الأدلة من الكتاب والسنة، ويجتهد بعدها. ولطالما أعطى الحق للمعتزلة والإباضية والشيعة في مسائل تفردوا بها وضيَّق أهل السنة. ويعطف على الفلسفة أو الحكمة القديمة والحكمة الحديثة، وينحي باللائمة على المتأخرين الذي أوصدوا بابها فأظلمت العقول.

كان ينكر على الظالمين ظلمهم، ويقبح الظلم وإن نال عدوّه، وينصف الناس من نفسه، والحكام يخشون سراية أفكاره في العامة. وقد أخرجوه من منصبه في تفتيش المدارس، وعرضوا عليه وظيفة لا يكون له [فيها] ^(١) اتصال بالناس فأبى. وظل إلى آخر أيامه يعيش من بيع كتبه، ويبيعها إلى من يرجو

(١) ليست في الأصل.

حفظها عندهم وعدم خروجها من القطر. وكم مرة استعان الفقهاء الجامدون على النيل منه بالحكومات، فكان يصدهم عن إيذائه بما له من التأثير في أهل الحل والعقد، فيتمثل لهم عقله وضعف عقول المبغضين له. وكان سلاحه علمًا، وسلاح خصومه دسائس يحوكونها وتعصبات ينفثونها.

كان يتفنن في بث الأفكار الصحيحة في العامة والناشئة، ويعلم رواد علمه بالعمل في جلسات قليلة، حتى يفتح أذهانهم للتعلم بعد الجهل، وكم من جريدة ومجلة وكتاب ورسالة نشرت في مصر والشام بإرشاده.

وكانت ثورته ثورة فكرية، ويقول: إن هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يُؤمّن فيها العثار، والسلامة محققة. ولا يكاد يُفْلِتُ من يده فرصة لإرشاد الكبراء إذا شاهد فيهم استعدادًا لقبول نصائحه، وهو منصرف أبدًا إلى النهوض بالأمة، وتثقيف العقول، والاشتغال بالجد المجدي. ويحث الأبناء على تعلم الصناعات، ولو كان آباؤهم على شيء من السعة.

قال صديقه العلامة أحمد زكي في برقية أبرقها إلى دمشق بالتعزية به: «كنت أرى فيه الأثر الباقي والمثال الحي والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الإسلامية، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص، واستثارة خباياها وإبراز مفاخرها. هذا إلى التفاني في توسيع نطاقها بقبول ما تجدد عند الأمم التي تلقت تراث العرب باليمين، والدعوة إلى الإقبال عليه مضمومًا إلى آثار الأبناء ومآثر الأجداد. وهكذا قضى الشيخ عمرًا طويلًا أولًا وثانيًا وثالثًا في خدمة العلم والدعوة إليه بالقلم واللسان وبالقدوة الحسنة، حتى تم له شيء كثير مما أراد بين الأنداد والتلاميذ والمحبين والمريدين، فهم مناط الأمل، وفيهم خير خَلْف. لذلك يغتبط قاسيون بضم رفاتة والحنو عليه».

كان الشيخ عمليًا في جميع أحواله. يصل إلى الغاية من أقصر طرقها، لا يبالي المصاعب، يتصدق في سر، ويتعبد، ويقوم الصلوات لأوقاتها، رقيق

الشعور، يأرق للبائسين والمفلوكين، ويعطف على الفقراء والمساكين، عفت النفس، عزيزها يصبر على الضيق، لا يتأفف، يؤثر الخمول على الظهور، وشهرته تتبعه على غير رضاه، يزهّد في اعتبارات كثيرة مما اصطّلع عليه القوم، لا يبالي الأبهة، ولا يسفّ إلى التمجّد. يحافظ على عاداته وأخلاقه، يتشدد في دينه، ولم يتزوج حتى لا يشغل ذهنه بالزوج والولد، كان يصحب أهل المذاهب المختلفة، ويحسن ظنه بأهل الأديان السماوية؛ لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر والبعث والنشور. قضى حياته يكافح الأمية، ويحارب التعصب، ويحرص على تعليم أولاد الأغنياء خاصة؛ لأن عندهم المال والجاه، فتحصيل العلم يفيدهم. ويجب أن يتعلم المتعلمون صناعة أهلهم ويتقنوها، وكثيراً ما يقول: تعلموا العلم، وتعلموا معه صناعة تعيشون بها حتى لا تفقوا على أبواب أرباب السلطان، تستجدون الوظائف والجرايات، فإذا احتاجت الحكومات إليكم أخذتكم لخدمتها، واعملوا بالنزاهة والاستقامة، وأخلصوا لها وللأمة القصد.

وكان جيد الفراسة والحكم على الحوادث، يشمئز من بعض أرباب المظاهر فأنبت^(١) الأيام أنه كان على حق في بغضهم وتحامي مجلسهم، ويحكم في المسائل السياسية حكماً سليماً لا يصدر أصح منه عن أعظم سياسي محنك.

كان معجباً بالمدينة الغربية مطلعاً على أسرارها اطلاقاً عظيماً، وأكثر ما يعجب به المدينة الأنكلو سكسونية، (الإنكليز، والأميركان، والألمان، والسكندنافيين) ويكره الاستعمار وأهله، ويحذر من الوقوع في حباله، ويكره الحكم التركي ويعجب بتربية الأتراك وتدينهم وتمدنهم، لا يحقد إلا على من يصدون عن الأخذ بمذاهب العلم والخروج من ظلمة الهمجية. لم أسمع من

(١) الأصل: ثبت.

فمه كلمة هُجِرَ على طول اتصالي بخدمته في السفر والحضر. ولم أشهده
يحسن القبيح ويقبح الحسن لهوى في النفس أو مصانعة ورياء.

وكان يحب الرياضة سيراً على قدميه ويسبح ويعوم في النهر والبحر، ولا
يعنى كثيراً بثيابه عنايته ببدنه، وألبسته مما يستغربه الناس.

سمع يوماً من جارٍ له كلمة قاسية في المشايخ، فأبدل من الغد العمامة
البيضاء شعار الشيوخ بعمامة من الأغباني على زي التجار، حتى لا يُعرف
ولا يناله شيء من طعن القوم على الفقهاء. وكان متقللاً متقشفاً بدون تصنع
ولا غلو، ويدتخّن كثيراً ويعرف أن الدخان يؤذيه، وقد يحمل في عباة^(١)
وجيوبه شيئاً من التقل والسكر والخبز والجبن وغيرها مما يؤكل، ويحمل معه
موسى ومقصاً وإبراً وخبوطاً وغير ذلك مما قد يلزمه وهو بعيد عن بيته، ويرى
كل ذلك فرجاً له وإمتاعاً له بحريته. . .

ألف الشيخ مدة أربعين سنة أن يسهر مع أصحابه إلى الهزيع الثاني من
الليل، ثم ينقلب إلى منزله يؤلف ويقرأ حتى يصلي الصبح وينام على الظهر.
ولم ينقطع عن التأليف والكتابة منذ كان في سن الطلب حتى وافاه أجله في
آخر العقد السابع من عمره. وكانت تأليفه في شبابه «الجواهر الكلامية في
العقائد الإسلامية^(٢)» و«منية الأذكياء في قصص الأنبياء»، و«مد الراحة إلى
أخذ المساحة^(٣)»، و«مدخل الطلاب إلى علم الحساب» و«الفوائد الجسام في
معرفة خواص الأجسام^(٤)»، و«رسالة في النحو» وأخرى في البديع^(٥)، وثلاثة
في البيان، ورابعة في العروض^(٦). وله كتاب: «تسهيل المجاز إلى فن المعنى
والألغاز^(٧)». ومما كتبه في الكهولة والشيخوخة «شرح ديوان حُطْب ابن

(١) جمع (عب) بضم العين: الردن وهو الكم.

(٢) طبع.

(٣) عنوانها: بديع التلخيص، طبعت.

(٤) عنوانها: تمهيد العروض إلى فن العروض. طبعت.

نباتة^(١)». ومن كتبه: «إرشاد الألباء إلى تعليم ألف باء» وهو كتاب في علم التربية. وله «رسالة وجداول جدارية في الخطوط القديمة والحديثة»، و«التيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن» وهي المقدمة الصغرى من مقدمتي تفسيره، و«مقدمة الكافي» وهو معجم لغوي ضاع أكثره، و«التقريب إلى أصول التعريب^(٢)»، و«توجيه النظر إلى علم الأثر^(٣)»، و«مختصر أدب الكاتب» لابن قتيبة، و«مختصر أمثال الميداني» و«مختصر البيان والتبيين» للجاحظ، و«المنتقى من الذخيرة» لابن بسام.

ومما تركه مخطوطًا تفسيره الكبير، ويدخل في أربعة مجلدات حفظ في دار الكتب الظاهرية مع ما عثر عليه من كتابته^(٣) وفيها خلاصة ما طالعه من الأسفار.

وله من المخطوطات: «الإمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام»، و«مقاصد الشرع» وغير ذلك.

وقد أحيا بالطبع عشرات من الكتب منها: «إرشاد المقاصد» لابن ساعد الأنصاري و«روضة العقلاء» لابن حبان البُستي، و«الأدب والمروءة» لصالح بن جناح، و«الأدب الصغير» لابن المقفع، و«أمنية الألمي^(٤)»

(١) ابن نباتة: عبد الرحيم بن محمد الفارقي. أجمعوا على أن خطبه لم يعمل مثلها في موضوعها. ولد في ميفارقين بأرض ديار بكر سنة ٣٣٥هـ = ٩٤٦م. وتوفي بحلب سنة ٣٧٤ = ٩٨٤م. وهو غير الشاعر المصري محمد بن نباتة (ت ٦٨٦ - ١٢٨٧م).

(٢) طبع.

(٣) الكنائش: جمع كناش، وهذا اللفظ تعريب لكلمة (كناشا) السريانية، وتعني: مجموعة أشياء وعلى الأخص الأشياء المكتوبة.

(٤) اسمه الكامل: (أمنية الألمي ومنية المدعي) لأحمد بن علي بن الزبير، المعروف بالرشيد الأسواني المتوفي سنة ٥٦٣هـ. وهو مقالة قصد بها الفكاهة وأملها بلسان الدعابة على من استوجب الانبساط إليه، وذكر فيها علومًا جمّة، وقدم له بترجمة للمؤلف وختمه بخاتمة في العلوم وأقسامها ومواضعها وغاياتها.

و«تفصيل النشاطين»^(١) للراغب الأصفهاني، و«الفوز الأصغر» لمسكويه، إلى غير ذلك من مقالاته وأماليه في المجلات والصحف، ومنها بتواقيع مستعارة. ومن أهم كتبه المطبوعة: «شرح خطب ابن نباتة» و«إرشاد الألباء»، و«التبيان»، و«التقريب»، و«توجيه النظر» حملت دررًا من علمه وبحثه. وبلغني أنه دوّن بعض الوقائع ولم نعثر عليها بين أوراقه التي سرق بعضها عند عودته من مصر إلى الشام، وكان هاجر إلى مصر لما كثر إرهاب العلماء في العصر الحميدي، وسكنها من سنة ١٣٢٥ إلى سنة ١٣٣٨، وفي القاهرة عرفه جِلَّة علماء المصريين، ونشأت له مع بعضهم صداقة^(٢).

ويمكن إجمال حياة الشيخ بأنه كان مصلحًا حكيمًا، لم يدخر وسعًا لبثّ العلم والمعارف في عقول كل من يرى فيهم استعدادًا لقبول دعوته وإرشاده. وهو أبدًا يختصر المطولات من كتب الفنون ليسهلها على المبتدئين، وقد تمت له هذه الأمتية. ولو لم يأخذ من وقته شطرًا عظيمًا في المختصرات لكانت تأليفه أمتع وأوسع، خصوصًا ما كتبه في العشرين سنة الأخيرة من عمره. ولئن كان في مذهبه الديني مجتهدًا، لقد كان في تأليفه مقلدًا يمشي على آثار القدماء، ولا يحب التوسع في التعليق على آراء المؤلفين المجددين، وكان يحتاط في مراسلاته الخاصة مخافة تعنت أصحاب السلطان، واقتصر فيها على ما عرف من الرسائل التي دارت بيني وبينه على مسائل العلم ونشر الأفكار النافعة في تنوير الأذهان فقط. وكثيرًا ما سمعته يقول: أنا شاذ فأرجو ألا يقتدي بي أحد، ولا يحب لأصحابه أن يلحقوا بالآل لما يقال فيهم من

(١) اسمه الكامل: (تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين) للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ، وهو كتاب لطيف جامع للنوادر اللطيفة، والمراد بالنشاطين النشأة الأولى والنشأة الآخرة.

(٢) وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وسمي مديرًا لدار الكتب الظاهرية، وتوفى بعد ثلاثة أشهر من عودته إلى دمشق سنة ١٣٣٨.

المدح والقدح، ويحرم عليهم تلاوة ما يكتب فيهم من ذلك، ويوصي بالعناية العامة، ويريد جماعته على أن يوهموهم أن ليس بينهم وبين الخاصة سوى درجاتٍ قليلةٍ يمكنهم أن يرتقوا إليها، إذا صحت عزيمتهم، وذلك بتعلمهم أشياءً طفيفةً بدون كدٍّ ذهنيٍّ ولا صرفٍ وقتٍ ومالٍ. كان لا يعرف الهُجر، ولا يسب سبًا قبيحًا، هذا مع حدّةٍ ظاهرةٍ فيه، وإذا صفا ذهنه تفضّح عبارته في محاضراته، وإلا فيعتريه شيء من اللكنة المغربية ممزوجة بالعامية الدمشقية، ولم يجز لسانه بجملة واحدة باللهجة المصرية، مع أنه أقام في مصر أعوامًا كانت تكفي لتقلب فيه اللهجة الشامية إلى اللهجة المصرية، وله تعبيرات خاصة وأساليب في مصطلحاته، ونبراته لطيفة تحلو من فمه. ما أحصي عليه أن نطق يومًا بفُحشٍ أو هُراءٍ أو سبٍّ، أو استعمل ما ينافي الأدب ويقدح في المروءة، ويمزح ويتندر أحيانًا. وكان ينهر من يوردون أحاديث تفت في عضد السامعين. ومذهبه القضاء على الرعب والوهم، وتقوية القلوب. وإزالة غشاوة الأوهام، والصبر وبذل الجهد في كل شيء، وأن يُعنى المرء بمصالح غيره كما يُعنى بمصالحه الخاصة، ولا يحب للمتكلم الاستنتاج غالبًا حتى لا يؤدي التزيد والتفلسف إلى عدم الانتفاع بالواقع. كان مغرمًا بمدنية الغرب ويحث على تعلم لغاته، ويكره السياسة العثمانية ويقول: إن استيلاء الترك على العرب أزال مدنيّتها وغيرَ أخلاقها. ويحب من أهل المدنيات الحديثة كل أمة ترفق بالمسلمين في الجملة. ويؤثر بصداقته من يصرف في خدمة المسائل العامة شيئًا من وقته وماله. وقال وهو على فراش الموت: أعزّوا رجالكم، واغفروا لهم بعض زلاتهم، ولا تنفروهم لئلا يزهّدوا في خدمتكم. هذا، وهو الرجل الذي أخلص كل الإخلاص في خدمة أمته، وكان جماع ما كافأته به في حياته عبوسًا وانقباضًا وتنغيصًا وغصصًا وعصيانًا على إصلاحه إلا قليلًا، ذلك لأن الحكام كانوا يحاذرون سراية أفكاره في الرعية، والمشايخ يريدون ألا يخرج عن طرائقهم في تشبيط الناس والاستطالة عليهم بالجهل. وكان

يساويهم^(*) في كسلهم وقلة ذمهم وعلمهم، وليس بينهم من يَعُشْرُهُ^(**) ولا نبغ فيهم فرد مثله. جمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين، وامتاز بأنه أحب العلم للدين والدنيا، والفريق المخالف له من المُخْرَقِينَ بالعلم أو ببعض فروعهِ أرادوه للدنيا وللوصول إلى مظاهرها، وشتان بين الطريقتين. هم ذهب ذكرهم بذهابهم من هذه الديار، وخلد ذكره؛ لأنه عمل لها وللآخرة. ذهب من الدنيا وقد أحسن في كل ما عمل، وأولئك خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.



(*) الوجه أن يقال: (يساوي بينهم في...)، وذلك لكي تستقيم العبارة!

(**) جاء في معجم (متن اللغة):

- عَشْرَهُم: أخذ عَشْرَ أموالهم!

- عَاشِرُهُ: خالطه.

- عَاشِرُهُ: بَلَغَ عَشْرَهُ.

أرى أن العبارة هنا تستقيم إذا قيل:

وليس بينهم من يعاشره، أي من يَبْلُغُ عَشْرَهُ في العلم (المراجع).



عبد الرحمن الكواكبي^(١)

١٢٦٥ - ١٣٢٠هـ

١٨٤٩ - ١٩٠٢م

تنسب أسرة الكواكبي للسيد إبراهيم الصفدي، من أمراء أردبيل من أعمال أذربيجان. نزل حلب قبل أربعة قرون وتديّرها^(٢)، ونشأ أولاده وأحفاده على فضائل وعلم. وكان آخرهم الشيخ أحمد الكواكبي والد السيد عبد الرحمن مترجمنا هذا. ووالدته السيدة عفيفة النقيب ابنة مفتي أنطاكية، ماتت وهو طفل فكفلته خالته. وكانت مثقفة بثقافة عصرها، تكتب وتقرأ، فأخذته إلى أنطاكية ففضى فيها ثلاث سنين، ثم حُمل إلى حلب، وعادوا به ثانية إلى بيت خالته وهناك قرأ القرآن وتعلم التركية، وبعد رجوعه منها دخل المدرسة الكواكبية مدرسة أجداده، وكان والده مديرها وأحد مدرسيها، فقرأ ما تيسر من علوم الشريعة واللغة، واتصل بأديب تركي اسمه خورشيد أفندي فعلمه

(١) ترجمت في الأعلام ٦٨/٤، وهو عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي، ويلقب بالسيد الفراتي (ولادته في الأعلام سنة ١٢٦٥هـ = ١٨٤٩م ووفاته سنة ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م) وانظر نهر الذهب ٨٥/٢ و٤٠٤/٣ ورواد النهضة الحديثة ٢٠١ - ٣٠٦ معجم المؤلفين ج ١١٥/٥ وولادته فيه سنة ١٢٧١هـ، ١٨٥٥م ولعله غلط وهو كذلك عند المؤلف. وانظر تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ١٠٧١ في الأدب الحديث ١/٣٦٥، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة: ٥٥، تراجم مشاهير الشرق: ١/٤٣٧، ولعباس محمود العقاد كتاب: (الرحالة كاف عبد الرحمن الكواكبي)، الاتجاهات الأدبية: ١٠٩.

(٢) اتخذها دارًا ومحلًا لسكناه.

التركية والفارسية، ولقنه بعض العلوم العصرية، وأخذ ينشئ بالتركية كما ينشئ بالعربية.

تولى في شبابه تحرير جريدة «الفرات» الرسمية خمس سنين، وكانت مثل جرائد الولايات العربية تصدر باللغتين العربية والتركية. تمرن على الترجمة في اللغتين، وأصدر خلال ذلك جريدة سماها: «الشهاب» فأغلقتها الحكومة بعد مدة بدعوى أنها نشرت أفكارًا لا يجوز نشرها، ثم أصدر جريدة ثانية سماها «الاعتدال» وهذه أيضًا كان نصيبها نصيب أختها المؤودة.

واتفق أن أطلق شاب أرمني رصاصة من مسدسه على جميل باشا والي حلب، فاتهم المترجم له وجماعة من الأعيان بأنهم هم المحرضون على اغتياله، فبرأته المحكمة وعزل الوالي. وكان جميل باشا هذا من أفسد ولاية العثمانيين ويكفي في سفالة أخلاقه أنه تجسس على والده نامق باشا. وبعد سنتين تجددت مصيبة المترجم له بالولاية، فاتهمه الوالي إذ ذاك بأنه ألف جمعية غايتها الخروج عن طاعة الدولة العثمانية فسُجن. وكانت هذه الدعوى من تليفات بعض الأعيان ممن غضبوا عليه لإظهاره مبادئهم، ونَعَبِهِ عليهم استرسالهم في سلب الضعفاء، فرأى السيد المتهم أن المحكمة ربما حكمت عليه بإيعاز الوالي، فطلب نقل دعواه إلى ولاية أخرى فنقلت إلى بيروت، وفي محكمتها بُرِّئ مما عزي إليه وعزل الوالي أيضًا لثبوت تزويره.

وعلى الأثر عين قاضيًا على راشيا، فأدرك أن ولاية الأمر يتربصون به السوء فأسرّ في نفسه الالتجاء إلى مصر، ولم يُطلع على نيته حتى أقرب الناس إليه من أهل بيته. ووافى مصر، وكانت شهرته سبقته إليها. وأخذ ينشر في جريدة «المؤيد» مقالات في الاستبداد حازت استحسان العارفين، ثم جمعها في كتاب سماه «طبائع الاستبداد» فصدرت بإرادة السلطان عبد الحميد بالحكم عليه بالإعدام ومصادرة أملاكه.

تقلب الكواكبي منذ نشأته في وظائف الدولة في بلده، ومنها رئاسة بلدية

حلب، وناظر إدارة حصر الدخان^(١)، ورئيس غرفة التجارة والزراعة والصناعة. وكان إذا تنحى عن الخدمة يعمد إلى المحاماة، وما كان يتناول أجرًا من الفقراء فدعاه القوم أبا الضعفاء.. وأسس عدة شركات وطنية ومنها شركة جر مياه الساجور إلى حلب، وشركة الكهرباء، وشركة تجفيف سهل العمق.

وما منعت هذه الأعمال الإدارية والمالية مترجمنا عن مواصلة الدرس والبحث، فكان كل يوم تزيد معارفه كما تزيد تجاربه، ويقنع بأن الدولة آخذة بالانهيار. وبما قاساه في القضيتين المزورتين عليه وبهما حبس وكاد يحكم عليه بالقتل، أدرك أمورًا لا تتجلى لكل ناظر. فكان من الطبيعي أن ترشح كتاباته مما نشبع به روحه من بغض دولة الترك وفسادها وفساد أحكامها وحكامها.

كانت ثقافة الكواكبي الأولى ثقافة مشايخية عربية، ثم مزجت بثقافة تركية، وهو كل يوم يتعلم في مدرسة الحياة دروسًا في الآداب والحقوق والسياسة والاقتصاد، وكل أولئك أخرج منه رجلًا عارفًا بمصائب أمته وعللها وأدويتها، وسوء قصد راعيها بمحاولته القضاء على شخصياتها ليدوم له حكمها بالظلم والجبرية. وقد استقى كثيرًا من معلوماته من اللغة التركية، ومن لقاء علماء الترك، فما فاته من جهل لغة غربية جبره بعض الشيء بما قرأه في التركية من المترجمات عن الغربيين.

كان ما يعرض عليه من مشاكل المجتمع يعرض على القانون والشرع فيشهد العبائة شديدة بين المكتوب في الصحف والمعمول به النافذ، فيزيد ألمه وتضطرب نفسه، وكان كيف تقلب في وطنه يرى من أعمال الدولة ما يخرج الحليم عن طوره، ويُبكي حتى عيون أرباب القلوب المتحجرة. وما

(١) أي: مدير مصلحة الدخان (السجائر) والتبغ والتبناك، وكان يطلق عليها اسم (الريجي).

كتابه «طبائع الاستبداد» إلا لمحة صغيرة مما أملته عليه بيئته، وسجل ينطق بأخبار الظلمة وُقيح أثرهم، فلا عجب أن دعا، على رزاة فيه، إلى نزع أيدي العرب من سلطان الترك، وأشار إلى أن العرب في الولايات العثمانية آخذون بالانقراض، كما أن المسلمين في أقطار الأرض على شفا الانحلال بصنعهم وصنع حكوماتهم، وإرهاق مستعمرتهم وملوكهم، ومن كل هذا استقى موضوع روايته الخيالية «أم القرى» وما هي إلا وصف أمراض الشعوب الإسلامية على اختلاف أقطارها وأمصارها.

وهو إذ أصيب باليأس من إنهاض أمته، فما نسي أن الخير لا تزال جراثيمه كامنة في جسمها تحتاج فقط إلى من يحركها. وهذا ما حمله على الهجرة إلى مصر، ومنها رحل إلى سواحل إفريقية الجنوبية والشرقية، وزار الحبشة وهرر والصومال وجاوة وسواحل جنوبي الصين، وعاد إلى مسقط وجزيرة العرب. سهل له هذه السياحة أحد أصدقائه من رجال السلك الدبلوماسي الطليان، وكان صديقه وعشيرته في حلب.

وكان يجتمع إلى رؤساء الأقطار التي ينزلها ويدخل في القبائل، ويسير بمسبار عقله مبلغ قوتها. وقطع صحراء الدهناء في اليمن فكشف جوايسيس السلطان العثماني أمره، ونجا من شرهم، وعاد إلى مصر، وقد قاسى من المخاطر والمتاعب ألواناً وأشكالاً.

قلت في مذكراتي: «وفي مصر صادفته وعاشرته وأخذت من تجاربه وحكمته. وجاءني ذات ليلة يسمر معي في داري مع الحبيب رفيق بك العظم. ويستشيرني في أمر عظيم. قال: إن الخديوي عباس عرض عليه أن يصحبه إلى الأستانة ليقدمه إلى السلطان العثماني، ويستجلب رضاه عنه. فصعب عليّ وعلى رفيق بك إبداء رأي في موضوع جد خطير كهذا. لأن ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا عن سلطانه، وخشينا أن تكون هناك دسياسة يذهب الرجل ضحيتها. ومما قال لنا: أنه حائر في أمره بين القبول والرفض، وأنه

شعر بالأمس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلاً. وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي إلى داره فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول: قم يا كرد علي فإن صديقك أبي مات. فاضطربت اضطراباً قلّ أن اضطربت مثله. ودخلت عليه وسجيته بيدي. ومن الغد دفناه بمشهدٍ حافل، أبنته الصحف تأبيناً قدرته فيه قدره. وراح بعضهم يذهب إلى أن الكواكبي مات مسموماً. واستبعد قوم وقوع ذلك».

«وأراد السلطان القضاء على أفكار الكواكبي، فبعث أحد عماله فأخذ أوراقه والمطبوع من كتبه، وأرضى ابنه بمبلغ من المال.

فقدت الأمة العربية بموت الكواكبي رجلاً قوي الشكيمة، نادر المثال في الرجال بعمله وبعد نظره ووطنيته. وقد رزق من الشجاعة الأدبية ما عزّ نظيره. وكان يعتقد أصدق اعتقاد في عدالة دعوته. ويتجلى النبل في حديثه والإخلاص في حركته».

أكثر الكواكبي من الكتابة في أغراض سياسية وإدارية وحقوقية واقتصادية. وألف أربعة كتب لم يبق منها إلا «طبائع الاستبداد» و«أم القرى». أما الكتابان الآخران: «صحائف قريش» و«العظمة لله» - وهذا قرأ لي صفحاته الأولى ولم يتمه - فإنهما أخذتا في جملة ما أخذ من أوراقه السلطان العثماني.

أعجب الكواكبي كل من سمع باسمه، أو قرأ له كلاماً؛ لأنه فادى بحياته ليؤسس للعرب دولة ترعاهم، وتتوفر على حمل النور إليهم. وكان منذ وعى على نفسه إلى أن دفن في رمسه يدور في دائرة لا تكاد تتبدل، وهي الإصلاح السياسي والديني. وله الفضل بتنبئه الأفكار، ووصف شقاء الأمة فأبدع بدعوته بدعة حسنة لم يسبق إليها. وعمل بمحض اجتهاده الخاص، ولم يلجأ إلى الغرباء للوصول إلى هدفه، على ما كان شأن معظم من سبقوه ولحقوه من بني وطنه. وكانت الأيدي الأجنبية تسيّرهم وتدبّرهم، أما هو فكان صاحب دعوة مستقلة خلقتها قريحته، ولدت في رأسه وكبرت وترعرعت في قلبه وروحه. ﷲ



عمر طوسون (١)

١٢٨٩ - ١٣٦٣هـ

١٨٧٢ - ١٩٤٤م

لما وقع اختيار أعضاء المجمع العلمي العربي على ضم عمر طوسون إليه، وانتخب بالإجماع، طلبت منه أن يتفضل ويكتب لي ترجمة حياته فكتب إلي ما يأتي:

«أنا الأمير محمد عمر طوسون ابن الأمير محمد طوسون باشا ابن والي مصر محمد سعيد باشا ابن محمد علي الكبير، رأس الأسرة العلوية. ووالدتي الأميرة بهشت حور، وجدتي لأبي الأميرة ملك بير. ولدتُ بمدينة الإسكندرية في يوم الأحد ٥ رجب ١٢٨٩هـ (٨ سبتمبر سنة ١٨٧٢م)، ولما بلغت أربع سنوات توفي والدي، فكفلتني جدتي لأبي وعنيت بتربيتي، ودرست مبادئ العلوم على أساتذة مختارين في قصر أبي، فلما أدركت الحلم نزحت إلى سويسرة حيث استكملت دراستي. وقمت بسياحة في فرنسا وإنجلترا شاهدت في أثنائها أنواع التقدم الاجتماعي والعلمي والصناعي والزراعي، ثم عدت إلى مصر وأنا أجيد اللغات التركية والعربية والفرنسية والإنجليزية قراءةً وكتابةً، وأشارك في العلوم بعض المشاركة. وحينما أوفيت على سن الرشد قبضت على زمام دائرتي وأدرت شؤونها بنفسي. ومع إشرافي على إدارة

(١) ترجمته في الأعلام: ج ٥/٢٠٧ والأعلام الشرقية: ٦/١ ومرآة العصر: ٥١ وترجمته بقلمه

في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩/١٦٣.

أعماله لم أنقطع عن المطالعة والبحث في مكتبي، ولي ولعٌ شديد بالاطلاع على كل ما له علاقة بتاريخ مصر والسودان وجغرافيتهما. وقد جبلت منذ الصغر على حب بلادي. وإني لفخور بما قمت به في الحرب الطرابلسية وحرب البلقان، وكنت أول من فكر في إرسال وفد من مصر إلى مؤتمر فرساي في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨م، ثم للمطالبة باستقلالها، ثم ما قمت به في حرب الحبشة التي دافعت فيها عن كيانها ضد الإيطاليين، وما ساهمت به من نصيب في مساعدات الأمم المجاورة لمصر في شتى المناسبات، والجمعيات الخيرية في مصر، وبناء المساجد في السودان والمعاهد الدينية والعلمية وأنديته الاجتماعية، وتشجيع المعارض الزراعية، والعمل على توثيق العلاقات الأخوية والتجارية بين مصر والسودان».

بلغت تأليفه بالعربية نحو ثمانية عشر مصنفاً، وكلها تدور على تاريخ مصر والسودان وجغرافيتهما والنيل وما إليه. وبلغت تأليفه بالفرنسية ثمانية عشر مصنفاً، وله كتاب آخر بالإنكليزية في المسألة السودانية. ومن تأليفه العربية: «تاريخ مديرية خط الاستواء من فتحها إلى ضياعها» (ثلاثة أجزاء) وهو ممتع جداً. «أربع رسائل»، في الصنائع والمدارس الحربية والبعثات العلمية والجيش المصري البري والبحري. «مصر والسودان»، «مذكرة عن مسألة السودان بين مصر وإنجلترا»، «مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن»، «الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي باشا» «البعثات العلمية في عهد محمد علي باشا ثم عهدي عباس الأول وسعيد»، و«الأطلس التاريخي الجغرافي لمصر السفلى (أي الوجه البحري) منذ الفتح الإسلامي إلى الآن»، «الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي»، «تذكرة بما صدر عنه منذ فجر الحركة الوطنية من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٨»، «أراضي الدومين والدائرة السنية»، «بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك»، ومما كتبه بالفرنسية: «مذكرات على فروع النيل القديمة» (مجلدان)، «مذكرات

في مالية مصر منذ عهد الفراعنة إلى أيامنا»، «مذكرات في تاريخ النيل»، «مذكرات تاريخية في عصر العرب»، «مذكرات في مسألة السودان»، «مذكرات في صحاري مصر»، ... إلخ.

وفي هذه الصورة المصغرة من أعمال صاحب الترجمة تدرك مبلغ تفانيه في خدمة مصر والسودان ثم في خدمة القضية العربية الإسلامية، وأنه ما كان يتوقف عن الجهد في كل ما يرفع قومه خاصة. ويرفع شأن المسلمين عامة، ففضى في هذه المهمة التي أخذها على نفسه خمسين سنة، يصرف من وقته وماله وجهده، ولا نعرف أميرًا من أمراء الإسلام لعهدنا، والمسلمون لا يقلون عن ثلاثمئة مليون، صرف ماله ووقته في مثل هذا السبيل، ولا أميرًا آتاه الله سعة من المال فأنفق ريعه في نهضة مصر والسودان. ولو أن بعض من وفر الله لهم قسطهم من الذكاء والغنى من العرب والعجم مثل الأمير عمر طوسون، لكان المسلمون أرقى أمم الأرض بلا نزاع.

النيل حياة مصر والسودان، فهل سمعنا بغني مثل الأمير عمر أنفق جزءا من ماله في سبيل استقلال مصر والسودان، وأضاف إليه ما صرفه لحفظ بيضة الإسلام وإنقاذ الشرق من براثن الغرب.

علم الأمير خمسين شابًا سودانيًا التعليم العالي، عدا ما أنفقه في السودان في إقامة جوامعها ومدارسها وخدمة قضيتها. ولا أراني مبالغًا إذا ادعيت أنه لم يخدم مصري السودان بأجلّ من خدمة الأمير عمر. وكانت داره في الإسكندرية أشبه بسفارة للسودان، وبيوته فنادق لأهلها، يطعمهم ويكسوهم ويعطيهم نفقاتهم ويعلم أبناءهم.

ولا أعرف ثروة عظيمة صرف ريعها طوال حياة صاحبها على أعمال البر والتعليم كما صرف عمر طوسون ثروته ووقته وجهه، لا يقصد إلا وجه الله وخدمة وطنه. ذلك لأنه ما كان يعرف إلا الخير، وما تعرف إلى غيره. وحدث مرة أن كادت مدارس العروة الوثقى، وهو رئيس مجلس إدارتها، أن تقف

لقلة المال، وكانت مصرُ في أزمة وكذلك الأمير، فقررت الجمعية إغلاق مدارسها ريثما تنتهي الأزمة. فلم يرض عن هذا القرار، واقترض لحسابه مبلغاً أمد به الجمعية. حدثني من اختلط بالأمير وعرف جوانب من أخلاقه الظاهرة قال: كانت موائد الإفطار في قصره بالإسكندرية أيام شهر رمضان تجمع الموسرين والمعسرين، والمعسرون^(١) أكثر سوادًا، فكان يترك أرباب المظاهر يتناولون إفطارهم وحدهم ويخف لمشاركة الفقراء في الطعام، فتنطلق ألسنتهم بالدعاء له. وله من هذا أشياء لا يُؤثر أكثر منها في باب إكرام الفقراء.

ما كان لي شرف التعرف إلى عمر طوسون إلا بالمراسلة، ولما فقدت أخي أحمد أبرق إلي يعزيني على مصابي^(٢)، ويذكر بلاء شقيقي في جريدة «المقتبس»، وما خدم به العرب بقلمه، فكانت بذلك صداقة ليس أشرف منها. وما زال يتفضل أكثر السنين إذا وصلت إلى القاهرة يهتني من الإسكندرية على سلامتي، ويرجو لي طيب المقام في بلاده، فكان بذلك يهتم للخصوصيات اهتمامه بالعموميات، ويعني بجبر خواطر الناس، كما يعنى بتنمية ثروته والقيام على زراعته وأملاكه.

سألني ﷺ يوم اجتماعي به أول مرة سؤالين كان يُظهر الاهتمام بالجواب عليهما: وهما: كيف قسمت الديار الشامية بعد الحرب العالمية الأولى، وهل صح ما ذكرته في كتابي «خطط الشام» عن عهد إبراهيم باشا في الشام وأعماله العظيمة وحسن إدارته وسياسته. فأجبت عن الأول بما حضرني، وعن الثاني أكدت له أن كل ما رويته عن ذلك العهد كان محضًا، لم أقصد به إلا تقرير حقيقة تاريخية، وأني لست مصريًا حتى أجامل آل محمد علي. وأذكر لسليلهم إبراهيم باشا صفات خيالية، فحمد الله كثيرًا على ذلك، وكنا كلما اجتمعنا يكشف لي عن ذات نفسه، ويطلعني من أسرار السياسة العليا في

(١) الأصل: والمعسرين.

(٢) يقال: عزاه بمصابه.

مصر ما أنا في أشد الحاجة إلى معرفته، ولا يتيسر لي أن أعرفه على وجه الصحة إلا من طريق الأمير المؤتمن الصادق. ولعله كان يقصد من أحاديثه حمل الفائدة إليّ والانتفاع بها يوماً في خدمة مصر وتقرير تاريخ مصر.

ويطول الكلام إذا أردت أن أصف ما جبل عليه الأمير العظيم من مكارم الأخلاق وبعد الهمة وفرط الأدب وصدق الوطنية والجد في أموره ووضع الأشياء في موضعها.

كان أستاذنا الإمام محمد عبده يقول: الأمة الإسلامية مصابة بالعمق. يعني إذا مات منها سيد لا يخلفه أحد من عياره يمشي على آثاره. وهذه كلمة تصدق على عمر طوسون فإنه لم ينبغ للأمة العربية من يوازي نصف مكانته،

ﷺ .





قاسم أمين^(١)

١٢٨٢ - ١٣٢٦هـ

١٨٦٥ - ١٩٠٨م

لم يعرض من ترجموا لقاسم أمين للكلام على أوليَّته، وأشاروا فقط إلى أنه من أصل كردي، كان أبوه من أولاد أمراء الأكراد، أخذته الدولة العثمانية رهينة، فأقلت منها وجاء مصر ودخل في الجيش، ورقى فيه إلى رتبة أميرلاي. وقاسم بكر أبيه، وأمه مصرية من أسرة معروفة. وتعلم في المدارس الوطنية في القاهرة ثم ذهب إلى فرنسا بنفقة الحكومة. فدرس الحقوق، وأبان عن كفاءة عظيمة وذكاء نادر وتدرج في مناصب القضاء حتى غدا قاضيًا في محكمة الاستئناف الأهلية.

امتاز باستقلال الفكر، وجودة الرأي، وصفاء الذهن، وسعة الخيال، وقوة الإرادة، والعدل في الحكم، والوفاء في الصداقة، والإخلاص للبلاد. وكان إلى هذا من علماء الحقوق والأخلاق والاجتماع والفلسفة العقلية.. كان كثرًا مخفيًا لا يعرفه إلا أصدقاؤه، وأول شيء عرف به في عالم الأدب رده على الدوق «دركور» [ما جاء] في كتبه من الانتقاد على البيوت بمصر،

(١) ترجمته في الأعلام: ١٩/٦ وولادته فيه سنة ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م، مجمع المؤلفين ١١٤/٨، تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ١٠٧١ وانظر تاريخ الأدب العربية لزيدان ١٣٥/٤ ورواد النهضة الحديثة ٢٠٧، ومعجم المطبوعات ١٤٨١، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: ٢٧٧ والأعلام الشرقية ٥١/٣، تراجم مشاهير الشرق: ٤٢٠.

لاسيما مسألة الحجاب وسوء حال النساء المسلمات. كتب الدوق في ذلك كتاباً باللغة الفرنسية، فرد عليه قاسم أمين باللغة الفرنسية، وكانت عبارته في رده كعبارة كتاب فرنسا. وكان قلمه في ذلك الرد يتدفق غيرة وحماسة، وقد بين فيه ما للحجاب من الفائدة، وشنَّ على ما في أوروبا من التبذل والتهتك وتجارة الأعراض.. واندفع إلى الرد بوجدان الغيرة. وبعد أن شفى غيظه وأرضى غيرته بذلك عاد إلى نفسه وفكر في الأمر، فرأى أن كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في ذاتها، فبعثه ذلك إلى درس هذه المسألة قائلاً في نفسه: إنه لا ينفعنا إذا كان العيب فينا أن نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه، وأنه يجب علينا أن نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى في إزالته.

وظفق يبحث ويفكر في حال البيوت بمصر ويقراً ما كتبه الإفرنج في شأن النساء، وانتهى به البحث والتنقيب إلى تصنيف كتاب «تحرير المرأة» الذي هز مصر هزة شديدة، وشغل جرائدها في تقريره ونقده زمناً طويلاً، وبعث همة غير واحد من حملة العمامم والطرابيش جميعاً إلى التصنيف في الرد عليه (ألفوا نحو ثلاثين كتاباً في لعنه وتزييف رأيه)، وبذلك طار صيته في الآفاق، وعرف اسمه في الشرق والغرب، وعدّ من المصلحين الاجتماعيين. ثم ألف كتاب «المرأة الجديدة» لتعزيز رأيه وتفنيده آراء خصومه، و«المرأة الجديدة» كالكتاب الأول ويفرقه في قوة الحجة ووضوح الدليل^(١). ومن مقالات هذا الكتاب فصل «التربية والحجاب» قال فيه صاحب «المقتطف»: «ولو لم يكتب غير هذا الفصل لكفى وحده لشهرته، ولقرن اسمه بأسماء أشهر المصلحين. ولقد كان همه في كل كتبه وخطبه وفي أحاديثه النظر^(٢) إلى الزمن السعيد

(١) ونشر له كتاب سمي: «كلمات قاسم أمين».

(٢) الأصل: ينظر.

الذي تتعلم فيه المرأة الشرقية فيصير كل نساء الشرق مثل فضليات نساء الغرب من حيث العلم والتهديب».

«ولم يكتف بكتابه، بل جعل همه الأكبر، إلى أن وافته منيته، تهذيب النساء وتمدينهن، وتمنى مشاركة الفتيات المصريات للفتيان في محافل العلم والأدب. قال ذلك في خطبة بالفرنسية ألقاها في نادي المدارس العليا قبل وفاته بساعة أو بساعتين».

«كان اجتماعيًا لا كبعض الاجتماعيين الذين يجعلون رؤوسهم محافظاً لآراء غيرهم، فإذا حضرتهم المناقشة، ودعتهم الكتابة إلى موضوع اجتماعي أخذوا يسردون عليه محفوظاتهم من المؤلفين السابقين، من غير أن يكون لعقلهم في الموضوع نصيب من الرأي. لا، لم يكن كذلك أبدًا، بل كان مفكرًا بالأصالة، نقادًا لا يستغني عن أفكار غيره، ولكنه لا يقبلها إلا إذا اعتقدها، وصارت له بما قام في نفسه عليها من الأدلة اليقينية».

«وكان رأيه في المسائل الاجتماعية أنها خاضعة دائمة للقوانين الطبيعية، قوانين التحليل والتركيب والنمو التدريجي والانتقال. وبحث في المسألة الاجتماعية لمصر على الخصوص، فوجد أنها كلها تتوقف على نظام الأسرة المصرية، ووجد أن المرأة هي الأساس الأول لبناء الأسرة».

«ولقد تجلّى فيما كتب وخطب العلمُ الواسع والإخلاص التام والبعد عن الدعوى. وكان من أكبر المهتمين بإنشاء الجامعة المصرية».

اختمر موضوع المرأة في ذهن محرر المرأة أعوامًا فقال عن نفسه: إن الحقيقة التي نشرها شغلت فكره مدة طويلة كان في خلالها يقلّبها ويمتحنها ويحللها، حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط به من الخطأ استولت على مكانٍ عظيم من موضع الفكر فيه وزاحمت غيرها، وتغلّبت عليه، وصارت تشغله بورودها، وتنتهي إلى مزاياها، وتذكره بالحاجة إليها. فرأى أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر. قال: «ولا يركن

إلى حب السكينة إلا أقوام على شاكلتنا، فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالأرض البائرة التي لا يصلح فيها نبات، وحتى مال بنا الكسل إلى معاداة كل فكرٍ صالحٍ مما يعده أهل الوقت حديثًا غير مألوف، سواء كان من السنن الصالحة الأولى، أو قضت به المصالح في هذه الأمة.

«وكثيرًا ما يكتفي الكسول وضعيف القوى في الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حقٍّ ظاهرٍ يريد أن يدمغه، فيقول: تلك بدعة في الإسلام، ولا يرمي بهذه إلا حبًا بالتخلص من مشقة العلم، أو الخروج عن عناء العمل في البحث والإجراء، كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم، وأقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الإنساني وسائر المخلوقات الحية».

قال: «سيقول قوم: إن ما أنشره اليوم بدعة فأقول: نعم إنني أتيت بدعة، ولكنها ليست في الإسلام، بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها»^(١).

قال: «والذي أراه في هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في إياحة الكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمشارت الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياء. وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات، أو متاعًا من المقتنيات، وحرمانها كل المزايا العقلية والأدبية التي أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية، وبين هذين الطرفين وسط هو الحجاب الشرعي، وهو الذي أدعو إليه».

(١) ألقى بطرس البستاني في أربعينيات القرن التاسع عشر محاضرة بعنوان: (خطاب في تعليم النساء) تجرأ فيها وقال بدعم شخصية المرأة وحريتها، ويعدده بعضهم المدافع الأول عن المرأة قبل قاسم أمين وفارس نمر وجرجي نقولا باز.

نعم هذا هو الحجاب الذي دعا^(١) إليه قاسم أمين. وقلّ أن قام مصلح ينادي بدعوة، وحمل عليه من يعرف ومن لا يعرف من المصريين، فما زادوه إلا ثباتًا على ما تصدى له.

وصف ما صادف كتابه الأول من الحملات، وما غايته من دعوته فقال: «نحن لا نكتب طمعًا في أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذي إذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه، الجلي معناه، لا يفهمونه إلا إذا كان محرّفًا عن وضعه، منصرفًا عن قصده، برأي شيخ هو أجهل الناس بدينه. ولا يحبون الوطن إلا إذا تمثل لأعينهم في صورة قبيحة وأخلاق رثّة وعادات سخيفة، وإنما نكتب لأهل العلم، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل».

«كان قاسم يعلم حق العلم: أن الأمر ذا خطر، وأن الناس لن يقبلوا منه ذلك راضين عنه، مطمئنين إليه، ولكن ماذا يهمه من الناس إذا كان مقتنعًا مؤمنًا بأنه محق، وماذا يعنيه أن يسخط الناس عليه إذا كان يعلم أن الواجب راضٍ عنه، وأن الحق مطمئن إليه وأن هذا العمل يكلف سخط الناس وغضبهم ولقد أؤذي الرجل في نفسه وكرامته ومكانته ومات وسخط الناس عليه أشدّ من رضاهم عنه، والمنكرون له أكثر من العارفين له».

«لقد أساء الناس فهم قاسم، فظنوا أنه يبيح المحرمات، وينكر ما قدس الناس، ولكن الغشاوة قد زالت الآن، فالناس يشعرون أن قاسمًا لم يبيح حرمة ولم يعرف منكراً، ولم ينكر معروفًا، وإنما دعا إلى الخير وحثّ على الرقي، وأراد أن تكون مصر كلها قوة عاملة».

هذا ما اقتطفناه من كلام من حكموا على قاسم أمين حكمًا صحيحًا خاليًا من الشهوات. وما أهمهم كسب رضى العامة والجامدين من المهيمين على

(١) الأصل: دعاه.

الدين، وكان بعض العلماء يودون لو لم يمزج دعوته بشيء من الدين، حتى لا يجد خصومه منفذًا إلى التغلب عليه، أما هو فأتى ببراهينه من الدين، وشفعها ببراهين من العقل والاجتماع. وكانت مجموعة أفكاره مسددة.

ومن قرأ كتابيه: «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» وهما صغيران بجرمهما، كبيران بما ترتب من النفع منهما، يدرك أن الرجل عظيم بعلمه وتفكيره. جمع في كلامه طرفي الدين والدنيا، وفي كليهما جدد وأحسن. هو عظيم بشجاعته وإقدامه، لاتهمه الظواهر بقدر ما تهمة الحقائق. هضم علمه حق الهضم، وعرف كيف يبرزه في قالب مقبول معقول. وقلَّ جدًّا في المعاصرين من وفقوا توفيقه واستخدموا عبقريتهم في إنارة العقل، والدعوة إلى العمل. وكان قصاره أن ينقل المسلمين من دور انحطاط، مبكِّ ومخزٍ إلى طور رقيٍّ يدخلون به في زمرة الأمم الممدنة.

وكم من المؤلفين من كتبوا ألوفاً من الصفحات فما أغنت بعض ما أغنت جمل قليلة دونها قاسم على الورق فأبدع وأرشد. خاض موضوعه بعد درسي طويل وتفكير جزيل. وقد وطن النفس على تحمل كل ما ينجم عن دعوته من الأذى. وأعظم من هذا: أن حميته للدعوة ما كانت سطحية. أليس هو القائل: «من اختباري لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم ظهر لي أن الحمية عندهم سطحية لا تذكىها نار تتوقد في القلب. حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباءً لا تترك أثرًا بعدها». وهذا هو الفارق الأعظم بينه وبين معاصريه.

لم يُبق قاسم ما يذكر بعد وفاته سوى كتابيه اللذين لن تخلق ديباجتهم الأيام، وترك حكماً ومواعظ نشرت بعده في كراسات، وكلامه عذب يقرؤه الحر والمتعصب فيستفيدان منه ويلذهما ويعجبان بما انطوى عليه من السلالة والجزالة. ولا يستطيع متعنت مهما بذل من الجهد أن يحذف من كلامه مقطعاً واحداً يظنه مما يمكن الاستغناء عنه.

مات قاسم أمين في الثالثة والأربعين من عمره^(١)، ولا يعلم إلا الله ماذا كان منه لو ذرّف^(٢) على السبعين أو الثمانين.

كان فخرًا للعرب والمسلمين، وبحق ما أحرز هذه المكانة العظيمة، عليه الرحمة وما أصدق ما قاله في رثائه حافظ إبراهيم^(٣):

إِنْ رَيْتَ رَأْيًا فِي الْحِجَابِ وَلَمْ تُعْصَمَ فِتْلِكَ مَرَاتِبُ الرُّسُلِ^(٤)
 الْحُكْمُ لِلْأَيَّامِ مَرِجُهُ فِيمَا رَأَيْتَ فَنَمَ وَلَا تَسَلِ
 وَكَذَا ظَهَاءُ الرَّأْيِ تَتْرُكُهُ لِلدَّهْرِ يُنْضِجُهُ عَلَى مَهَلِ



(١) عند الزركلي في الأعلام توفي عن ٤٥ سنة.

(٢) جاء في المعجم الوسيط (ذُرّف على الخمسين من السنين وغيرها: زاد عليها) «المراجع».

(٣) من قصيدة لمي رثاء قاسم أمين من اثنين وأربعين بيتًا مطلعها:

الله درك كنت من رجل لو أمهلتك غوائل الأجل

ديوان حافظ ج ٢/١٥٦.

(٤) إن ريت: تخفيف (رأيت).



كارلو نلينو^(١)

CARLO ALFONSO NALLNO

١٨٧٢ - ١٩٣٨ م

كان الدكتور كارلو ألفونسو نلينو شيخ علماء المشرقيات في إيطاليا، وصاحب التأليف والأبحاث الممتعة بالعربية والإيطالية.

ولد في تورين^(٢) يوم ١٦ شباط ١٨٧٢، وفيها درس دراسته الأولى، وأخذ مبادئ اللغات الشرقية واعتمد منذ نشأته الأولى على ذكائه ودرسه الخاص أكثر من اعتماده على المعلمين والأساتيد. وبما فطر عليه من قوة الملاحظة ودقة النظر، على ما لم يكتب لغير أفراد قلائل في الناس، جاء منه عالم تام الأدوات ولما يبلغ سن الرشد، على حين يظهر من كانوا في مثل سنه من صغار العلماء أنهم مبتدئون إذا بحثوا وكتبوا، وأنهم في أول مراتب التحقيق العلمي إذا ألفوا وصنفوا.

عين أستاذًا للغة العربية في المجمع العلمي العربي الشرقي في نابل^(٣) وهو في الثانية والعشرين من عمره، وغدا في سن الثلاثين أستاذًا في جامعة بلرم عاصمة صقلية وفي سنة ١٩١٣ أنشأت له دولته كرسياً لتدريس التاريخ

(١) ترجمته في الأعلام ج٦/٦٥ والمستشرقون ١/٣٧٧، وانظر معجم المطبوعات: ١٨٧٠

ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٢٧ ص ١٠ - ١٦.

(٢) TORINO مدينة في شمال إيطاليا.

(٣) NAPOLI إحدى كبريات مدن إيطاليا ومرفا هام من مرافئها.

والأبحاث الإسلامية في جامعة رومية. وكان منذ سنة ١٩٠٩ يعهد إليه المرة بعد المرة التدريس في الجامعة المصرية، وكان قضى في مصر في صباه أشهرًا لإحكام اللغة العربية.

وكان في آخر أمره نائب رئيس مجمع لنشاي في رومية، وعضوًا في المجمع العلمي الإيطالي وفي عدة مجامع وجمعيات إيطالية وغير إيطالية، وانتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ بدء تأسيسه، وعضوًا في مجمع اللغة العربية الملكي في القاهرة منذ أول عهده.

وعهد إليه النظر في القسم الشرقي من المَعْلَمَة الإيطالية، أي دائرة المعارف الإيطالية فكتب معظم مقالاتها الخاصة بالإسلام. وأنشأ مجلة الشرق الحديث تصدر بالإيطالية مرة كل شهر في رومية بعناية المجمع العلمي الشرقي، باحث في السياسة وتقويم البلدان وأصول السكان والثقافة الحديثة. ويفضل عنايته أصبحت هذه المجلة من أهم المجلات المشهورة في العالم. وقد أدارها سبع عشرة سنة بما عرف فيه من دؤوب وثقوب ذهن. وأزرت في عمله في العهد الأخير كريمته الفاضلة وتابعت في دروسه ورافقت في أسفاره.

كتب نلينو أبحاثًا جلييلة، وأكثر ما كتب مقالات ومحاضرات دلت على بعد غوره ونظره، وأنه مفرد في بحثه العلمي، يتجلى إنصافه وأدبه مع مخالفيه وموافقيه. كان - أجزل الله ثوابه - شديدًا على نفسه، وشديدًا في مناقشاته، لا يحلم عن جهل جاهل، ولا يسكت عن غرور مزهو معجب بنفسه. رأيناه يناقش خصومه بحماسة وقوة وقد يصلحهم نارًا حامية من نقده، فلا يخرجون من حوارهم سالمين، لكنه لا يجوز لنفسه أن يجهز عليهم، ولا أن يتعدى نطاق الأدب والنصفة في حوارهم. وكان إذا وُسد إليه النظر فيما عمل فيه غيره يصلح هفواته ويقوم منأده وينقده ويصفيه، ويتلطف ويقدر كل عمل أيقن أن الجدل لحمته وسداه.

من أبرز صفات نلينو غرامه الشديد بجلاء الحقائق، وقد أفرط في ذلك

إلى حد الوسواس والتردد. كان يحلل كل عبارة مهما كان مصدرها تحليلًا مجهريًا، ويفحص بمعرفته الثاقبة كل كتاب، مهمًا أم غير مهم، ذلك لأنه كان يريد أن يكون في العلم كما هو في الحياة على مثل اليقين فيما يقول به ويؤيده من أنظاره.

كان إذا جرى أمامه بحث في بعض المسائل التي لم يعطها من الدرس حقه ينصت مستمعًا لما يقال استماع تلميذ جبان أمام معلمه العظيم، وإذا كانت المسألة المعروضة مما يُحسِن معرفته لا يحول أحد بينه وبين الكلام، ولا يحجم عن قول كل ما يعرفه.

قال من ترجموا له: أنه لم يكتف من العلم الإسلامي بدراسة علم الفلك فقط، بل أخذ نفسه بدرس كل ما لهذا العلم من فروع وشعب، وكان مثلاً مفردًا في معناه بين المؤلفين، وحنة قاطعة في الدروس الإسلامية والعربية، وقد قال مرة لأحد أصحابه: أنا لا أود أن أدع الخروج من درس العرب دراسة خاصة، إلا إذا عرفت كل شيء على حساب العرب.

ودعا اتساع نطاق الحضارة العربية وطول مداها وترامي أطراف الأقطار التي نشأت فيها أن يخرج عن دائرة الإحصاء الضيق إلى ساحة النظر المطلق في كل ماله علاقة بهذه المدنية، فكان نحوياً مؤرخاً جغرافياً فقيهاً فيلسوفاً طبيعياً رياضياً. ونظراته سديدة في هذه المدنية الغنية، وإرثه تراث الشرق السامي والفرسي الطويلة العمر (أربعة عشر قرناً).

رأى نلينو في العصر الذي عاش فيه، وتجرد للعمل في ميدانه أن العلم العربي الإسلامي حاد عن طريقه اللغوي، واتجه وجهة جديدة في بحث الأفكار والأوضاع، فتخلى عن درس الأصول، وعن أخذ ما خلفته الأجيال القديمة من تراث أدبي يرجع إلى القرون الوسطى الإسلامية. ثم بدأ بدرس الإسلام الحاضر دراسة علمية. وما كان الأول ولا الوحيد الذي قاده عقله إلى سلوك هذه الطريق الجديدة، وكان بما رزق من ملكة لاستخراج مادة مبعثرة،

ومعالجة موضوع عسير، فردًا في صبره وأناته، لم يشاركه - فيما نعلم - غير أفرادٍ قلائل من علماء المشرقيات، فهو لم يترك قضية عربية إسلامية إلا وجعل لها قسطًا من عنايته، وتوفر على دراستها دراسة كفاءٍ محقق، ودقق في فروعها وأصولها كاشفًا عن غوامض الحوادث المجهولة، ومصلحًا أغلاطًا فاحشة قديمة.

تناولت دراساته اللهجات العصرية: والتاريخ السياسي حديثه وقديمه، والتنقل بين التاريخ والجغرافية، والنظر في الأساليب المختلفة في كل مظاهرها، والبحث في عاديّات اليمن قبل الإسلام، وفي أسماء بلدان ليبية (طرابلس وبرقة) وفي وضع فهارس المخطوطات، وفي تراجم الرجال، وحلّ الكتابات الأثرية. وكتب أكثر تأليفه بالإيطالية وبعضها بالعربية، ونشر أبحاثًا بدیعة في التاريخ والجغرافية، والفلك عند العرب، وأبحاثًا في القرآن، وفي قبائل العرب وأصولها. وطبع في صباه زيج البتاني الفلكي العربي مع ترجمته بالإيطالية، وبه اشتهر بين العلماء. ولما دعِيَ في سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ إلى التدريس في الجامعة المصرية القديمة ألقى على تلاميذه محاضرات في تاريخ علم الفلك عند العرب في القرون الوسطى وطبعها على حدة، فكانت من أجلّ الكتب التي نشرت في هذا العصر بالعربية، وبه وقفنا على أشياء كنا نجهلها من عناية أجدادنا بهذا العلم. ومن الكتب التي صحح أغلاطها كتاب «تاريخ المسلمين في صقلية» لأماري المستشرق الصقلي، وهو في مجلدين بالإيطالية، فاستدرك نلبنو ما فات المؤلف. ومنها كتاب «دولة عمورية» لغاز يليف المستشرق الروسي: نظر فيه نظرةً بليغةً مع من نظر فيه من العلماء. وله عدة أبحاث في مجلة المجمع العلمي العربي، وفي مجلة «الهلال»، وبعض مقالات في مجلات أخرى، يضرب فيه كلها على سندان واحد، وهو تصحيح أغلاط المعاجم، وتنقية العلم من الزغل والزوان، الذي وقع فيه بفعل القرون الطويلة وجهل الجاهلين.

وقد نشر في سنة ١٩٠٨ بحثًا في مجلة المجمع العلمي المصري صحح فيه ما وقع للمترجمين من تحريف في أسماء البلدان العربية. ولما اطلع على ما كتبه في جريدة «المؤبد» ومجلة «المقتبس» بشأن موضوعه بعث يشكرني ويقول: إن غرضه تنبيه أولي الشأن من الشرقيين الراغبين في صون لغتهم من أيدي الضياع، ووقاية الكتب والمصورات والجرائد من التحريف الشنيع. وبقي يطيل النظر في هذا الموضوع إلى السنة التي طلب بها مجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة تصحيح أعلام البلدان الإسلامية، فصحح القسم الأعظم منها، ما خلا الديار الشامية وجزيرتي الأندلس وصقلية. وأبرز جداول مُحكمة في هذا الموضوع دلت على علو كعبه وطول درسه، فأقر الأعضاء جداوله معجبين، وقد كان المجمع يريد إرجاء هذا البحث إلى دورة الانعقاد المقبل فأصر نلينو على تلاوة جداوله وإقرارها، كأنه كان يلحظ من جانب الغيب أن المنية ترصده، وأن تلك الجلسة آخر جلساته، وهو يريد أن يقر المجمع عملاً له تعب سنين في إعداده، وأن ينشر هذه الكلمات الصحيحة على الشعوب العربية والإسلامية ينتفعون بها في تقويم أسماء ديارهم.

وكتب الأستاذ مقالات ممتعة في مَعْلَمَةِ الإسلام وأكثرها في علم الفلك والآلات الفلكية وتراجم بعض الفلكيين وغيرهم. وكانت مقالاته في مجلة المشرقيات الإيطالية في غاية الإمتاع، ومنها: خلاصة ما تنشره مجلات الشرق العربي من الكتب والرسائل والأبحاث النادرة. أما الأسئلة التي كانت تعرض عليه ويجيب عنها بالتحقيق المعهود فيه فكانت وافرة جدًّا، وربما تألف منها مجلدات؛ لأن الفقيه العزيز كان كريمًا بعلمه، ما سأله سائلٌ في أمر يعرفه إلا بادر إلى اطلاعه على ما عنده منه، سألته أن يجعل لي بعض الأنحاء الغامضة من تاريخ الفتح العربي في جنوبي إيطاليا ما عدا صقلية، فكتب إلي كراسة بالفرنسية فيها زبدة تاريخ تلك الديار، فانتفعت بها في كتابي «الإسلام والحضارة العربية»، وطلبت منه أن يتفضل ويكتب لي نبذة مختصرة

من حياة صديقيِّ وصديقيه جُونيدي^(١) وكايتاني^(٢)، من أكبر علماء المشرقيات في إيطاليا، فاغتبط وابتسم ووعدني بأن يكتب.

والسر في كل هذه الأعمال الجليلة التي تمت على يد زميلي الكبير شدته في نظامه، وتدقيقه في عمله، وما رزق من إرادة قوية. فهو رجل ما عرف الفوضى ولا الإحجام.

أحرز درجة عاليةً في الأبحاث التي نظر فيها، قلَّمَا تَطَالَ^(*) إلى مداناته فيها العلماء. وهو بالنسبة لبيئته وتربيته ولما يريد بحثه من الموضوعات قد يستهدف لغضب قصار النظر؛ لأن أبحاثه لا تخلو - لاختلاف الدار - من أشواك وحسك، ومما يغبط عليه أنه قال ما يرضي وما يغضب، فأرضى وما أغضب، وهذه نعومة قلما يصل إليها باحث. ولذلك كثر المعجبون به في الشرق العربي، ولاسيما في مصر، وكان يحبها لأنها عرفت قدره شابًا فوسدت إليه التدريس في جامعتها، وما نسيتَه كهلاً وضمته إلى أعضاء المجمع اللغوي.

كان نلينو فردًا في أخلاقه وسمته، عُرضت عليه أرفع المناصب السياسية في إيطاليا فما أراد أن يخرج عن هدي العلماء، وما وجدت المظاهر الخلافة سبيلًا إلى قلبه، كان يحسن بضع لغات غربية، ويحذق العربية تخاطبًا وتكاتبًا

(١) مستشرق إيطالي (Ignazio guidi) (١٨٤٤ - ١٩٢٥م) شيخ المستشرقين في عصره. عالم بالعربية والسريانية والحشية انتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، له كثير من الأبحاث بالعربية وأربعون محاضرة ألقاها في الجامعة المصرية بعنوان: (محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوربا، خصوصًا إيطاليا) ونشر بعض الكتب العربية القديمة (الأعلام ١/ ٣٤١).

(٢) مستشرق إيطالي له ترجمة في هذا الكتاب رقمها ٣٣. انظر ص ٢٨١.

(*) جاء في معجم متن اللغة (ط ل ل): تَطَالَ وتَطَالَل: تشوّق لينظر إلى الشيء يبعد عنه. وتطال: مدّ عنقه لينظر (مجاز).

أقول: ومثله: إِشْرَابٌ (المراجع).

كأحسن أبنائها. وقد فقد العلم الإسلامي به عالمًا غيورًا وعاملًا مخلصًا، فيه شجاعة وأريحية، وفيه المروءة وعزة العلماء. ويحق لإيطاليا أن تباهي بآبائها لها أورثها مجداً لا يبلى، وخليقٌ بعلم المشرقيات أن يبكيه، وبنا معشر العرب أن نتأمل طويلاً في سيرته، وأن نعرف أنه خدم أمته وما كره غيرها، وأنه نفع طول حياته وما أضر. ومن حق الشعوب العربية من أقصى بحر الظلمات^(١) إلى الخليج الفارسي ألا تنسى عظيمًا صرف عمره في درس كل ما له علاقة بها وبتاريخها وباجتماعها وأرضها، وعطف عليها وأحبها.

كانت صلاتي بصديقي الراحل وثيقة مدة ثلاثين سنة، وكنت إذا حدثته أو كاتبته أشعر بأني مع عالم قريب منا بذهنيته وآدابه، ذلك لأنه كان يحب العرب والعربية محبة صادقة، وما ألقاه من المحاضرات وكتبه من المقالات باللغة العربية حببه إلى أهلها، وحب أهلها إليه. وكان هو وجويدي وسانتلانا^(٢) من أول من ألف من علماء المشرقيات الغربيين باللغة العربية. ثم تبعهم العلماء ريتّر وكرنكو وبرتزل ومايرهوف نيرج وغيرهم^(٣) وكانت العادة أن يكتب المستعربون من علماء المشرقيات مقدمات الكتب العربية القديمة التي ينشرونها بلغاتهم أو باللغة اللاتينية، فأصبحوا يكتبونها بالعربية، وبهذا

(١) هو ما يعرف اليوم بالمحيط الأطلسي.

(٢) Santillana. David مستشرق إيطالي ذو معرفة شاملة بالمذهبين الشافعي والمالكي عمل أستاذًا لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ فبرز في الفلسفة الإسلامية واليونانية والسرانية وله فيها محاضرات باللغة العربية، ثم درّس القانون الإسلامي في جامعة رومة، له بحوث ودراسات وترجمات تولي ١٩٣١م (المستشرقون ٢٧٤). وجويدي شيخ المستشرقين في اللغات السامية (المستشرقون ج١/٣٧٥).

(٣) الأول RITTER, H ألماني ولد عام ١٨٩٢ والثاني فريتس كرنو Freitz Krenkow (١٨٧٢ - ١٩٥٧) ألماني أيضًا ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق والثالث (Pretzl, O) ١٨٩٣ - ١٩٤١م مستشرق ألماني أيضًا والرابع ماكس مايرهوف Meyerhof, Max (١٨٧٤ - ١٩٤٥) طبيب ألماني والخامس سويدي Nyberg, H ولد سنة ١٨٨٩.

عرف أبناء العرب صورة من بحث علماء المشرقيات وعنايتهم بالعلم وتحقيقهم الممتع. وعسى أن يكون من سيرته لناشئتنا درسٌ نافع، وأن يعلموا أن العلم بغير درس لا يحصل، وبدون عمل لا يستفاد منه، وأن الشهادات العالية والألقاب العظيمة لا تنبئ عن الرجل، وأن أوربا لم تتقدم الشرق إلا بعملها، وأن دعوى التَّمَجُّد بالقديم من دون عمل لاقتباسه والزيادة عليه مضيعة للوقت واشتغال بباطل، وأن الواجب على طلاب العلم أن يجعلوا حياة أمثال نلينو نصب أعينهم، ولا غضاضة على من اعترف بقصوره، وسعى إلى بلوغ درجات الكمال.





كليمانت هوار^(١)

HUART, CLEMENT

١٢٧٠ - ١٣٤٥هـ

١٨٥٤ - ١٩٢٦م

ولد كليمان هوار في باريز، وتخرج في مدرسة اللغات الشرقية فيها، ونال شهادة مدرسة الدروس العالية (شعبة العلوم التاريخية واللغوية)، ثم دخل في سلك الترجمة والقنصليات ردحاً من الدهر. وانصرف إلى التأليف والتدريس فعين أستاذاً في مدرسة اللغات الشرقية، وعميداً لها، ومديراً للدروس في مدرسة الدروس العالية العملية، ورئيساً للمعهد العلمي، وعضواً في عدة مجامع ومنها المجمع العلمي العربي^(٢)، وكان على اتصال به منذ تأسيسه، وكتب في مجلته بحثاً جميلاً في الاستعراب عند الفرنسيين: وأحيا بالنشر كتاب «البدء والتاريخ» للمظهر بن طاهر، وترجمه بالفرنسية، ونشر «مقامات ابن نايقا^(٣)»، و«ديوان سلامة بن جندل»، وألف بالفرنسية كتاب

(١) له ترجمة في الأعلام ٩١/٦ ووفاته فيه سنة ١٩٢٧ وانظر المستشرقون: ٢٣٠ ومعجم المطبوعات: ٢٤٢.

(٢) المقصود مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٣) في الأصل: ابن باقية، والتصحيح من وفيات الأعيان ١/٢٦٦ والأعلام ٤/٢٦٧، وقد ذكر معجم المؤلفين ترجمتين لابن نايقا الأولى ج ٢/٧٥ والثانية ١١٦/٦ الأولى باسم عبد الله بن محمد مثل ما جاء في المصدرين السابقين والثانية تحت اسم عبد الباقي بن محمد =

«الآداب العربية» في مجلدين، و«تاريخ العرب» و«تاريخ بغداد» و«كتاب الخطاطين والمذهبيين في الشرق الإسلامي» وكتاباً في دين الباب و«مختصر نحو اللغة الفارسية» وغير ذلك من الأبحاث التي تتعلق بالإسلام وآدابه وفنونه. وكان يدرّس بالعربية والفارسية والتركية، وهذه هي اللغات التي كان يحسنها من لغات الشرق. واستهوته العربية فكان يفضلها على غيرها ويصرف فيها جهوده لاعتقاده بما لها من التأثير المستمر في منازع الشعوب الإسلامية وآدابهم وفنونهم، ولإيقانه أنه لا يتيسر لأحد معرفة اللغة التركية أو الفارسية معرفة جيدة إلا إذا كان ضليعاً في العربية. وكان لهذا يلقي درسه في تفسير القرآن في مدرسة العلوم العليا باللغة العربية، على قلة المستفيدين من درسه لقلّة معرفتهم بلغة الكتاب العزيز. وله كتب ورسائل ومقالات وتقارير وانتقادات نشرت في مجلة العالم الإسلامي والمجلة الآسيوية، ومجلة تاريخ الأديان، ومجلة النقد، والمجلة السامية والمعلّمة الفرنسية الكبرى، ومعلّمة الإسلام، وفي هذه المعلّمة نشر تراجم بعض علماء المسلمين الأقدمين بأسلوب مقتضب، لا نسبة بينه وبين ما نشره غيره من المحققين المستعربين في تلك المعلّمة. وكانت تراجمه كالفهارس الموجزة، لا تراجم رجال تملأ حياتهم صفحات، وما ترجمه لهم يتيسر لأي طالب أن يكتب أمتع منه. ولعل السبب في قصوره هذا حرصه على الإكثار من التأليف ومبادرته إلى نشر ما ألف. هذا إلى ما تتطلبه الوظائف الإدارية والسياسية التي تولّاها من الوقت والجهد.

ولقد رأينا الفرنسيين على شدة ذكاء علمائهم يخوضون أبحاثاً لا تظهر عليها العناية كما تظهر عناية الألمان والإنكليز والهولانديين فيما أحيوا من آثار العرب.

= وهو شاعر، لغوي، مترسل، من أهل بغداد، ماجن، متهم بالظعن على الشريعة، له مصنفات وديوان شعر. (٤١٠ - ٤٨٥ هـ = ١٠٢٠ - ١٠٩٢ م).

ولهذا وقعت للسيد هوار في كتاب «البدء والتاريخ» أغلاط كثيرة ما كان يسقط فيها لو تروى في نشره، ولو رجع إلى عالم عربي لصحح معظم هفواته وصدر الكتاب سليماً من العيوب في الجملة. وكذلك كان شأنه في تاريخ العرب اقتضبه اقتضاباً مخللاً، وما كان في إنصافه العرب وعطفه على مدنيّتهم إلا دون ابن وطنه سيدليو^(١) عندما كتب تاريخ العرب، وحكم على مدنيّتهم حكمه الخالي من النزعات الشعوية.

تجلى روح السياسة في بعض ما كتب هوار أكثر من روح العلم المجرد، وبدت العصبية الدينية القديمة زائدة على النزعة المدنية الحديثة أو تكاد، مما يترفع عنه المحققون.

ومن الصعب أن يخدم المرء سياسة معينة، وهي تتقاضاه ألاّ يحيد عن ناموسها، وأن يزعم إلى ذلك خدمة العلم مبتعداً عما يشوه وجهه الجميل.

ومن العدل أيضاً: ألاّ نطلب من الغرباء عنا إنصافنا فيما نعتقد أن القول بخلافه ينافي الحق، وينم على تعصب وعصبية. وقد تبدو سلامة القصد في أحكام بعض علماء المشرقيات على الإسلام إذا كانوا بعيدين عن السياسة، وإذا حاد بعضهم عن الصراط السوي فيكون ذلك منه عن اجتهاد أو قلة معرفة.

وهوار كان همه على ما يظهر إرضاء زعماء الاستعمار على حساب العرب والغض منهم بما يلائم مصلحة السياسة الاستعمارية^(٢) عند الفرنسيين، ومن لا يخدم هذه السياسة من عمالهم بما يلائم دعوتهم يطرد من الخدمة ويقطع رزقه، وعندنا على ذلك أمثلة غير قليلة.

(١) عالم بالمشرقيات اسمه الكامل (Loui, Pierre, Sédillot) (١٨٠٨ - ١٨٧٥) م ألف (تاريخ العرب) وأشرف على ترجمته إلى العربية مهذباً علي مبارك باشا، ثم ترجمه عادل زعير (الأعلام ١١١/٦). (المستشرقون ١٧٧. في ترجمة والده).

(٢) الأصل: بما يلائم المصلحة السياسية الاستعمارية.

وكل هذا لا يمنعنا من التصريح بأنه لولا عناية علماء المشرقيات بالنظر في مدينتنا لتأخر أصحاب هذه المدينة أنفسهم زمنًا عن معرفتها. ولما أخذنا بطرائق علماء الغرب في البحث لتيسير كشف القناع عن حقائق الإسلام وعظمة مدينة العرب كشفًا ظهرت به أغراض رهبان القرون الوسطى، وكان دأبهم ستر مدينتنا بلباسهم الأسود ويدسُّون سمومهم القتالة وتعصبهم الذميم في كل ما يرفع شأن الإسلام وينادي بعظمة المدينة العربية.





كورنيليوس فاندريك (١)

VANDYEK, CORNELIUS

١٨١٨ - ١٨٩٥م

من عادة البرتستانات الأميركيان أن يخصّوا الأقطار المتمدنة بالدعوة إلى مذهبهم، وأن يبتعدوا عن نشره بين المتوحشين، ولما صحت عزيمتهم على نشر نحلتهم في الديار الشامية رموها بعلماء فضلاء قاموا بما عهد إليهم من نشر البرتستانية ونشر العلوم والمعارف معها، ومن هذه الفئة الصالحة كرنيليوس فاندريك (٢).

(١) ترجمته في «المستشرقون: ٩٩٣» والأعلام ج ٦/٧٧ رواد النهضة الحديثة: ١٧٥ تراجم مشاهير الشرق ٥٢/٢.

(٢) من هؤلاء الأعلام من أغنوا الخزانة العربية بما ألفوا لها من كتب جيدة حملت العلوم الحديثة إلى الأفكار كالدكتور يوست، ألف لنا «قاموس الكتاب المقدس» في مجلدين، وكتاب «نباتات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها»، و«الأقرباذين أو المادة الطيبة» وغيرها.

ومنهم الدكتور ورتبات Wortsbet نشر «أصول الفسيولوجيا»، و«أصول التشريح»، و«قواعد حفظ الصحة» و«كفاية العوام في حفظ الصحة وتدبير الأسقام»، ومنهم الدكتور يورتر، وضع «القاموس الإنكليزي العربي» و«العربي الإنكليزي»، و«النهج القويم في التاريخ القديم» وغير ذلك (المصنف) وابن المترجم إدوار عالم أيضًا، ولد في لبنان، وتخرج من الجامعة الأميركية في بيروت، وعين أستاذًا للإنجليزية في القاهرة. ومن آثاره: «اكتفاء الفروع بما هو مطبوع» وهو فهرس الكتب قديمها وحديثها التي صدرت عن مطابع الشرق =

ولد في الولايات المتحدة من أب هولاندي وأم هولندية، ونشأ نشأة أميركية، وتفقه بعلوم عصره فأحکم الطب والصيدلة والرياضيات، وبرع في الكيمياء حتى صار يلقب بالخطيب الكيميائي، وأتقن من اللغات عشرًا، منها خمس لغات قديمة وخمس لغات حديثة.

واختاره مجمع المرسلين الأميركيين مرسلاً طبيًا إلى سورية فنزل بيروت، ودرس العربية واجتمع بالمعلم بطرس البستاني وساكنه واثلف معه، وأخذ العربية عن العالمين الكبيرين الشيخ ناصيف اليازجي^(١) والشيخ يوسف الأسير^(٢)، ودرس السريانية والعبرية، ولما أنشئت الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٨٦٦ عهد إليه تدريس علم الفلك والظواهر الجوية والباثولوجيا وشرع يترجم إلى العربية ما يلزم الجامعة الجديدة من كتب الطب والعلوم باللغة العربية، وما برح على ذلك حتى بدا لرؤساء الجامعة أن يجعلوا اللغة الإنكليزية لغة التعليم بدلًا من العربية فاستقال هو وزميله الدكتور وربّات^(٣)

= والغرب، كما نشر ترجمة لكتاب كليلة ودمنة في أوكسفورد سنة ١٨١٩ وترجم «مقالة في النفس» لابن سينا بعنوان: هدية الرئيس للأمير وغيرها (المستشرقون: ٩٩٣ - ٩٩٤).

(١) عميد بيت اليازجي، وركن من أركان النهضة العلمية في سورية. له القدر المعلى في اللغة والشعر والأدب. ولد في كفر شيما بلبان سنة ١٨٠٠، استكتبه الأمير بشير الشهابي وقربه نحو ١٢ سنة ولما نفى الأمير سنة ١٨٤٠ انتقل مع أسرته إلى بيروت وتفرغ للمطالعة والتأليف، وتخرج عليه طبقة من الأدباء، له عدة دواوين وكتب منها: مجمع البحرين (مقامات)، فصل الخطاب (صرف ونحو) توفي سنة ١٨٦١ (زيدان ٢٣٤/٤).

(٢) من أعلام الفكر في القرن التاسع عشر. درس في الأزهر، وتقلّب في مناصب الإفتاء في سورية وعلم في أشهر مدارسها اللغة والفقه. وله كتاب «الفرائض» طبع في بيروت، و«شرح أطواق الذهب» للزمخشري. (تاريخ آداب اللغة العربية ٢٧٥/٤).

(٣) هو الدكتور يوحنا وربّت Wortsbet (١٨٢٧ - ١٩٠٨م) ولد في لبنان من أصل أرمني، وتعلم في الجامعة الأميركية، ونال شهادة الطب من أذنبرة، وعين أستاذًا لعلم التشريح والأحياء والباثولوجيا في الجامعة الأميركية ببيروت، من آثاره بالعربية: التشريح وعلم الأحياء، وله بالإنجليزية. «أديان سورية، حكمة العرب».

احتجاجًا على من رجّحوا الإنكليزية على العربية قائلين: إنهما ما نزلا أرض الشام إلا ليخدا العرب بتدريس العلوم بلغتهم.

كتب فانديك باللغة العربية عشرين كتابًا في العلوم الفنون ومنها تنمة ترجمة التوراة التي كان بدأ بها قبله عالي سميث المرسل الأميركي، ومنها: «أصول الباثولوجيا الداخلية»، و«أصول التشخيص الطبي»، و«الأصول الجبرية»، و«أصول الكيمياء»، و«الأصول الهندسية»، و«أصول علم الهيئة»، و«الأنساب»، و«تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر» و«رسالة في مرض الجدري والحصبة» و«محيط الدائرة في علمي العروض والقوافي»، و«النقش في الحجر» وهو في ثمانية أجزاء صغيرة كلها في مبادئ العلوم كالعلوم الطبيعية والكيميائية والجغرافية الطبيعية والجيولوجيا والهيئة والنبات وأصول المنطق. وكتب مطولًا في الجغرافية، أكثر فيه من الاستشهاد بالشعر العربي، فمزج العلم بالأدب. وله كتاب: «إرواء الظماء في محاسن القبة الزرقاء» وهو آخر تأليفه وقف على طبعه، صدره بقول ابن حسن التاجي.

انظر إلى حسن تكوين السماء وقد لاحت كواكبها والليل ديجورُ
كأنها خيمة ليست على عمَد زرقاء قد رصَّعت فيها الدنانيرُ

أنشأ فانديك مدارس كثيرة في لبنان وكان إذا سأله سائل وهو ذاهب في مهمة له من هذا المعنى، إلى أين يا دكتور؟ كان يقول: إنني ذاهب إلى القرية الفلانية لأنشئ مدرستين، مدرسة لنا ومدرسة ينشئها اليسوعيون بعدنا، وأنشأ المرصد الفلكي في الجامعة من ماله الخاص، وكان العامل الأكبر في إنشاء مستشفى مارجرجس في بيروت، وأنشأ مجلة «النشرة الأسبوعية» ولا تزال تصدر إلى الآن. إلى غير ذلك من أعماله العلمية والدينية والخيرية، وعرف الإحسان لكل إنسان فأحبته جميع الطوائف، واحتفلوا بعيده الخميسني، وعدادوا مآثره في خدمة العلم والعربية في القطر الشامي خاصة وديار العرب عامة.

وتخرج به كثير من رجال النهضة، ومنهم العالمان يعقوب صروف وفارس نمر، وهو الذي رسم لهما خطة إنشاء مجلة «المقتطف» وسماها لهم، وعلمهما كيف تكتب المجلات العلمية، وآزر فيها بنفسه مدة. فكانت خير أداة لنشر العلوم في الشرق العربي. ولو اطرد التعليم بالعربية في جامعة بيروت كما كان يهوى لغنيت لغتنا بالمؤلفات العظيمة في العلم والفن، ولما اضطر الباحثون منا إلى الآن إذا أرادوا التعمق في موضوع علمي أو أدبي، أن يعمدوا إلى مراجعة كتب الإفرنج. ففضل فاندريك على ديارنا وأهلها يذكر بالحمد على الدهر.

وقلما عُهد غريب من أهل لسان يتحمس للسانهم تحمسه، ويخلص في خدمتهم إخلاصه، اللهم إلا أهل فارس في القديم يوم أخلصوا في خدمة الإسلام والعربية بما لم يصل إلى بعضه غيرهم من العناصر.

ولعلنا لا نعدو الصواب إذا حكمنا على فاندريك أن دعوته الدينية ذابت في شخصه وغلبت عليه النزعة العلمية، وبها ظهر في هذه الديار ظهوراً رائعاً، وأفاد جمهور المتعلمين على اختلاف مللهم ونحلهم. كان بسيرته الزكية وعطفه على الفقراء والمساكين المثال الجميل الحي الذي ينبغي لرجال الأديان أن يقتدوا به، وبوضعه مع رفاقه أساس العلوم في الجامعة الأميركية الإنجيلية، وضع الحجر الأساس الذي قام عليه صرح العلم في الشرق الأدنى. وخدم بذلك الإنسانية أجلّ خدمة، خدم العرب ولغتهم خدمة عاقلٍ حكيم، وكان من أول الغربيين الذين أحسنوا إلينا بإخراجنا من العامية، وإنارة عقولنا بقبس من نور الحضارة، وقبلهم كنا في عمّاية، ونعدّ ما عندنا من علوم الدين واللغة هو غاية ما يجب تعلمه في الحياة، كنا في غفلة وأي غفلة، فلما عالجونا بدرياق العلم تجلى الفرق بين صحتنا الحاضرة^(١) وسقمنا الغابر.

(١) الأصل: الحاضر.

ولولا أخذنا بما حملوا إلينا لَظَلَلْنَا وراء الأمم، على ما نرى أكثر سكان جزيرة العرب إلى اليوم.

أحبّ فاندريك العرب، وأحبّ كثيرًا من عاداتهم الحسنة، فقلدهم في لباسهم وطعامهم، وفي كل جميل من مظاهرهم. وكان يعنى بالصغير قبل الكبير. ويأخذ برأي بعض طلبته إذا رأى الحق في جانبه، ويجيب على كل ما يُسأله من تلاميذه، ويكتب من لا يعرفهم من طلاب الاستفادة من علمه وتوجيهه.

عَلَّمَ الناس بالقُدوة الصالحة، وكانت عملياته أكثر من نظرياته، ودام يدأب على تربية النفوس وإنارة العقول حتى اختاره المولى، فذهب حميد الأثر ناجح المسعى.

كُتِبَ لي شرف المشول بين يديه، وأنا مع أبي في السادسة عشرة من عمري، وقد قصدناه في منزله في رأس بيروت ليفحص عيني والحسر بادٍ فيهما، فكتب لي بعد الفحص درجة النظارات التي تناسبني، فقلت له: يا سيدي الدكتور. كيف لي أن أضع نظارة على عيني فإن أهل بلدي سيضحكون مني؟ فقال الدكتور: استعمل النظارات ولا تلتفت إلى كلام الناس، فأنت محروم نصف لذة الدنيا. فصعدت بأمره^(١)، ولا أزال إلى هذه الساعة كلما وضعت النظارة على عيني أذكر نصيحته الثمينة، وأذكر فضله عليّ وعلى أمتي.



(١) صعد بالأمر: جاهر به، ولعل المراد هنا الامتثال.



لويس شيخو (١)

١٢٧٥ - ١٣٦٦هـ

١٨٥٩ - ١٩٢٧م

ولد في ٥ شباط ١٨٥٩ في ماردين بالجزيرة، وتوفي في مدينة بيروت سنة ١٩٢٧.

اتصل منذ نعومة أظفاره بالآباء اليسوعيين، ودرس في مدرستهم في قرية غزير من جبل لبنان العلوم الدينية والمدنية، وأخذ العربية والفرنسية واللاتينية وغيرها، ثم انتظم في سلك الرهبانية اليسوعية. متجردًا من متاعب المعاش والأسرة، عازقًا عن بهارج الدنيا، مأخوذًا بما أخذ به من خدمة الدين والآداب. وتنقل في فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من مراكز العلم في الغرب، فدرس طريقة الغربيين في البحث والتأليف، واطلع على ما في خزائنه من كتب العرب. واستنسخ لحساب جمعيته أمهاتها النادرة، وحضر بعض المؤتمرات التي عقدها علماء المشرقيات في الغرب، وساح في بعض أرجاء الشرق.

انصرف شيخو لأول أمره إلى تعليم الآداب العربية في كلية القديس

(١) ترجمته في الاعلام ج٦/١١٣ ومعجم المؤلفين ١٦١/٨، تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ١١٢٥ وانظر معجم المطبوعات ١١٦٦ رواد النهضة الحديثة: ١٧٦ والأعلام الشرقية ٣/ ١٥٤ ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٢٧ الجزء ٢ ص ١٦١ -

يوسف في بيروت، ونشر عدة كتب مدرسية ودينية أهمها «مجاني الأدب» في عشرة أجزاء، استخرجها من كتب العرب، وشرحها شروحًا لغوية أدبية، وقد أصبحت معتمدة في المدارس الطائفية والتبشيرية في الشام وغير الشام. ونشر مقالات «علم الأدب» وكتابًا في الإنشاء والعروض والخطابة، وأحيانًا بالطبع كتاب «الألفاظ الكتابية» للهمذاني، و«فقه اللغة» للشعالبي، وذلك بحذف الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، فلاحظ عليه العارفون من علماء المشرقيات المستعربين فاضطر بعدُ إلى الرجوع عن هذه الطريقة في الكتب التي أحيها من أسفار العرب.

وأهم ما نشر من كتب المتقدمين والمتأخرين «كتاب الهمز»، و«كتاب المطر» للأنصاري وكتاب «الكتاب» لابن درستويه، و«تهذيب الألفاظ» ومختصره لابن السكيت، و«حماسة البحتري» و«طبقات الأمم» لصاعد، و«ديوان الخنساء»، و«ديوان أبي العتاهية»، و«ديوان الخزرق» أخت طرفة، و«ديوان السمائل»، و«ديوان المتلمس» ورواية جديدة من «كليلة ودمنة»، و«تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى، و«تاريخ شاعر بن الراهب القبطي»، و«تاريخ سعيد بن بطريق، وملحقه لسعيد بن يحيى الأنطاكي»، و«تاريخ محبوب المنبجي» و«فضائل الكلاب» لابن المرزبان، و«أصف نامه» ومقالة في الضوء» لأرسطو، و«الآلات المنغمة» لمورستس، و«الآلات المزمرية» لبني موسى، و«المكحلة» لأبي محمد الصقلي، و«شواعر العرب» ومجموعة أربع رسائل لفلاسفة اليونان وغيرهم. يضاف إلى ذلك عدة رسائل في الفلسفة والدين مما خلفه القدماء، نشرها بالاشتراك مع بعض أفاضل الآباء من أهل رسالته. وقد خدم بهذه الكتب الآداب العربية أجلّ خدمة، وزاد فيها مجاميعنا المطبوعة، وأحسن بما علق عليها من الفوائد، وخدمها به من الشروح.

ومما ألفه مباشرة: «المخطوطات العربية لِكِتَابَةِ النصرانية» و«معرض الخطوط» و«شعراء النصرانية في الجاهلية» و«شعراء النصرانية بعد الإسلام»

ورسائله وكتبه في تزييف الماسونية والحملة على رجالها. وكتابه في المدارس العلمانية واللايدنية و«تاريخ الرهبانية اليسوعية» و«تاريخ الطائفة المارونية في القرنين السادس عشر والسابع عشر» و«بيروت وأثارها وتاريخها» وغير ذلك من رسائله ومقالاته الدينية والأدبية والعلمية في مجلة «المشرق» عدا خطبه الدينية ومواعظه الروحية. وقد كتب في هذه المجلة منذ إنشائها فأصدر منها بقلمه خمسة وعشرين مجلدًا، ونشر فيها أولاً أمهات تأليفه، ثم استخراجها منها، وراعى في كتبه نظام رهبانيته، فجاءت كتاباته إلا قليلاً أشبه بالدعايات المذهبية منها بكتب علمية مشتركة، تنشق ريح دينه في كل ما كتب ونشر. ولو خلت بعض أسفاره، وبخاصة «شعراء النصرانية» قبل الإسلام وبعده، و«الآداب العربية في القرن التاسع عشر» وبعده، من هذه النزعة لكانت في الغاية من جودة التأليف لكثرة مادته وحسن تنسيقه.

قال الأستاذ مارون عبود: سمعنا بكتابه «شعراء النصرانية» فاستقدمناه فإذا كل من عرفناهم من شعراء جاهليين قد خرجوا من تحت سن قلمه نصارى. كان التعميد بالماء فإذا به قد صار بالحبر.

لم يرزق الفقيه ذوقًا عاليًا في الأدب العربي، وظلت كتابته إلى أخريات أيامه كما كانت لأول عهده نمطًا واحدًا، لا تناسب مقدرته على التأليف ووقوفه على أدب العرب والإفرنج وبعض علوم العصر، أي: إن الإنشاء العربي لم يسلس له قياده على ما كان يجب، وغريب ممن عاش بين كتب الفصحاء من العرب أن يظل بعد درس خمسين سنة ضعیفًا في الإنشاء على كثرة ما قرأ وكتب، وأن تبقى ملكته الأولى في الأداء تتناوشه أحيانًا، ولا يَتَطَالُ^(*) إلا إلى الأخذ من الينبوع الأول الذي استقى منه مدرسته الأولى. وهكذا يقال في ذوقه في الشعر، فقد نشر في مجلته قصائد لأدعياء القريض

(*) انظر الحاشية في الصفحة ٢٦٤.

كان الأولى أن تطوى على غزها^(١)، وألف كتاب «أطرب الشعر وأطرب النثر» مجموعاً من أدب من حاول تخليد ذكرهم، على حين هم فيما يخطون أخط مما ينظم أو يكتب اليوم تلاميذ المدارس في مصر والشام. وما أدري إن كان يقصد من ذلك التنويه بمن نوه بهم فقط، أو أنه مقتنع بأن شعرهم ونثرهم حقيقة من أطيّب الشعر والنثر يجب تخليده في بطون الصحف حرصاً على بلاغته وفصاحته.

وقضت عليه البيئة على ما يظهر أن يغمط حق العرب في مدنيّتهم، وكان على الأغلب ينظر إليها من الوجه الذي لا يستحسن، ولذا يعد شعوبياً وشديد الشعوبية بأفكاره، لا صلة بينه وبين العرب إلا بما نشره من آثار علمهم وحذق من آداب لسانهم. وآخر أثر له من هذا القبيل أنه ذكر جملة من أدباء المسلمين - وهو مولع في التفريق بين المسلمين والمسيحيين - في الربع الأول من القرن العشرين، لم يتجاوز في عددهم العشرات في الأمة العربية، مع أن من وضعوا المصنفات والتأليف الجيدة ولهم مكانة في الشعر والأدب لعهدنا هذا لا يقلون عن ثلاثمئة رجل، واعتذر بجهله أسماءهم، مع أن من اشتهر بين قراء العربية بمصنفاته وفيها الممتع لا يصعب السؤال عنهم. ويستغرب أن لا يطلع مثله على أعمالهم.

قال الأستاذ مارون عبود: للأب شيخو أجلُّ فضلٍ على النهضة الحاضرة، فهو الذي مهد لنا الطريق في كتبه، فكتابه «علم الأدب» تناول كل حديث من ألوان الأدب وهو يعلم الطالب الأصول من فن القصة والرواية والتاريخ إلى النقد، وكل ما استحدث من ضروب، وفي مجلته «المشرق»^(٢) التي تعد حجة في المشرقيات عرفنا على الروايات الأصولية والأبحاث الدقيقة، ودلنا على ما في بلادنا من آثار، وعلمنا تاريخنا وطبقات أرضنا، وأحيا ذكر نوابغنا على

(١) من معاني الفر: كل كسر متن في ثوبٍ أو جلدٍ، والمراد ترك على فسادها.

(٢) التي أنشأها سنة ١٨٩٨.

اختلاف الملل والنحل، وأوحت إليه غيرته على الكتب الخطية القديمة التي كانت مبعثرة في الأديار^(١) والبيوت إنشاء المكتبة الشرقية، وهي من أشهر خزائن الشرق، بل هي أغناها في المخطوطات، ليس هو ذاك المنشئ المنمقة عبارته، ولكنه الباحث المدقق، والمناضل العنيف عما تجند للدفاع عنه، بحائة جريء حمل على الماسونية حملات غواشم.



(١) الأديار: ج دير النصارى.



ليون كايثاني^(١)

CAETANI, LEONE

١٨٦٩ - ١٩٢٦م

منذ نحو ألف سنة كان بيت الأمير ليوني كايثاني في رومية يخرج عظامًا في الدين والسياسة، وكان منهم الباباوات والقواد والولاة. ودرس الأمير الآداب في جامعة رومية، وأتقن الإيطالية واللاتينية والألمانية والإنكليزية والفارسية والعربية.

وبدا له في الخامسة والعشرين من عمره أن يضع بلغته مطوّلًا في تاريخ الإسلام، فجمع لتأليفه خزانة عظيمة بلغات مختلفة، وأكثرها بالعربية، واستنسخ وصور مخطوطات في التاريخ العربي مما كان مبعثرًا في خزائن أوروبا وغيرها. ورحل إلى الهند وفارس ومصر والشام، وقصد إلى وادي اليرموك ليرى بعينه مكان الوقعة الفاصلة بين العرب والروم^(٢)، ألف تاريخه وأسماه: «تاريخ الإسلام». ANNAL DELLA ISLAM.

تناول فيها حوادث عشرين سنة^(٣)، وكان يود لو يطول أجله فيصل به إلى خمسة وعشرين مجلدًا تأتي على تاريخ القرن الأول للإسلام. ولم يطبع من تاريخه سوى مئتين وخمسين نسخة وزعها على الجامعات العلمية والجامعات،

(١) انظر ترجمته وآثاره في «المستشرقون»: ٣٧٢، الأعلام ١١٨/٦.

(٢) المراد وقعة اليرموك التي جرت سنة ١٣هـ، ٦٣٦م.

(٣) في «المستشرقون»: كتابه هذا أرخ فيه من العام الأول للهجرة إلى ٩٢٢هـ في ٥ مجلدات.

وعلى هذه الطريقة في أرستقراطية العلم جرى الأمير يوسف كمال المصري في المجموعة الكمالية جغرافية مصر والقارة الإفريقية، وأنفق في تأليفه وطبعه نحو خمسين ألف جنيه، ولم يطبع سوى مئة نسخة، صدر منه اثنا عشر مجلداً.

كان كايثاني يعد من الأغنياء في أمته، خمنوا ثروته، عدا ثروة قرينته الأميرة، بخمسة ملايين دينار إيطالي ذهبي، كان يتفق منها على العلم في السنة عشرة آلاف جنيه. وفي مكتبه ثلاثة من المستعربين من علماء المشرقيات الإيطاليين، ينقلون له ما يتعلق بموضوعه، ثم هو ينظر فيما ينقلون.

كان نائباً عن مدينة رومية في مجلس النواب، فلما احتلت دولته ليبيا، ونزعتها من الدولة العثمانية بدون مسوغ شرعي ندد بعملها في المجلس. وقيل: إنه قال: أن عمل إيطاليا باكتساح أرض قوم كانوا آمنين في ديارهم (طرابلس وبرقة) هو عمل قرصان بحر، لا عمل دولة قامت في ربوعها النهضة الغربية الحديثة. وعزز قوله بما كتبه في الصحف من الإنكار على حكومته، فاستغل خصومه السياسيون حملته، وبذل منافسه في النيابة خمسة وثلاثين ألف دينار قفاز، وصرف هو نحو عشرين ألفاً فأخفق.

حملتُ إلى الأمير الإيطالي في سنة ١٩١٣ كتاب وصاة من صديقه العلامة أحمد زكي باشا المصري ليقبلني في خزائنه، حتى أدرس مجموعاته في التاريخ الإسلامي، عساني أجد فيها نصوصاً أنتفع بها في تأليف كتابي «خطط الشام» فأهل وسهّل، واعتذر عن مقابلتي بألبسة عمله في مكتبه، أي: إنه لم يلبس اللباس الواجب اكتساؤه عندما تدعو الحالة لاستقبال شخصية محترمة. وعيّن لي وقت حضوري للبحث في خزائنه ثلاث ساعات قبل ظهر كل يوم ما عدا أيام الأحاد.

وكان الأمير يتفضل ويسألني عما عساني عثرت عليه من المواد التي أتطلبها لموضوعي، فإذا قلت له إنني وجدت أشياء مهمة تبرق أسارير وجهه،

ويعود يدلني على مظانّ لم أصل إليها؛ لأن فيها بعض ما يشفي غلتي. ولما تمت مراجعاتي قدمت له بضعة مجلدات من مجلة «المقتبس» واستأذنته في السفر إلى سويسرا شاكرًا لفضله وأريحيته. فبدأ عليه الارتباك ورجاني أن أؤخر سفري فاعتذرت. والغالب: أنه ذكر ساعة الوداع أنه قصّر في إكرامي فلم يدعني مثلاً إلى داره ليعرفني ببعض أصحابه، على ما يقضي بذلك عُرف الشرقيين والغربيين وكان في الشهر الذي قضيته في حِماه مشغول الذهن بمسائل الانتخابات، وهذا ما ربما حمله على التقصير بإكرامي على ما أظن، وعاد ففضل وكتب لي إلى لوزان يقول: إنه يسرّ جدًا أن يراني أبحث في خزائنه عما يهمني درسه، وعزم عليّ أن أعود لأكمل بحثي عمّا يلزمني.

وقف الأمير خزانة كتبه على المجمع العلمي الإيطالي *Accademia naziole De Sinciei* ونشر القائمون بتنفيذ وصيته في كتاب الوقف ما كتبه في كتابي «غرائب الغرب» في وصف الأمير العالم، ونشروه بنصه العربي مع ترجمته بالإيطالية، ولم ينشروا سوى شهادتي فيه.

وكان مثال العالم النبيل الحر في قوله وعمله، ظهر ذلك منه عيانًا بتصريحه يوم غضب للحق في مجلس نواب أمته يوم احتلت إيطاليا طرابلس وبرقة^(١). وكنت أود لو ترجم كتابه بلغة أفهمها حتى أقف على رأيه في معضلاتنا التاريخية.

كان كايثاني في قصره الفخم مثال العظمة والتواضع معًا، تقرأ في سيماء العلم والعمل الدؤوب والأناة والتجرد من الغرض. وكنت أشهده يحضر إلى مقر عمله في وقتٍ معيّنٍ لا يتعداه، في الصباح وبعد العصر، كأنه بعض المستخدمين في مكتبه. كان هذا دأبه منذ تخرج في كلية الآداب، أي نحو

(١) أشار المؤلف إلى ذلك قبل قليل.

عشرين سنة، وكان في الخامسة والأربعين يوم نزلت عليه، وقد جعل شعاره في مقدمة كتابه بيت الشاعر العربي:

كفاف عيش كفاني ذل مسألة وخدمة العلم حتى ينقضني أجلي
كان يتعهد مزارعه الواسعة، وأكثرها في ضواحي رومية، كما يتعهد رياض العلم والأدب.

هو جدّ في أموره، ما عرف بغير القيام بالواجب، وما فاته شيء من الكمال مما تزدان به حياة العظماء أمثاله.

صورة من صور الرجال الممتازين في الأمم، ومثال ناطق بما انطوت عليه مدينة الغرب حتى نبغ فيها من عيار كائتاني.

لا جرم أنه جمع إلى شرف المحيّد العلم، وإلى التواضع شخصية مجموعة من حسنات، وأجمل ما فيه: أنه ما كان يقول إلا ما يعلم، يعطف على الضعيف والمظلوم، ولا يتعرف غير الحق والعدل، وكان «يتمنى طول عمره، تفاهم الشرق والغرب وتعاونهما في سبيل الحضارة والتمدن». ولو سمعت دول العرب إلى من هم على شاكلة هذا الأمير من أرباب النظر العالي، لما تكررت الكوارث في ديارها، ولما أصيب رعاياها بالخطوب الجسام، ولما كانت وبالأعلى من استحلّت اغتصاب ديارهم وإذلال نفوسهم.

ولما دخلت إيطاليا في الحرب العالمية الأولى ترك كائتاني أشغاله العلمية، وتطوع جندياً في خدمة وطنه، وما أجدت تلك الحرب عليه، كما لم نجد على أمته، وتبخرت ثروته، وأصيب بوحيده، فساءت حاله، وهلك بعيداً من وطنه.

نشر كائتاني نصوصاً عربية يُنتفع بها في تاريخ العرب، ومنها «تجارب الأمم» لمسكويه، ونشر بالفرنجية أشياء كثيرة تعاون على تسهيل الرجوع إلى مواد التاريخ. وكان يعدّ للنشر تراجم ثلاثين ألف عالم وأديب من أهل

الأندلس^(١) وضعها في جزازات المستعرب الإسباني ريبيرا^(٢) وتركها بعده لتلميذه آسين بلاسيوس^(٣) ليشتغل بها، ثم يعطيها لمن يتوسم فيه حب العمل من علماء المشرقيات الإسبان، وإن لم يجد الكفاء يجعلها في خزانة أحد المجامع^(٤) العلمية في إسبانيا، وقد اطلعت عليها في مجريط عند آسين بلاسيوس.



(١) بالتعاون مع جوزيبي جابرييلي (عالم بالمشرقيات إيطالي توفي سنة ١٩٤٢)، وهذا المعجم يتضمن تراجم الأشخاص ومؤلفاتهم والمصادر التي تحوي ذكرهم، وحال الموت بينه وبين إتمامه فوقف عند الجزء الثاني نشر في روما سنة ١٩١٥ (المستشرقون: ٣٧٣).

(٢) ريبيرا أي طراجو Ribera y tarrago (١٨٥٨ - ١٩٣٤) ولد في كركخته من أعمال بلنسية، وتعلم العربية في كوديرا، وتخرج في جامعة سرقسطة، وعين أستاذًا للعربية فيها، (١٨٨٧) ثم أستاذًا لتاريخ حضارة اليهود والمسلمين في جامعة مدريد، ثم اعتزل التدريس وعكف على التأليف في بلنسية، وانتخب عضوًا في المجمع اللغوي الإسباني وغيره (المستشرقون: ٥٩٢).

(٣) آسين بالاسيوس Asin palacios عالم بالمشرقيات إسباني (١٨٧١ - ١٩٤٤م) ولد في سرقسطة، وتلقى العربية على ديبيرا ونال الدكتوراة من جامعة مدريد سنة ١٨٩٦ وآثاره كثيرة منها: العقيدة والأخلاق والتصوف عند الغزالي، وترجم إلى الإسبانية كتاب الأخلاق والسلوك لابن حزم القرطبي (المستشرقون: ٥٩٥).

(٤) الأصل: إحدى المجامع.



مارتين هوتسما^(١)

HOUTUSMA, MARTIN, THEODOR

١٨٥١ - ١٩٤٣ م

هوتسما مارتينوس تيودوروس الهولندي. ولد سنة ١٨٥١، وأتم دراسته في ليدن، واتصل منذ سنة ١٨٦٨ بالعلامة دي خوي من كبار علماء المشرقيات الهولنديين^(٢) وبعد أن قدم أطروحته في تاريخ العقيدة الإسلامية في القرون الأولى للهجرة، عهد إليه النظر بالمخطوطات الشرقية في خزانة ليدن حتى سنة ١٨٩٠ وقد وسد إليه تدريس العبرانية والعربية في جامعة أوترخت، وفي سنة ١٩١٧ استقال.

عني بنشر عدة نصوص عربية وفارسية وتركية منها كتاب «الأضداد» لابن الأنباري، و«تاريخ ابن واضح اليعقوبي»^(٣)، و«زبدة النصره ونخبة العصرة» للعماد الكاتب^(٤) ومجموعة نصوص في تاريخ السلاجقة (في أربعة مجلدات)

(١) ترجمته في المستشرقون ٦٦/٩، الأعلام ٦/١٢١. وانظر معجم المطبوعات ١٩٠١.

(٢) Goeye, M. J. DE (١٨٣٦ - ١٩٠٩) م تلميذ المستشرق دوزي، له كثير من الأبحاث ونشر كثيراً من الكتب العربية القديمة، كَوَقِيَّاتِ الأعيان لابن خلكان وتهذيب الأسماء للنووي (المستشرقون ٦٦٣).

(٣) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤هـ.

(٤) الأصفهاني، محمد بن محمد المتوفى سنة ٥٩٧هـ.

وهذا الكتاب اختصار لكتاب العماد الأصفهاني «نصرة الفترة وعصرة الفطرة» في أخبار الدولة السلجوقية، اختصره الفتح بن علي البنداري. (الأعلام ٧/٢٥٤).

ومعجم قديم عربي وتركي، واشترك في نشر «تاريخ الطبري» الكبير. وفي سنة ١٩٠١ دعته جمعية المجامع العلمية الدولية لتولي رئاسة تحرير المعلمة الإسلامية فقام بأعبائها حق القيام، ولما زرته في أوترخت كانت تطبع الأجزاء الأخيرة من معلمة الإسلام، وذكر لي [أنه]^(١) متلهف إليها. كان أقصى أمانيه ألا يموت قبل إتمامها. وحقق المولى رجاءه فأما تامه، وذكرت له ما فيها من النقص والتعصب في بعض المقالات كمقالات لامنس وهارتمان وغراتشوفسكي وهوار، وإغفال من هم جديرون بالترجمة لهم من رجال الإسلام في القديم والحديث، وأرادني على أن أوازر في تأليفها، فاعتذرت بأن معظم مقالاتها أخذها غيري، وهي من الكتب التي كتبت في الحقيقة قبل جيلي.

وهذه المعلمة على ما فيها من الهفوات والتعصب هي أصدق ما كتب عن الإسلام وأقطاره في زماننا، حاولت مصر أن تنقلها إلى العربية فما أفلحت كثيراً، وقد صدرت بلغات العالم الثلاث: الألمانية والإنكليزية والفرنسية، وأكثر أبحاثها ممتعة اشترك في تأليفها نحو خمسين رجلاً من علماء المشرقيات، وما كان فيهم غير هندي واحد، وجزائري مسلم واحد، وتركي واحد، وخلت من المصريين والشاميين والعراقيين والإسبانيين والبرتغاليين على كثرة الأبحاث المتعلقة بديارهم.





الدكتور محجوب ثابت^(١)

١٣٠١ - ١٣٦٤هـ

١٨٨٤ - ١٩٤٥م

كان الدكتور محجوب ثابت صورة فريدة من صور الرجال، بعلمه وبيانه وعمله ووطنيته، فُطر على صفات نادرة، سيرته في مراحل عمره سيرًا حفل معه بالطيبات، واتجهت قواه منذ صباه لخدمة المصلحة العامة، وعمل على هيئته في تواضع خالٍ من التمجُّد والتبجح، وما طلب العوض والمكافأة عمًّا أجهد نفسه فيه. ذلك أنه كان متشبعًا بروح النهوض، ويعرف كيف يرضي ضميره بأداء فرض لا بد من قضائه.

كان مثال العامل الصالح في شيخوخته على نحو ما كان زمن كهولته

(١) طبيب مصري ومن الكتاب وله مواقف خطائية، اشتهر بمناصرته قضية السودان السياسية وبدعوته إلى تنظيم حركة العمال بمصر سنة ١٩٣٠م وإدخال التدريب العسكري في الجامعات والمدارس المصرية. أصله من دنقلة ولد سنة ١٨٨٤م وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٤٥م وعمل في النهضة المصرية مع سعد زغلول فكان من خطباء الثورة سنة ١٩١٩م ونفي ثم أصبح من أعضاء المجلس النيابي وعين أستاذًا للطب الشرعي في الجامعة، فكيبرًا لأطبائها. صدر عن حياته كتاب تذكاري تاريخي، وكذلك كتاب الأسرار السياسية وآراء الدكتور محجوب. الأعلام ١٧٠/٦ وفيه إشارات عن أبحاث كتبت عنه ومعجم المؤلفين ١٨٠/٨.

الحق المؤلف بهذه الترجمة ما يلي: طلب إلي أن أترجم للدكتور محجوب ثابت ترجمة يصدر بها كتاب في حياته ألفه أديب مصري، فكتبت ما رأيت أنه يكفي في الترجمة له. وهذا ما قلته فيه.

وُقُوتَه، وهذا مما يندر في رجالنا. ومن قانونهم: أن ينتج أحدهم ما دام في حاجة إلى الإنتاج، ويخفت صوته وتبطل حركته بعد سن الخمسين، إذا فاز بنصيب من العلم أو المال، أو أحرز جاهًا وحظوة وشهرة، فهم يقفون على الأغلب حيث يترأى لهم أن يقفوا، لا حيث يجب عليهم أن ينتهوا، وبخاصة إذا وهموا أن حياتهم أمانة من العوز في الوظائف والاستخدام.

قلَّ أن رأيت من أهل صناعة هذا الفقيد العظيم من هَضَمَ عِلْمَه مثله، أو جمع إلى علمه معارف تَمَثَّلُها. وهي ليست بحسب الظاهر من اختصاصه، أو شارك في مسائل كثيرة مشاركة المستقصي الحصيف، لا مشاركة التُّتْفَةِ. ولو قد كتب له أن يعنى بالتدوين لكانت مدوناته من أجمل الكتب العلمية، يتعلم منها من يحب أن يتعلم، ويتفكه بها من ينزع إلى أن يتفكه.

كنت تراه إذا جد الجد نسي كل مصلحة خاصة، فتمثل لك شخصًا لا يحسن غير فنه، وإذا هزل ظننته رجلًا شغل حياته في الضحك والإضحاك، لا يحفل بمصطلحات^(١) الناس واعتباراتهم، ولا يبالي بالوقت يصرفه في غير فائدة... ويا ما أحيلاه إذا خطب باللغتين، وما أطرب حديثه إذا كان راضيًا أو غاضيًا، وما أشد عنايته بشؤون المجتمع وتخيره ما ينفعه.

كان على حظٍ عظيمٍ من عزة النفس، وعلى جانبٍ من جمال العهد، وفيًا إلى أقصى حدود الوفاء، وفيًا لوطنه، يسهل عليه بذل كل نفيسٍ ليحقق له بعض سعادته، وفيًا لعلمه، يزيد أبدا في معلوماته وتجاربه، ظل على ذلك إلى آخر أيامه، وفيًا لمرضاه، يُعْنَى بصحتهم وتخفيف آلامهم عنايته بكل مطلب من مطالب أمته، وفيًا لأصحابه لا يدخر جهدًا في مرضاتهم وإدخال السرور على قلوبهم. ولو قدر له أن يبذل في خصوصياته بعض ما بذل في خدمة الجماعة لعدَّ في الموسرين. ولو كان يسف إلى استثمار كل شيءٍ لحسابه لكان

(١) الأصل: لا يحفل بمصطلحات.

من السمو والبسوق في الذروة العليا بين رجال الدولة، ولكنه ما خلق إلا ليخدم المجموع على ما توحى إليه قريحته، ولم يخلق ليخدم مصلحته. ويتفانى في جلب المنافع، فهو رجل القوم لا رجل في القوم، هو لقومه حسًا ومعنى.

يُردُّ تاريخ صلتي به إلى أزيد من عشرين سنة، وكانت علاقتنا في غضونها أوثق من علاقة صديق بصديقه، تمازجت روحانا وقضينا في القاهرة أيامًا وليالي كانت حلوة لذيدة، زانها ثلثة من الأصحاب هم حلية الزمان وبلابل مجالس الإخوان، ثم فرق الدهر بيننا وبين بعضهم (ومنهم الأحمدان العظيمان أحمد زكي باشا وأحمد شوقي بك عليهما الرحمة^(١)). وصرفت مع صديقي في دمشق أشهرًا أيضًا، وكان اعتصم بها في محنة سياسية وقع فيها فشاهدته واحدًا في نعمته وفي محنته، يتجلد، لا يتضعع، قوي الثقة بالله، لا يشك بحسن عاقبة المخلص الصادق. وكان من الرعيل الذي لا يتكل على غير نفسه، ولا يطلب معونة حتى ممن يوالونه ويعجبون به، ويستعذب كل عناء إذا عاد ولو بفائدة ضئيلة على بلده ومواطنيه.

دعا إلى السودان وحببه إلى كل مصري، وعرف أهل القاصية والدانية مكانة السودان من وادي النيل حتى كاد يظن من لا يعرف ترجمته أنه من صميم السودانيين، مأخوذ بسودانيته، متيم بحب أرضها وساكنيها. والجميل في حياته أنه بعيد عن التصنع، يرسل النفس على سجيته، وقد رزق بديهة مؤاتية فكان يملأ بها الصدور إعجابًا.

رأيت مع ناخبيه من عامة مينا البصل يعلمهم كما يعلم الأب أولاده، ويرشدهم إلى معاني^(٢) جميلة في الحياة لو هدوا إلى تحقيقها لارتفع مستواهم، وشاهدته مع النوبيين يدرّبهم ويلقنهم ما يفيدهم في بيئتهم،

(١) انظر مقالتيّ عنها صفحة ٥٧ و ٦٧.

(٢) الأصل: معاني.

وحضرته في مجالس العظماء والأدباء يفيض من حكمته، ويلعب بالعقول في محاوراته ومسامراته.

وكان عقله أوسع من أن يحصره في حدود مصر، فقام في ذهنه أن من المروءة أن يصرف جانبًا من جهوده في أهل الإسلام والعرب والترك منهم خاصة، ويقول أبدًا: «من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم».

كان أديبًا بكل ما في الأدب من منازع شريفة، ما سمعته يطعن على أحد، ومن آذوه غير قلائل، أما هو فقد علّمه نبل شيمته أن يصفح الصفح الجميل، ويقيم من نفسه الأعداء لأرباب الشذوذ والنشوز، ولا يبادر إلى تخطئة المخطئ إلا إذا نهد صبره ورآه قد عبث بمصلحة عامة، وكل ذلك من دون إقذاع وتحامل، يقدر الجرم بقدره فهو طيبٌ شرعي حقًا وصدقًا.

وكان إلى التفاؤل أميل منه إلى التشاؤم، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور، ويصمد للحوادث^(١) في أخرج ساعاته، لا يتأفف ولا يتسخط مهما ألحت عليه الأوجاع، ويحمد الله على ما ابتلاه وأنقذه مما تُجئته الطبيعة من آلام أشد مما وقع فيه. وكان نفسه كانت مؤلفة من عدة شخصيات ومن كثير من الاختصاصات. تَفَوَّقَ في صناعته إلى أسمى درجة، وطبه طب العالم الدقيق الحس، المفطور على الشفقة، لا طب المتطرب، وكذلك هو في الأدب، وكذلك هو في الخطابة والسياسة. وما أحصي عليه أنه اتجر بشيء مما علم وفهم، وما اتخذ من علمه سُلْمًا إلى الظهور، وما جود في طبه وغير طبه إلا لأن طبيعته تحب التوسع في بحث الأشياء، والوصول إلى غوامض ما عالجه كثير مثله. وهو إلى ذلك يعلو عن المادة خلافاً لأكثر معاصريه.

وعطفه على الفقير، وعطفه على الأئمة وأصحاب العاهات، وعطفه على

(١) أصل معنى الصمد: القصد والنصب، وقد درج القوم اليرم على استعمالها بمعنى المواجهة والثبات.

الناشئة، وعنايته بمستقبلهم واستقلالهم، وعطفه على وطنه، وتصديه لتهيئته له بعض ما يحفظ عليه صحته، كل أولئك كان فيه لا يجارى ولا يبارى.

نعم هو مثال نابغة، لا يلهيه عن تحقيق أمانيه عائق، ولا يدهشه تعقد المشاكل، ولا يهنؤه العيش إلا إذا تم له الممكن لإنجاز ما شغل قلبه.

سار في ناحية عَيْنَهَا لنفسه، ولم يجر في خطتها على مثال سابق، فامتاز بلون خاص من ألوان الحكمة والأدب وحب الخير. وكان رضي النفس قوي الإيمان، وإذا لم يوافق بعضهم على حركته ففي العادة ألا يُعرف الحق من المصلحين إلا يوم رحيلهم من هذه الفانية إلى غير رجعة. ولو جاء أخي محجوب في أمة تقدر الرجال أكثر مما تقدرهم أمتة لكان له فينا شأن غير شأنه، ولانتفع ببعض ما أسداه من جميل إلى أمته، ولعظمت الفائدة العامة منه إلى أقصى حدود الانتفاع بِحَقِّهِ.





محمد رشيد رضا (١)

١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ

١٨٦٥ - ١٩٣٥م

ولد في قرية القلمون على ثلاثة أميال من طرابلس الشام، من بيت نسب أهله إلى الشرف، وعرفوا بالعلم والإرشاد والرياضة، ويلقبون بالمشايخ. ونشأ مثل أهله على الصلاح والتقوى والتسكك، وتعلم في كتاب القرية قراءة القرآن والخط والأعمال الأربعة في الحساب، ثم دخل المدرسة الرشيدية في الحاضرة فقضى فيها سنة، والتحق بعدها بالمدرسة الوطنية الإسلامية، وكانت تدرس العلوم الشرعية والعربية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، فأخذ عن مديرها الأستاذ حسين الجسر الأزهري ما وسعه أخذه، وبه تخرج بعد أن أغلقت المدرسة. وكان ينظم الشعر قبل أن يحذق العلوم العربية، تعلم بالسليقة، وأخذ الحديث وفقه الشافعي عن الأستاذ محمود نشابة، وكان هذا أقام في الأزهر متعلمًا ومعلمًا ثلاثين سنة، وحمل شهادته بثمانية عشر علمًا منها الجبر والمقابلة. وصحب الأستاذ عبد الغني الرفاعي فاستفاد منه في

(١) ترجمته في الأعلام ٦/٣٦١ ومعجم المؤلفين ٩/٣١٠، المجددون في الإسلام: ٥٣٩، حاضر العالم الإسلامي ١/٢٨٤ ولشكيب أرسلان كتاب في سيرته عنوانه: (السيد رشيد رضا، أو إخوان أربعين سنة)

قدماء ومعاصرون: ١٧٣ - ١٨٠ وانظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٥ ص ٣٦٥ - ٤٧٤، رجال عرفتهم: ١٦٩.

الأدب والتصوف، ودخل في الطريقة النقشبندية. وحبب إليه التصوف إكثاره من مطالعة «إحياء علوم الدين» للغزالي، وغدا يجاهد نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام والتزام التقشف.

ودخل فيما دخل فيه المتصوفة، فمارس رؤية الأرواح واستحضارها والمكاشفات والمنامات والكرامات، وأصبح يرقى النساء بالعصا أو السواك، يضعه على رأس المرأة وهي مقنعة. وخاض في أكثر ما يخوض فيه المتصوفة وحاسنهم وأحسن الظن بهم، ولما ارتوى من كل ذلك في بلده رأى أنه مستعد للاستزادة من العلم والاختبار مما لا يجدهما في وطنه، وأنه قادر على خدمة دينه وأمه مما لا تبيحه سياسة الحكومة العثمانية فهاجر إلى مصر سنة ١٣١٥هـ، ١٨٩٧م وفيها لحق بالأستاذ الإمام محمد عبده، وأنشأ مجلة «المنار» جعل موضوعها الأول «الإصلاح الإسلامي» وطلق التصوف، ونزع إلى مذهب السلف، وفي هذا الدور كان ممن استفاد من كتبهم ونقل عنهم واهتدى بأرائهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية^(١).

انتشر «المنار» في العالم الإسلامي، وكان له أنصار وخصوم، وأكثر خصومه مشايخ الأزهر؛ لأنه لم تأخذه بهم هوادة، وزيف طرائقهم، وبحدّة أحياناً. وأخذت السياسة نفسه فراح يكتب فيها صفحات طويلة في مجلته، والسياسة يومئذ سياسة الدولة العثمانية والسياسة البريطانية في العالم الإسلامي، ويشارك الجمعيات السياسية التي دأبت على إصلاح الدولة والسعي لاستقلال العرب عنها، وكان له - كما يقول العوام - في كل عرس

(١) ابن تيمية: هو العالم المشهور أحمد بن عبد الحلیم الحراني الدمشقي الحنبلي (٦٦١ - ٧٢٨هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨) مولده في حران ووفاته بدمشق كان داعية إصلاح الدين وآية في التفسير والأصول، وتزيد تصانيفه على أربعة آلاف كراسة. وأما ابن قيم الجوزية فهو محمد بن أبي بكر (٦٩١ - ٧٥١هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠م) تلميذ ابن تيمية السابق ذكره وأحد كبار العلماء في عصره، مولده ووفاته بدمشق، له تصانيف كثيرة.

قرص^(١)، ورائده الإخلاص والغيرة على مصلحة الجماعة، يجاهر علماء الحشو والقبوريين والمبتدعين بالإنكار عليهم بشدة حتى قال له أستاذه محمد عبده: «إنك كثيرًا ما تذر الحق عريانًا ليس عليه حلة ولا حلي يزينه للنظرين، ويُهَوِّنُ قبوله على المبطلين، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل، وقلما يكون للداعي إليه صديق، وأنه لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كي لا يزداد إعراضهم عنه». ويقول: إن «المنار» في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص. فينبغي أن تتحرى فيه سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها، ممَّا يقربه من أفهام جميع القارئین حتى العوام. وكان ينكر عليه أيضًا الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الأحيان.

وما كان السيد رشيد يصغي إلا لما وقع في نفسه واعتقد صحته واقتنع أن الخير في بثه. ولطالما قلت له - وهو يعلم صدقي وصدقاتي له - أن يعري مجلته من التعرض لأمر السياسة، ويقصرها على التفسير ونشر السنة الصحيحة ونقل فتاواه الجيدة، وكل ما فيه إنارة أفكار القارئ المسلم.. أريده على معالجة ما هو فيه قوي، والبعد عما هو ضعيف تبدو فيه مقاتله. فكان جوابه: أنه إذا اقتصر على الأبحاث الدينية فقط لا يقرأ مجلته أحد، وفات صاحبي أنه لم يتخرج بالسياسة ولا تدرس بها، لا علمها ولا عملها، ولذلك كان ما يكتبه فيها فجًا جاسيًا وقد يدمج فيما يكتب تصورات الخاصة وعواطفه قبل عقله.

أتى «المنار» في أبحاثه الدينية بنغمة قلما سمعت، فكان مناصروه قلة، ومشاكسوه كثرة، وأكثر المنكرين له جماعة الأزهر. يريد أن يقضي على جهودهم، وهم لا يرضيهم إلا من يطبل لهم ويوافقهم على كل ما كانوا عليه من بدع وأشياء تخالف الشرع. ولو أنه استعمل الرفق بهم ودعاهم بالحكمة

(١) مثل عامي يقال فيمن له في كل مناسبة دور.

والموعظة الحسنة لكان موقعه منهم غير موقعه، ولكثر مع الزمن أنصاره ومريديه، كان أبدًا حربًا عليهم يصليهم من نقده نازًا، معتزًا بنفسه وبمنزلته من الأستاذ الإمام، مزهوًا بعمله وعلمه لا يتوقف عن التنويه بهما في كل فرصة في مجالسه ومجلته. يروي أحيانًا روايات عن نفسه لا تكون لها ضرورة، فيقول مثلًا: هذا حققناه في «المنار»، وهذا ما تعرضنا له غير مرة في «المنار». وهذه مشكلة لم يسبق لغير «المنار» أن حلها.

لا جرم أن المترجم له كان عالمًا دينيًا تشبع بروح الإسلام، وعرف استخراج أحكامه وتطبيقها على ما يوافق روح العصر. وكان إلى ذلك كاتبًا مجيدًا، سريع الخاطر، حاضر البديهة. وقد رزق حافظه جيدة وقوة محاكمة. وأن الخمسة والثلاثين مجلدًا التي كتبها من «المنار» ليصح أن تدعى مَعْلَمَةً إسلامية لولا ما شابها بآرائه السياسية، وبمدح نفسه ومدح من رضي عنهم من أهله وأصحابه. مدح أمه في صفحات من المجلة، حتى كاد يصورها من أقران السيدة عائشة بفضائلها، وهي ما كانت أكثر من امرأة قروية أمية صالحة. وبالغ وأكثر في شيخ حمصي ووسمه بالعلم، ونشر له مقالات لا يكتبها إلا محموم أو مبرسم^(١)، وذلك لأنه كان يحسن مصانعته، وحظ من عالم كبير أجمع علماء عصره على تفرده بالعمل والعلم؛ لأنه كان يتقده.



(١) المبرسم: المصاب بعلّة تؤدي به إلى الهديان.



محمد بن أبي شنب (١)

١٢٨٦ - ١٣٤٧هـ

١٨٦٩ - ١٩٢٩م

الاستعمار شر وشؤم، ويزيد شره وشؤمه إذا طالت ليلاليه السود بضعة أجيال كما طال في القطر الجزائري، وما كان الظن في أن تخرج هذه الأرض المستعمرة رجلاً من عيار محمد بن أبي شنب. يتقن الفرنسية ولا يغفل عن الأخذ من علوم العرب والإسلام. أخذ عن المستعمرين طريقتهم في الدرس، وأساليبهم في البحث، ونسج في آداب قومه على منوال أساليبهم، شهدته يخطب بالفرنسية في مؤتمر المستشرقين في أوكسفورد وهو في لباسه الوطني: عمامة صفراء ضخمة وزنار عريض وسراويل مسترسلة ومعطف من صنع بلاده، فأخذت بسحر بيانه واتساعه في بحثه، وظننتني أستمع عالماً من أكبر علماء فرنسا وأدبائها في روح عربي وثقافة إسلامية، أو عالماً من علماء السلف جمع الله له بلاغة القلم وبلاغة اللسان، ووفر له قسطه من العلم والبصيرة. وقد فطر على ذكاء وفضل غرام بالتحصيل، وقبض له أن يجمع بين ثقافتين ينبغ ويفصح بكل لغة يعاينها.

كنت أقرأ لصديقي ما نشره بالعربية من كتب العرب وما وضعه من أفكاره

(١) ترجمته في الأعلام ١٤٨/٧ وطبع في الجزائر كتاب في ذكره سنة ١٣٥٣هـ عنوانه: (ذكرى الدكتور محمد ابن أبي شنب). وانظر معجم المطبوعات: ١٦٢٦ وله مقالات في مجلة المجمع ١٦٠/٢، ٢٨١/٣، ١٦٣/٤، ٢٢٤/٧، ٦٩٢/٨، ٩٩/٩، ٢٣٨/١٠.

مباشرة، وأتصفح ما نشره بالفرنسية في أسفار أو مجلات أو معلمات في موضوعات إسلامية عربية فكان إعجابي بفضله وإكباري لعلمه يزيد مع الأيام، فلما سمعته يفصح بالفرنسية وهو لم يغير من عاداته ولا من روحه أمام أئمة البيان بهذا اللسان، وهم يدهشون مثلي بما يلقي على مسامعهم من تحقيقاته، بهذا الإمتاع تضاعف إكباري له. ولما فجعت الآداب بفقدته، فجعت به فجيعة الصديق بصديقه، وودت لو أنني لم أعرفه مواجهة كما كنت عرفته بالمراسلة لكثرة ما نالني من الحزن عليه، ورجل من عيار ابن شنب هو فخر أمة، قمين أن يرفعها في نظر العالم الممدن إلى مراتب الأمم الصالحة للبقاء، فقد تهيأ بما وهب وما كسب من العلم بأن يظهر العلم العربي في ثوب قشيب من نسج القرن العشرين. وأظهر أمتة في مظهر أمة تسلسل فيها العلم ثلاثة عشر قرناً، وعلى كبت الحرية في بلاده، قام حق القيام بما أراده وأراده له وطنه، فيبيض الوجوه في المواطن كلها.

ترجم لنفسه فقال^(١): محمد بن العربي بن محمد أبي شنب، ولد يوم الثلاثاء في العاشر من رجب سنة ١٢٨٦هـ (٢٦ أكتوبر سنة ١٨٦٩م) بقرية المدية في جنوب الجزائر على تسعين كيلو متراً منها، وقرأ شيئاً قليلاً جداً من القرآن، ثم قرأ اللغة والعلوم الفرنسية في مدرسة المدية الثانوية، وانتقل إلى دار المعلمين الفرنسية بأبي زريعة بقرب الجزائر، وبعد عام خرج منها مجازاً بإجازة تعليم اللغة والعلوم الفرنسية في المدارس الابتدائية الوطنية. وبعد عشرين سنة قضاها كلها في التعليم ودرس علوم العربية وشيئاً من التوحيد والفقه، أجاز بإجازة مدرسة الآداب العليا، فتقلد خطة تدريس آداب العربية في مدرسة فسنطينة في غرة المحرم ١٣١٦، ثم انتقل إلى مدرسة الجزائر في غرة المحرم سنة ١٣١٩، وبعد أربع عشرة سنة ارتقى إلى القسم الأعلى من

(١) انظر مجلة المجمع ١٠/٢٢٣٨.

هذه المدرسة، وأقرأ النحو والأدب والمعاني والبيان والمنطق، وفي أواخر السنة (١٩٢٢م) منح لقب دكتور في القسم الأدبي من كلية الآداب بالجزائر، بعد أن قدم إليها تاليفاً في حياة أبي دلالة شاعر بني العباس، وتاليفاً آخر في الألفاظ التركية والفارسية الباقية في لغة الوطن الجزائري وفي أول يناير ١٩٢٤ انتقل مدرساً إلى كلية الآداب في الجزائر.

له إمام، كما قال عن نفسه، بالإيطالية والألمانية والإسبانية والفارسية، ومعرفة ضعيفة بالتركية واللاتينية. وقد ألف بالعربية «تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب»، وشرح «نظم مثلثات قطرب». ومن تأليفه باللغة الفرنسية: مجموع أمثال العوام بأرض الجزائر والمغرب في ثلاثة أجزاء وطبع بباريز. «الستان في علماء تلمسان» لابن مريم^(١)، «رحلة الوثيلافي»، «المتع في شرح المقنع» لأبي سعيد السوسي، «تحبير الموشين، للفيروزآبادي»، «فهرست كتب الجامع الأعظم»، «عنوان الدراية في علماء بجاية»^(٢)، «تدميث التذكير في التأنيث والتذكير» للجعبري، طبع في استراسبورغ، «أصل كلمة تليس». (بالفرنسية): «طبقات علماء إفريقية» لأبي ذر الخشني مع ترجمة فرنسية (جزءان) (طبع بباريز)، «الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية»، «فهرست مطبوعات فاس» «أبو دلالة: حياته وشعره» بالفرنسية، «الألفاظ التركية والفارسية في اللغة الجزائرية». «ديوان علقمة الفحل» مع تقريرات، «ديوان عروة بن الورد» مع تقريرات، «كتاب الجمل» للزجاجي مع تقريرات، هذه كتبه المطبوعة، وأكثرها مما طبع في الجزائر.

ومن أجمل كتبه بالفرنسية ما أخذه دانتي شاعر الطليان من الأصول الإسلامية ودسّه في كتابه «المهزلة الإلهية».

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد، التلمساني منشأ وولادة مؤرخ من علماء تلمسان، كان حياً بعد سنة ١٠١٤هـ - ١٦٠٥م (الأعلام ٧/٢٩١).

(٢) بجاية: بلدة في الجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

ولما ناداه ربه كتب إلينا زميله في جامعة الجزائر العلامة ماسيه يقول: ومن الواجب أن نشير إلى جميع أعماله في الجملة حتى يتجلى لنا نشاطه العلمي، فقد كنا نرجع إليه ونستضيء بضياءه، وكنا نناده بياشيخنا.. كان يجمع إلى صفات العلم والعالم الحقيقي صفات الصلاح والطيب.

مشى في جنازة ابن أبي شنب النصرارى والمسلمون، يؤلف بينهم الأسى والحزن عليه. وقد أبته على ضريحه الأستاذ مارتينو مدير كلية الآداب في جامعة الجزائر وصديق الفقيه. ومن جملة ما قال: إن المنهج الذي نهجه ابن أبي شنب يدل دلالة واضحة على مقدار ما يستطيع أن يعمل العقل والإرادة والعمل في الارتفاع من أصغر المناصب إلى أعظمها، وإني أود أن يوقر هذا المنهج شباب هذه البلاد وشباب فرنسا نفسها.

كان السيد ابن أبي شنب صورة الأديب المسلم الذي عرف كيف يطلع على الأساليب الأوربية في العمل، من دون أن يفقد شيئاً من صفاته وعاداته، وكان يتولى هدايته في العمل أستاذه باسه، فقد تعلم اللاتينية والإنكليزية والإسبانية والألمانية والفارسية والتركية، وعرف لوازم النقد العلمي، واعترف العارفون بقدره، ففي سنة ١٩٢٠ انتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً مراسلاً له، وفي سنة ١٩٢٢ قلده حكومة الجمهورية الفرنسية وسام فارس جوقة الشرف.

وكان ذا صفاتٍ تغرس له المحبة في الصدور، وهي كرم النفس، وميزة العقل، والعفة في الإفصاح عن العواطف والاستقامة التامة.. إذا دنا الإنسان منه لا يكاد ينساه، فكانوا يذكرونه ذكرى الصداقة. وله ميل إلى مساعدة الناس لا ينضب معينه.. وأظن أنه من اليوم إلى سنين قليلة سينهض عالم من فرنسا أو من الجزائر ويكتب تاريخ تألف الفرنسيين والمسلمين في إفريقية، فسيكون ابن أبي شنب رمز هذا التألف، وحينئذٍ يمكننا أن نقول أحسن مما قلته أنا اليوم، إذ يكون من السهل يومئذ على رجال العلم والعمل مهما تباعدت أفكارهم أن يتألفوا ويتعارفوا ويتحابوا.



محمد عبده (١)

١٢٦٦ - ١٢٢٢هـ

١٨٤٩ - ١٩٠٥م

ولد محمد عبده سنة ١٢٦٦هـ، وأبوه عبده «خير الله» من سكان قرية «محلة نصر» بمركز «شبراخيت» من عمل «البحيرة» في مصر، وأمه السيدة جينة.

كان والده من صغار الفلاحين، وبذكائه وحسن تديره ملك بأخرة أربعين فداناً. وكان كريماً يقري الضيوف ويؤوي الغرباء، وكانت منزلة أمه بين نساء القرية لا تقل عن منزلة زوجها، عرفت بذكاء الفؤاد ورقة القلب، وبر المعوزين والبائسين.

تعلم محمد القراءة والكتابة في منزل والده، وأتم حفظ القرآن على حافظ خاص في عامين، ولما يتجاوز العاشرة، وأراد أبوه أن يتعلم ولده تجويد القرآن فأرسله إل الجامع الأحمدى بطنطا ففضى في تجويده سنتين، ثم بدأ

(١) ترجمته في الأعلام ج٧/١٣١ ومعجم المؤلفين ٢٧٢/١٠، زعماء الإصلاح: ٣٨٠ في الأدب الحديث ٢٧٩/١، حاضر العالم الإسلامي ٢٨٣/١، تراجم مشاهير الشرق ١/٣٨٠، تاريخ الأدب للفاخوري: ١٠٧٠، أعلام الصحافة العربية: ٦٨، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة: ٥١ ولمصطفى عبد الرازق (سيرة الإمام الشيخ محمد عبده) ولعثمان أمين (محمد عبده) ولقدري قلمجي: (محمد عبده بطل الثورة الفكرية) وغيرها كثير، رواد النهضة الحديثة: ١٥٥ وانظر معجم المطبوعات: ١٦٧٨، ونشرت هذه الترجمة في مجلة معجم اللغة العربية بدمشق المجلد ٢٨/ص ١٦١ - ١٨٠.

في هذا المسجد يتلقى النحو، فصرف في تعلمه سنة ونصف فما أفلح، وعزم أن يترك طلب العلم، ويرجع إلى بلده يعمل في الزراعة، لكن والده أدرك ما عليه ابنه من الذكاء فلم يرض إلا أن يعود إلى الأخذ عن مشايخ طنطا، فأطاع والده وأضمر الهرب، وذهب يختفي عن خوؤلة أبيه في «كنيسة أورين» من قرى «شبراخيت».

ومن القدر جاءه أحد أخوال أبيه الشيخ درويش، وكان على شيء من العلم، يجيد حفظ القرآن وفهمه، ويحفظ «الموطأ» وبعض كتب الحديث، وينتحل التصوف، فما زال بالفتى أياماً يقرأ له في كتاب تصوف، ويشرح له حتى تألفه وردّه إلى حظيرة العلم. «ولم يأت على الفتى اليوم الخامس من صحبة الشيخ الصوفي إلا وقد انشرح صدره وأنست نفسه، وانقلبت في عشرته قيم الأشياء، فأصبح اللهو والزهو أبغض شيء إليه، وأضحت المطالعة والمدارسة أحب شيء إليه». وتزوج الشيخ وهو في السادسة عشرة، وبعد أربعين يوماً أتت على زواجه أرسله أبوه إلى القاهرة ليأخذ العلم في الأزهر. وكان من علمائه الجامدون ومنهم المنورون في الجملة، فألقى التلميذ على نفسه ألا يحضر درس من لا يفهم شرحه وتقريره. ولعل هذا التلميذ كان أول شيخ اعترض على طريقة مشايخ الأزهر في التدريس، وظل على رأيه حتى أصلحها عندما بلغ أشده وأصبحت كلمته مسموعة.

كان الشيخ في المسامحة الصيفية يعود إلى محلة نصر فيجد الشيخ درويشاً قد سبقه إليها، فيأخذ في مدارس الشاب ومحاسبته على ما حصل من العلوم، ويحثه على النظر في المنطق والحساب، فإذا قال له الطالب: هذه علوم لا تقرأ في الأزهر، قال له الشيخ: طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في كل مكان. فيؤثر فيه بآرائه وإرشاده.

قرأ الشيخ في الأزهر جميع الكتب المقررة في ثلاث سنين، ومضت سبع سنين رأى بعدها الشيخ الصوفي أن مريده كلت نفسه، فأخذ يحثه على لقاء

الناس ووعظهم، وكان من قبل يشير إليه بالابتعاد عنهم، فقال له بعد ذلك: «إلى متى هذه العزلة؟ وما الفائدة من العلم ومن تحصيله إذا لم يكن لك نوراً تهتدي به ويهتدي به الناس؟ إن من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك، وإن من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس النعمة، فعليك أن تخالط الناس وتَعِظْهُمْ وترشدهم إلى الطريق القويمه والسنة الصالحة».

ودَع المجاور الأزهري شيخه ومرشده في بعض السنين، وبكى هذا بكاء شديداً، ومات في السنة الثانية، وعاد محمد عبده إلى القاهرة وفي نفسه أشياء من طريقة شيوخ الأزهر وشروحهم ومتونهم وحواشيهم وتقاريرهم على الشروح، رآها مما تضيع فيه الأعمار، ولا ينتج عن تعليمها فائدة حتى قال: «كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية» والطلاب يحفظون ما لا يفهمون، وربما كان الأساتذة يلقون ما لا يصححون ولا يعلمون.

وصف تلميذه الشيخ المراغي عصر محمد عبده وما فيه من انحطاط في السياسة والعلم والأخلاق فقال: «نشأ الشيخ في عصر من العصور القاتمة، كل شيء فيه ممرض مؤلم للنفوس الحرة والفطر الصادقة: الأمم الإسلامية تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً إلى أحط الدركات، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس، والدين يفهمه الناس على غير وجهه، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم، والزلفى إلى الله لها طرق لم يشرعها الله، والزلفى إلى الحكام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة. ذهب ربح المسلمين، وتفلت من أيديهم زمام الحياة العامة، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلَّة على القيصاع، وليسوا قلة بين الأمم، ولكنهم كغناء السيل».

«ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعا من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم، وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم،

لا تفهم إلا بشروح وحواشٍ^(١) وصناعة خاصة. فلا اللغة العربية بمسعدته على إجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة إلى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن إليه العاقل، ويقنع الخصم المتحدث في الاجتهاد وتخير الأحكام لتطابق حاجة العصر، ولتلائم أصول الأمم وأحوال الأزمنة. مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون، والداعي إلى سيرة السلف داعٍ إلى مخالفة سيرة العلماء المبرزين، والداعي إلى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين المتأخرين، والمنادي بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة، وبأوهام وقصص لفقها من قبل علماء الإسرائيليات، مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها».

«عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر، مرير العيش، فمن من أصحاب الفطر الصادقة والنظر السليم يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هدياً وفيه شفاء، وأن شريعة محمد ﷺ عامة للأمم كلها وللعصور كلها، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس إماماً يهتدون بهديه، ويشفي أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه، ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة؟» ثم قال: «عاملان من أقوى العوامل وقفا في طريق الشيخ: عامل الحسد، وعامل البيئة، ومن المحال أن يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يحسد، ولو أنه لم يحسد، ولو أنه لم يُزَمَ بالكفر والضلال، ولو أنه لم يشتد حُساده، ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد، لما كان شيئاً يتحدث عنه، ولما كان رجلاً من رجال التاريخ».

قال: وسبب ثالث له خطره، وهو بأن جهة من جهة ذات نفوذ (الخدويوي) أظهرت عدم الرضا عن الشيخ، وساعدت خصومه، وأن جهة

ذات نفوذ آخر (المحتلون) ساعدته وشدت أزره، فظن القوم أنه رجل يريد إفساد الدين وإفساد العلم. ومن أشد مظاهر الحسد إذ ذاك: أن عالمًا من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الأزهر، لأن الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم في الأزهر. «وكاد العناد يكون كفرًا».

قال المراغي: ترك الشيخ بذور إصلاح التعليم الديني وتعليم علوم العربية، وبذور إصلاح القضاء الشرعي، وبذور إصلاح المجتمع الإسلامي والأمم الإسلامية، وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيقه آي القرآن على سنن الاجتماع، وفي تصوير هدي القرآن، وفي فهم أغراض الدين عامة، وقال: وودعته ليلة سفري إلى السودان لتولي قضاء مديرية دنقلة (نوفمبر ١٩٠٤) فمما قال لي: أنصحك أن تكون للناس مرشدًا أكثر من أن تكون قاضيًا، وإذا استطعت أن تحسم سلاح النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم، فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح، قال: وداعبني مرة إثر خروجي من امتحان شهادة العالمية قائلاً: هل تعرف تعريف العلم؟ فقلت له: نعم، وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم، فسردت بعضها، فقال: اسمع مني تعريفًا مفيدًا: العلم هو ما ينفعك وينفع الناس. ثم سأل: هل انتفع الناس بعلمك؟ قلت له: لا، قال: إذا أنت لست بعالم، فانتفع الناس بعلمك لتكون عالمًا.

بقي محمد عبده في هذه البيئة العلمية المنحطة مضطرب البال حتى وافى مصر الإمام جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٦٩ ثم ذهب إلى الأستانة، وعاد إلى القاهرة سنة ١٨٧١ فلازمه وتلمذ له، وقرأ الأفغاني لتلاميذه بعض الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المعربة في مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والسياسة والاجتماع، ففتحت عقولهم، ومزقت حجب الأوهام عن

عيونهم، وأخذ يحثهم على الكتابة والخطابة، ولما قرأ محمد عبده «الحاشية على شرح العقائد العضدية»^(١) مال إلى رأي المعتزلة دون رأي الأشاعرة، فشاع ذلك في شيوخ الأزهر. وفي يوم الامتحان لأخذ شهادة العالمية قاومه مقاومة ظالمة، ومنهم الشيخ عليش، والشيخ الجيزاوي، ومع أن رئيس لجنة الامتحان شيخ الأزهر يومئذ الشيخ العباسي، وكان على جانب كبير من العلم وحب التجدد، قال لأعضاء اللجنة أثناء المداولة: أنه لم ير في حياته أحدًا في ذكائه وتبته من علمه وأنه يستحق الدرجة الأولى، بل لو كان فوقها درجة أعلى لاستحقها. ومع ذلك لم تسمح له اللجنة إلا بالدرجة الثانية، وبعد ست وعشرين سنة من نيله شهادة العالمية عادت مشيخة الأزهر فصححت عطاءها ونقلته إلى الدرجة الأولى (١٩٠٤).

ولم تحُل درجات العالمية دون تدريس الشيخ في الأزهر، وأكثر ما كان يدرس كتبًا في المنطق والتوحيد والأخلاق، وفي أواخر سنة ١٨٧٨ عين مدرسًا للتاريخ في «دار العلوم» ومدرسًا للغة العربية في «مدرسة الألسن». وبعد قليل عزل عن التدريس في هاتين المدرستين على أن يقيم في قريته لا يبرحها إلى الحواضر المصرية، وذلك لتغيّر خاطر أمير البلاد عليه، ثم عفا عنه (١٨٨٠) وعين محررًا في جريدة «الوقائع المصرية» الرسمية، ثم رئيس تحرير فيها، فاستعان بقوة الحكومة على تحسين لغة الكتابة ولغة الجرائد، وأخذت الجريدة الرسمية تخوض في موضوعات تثقف وتعلم، فكان في هذه الصحيفة معلمًا ومصلحًا. قضى على الطريقة القديمة العقيمة في الإنشاء وأبطل السجع والازدواج، وعلم الكتاب السلاسة في التعبير وعدم التكلف.

(١) العقائد العضدية، لعبد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦هـ شرحها ووضع لها الحواشي كثير من العلماء منهم جلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدواني المتوفى سنة ٩٠٨هـ قال عنها: لم تدع قاعدة من أصول العقائد الدينية إلا وأتت عليها، ولم تترك من أمهاتها ومهماتها مسألة إلا وقد صرخت بها أومات إليها (الكشف ١١٤٤).

كان الشيخ يرى في شخص رياض باشا رئيس الوزارة^(١) صورة حسنة للمستبد العادل «مستبد يُكره المتناكرين على التعارف، ويلجئ الأهل إلى التراحم، ويقهر الجيران على التناصف، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة».

وكان رياض يعاون الشيخ على مقاصده في الإصلاح، ويستعين برأيه في بعض الشؤون، وسقطت وزارته بقيام الثورة العرابية^(٢)، وكان الشيخ يومئذ لا يقول بالثورة، ويصرح أن الأمة غير مستعدة للحكم الدستوري، وأن الواجب تعليمها وتهذيبها أولاً، ويرى استشارة الأمة في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات فقط تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة، قال: «وليس من اللائق أن تفاجأ البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد، يفسد المال، ويُفضي إلى الهلكة»، وقال: أخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسيبيه إلى يوم القيامة.

واحتل الإنكليز مصر، وأرادوا القضاء على الحركة الوطنية، وشلوا سلطة دار الندوة، وعملوا على التفريق بين الخديوي والأمة، فتحول حينئذ مقام عرابي من قائد جيش إلى قائد مصر، وحينئذ أصبح محمد عبده ومصر قاطبة من أتباع أحمد عرابي، ورأى الشيخ ما كان يراه كل وطني صادق أن واجبه يقتضيه أن يكون مع الأمة على الإنكليز، وعلى الخديوي الذي أصبح آلة في أيديهم ينفذون به أغراضهم. وأصبح الشيخ كما قال عميد الاحتلال روحاً ومدبراً للحركة، وأصبح العرابيون يلجؤون إليه في كثير من أمورهم، لا يرمون أمراً دون استشارته، فكان موقفه من الثورة العرابية كما قال الرافعي

(١) هو رئيس مجلس الوزراء.

(٢) أي: ثورة أحمد عرابي التي قام بها سنة ١٨٨٢م.

المؤرخ: «موقف الوطني الذي يثور لكرامة البلاد واستقلالها، فدافع عنها بكل ما لديه من حول وقوة وإخلاص».

اضطر الشيخ إلى ركوب مراكب السياسة، وما كان يود أن يدخل فيها. زُجَّ فيها رغم إرادته، لذلك رأيناه يتخلى عن السياسة بعد أن صفا له الجو، ولم يرض الدخول في غمارها - بالفعل والقلب - معلماً ومرشداً، أي: إنه شارك في السياسة بالقدر الذي أراده، ثم نفص يده منها إلا قليلاً.

ولما قُبض على من عرف لهم أثر في الثورة كان الشيخ في جملتهم، اتهموه بأنه أفتى بوجوب قتل الخديوي لخروجه على إجماع الأمة، فغرب من القطر المصري إلى الشام ثلاث سنين، ثم غادرها إلى باريز لنشر مجلة «العروة الوثقى» مع صديقه وأستاذه السيد جمال الدين الأفغاني، وكانت «العروة الوثقى» جمعية سرية يقصد بها محاربة الاستعمار والمستعمرين، وفي مقدمتهم الإنكليز، والغرض البعيد من الجمعية «إعادة الحكم الإسلامي وهداية الدين إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال في العصر الأول، بتأسيس حكومة إسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الإسلام في أمور الدنيا. ويتبع هذا إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم، وأما الغرض القريب فهو إنقاذ مصر والسودان من الاحتلال».

وضاق صدر المستعمرين من مقالات مجلة «العروة الوثقى» فمنع الإنكليز دخولها الهند ومصر والسودان، فلم تعش أكثر من ثمانية أشهر. كانت مقالاتها، ويكتبها محمد عبده بقلمه الساحر. ويملي بعض آرائها السيد جمال الدين الأفغاني أشبه بدساتير للأمة، إذا جرت على بعضها نجت مما هي فيه من الانحطاط، ومن الذل الذي صارت إليه بفعل ملوكها وأمرائها وزعمائها، وذهب متنكراً من باريز إلى تونس فمصر ثم عاد إلى بيروت (١٨٨٥) واستدعي للتدريس في المدرسة السلطانية فوضع لها برنامجاً جديداً أخذ على

عائقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الإسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي، وظهرت آثار تعاليمه في التلاميذ آخر السنة، وأرشد المعلمين إلى الطريق القويم في التدريس وتهذيب ملكات الطلاب وتثقيف أخلاقهم. وزار خلال ذلك بعض مدن الشام وأفاض على كل من لقيه عُرْفَةً من علمه وبيانه. وبورك له بوقته فعَلَّقَ على كتاب «نهج البلاغة» وعلى «المقامات» للهمذاني وغير ذلك.

وعفي عن الشيخ فعاد إلى وطنه فعين قاضيًا في المحاكم الأهلية الابتدائية فقال حين سمع خبر تعيينه: ما خلقت لأكون قاضيًا بل لأكون معلمًا، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت. وقيل: أن عميد الاحتلال بعد مدة أَرَادَهُ على أن ينزع العمامة فيكون رئيس وزراء مصر فقال له: خلقت معلمًا وأريد أن أموت معلمًا. وترقى في القضاء حتى صار مستشارًا في محكمة الاستئناف، وكان يود ألا يدخل فيه وينقطع إلى التدريس، مع أنه كان يعلم أنه يرتقي في هذا السلك إلى أعلى الدرجات، وأن مجال التدريس ضيق محدود، وطلب أن يعود إلى مدرسة دار العلوم، فأبى الخديوي أن يجيبه إلى طلبه مخافة أن يلقن تلاميذه من أفكاره السياسية. ولما نصب الخديوي عباس على إمارة مصر، داخله الشيخ وأقنعه بضرورة إصلاح الأزهر، ولكن دسائس شيوخه وغيرهم حالت دون إنفاذ هذه الأمانة.

وفي سنة ١٨٩٩ عين الشيخ مفتيًا للديار المصرية فأصبح بحكم منصبه الجديد عضوًا في مجلس ديوان الأوقاف الأعلى الذي أنشأه عميد الاحتلال للحد من تصرفات الخديوي في أموال الأوقاف، وعين في الشهر الذي تولى فيه الإفتاء عضوًا في مجلس الشورى، ولم يلبث أن ظهرت المشادة بين الشيخ والخديوي، فإن هذا أراد أن يبذل مزرعة له بأراض للبناء في الجزيرة من ضواحي القاهرة، ووضع الثمن الذي راقه فأبى الديوان بإشارة الشيخ إلا أن تثنى أرض الخديوي وأرض الوقف، فكان من ذلك أن خسِر الخديوي

خمسین ألف جنيه، وبذلك انتقلت العداوة التي نشأت بين مترجمنا والخديوي توفيق من أجل تقلبه في سياسته يوم الاحتلال إلى ابنه عباس، وظل هذا يحرض سفهاء الأفاكين على الشيخ، ويحمل زبانيته من الجواسيس والكتاب على تسويد صحيفته في نظر الأمة، ولكن الشيخ وجد له معتصمًا من عميد الاحتلال، فكان هذا بعد نظره يدفع العوادي عنه، ويوقه غضب الأمير.

وكان أول ما قام في ذهن الشيخ تفتيش المحاكم الشرعية ففتش كل أرجاء القطر، ولم يدع محكمة مديرية أو مركز إلا شاهدها بنفسه، وبحث أعمالها بحثًا دقيقًا، وتعرف حال قاضيتها من قوة أو ضعف، وضبط العمل والإهمال فيه فوضع تقريره وصادف من وزارة العدل معاضدة على إنفاذ أكثره، فأخرج القضاء من دركات التدني التي كان غائصًا فيها، ثم استقال من إدارة الأزهر، وظل على العناية بما يصلحه، ورضيت الحكومة أن تفتح مدرسة يتخرج فيها القضاة والكتاب والمحامون الشرعيون، وبذلك أبقى للشرعية بعض بهائتها الذي كان المشايخ الفقهاء السبب في ذهابه، واضطرار الخديوي إسماعيل إلى العمل بقوانين فرنسا، بعد أن اقترح على أهل الأزهر أن يؤلفوا كتابًا في الحقوق والعقوبات، موافقًا لحال العصر فرفضوا لا تدينًا بل عجزًا. ووضع لائحة لإصلاح المساجد ليكون أئمتها وخطبائها من أهل العلم بالدين فعارضه الخديوي أيضًا لحنقه على الشيخ يوم عرض على الأوقاف استبدال أراضي البناء التابعة للأوقاف في الجيزة بمزرعته المعروفة باسم مشتهر. قاوم الخديوي الشيخ في هذا المشروع أيضًا، وغفل عن مصلحة المسلمين في تقريره وإنفاذه، وبذلك صح ما قاله: إن مصيبة هذه الأمة بفساد أخلاقها أكبر من جميع مصائبها، وقوله: إنه لم يعمل عملاً لمصلحة المسلمين ووجد له من يعارضه فيه من غير المسلمين، لا من الإفرنج، ولا من القبط، ولا من السوريين.

كانت طريقة الشيخ السير إلى جانب الدين مع مراعاة أحوال الدنيا، أو

تطبيق أمور العالم على الشريعة، ولذلك كان في فتاويه يفتي على وجهين: الوجه الأول الفتوى الرسمية يتقيد فيها بمذهب الحنفي، وغير الرسمية تختلف باختلاف طلب المستفتي، فمن المستفتين من يسأل عن حكم الله تعالى، وعلى المفتي أن يجيبه بما يعلم من حكم الله تعالى في كتابه وما ثبت عنده من سنة رسوله ﷺ نصًا أو اقتضاء. وكانت عادة المفتين في مصر الوقوف عند حد فتاوى الحنفية ومذهب أبي حنيفة مذهب السلطان الذي كان يخفق علمه على القطر.

وكان للشيخ بحكم منصبه ما جعل منه أحسن أداة يستخدم في النهوض بالأمة، شأن كل كفاء من الرجال، لا يُفْلِت من يده فرصة لنفع غيره. ومن ذلك أنه لم يكتف بإصلاح الأزهر وإصلاح المحاكم الشرعية، بل توفر مع أصحابه على إنشاء جمعية سموها الجمعية الخيرية الإسلامية، غرضها التعاون على تربية أولاد الفقراء والمساكين من المسلمين، وإعانة العاجزين منهم على الكسب. قال في احتفالها السنوي مرة: لم تنشأ الجمعية لأخذ الشهادات والاستعداد للوظائف. بل من أهم مقاصدها: أن تنزع من النفوس اعتقاد أن التعليم لا فائدة فيه إلا الاستخدام في الحكومة، الجمعية توطن نفوس التلاميذ في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه بإتقان، ويعيش مع الناس بالأمانة والاستقامة، فولد النجار يكون نجارًا، وولد الحداد يكون حدادًا. وولد الفرائش يكون فرائشًا. والتربية والتعليم يساعدان كلاً على إتقان عمله وصناعته، فيكون أكثر كسبًا؛ لأنه أكثر إتقانًا للعمل مع الأمانة والاستقامة. وأصبح الشيخ في سنة ١٩٠٠ رئيسًا للجمعية إلى يوم وفاته، فجمع لها من كرام المصريين أموالًا عظيمة، ووقف عليها مزارع وأراضي، وأنتجت ما كان يعقد عليها أمله من الخير في تربية أبناء الفقراء تربية حرة طاهرة.

وهو الذي ألف شركة طبع الكتب طبعت أسفارًا مفيدة، واشترك في تصحيح عدة كتب قديمة، ومنها: «المخصص» لابن سنيده.

فطر الشيخ على بث العلم، وكان معلمًا في كل مكان دخله، معلمًا في الجريدة الرسمية ومعلمًا في دار العلوم، وفي مدرسة الألسنة ومعلمًا كل يوم في دروسه في الأزهر منذ حدائته إلى آخر أيامه، ومعلمًا في القضاء على اختلاف الدرجات التي تولاها، ومعلمًا في الإفتاء وفي مجلس الأوقاف الأعلى، وفي مجلس شورى القوانين، وفي الجمعية الخيرية الإسلامية، وفي غير ذلك من الأعمال بهمة تعلقو على الهمم العالية.

انتبه من نفسه إلى فساد طريقة التعليم الأزهري، وهو في العقد الثاني من عمره، وظل طول حياته يحارب تدريس الحواشي والشروح والهوامش والتقارير، ويقول: إن أهل الأزهر يتعلمون كتبًا لا علمًا، وغرامهم في حل عبارات المؤلفين والمهمّشين والمحشّين.

قاوم الجامدون من مشايخ الأزهر الشيخ، وما كفّوا عن مقاومتهم حتى أصبح غرة شادخة في الإسلام، وعندها خافوا على مناصبهم منه فصانعوه وتألفوه.

قال له الشيخ البحيري مرةً في مجلس إدارة الأزهر مدافعًا عن نفسه: «إننا نعلم الطلاب كما تعلمنا». فقال الأستاذ: «وهذا الذي أخاف منه». قال البحيري مستنكرًا: «ألم تتعلم أنت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقبي العلم، وصرت فيه العَلَمُ الفردا؟». فأجاب الإمام: «إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره فإنني لم أحصّله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكتس من دماغي ما علق به من وساخة الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة».

وشرح مرةً طريقته في التدريس فقال: إن الكتب لا تفيد القلوب العمي إلا إذا صادفت قلوبنا متيقظة عالمة بوجه الحاجة إليها، وإذا وصل إلى أيدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لا يعقلون المراد منه، وإذا عقلوا منه شيئًا يردُّونه ولا يقبلونه، وإذا قبلوه حرّفوه إلى ما يوافق علمهم ومشربهم.

قال: إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشاراته ولهجته في الكلام، كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه، وأيضًا يمكن السامع من أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه فإذا كان مكتوبًا فمن يسأل؟ إن السامع يفهم ٨٠ في المئة من مراد المتكلم، والقارئ لكلامه يفهم منه ٢٠ في المئة على ما أراد الكاتب. وعلى ذلك كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر وبعض طلبة المدارس الأميرية، وكنت أذكر كثيرًا من الفوائد التي تحتاج إليها حالة العصر فما اهتم لها أحدٌ فيما أعلم، مع أنها كان من حقها أن تكتب، وما علمت أحدًا كتب منها شيئًا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق، وكانا يراجعاني في بعض ما يكتبان، وأما المسلمون فلا.

وقال الأستاذ المراغي: كانت دروس الأستاذ كالغيث، وكانت مثلاً عاليًا في طريقة الإلقاء والتفهم، وفي العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة إلى القلوب، وكانت دائرة معارف يجد اللغوي فيها حاجته، والفقير رغبته، والمتكلم بغيته، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آي القرآن على معارفهم.

لم تترك واجبات المناصب وقتًا كافيًا للأستاذ ينقطع فيه إلى التأليف، واضطرتته حالة الأمة إلى الدخول في غمار الثورة العراقية، وكذلك كان حاله بعد أن عاد إلى مصر يتولى أعمال القضاء والإفتاء. كان يكره السياسة ويقول: إنها ما دخلت في شيء إلا أفسدته. وفي كتابه «الإسلام والنصرانية»: «فإن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين. أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومعنى السياسة، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يُجن أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس».

وبعد: فإن تأليف الشيخ صغيرة الحجم، جملة الفوائد، وله تقارير في

الإصلاح كان يقدمها إلى الحكومة فتنفذها أو أكثرها. وكتب أكثر ما كتب لدواع وبواعث دعته إلى وضعها، وما كان ينشرها إلا بعد درس وتحقيق ويتمثلها في صدره أولاً، شأنه في دروسه.

نشأ نشأة صوفيةً على يد شيخه ونسيبه الشيخ درويش في قريته، فكان من الطبيعي أن يكون أول تأليفه: «الواردات» رجع عن بعض ما كان قرره فيها، ورسالة في وحدة الوجود، يتن فيها مراتب الوجود وتعددتها من وجوه نظامها العام ووحدها من وجوه آخر. و«تاريخ إسماعيل» لم يطبع، و«فلسفة الاجتماع والتاريخ»، و«حاشية على عقائد جلال الدواني»، و«شرح نهج البلاغة»، و«شرح مقامات بديع الزمان الهمداني»، و«شرح البصائر النصيرية»، و«نظام التربية والتعليم»، و«رسالة التوحيد»، و«الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»، و«تفسير سورة العصر»، و«تفسير جزء عم»، وأمتع تأليفه التي تجلى فيها علمه وبيانه «رسالة التوحيد». هذا إلى تقريره في إصلاح الأزهر، وفي إصلاح المحاكم الشرعية، ودفاعه عن الإسلام إذا طعن الطاعن عليه، ومنها: ما كان ينشره في الصحف في آخر أيامه خلواً من توقيعه، أو يوعز إلى خاصته ليكتبوا فكره ويقرّهم عليه فينشره بأسمائهم.

حفلت حياة الشيخ بأمر كلها تدور على النهوض بالمسلمين، وتثقيفهم ثقافة تجعل منهم أمة متحضرة، ولذلك كان في بعض فتاويه يسير مع العقل، ولا يحميد عن طريق السلف. بدأ صوفياً وانتهى مجتهداً لا يقول إلا بما يقول به علماء الظاهر، أمثال الإمامين ابن تيمية وابن قيم الجوزية. ولكم بورك له بساعات عمره، وبحق ما وصفه قاسم أمين عندما قال: «يطالع ويتعلم ويعلم، ويفتي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف الأعلى، ويتأس على الجمعية الخيرية الإسلامية، ويضع التشريعات للأزهر والمحاكم الشرعية، ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس، ويؤلف الرسائل الدينية، وينشر المقالات الفلسفية، ويدافع عن الدين إذا طعن عدو عليه، ويراسل

علماء المسلمين في جميع الأقطار التي يسكنونها، ويعارض رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده. وكان مع كل ذلك يجد وقتًا ليزور أصحابه ويشاركهم في جميع أفراحهم وأتراحهم». قال: إنه وصل إلى مقام الإمامة بأوسع معانيها.

وقالوا: إنه إذا دعي إلى حفلة عامة أو مأدبة خاصة وحالت صحته أو قلة وقته دون الإجابة إليها يبعث بكتاب بقلمه، فكان صاحب الدعوة بين عاملين، في قبول دعوته، أو الظفر منه بكتاب اعتذار يقرؤه على أصدقائه وأهله. وإن فاته الاستمتاع بحديثه إذا حضر. وكان ما يكتبه في شكر المؤلفين الذين يهادونه بكتبهم سببًا في رواجها؛ لأن الشيخ لا يقول جُرَافًا، وكتبه من هذا القليل كثيرة يتألف منها جزء لطيف.

حضرت دروسه في الرواق العباسي في الأزهر، ومجالسه الخاصة في داره في عين شمس أو في دور بعض مريديه، وسمعت بعض خطبه في الجمعية الخيرية الإسلامية فكنت أقول: سبحان من خصه من بين معاصريه ببلاغة اللسان وبلاغة القلم.

وصفه العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي في مجلة «الضياء» بقوله: «كان متوقد الفؤاد، ثاقب البصيرة، قوي الحججة، ذرب اللسان، بليغ العبارة، إذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه، فلا يتوقف ولا يتلأأ، ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيبًا سخيفًا، حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البدهاء وجدته كأحسن ما ينشئ المترسلون من الفصحاء. وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول، حتى إنه تعلم اللغة الفرنسية وهو فوق الأربعين، فلم يأت عليه إلا أشهر حتى كان يجيد فهمها، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها، ولم يرو مثل ذلك إلا عن أستاذه السيد جمال الدين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

كان الإمام يتوخى في دروسه ألا تكون جافة إذا طال بحثه وتقريره فيشفعها في الحال بشيء من دعابته الحلوة، يفرغ عليها من روحه الصافي ما

يحبب إلى النفوس الرجوع إلى سماع ما يحاول إلقاء عليهم من المسائل والمشاكل. وما حضرت له درسًا ولا مجلسًا ولا خطبة إلا تمنيت لو يطول إلقاءه أكثر مما طال، ووددت أن أكون كلي آذانًا تسمع وقلوبًا تعي وتفهم. وما شككت قط أن كل ساعة من ساعات حياته كانت نفعًا وخيرًا، وأن كل من كتب له الاتصال به أفاد من علمه وتجاربه ونصائحه وهديه وتأثر به عقله وروحه.

عطف عليّ منذ تشرفت بالاجتماع إليه في القاهرة فقال في الملأ من أصحابه: إنه قرأ ما كتبه الصحف في مشروع السكة الحجازية فما قدر جلاله الموضوع حتى نشرت في مجلة «المقتطف» مقالة فيه، فاطلع فيها على ما لم يطلع عليه من قبل. فهياً لي بهذه الشهادة سبيل التعرف إلى طائفة من رجال مصر في العلم والقضاء والإدارة والسياسة والأدب، وهذا جُلُّ ما يتطلبه ناشئ مبتدئ من العون والتنويه.

قالوا: إن الأستاذ تعلم اللغة الفرنسية وهو في الرابعة والأربعين لما اشتدت حاجته إليها أيام تقلد القضاء، وشاهد رفاقه يستعينون في أحكامهم بالقانون الفرنسي، فما وسعه إلا تعلم اللغة الفرنسية وأتقنها من دون كبير عناء في وقتٍ قصير فكان يحضر في الصيف دروسًا في هذه اللغة في كلية جنيف، ويتمرن على الكلام فيها والفهم في السياحات، وقد ساح في أوروبا وإفريقية وآسيا كثيرًا، وأذكر أنني صحبتُ أحد علماء المشرقيات من الألمان لزيارته في داره، وكان الحديث بالفرنسية في موضوع التربية والتعليم، فما غلط الأستاذ غلطة واحدة في الساعة التي قضيناها في حديثه، وأبان عن بديهة مؤاتية، دهش لها صاحبي الألماني، وبقي أيامًا يحدثني بأثر تلك الزيارة في نفسه.

ذكر السبب الذي دعاه إلى تعلم الفرنسية قال: ثم إن الذي زادني تعلقًا بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت أنه لا يمكن لأحدٍ أن يدعي أنه على كل شيء من العلم يتمكن منه من خدمة أمته، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما

ينبغي، إلا إذا كان يعرف لغة أوروبية. وكيف لا وقد أصبحت مصالحي المسلمين مشتبكة مع مصالحي الأوربيين في جميع أقطار الأرض. وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الأشرار منهم. واخترع الأستاذ لنفسه طريقة تلقف اللغة الفرنسية، فكان يتلو أمام أستاذه قصة لإسكندر دوماس والمعلم يصلح له النطق ويفسر له الكلم، ثم تعلم نحوها بالتدريج.

وكان الشيخ عملياً في تلقن العلم وتلقيه منذ حضر درس النحو في الجامع الأحمدي في طنطا، وتأفف من طريقة تعليمه. كان في القضاء قاضي العدل والإنصاف، لا قاضي القانون والرسوم. قال عن نفسه: «إنني كثيراً ما أنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوهاً كثيرة للحكم بالإدانة مثلاً. حتى إذا ما تمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوَّض كل ذلك البناء الذي كنت بئته في ذهني من وجوه ترجيح الإدانة، وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حتماً فأحكم بالبراءة».

وكان يفضل أبداً أن يجري الصلح بين المتخاصمين حتى لا تتأصل العداوات بين الناس إذا فضت المحاكم الشجار بينهم.

كان الشيخ رأساً في كل ما عانى من أعمال المجتمع، لا يلبث أن يظهر فضله الباهر في الأيام الأولى من توليه عملاً من الأعمال، وتتخاذل قوة الأمراء والطغاة أمام عقله. كان الخديوي عباس يبغضه لأنه لم يوافق على مد يده إلى الأوقاف ويشتد في مقاومته بكل ما تصل إليه قوته من ضروب المقاومة، فإذا وقع في مأزق لا يتأخر عن دعوته لإرشاده إلى الطريق الواجب سلوكها، علماً منه بسعة عقله وسعة علمه. كان يهيج عليه العلماء والأدباء كل حين، ويوم الجد لا يعتمد على غير رأيه وحكمه. والشيخ بما عرف من كرم أخلاقه يتجاهل كل ما يصيبه من أذى مبغضه.

كان الشيخ كريماً يتصدق في السر وقد خص بعض المحاويج المستورين

برواتب يقبضونها من راتبه الكبير من الأوقاف. وكان ينفقه كله في هذه الوجوه من البر. كان نصير المظلومين والضعفاء، ولطالما سعى لجلب الخير إلى من كان يقذف فيه ويعاديه من دون سبب، يقصد بذلك أن يعلمه ويعلم غيره كيف تكون الأخلاق الطاهرة، وأن هذا هدي الإسلام وطريقة صاحبه.

قيل: أنه نظم أبياتاً في مرضه الأخير أبان فيها عن غرضه من الحياة وهي^(١):

ولستُ أبالي أن يقال محمدٌ أبلّ أم اكتنّظت عليه الماتمُ
ولكنّ ديناً قد أردتُ صلاحه^(٢) أحاذرُ أن تقضي عليه العمائمُ
وللناسِ آمالٌ يُرجون نيلها إذا مُتْ ماتت واضمحلّت عزائمُ
فياربِّ إن قدّرتُ رجعى قريبةً إلى عالم الأرواح وانفضّ خاتمُ
فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً رشيداً يضيء النهج والليلُ قاتمُ^(٣)

قالوا: إن لسانه لم ينطق بقول الشعر إلا في آخر أيامه، وفي الحبس لما سجن مع العرابين.

أجاب الشيخ رجلا من الشاميين هنا بمنصب الإفتاء، ومما جاء في جوابه يصف موقفه من الأمة المصرية: أما قومي فأبعدهم مني أشدهم قرباً مني، وما أبعد الإنصاف منهم، يظنون الظنون، بل يتربصون بي ريب المنون،

(١) أشار إلى هذه القصيدة جرجي زيدان في تراجم مشاهير الشرق وأورد البيتين الأولين منها كما أوردها محمد رشيد رضا في كتابه «تاريخ الشيخ محمد عبده» ص ١٠٢٦ - ١٥٢٧، وذكر أنه أنشده إياها إبان مرضه، وقال أيضاً: وله قصيدة قالها في الثورة العراقية وهما وحيدتان مطلعها:

مالي يعنف قلبي من تغاضيه دهر يبالح في عجب وفيه تيه
(٢) هذه رواية الأصل، وتراجم مشاهير الشرق، أما رواية رشيد رضا فهي: ولكنه دين.
(٣) بعد هذا البيت في تاريخ محمد عبده بيت سادس هو:
بمائلني نطقاً وعلماً وحكمة ويشبه مني السيف والسيف صارم

تسرعاً منهم في الأحكام، وذهاباً مع الأوهام، وولعاً بكثرة الكلام، وتلذذاً بلوك الملام. أقول فلا يسمعون، وأدعو فلا يستجيبون، وأعمل فلا يهتدون، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون، بل يفرون إلى حيث يهلكون، شأنهم الصياح والعيول، والصخب والتهويل. حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم:

لكنّ قومي وإن كانوا ذوي عدوٍ ليسو من الشرِّ في شيءٍ وإن هانا^(١)
وأقول: ولا من الخير.

«وإنما مثلي فيهم مثل أخ جهله إخوته، أو أبٌ عقته ذريته، أو ابن لم يحنّ عليه أبوه وعمومته، مع حاجة الجميع إليه، وقيام عندهم عليه، يهدمون منافعهم بإيذائه، ولو شاؤوا لاستبقوا باستبقائه، وهو يسعى ويدأب، ليطعم من يلهو ويلعب. على أني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر إذا ضاق الأمر، وقوة العزم، وثبات الحلم، وإن كنت في خوف من حلول الأجل قبل بلوغ الأمل. خصوصاً عندما أرى العمل في أرضٍ ميتةٍ لو ذابت عليها السماء مطراً لما أنبتت زرعاً، ولا أطلعت شجراً، أفزع لذكرى ذلك وأجزع، ويكاد قلبي يتقطع، ثم أرجع إلى الله فأعلم أنه مع الصابرين، وأنه لا يضيع أجر العاملين فيشجع صدري، وأمضي في جهادي الدائم، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً...».

«ليتني كنت أشكو إلى الله جهل العالمين، وحمق المعلمين في مثل هذه الجاهلية التي بعث النبي لمحو أحكامها وإزالة أيامها. تلك الجاهلية كان الضلال فيها بعيداً. ولكن كان فهم القوم جديداً. لذلك عندما لاح لهم ضوء

(١) هذا البيت من مقطوعة لرجل من بني العنبر وردت في عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٨٨
مطلعا:

لو كنت من مازن لم تستح إبلي بنو اللقيطة من ذمل بن شيبانا
ونسبها أبو تمام في حماسه لقريط بن أنيف.

الهدى أبصروه، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعي أجابوه. كان القرآن يصوغ أفئدتهم فيلّين من شدتهم، ويفلّ من شيرتهم، ويفجر عن صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة، وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلاً، عرفوا الحق فأنكروه، وطائفته كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه، ولو سمعوا لفهموا ثم لم يجدوا بدءاً من أن ينصروه. وإن الجحود مع الفهم كاليقين مع العلم، كلاهما قليل في بني آدم. أما اليوم فإنما أشكو من قلة الفهم وضعف العقل، واختلال نظام الإدراك، وفساد الشعور عند الخاصة، فلا تجذبهم فصاحة، ولا تبلغ منهم بلاغة، وغاية ما يطلبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا، وأن تقضى حاجاتهم إذا سألوا، وإن ترفع مكانتهم وإن تنزلوا...».

وهذه من أجمل الصفحات التي كتبها الأستاذ الامام في النعي على قومه فساد الخلق والعناد على سماع الحق. ولو كتب له أن يكتب كتاباً في حاضر المصريين لكان أجمل كتاب يصدر عن مثله.

رسم الأستاذ الإمام، وهو اللقب الذي أطلق عليه أواخر أمره، خطة لنفسه في الحياة منذ كان في العشر الثاني من عمره، وبقي على تحقيقها لا يشبه شيء عنها، وما حاد عما رسم في الدرس والتدريس، ولم يبرد غرامه بحمل النور إلى العقول إلى آخر ساعة. وهذا قلماً عُهد في الشرق الإسلامي. ولا غرو أن اضطلع وحده بعمل مئات من أمثاله من المشايخ مجتمعين، ذلك لأن أكثرهم يحصلون العلم ليعيشوا في الدنيا ويتولوا المناصب في الدول. أما هو فتعلم العلم ومارسه لينفع به الناس في دينهم ودنياهم، ويُخرج من هذا الجسم المنحط ناشئة قوية تفيد الإسلام والمسلمين. كان مفرداً في أمته، لم ينبغ فيها مثله منذ قرون، ولعل القرون تتوالى حتى ينشأ رجل فذ من عياره يستوفي شروط الإمامة، وتعزف نفسه عن المطالع والمظاهر.

والسر في تفوقه على غيره: أنه كان من أول نشأته يستعمل عقله، ويكره

الجمود والعنجهية، ويعرف وقته معرفة ثابتة، ويسير بما يلائمه وييسر على أمته. وعرف أن الشريعة مرنة تصلح لكل زمانٍ ومكانٍ فانتفع ونفع بهذا الرأي، وكان إذا جاءت المعضلات جرّد لها من عقله مخارج فحلّها بقانون الشريعة وقانون العقل معًا. فقد سئل في ذبيحة النصارى فأحلّها، واستفتي في جواز لبس القبعة فأجازها، وسئل في إيداع المال في صناديق التوفير فأفتى به. وفي تفسيره القرآن فسّر أمورًا غامضة لا يفهمها كل الناس وقربها من الأذهان فأقنع غير المتعنتين، كمسألة الجن والملائكة، فسرها بما لم يسبق لمفسّر على ما نظن، ومن قرأ دروس تفسيره يدرك أنه عالم لا كالعلماء، يقول أبدًا: «لا إمام سوى العقل».

كان في المعضلات الفقهية إذا لم يجد في الفقه الحنفي ما يبيلّ الغلة يعمد إلى الأخذ من أحد مذاهب أهل السنة كما فعل في حل معضلة من غاب أزواجهن من النساء غيبةً طويلة، كأن يُحكّم على أزواجهن بالأشغال الشاقة مؤبدًا أو بالحبس مدة طويلة ولا عائل لهن، واستخرج من فقه المالكية إحدى عشرة مادة كان فيها الحل المعقول. والمهم في نظره رفع الحرج عن الناس وتخفيف آلامهم وإمتاعهم بحقوقهم، وإلزامهم واجباتهم. لم يخلف مالا تعيش به أسرته من بعده. «عاش عظيمًا فقيرًا، ومات فقيرًا عظيمًا». خلد اسمًا يذكر بالإعجاب والتقدير كلما ذكره الذاكرون.





محمد المبارك^(١)

١٢٦٢ - ١٣٣٠ هـ

١٨٤٧ - ١٩١٢ م

أصل أجداد الشيخ المبارك من عرب الجزائر، نزلوا بين البربر يتولون إرشادهم وتلقينهم الطريق، فتعلموا لغتهم، واختلطوا بهم بالصهر والنسب. وهاجر أبوه إلى الشام. ولد ابنه محمد في بيروت سنة ١٢٦٣، ولقبه أبوه بالشيخ، ثم انتقل به إلى دمشق، وفيها قرأ القرآن وجوّده، وأخذ يطلب العلم، وكان له من جودة حافظته ما اتسع به محفوظه. قيل: إنه حفظ مقامات الحريري في خمسين يوماً، وما عاقه اشتغاله بالتصوف على ما كان أجداده عن الاشتغال بالأدب وعلوم التفسير والحديث والسيرة. قرأ أمهات كتبها وأقرأها تلاميذه، وعلق عليها وشرحها، وما خلفه من الكتب التي نظر فيها في هذه العلوم، ومنها نموذجات في دار الكتب الظاهرية، دليلٌ بعد نظره ووفرة تحقيقاته اللغوية والأدبية.

اتصل في صباه بالأمير عبد القادر الحسيني فعهد إليه تعليم أولاده. وأراده أن يلقنهم القرآن بقراءة وُرْش^(٢)، وهي القراءة المشهورة في الجزائر، ولما

(١) ترجمته في معجم المؤلفين ج ١١/٢٦٣، حلية البشر ج ٣/١٧٦، تراجم أعيان دمشق:

١١٨، وانظر هدية العارفين ج ٢/٣٩٨، وإيضاح المكنون: ج ١/١٣، ٢٠٠، معجم

المطبوعات ج ١/٦٩٥.

(٢) هذا لقبه، واسمه عثمان بن سعيد، ولقبه أحب إليه من اسمه، وفي سبب تلقيه أقوال منها أنه =

كان يقرأ القرآن بقراءة أخرى قصد إلى الأستاذ الحلواني الكبير^(١) شيخ قراء دمشق فأخذها عند وألف له رسالة فيها حتى عَلمَ بها مَنْ عهد إليه تلقينهم إياها .

وبينما كان يقرأ على تلاميذه من كتب التصوف «الفتوحات المكية»^(٢)، و«الرسالة القُشيرية»^(٣)، و«قواعد التصوف» لابن رزوق كان يقرأ في فقه مالك الرسالة للقبرواني^(٤) والسيرة النبوية لابن هشام، ومقامات الحريري ومقامات الهمذاني وأطواق الذهب للزمخشري، والمثل السائر لابن الأثير. وما أعرف هل كان نظر كثيرًا في دواوين عظماء الشعراء؟ ولعل ذلك دعا إلى تخلفه في ميدان الشعر الجزل .

أما نشره فنشر أبناء جيله. سطا السجع والترصيع والازدواج على سدها ولحمته فأفقدته السلاسة والعدوبة. وعالجه في رسائل قليلة له مثل: رسالة «نصرة البهار»^(٥) و«بهجة الرائح والغادي»^(٦) وغيرها ست رسائل كانت له

= اختصار لاسم طائر يقال له الورشان، لقلة أكله وخفة لحمه. وقد لقبه به أستاذه نافع. وهو شيخ القراء المحققين، وانتهت إليه رياضة الإقراء في الديار المصرية، ولد بمصر سنة ١١٠هـ وتوفي بها سنة ١٩٧هـ (طبقات القراء للجزري ج ١/٥٠٢ ومفتاح السعادة ج ٢/٢٨).

(١) هو محمد بن سليم بن أحمد الحلواني (١٢٨٥ - ١٣٦٢ هـ = ١٨٦٨ - ١٩٤٤ م) حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وأتقن القراءات وهو ابن أربع عشرة سنة، تخرج به كثير من قراء دمشق الجامعين للقراءات العشر والسبع (الأعلام الشرقية ج ٢/١٦٣).

(٢) للشيخ محيي الدين بن عربي.

(٣) للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ) شيخ خراسان في عصره.

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن رشيق القبرواني المتوفى نحو سنة ٣٨٠ = ٩٩٠: فقيه، مؤرخ، حافظ للحديث، شاعر، صنف كتبًا في فقه المالكية (الأعلام ج ٤/١٠٠).

(٥) في محاوراة الليل والنهار.

(٦) في أحاسن محاسن الرادي. وهي في وصف وادي دمشق. طبعت في بيروت سنة ١٣١٣ هـ.

مطبوعة دون ما يرجى من أدبه^(١) كأنه ما كان يعنيه من الإنشاء غير قوالبه، يتحرى الصحيح من الألفاظ والتراكيب، وقلما يحفل بالمعاني، وكان ذوقه في النقد الأدبي أرقى من ذوقه [في]^(٢) نسج الكلام.

قال لي مرة: «إنك لسعيد بتطبيقك السجع والأخذ بطريقة الكتابة المرسله بدون سجع، وأنا ما زلت مقيداً بقيوده، وما استطعت أن أنجو منه، وإني لأعجز عن كتابة سطرين لبائع البقول؛ لأنني لا أريدهما إلا مسجوعين والمقام لا يحتمله»، وأنا أخذت عنه طريقته في السجع لأول أمري. وما زلت أجاهد نفسي حتى نجوت من أسلوب الحريري والهمذاني، وتذوقت مذهب الجاحظ وابن المقفع في الإنشاء.

نعم كانت مادة الأستاذ من مفردات اللغة واسعة جداً، ويكبو في بيانه شأن أكثر اللغويين في الأعصر الغابرة، لا يبرزون في الشعر ولا في النثر ونسج الكلام غير الإحاطة بالألفاظ. والبناء غير المهندس.

اتصلت به سنين آخذ الأدب عنه فكتب لي شرف الاطلاع على تواضعه وتقواه وكرمه وعزوفه. وقلّ فيمن غلب عليهم التصوف أن جاء منهم عالم وأديب على هذا المثال البارع الذي كان عليه أستاذنا المبارك.

لا جرم أنه أخذ من التصوف أحسن ما فيه، وهو باب الأخلاق، واطرح ما فيه فضول وكسل وقلة عمل وتخريف لا يقول به الشرع.

قلت له مرة: إن الحكومة آخذة بتوزيع أراضٍ على المغاربة، وبلغني أنهم عرضوا عليك أن يملكوك جانباً مهما منها فأبيتَ فما سر رفضك؟ فقال: لا أريد أن أشغل ذهني في شيءٍ لا أحسنه، أما ابني فله أن يأخذ إن شاء. وقال له بعض المختلفين إلى مجلسه: إن ابنك يصحب «كرد علي» ويخشى عليه أن

(١) منها: «غريب الأنبا في مناظرة الأرض والسما»، «أبهي مقامة في المفاخرة بين الغربية والإقامة»، «لوعة الضمائر ودمعة الناظر في رثاء الأمير عبد القادر».

(٢) ساقطة من الأصل.

تسري أفكاره إليه. فقال له: إذا بلغك أنني غير راضٍ عن صحبتك فلا تأخذني، وأنت حر أن تصادق من تريد وأنا راضٍ عن هذه الصداقة.

وجهت إليه الدولة رتبة علمية من دون أخذ رأيه فاستاء جداً ولم يقبلها، ولم يسع إلى الوالي ليشكره على الأقل على توجيهها إليه، وكان ينقبض إذا ذكرت له، وما رأيته يغضب قط إلا عند ذكر الرتبة، وهو الذي عاش حياته بعيداً عن أصحاب السلطان، واختار لصحبه أناساً من طبقة التجار والباعة، يعلمهم البسائط ويوسع مداركهم حتى يشاركوا في العلم ولو مشاركة خفيفة. وما أخذ بعض أبناء طريقته منه إلا بقدر استعدادهم وذكائهم. وكان يتبرم بأصحاب الفضول منهم، ويصبر الصبر الجميل على سماع أحاديثهم.

كان الشيخ مثلاً صالحاً من التوكل على الله، وما كان يضنّ على من يقصده لمعاونته وتفريج ضائقته.

رأته غير مرة يعطي مستجديه كل ما يحمل في كيسه من دراهم، يصبه له في منديله. وربما كان ساعته لا يملك غير ما وهب، ولا يدري من أين يطعم عياله في المساء. وهذا من الزهد الذي لم يؤثر مثله إلا عن كبار الزهاد والنسك في الدهر الغابر.

كنت أعجب بزهد شيخ عرفته، فلما مات سقطت الحكومة في غرفته في المدرسة على مقدار كبير من الدنانير والريالات خبأها بين الحطب والفحم والفرش والغسيل فأين تقشّف منْ تقشّف؟

كان الشيخ يدعو كل مدة إلى طعامه، على أكلة للمغاربة فاخرة بعض أحبائه وأناساً من فقراء أهل طريقته، ويوليهم من لطفه ما لا يستكثر ممن كانت له مثل أخلاقه وبسطة يده. وأعظم ما كان يتألم له قبحه بعض تلاميذه واجتراؤهم على الغيبة والنميمة في حضرته، فينقبض الشيخ انقباضاً يظهر في أسارير وجهه. وهم يعلمون أنه لا يرضيه أن يذكر أحد بسوء في مجلسه ومن عادته أن يسكت حتى عمّن يؤذيه. وكان يتجهّم لمن كان يغشى مجلس إخوانه

من دون معرفة سابقة، كان تصوفه ممزوجاً بروح السنة وحكمة الحكماء. وما سمعته يحمل على من لا يتابعونه على آرائه، ويكتفي بتجنُّب مجالسة من لا ترضيه حالتهم.

حدثني حفيده: أن جده كان مرةً ماراً من شارع فقال له أحدهم: إن موكب إمبراطور ألمانيا سيمر من هنا الآن، فما كان من الشيخ إلا أن أدار وجهه إلى الجدار ووقف لا يتقدم ولا يتأخر حتى اجتاز الموكب.

وكان بعضهم يدَّعي للشيخ أنه يشفي من الصرع، شهدت جلسة منها في داره، وقال لي لما صحا المصروع: إن هذا لأجل المعاش، مشيراً إلى أنه هو ممن لا يعتقد ذلك، ولكن المصروعين يعتقدونه. ومثل هذه المسائل هي فيه قليلة جداً. أتته من طريق الوراثة. ومثلها مما يتعاطاه قومه المغاربة.

كان المترجم له في دائرة ضيقة في التأليف، لما كان في عشرة الناس على مثل ذلك. ولو قُدِّر له أن يتنقل في الأقطار، ويخالط الناس أكثر مما خالطهم لتبدل حكمه على بعض مسائل الدنيا.

أخذ العلم عن أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري في جملة من أخذ عنهم، وحصل الفروع التي استهوته. أما الفروع الأخرى كالتاريخ والاجتماع فلم يُقسَم له حظ منها. فلنا أن نصِّفه بأنه أديب على طريقة أدباء القرن الماضي، ومتصوف يشبه قدماء المتصوفة بهذبه وخلقه. نفع من أخذوا عنه إلى حد معين، وما تَطالَّ إلى ما ليس في طاقته.

كان الجِدُّ يغلب على الشيخ في معظم حالته. أنشأ في شبابه مدرسة في محلة الحُوياطية من محلة الشويكة في أرباض دمشق^(١). وفي ذاك الحي كان يسكن جالية الجزائر. ثم درَّس مدة قليلة في قرية داعل في حوران، وبعد ذلك

(١) الرض (بفتح الراء والباء): الناحية وما حول المدينة من أرض فضاء، ومحلة الشويكة اليوم من أحياء مدينة دمشق الجنوبية.

أنشأ مدرسة ابتدائية في قرية الريحانية^(١) ومنهجها على الطريقة القديمة في التعليم، إلا أنها ما كانت تعارض علوم المدنية. وكان اعتماده في كسبه على عمله والغالب أن الأمير عبد القادر الحسني كان رتب له مشاهرة، ويوليه من عطفه، على ما كان شأنه مع جميع من اختار معاونتهم على شقاء الحياة من أهل دمشق، فكانت لهم عليه رواتب يتقاضونها رأس كل شهر.

ذكر الأمير مرة في مجلس الشيخ فبكي وأجهش بالبكاء وترحم على الأمير كثيراً فأبان عن رقة في شعوره واعتراف بعوارف أميره.



(١) الأصل: في مدرسة الريحانية، وهو سبق قلم. والريحانية في ظاهر دمشق من الناحية الجنوبية قرب القدم.



محمد مصطفى المراغي (١)

١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ

١٨٨١ - ١٩٤٥ م

لم تنبغ أمة من الرجال في العلم والأدب بقدر ما نبغ من العرب ومن دخل في جملتهم من الأجناس والعناصر. حقيقة اعترف بها من تجردوا من الغرض في الحكم على تاريخنا من الإفرنج. بيد أن من كان لهم طابع خاص، وأثروا تأثيراً لم يؤثره غيرهم كانوا قلائل في كل جيل، ولا سيما في القرون الأربعة الأخيرة. فلو فرضنا أن من استحقوا أن تدون سيرتهم في هذه الملة لا يقلُّون عن مئة ألف، لا يتجاوز النوابع الممتازون منهم المئات، ظهوروا خلال عمر هذه الأمة الطويل، وخدموا بأبحاثهم وتكليفهم ودروسهم ومواعظهم.

وقد وضع العلامة ريبيرا^(٢) من علماء المشرقيات من الإسبان جزازات في تراجم ثلاثين ألف عالم وأديب، أخرجتهم الأندلس من رجال العرب في ثمانية قرون، وليسوا كلهم بالطبع من عيار ابن رشد وابن باجه وابن حزم وابن

(١) ترجمته في الأعلام ٧/٣٢٤، معجم المؤلفين: ١٢/٣٤ الأعلام الشرقية ٢/١٧٦ المجددون

في الإسلام: ٥٤٥، ولأنور الجندي كتاب في سيرته عنوانه: (الإمام المراغي).

(٢) لعله ريبيرا أي طراجو (ت ١٩٣٤) ولد في كركخنة من أعمال بلنسية، وتعلم العربية على المستعرب كوديرا، وتخرج في جامعة سرقسطة، وعين أستاذًا للعربية فيها، ثم اعتزل التدريس وعكف على التأليف.

ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٢١ ص ٢٨٩.

زُهر وابن الخطيب وابن خلدون، كما أن من ظهوروا في الشرق ليسوا كلهم من طبقة الرازي وابن سينا والفارابي والبيروني وأبي حنيفة والجاحظ والنظام والخليل وابن المقفع وابن تيمية.

ظهر في الإسلام ألوف من المحدثين، والطبقة المختارة منهم عشرون أو ثلاثون. وظهر عشرات الألوف من الفقهاء، وأهل الطابع الخاص منهم الممتازون بإبداعهم ليسوا كثرة، وخرج مئات من الحكماء، والمشهورون منهم لا يَعدون العشرات. إن الدساتير يحفظها أكثر من يعانون أعمال العقل، والعبرة بما يتم على أيديهم، وبما يحملون إلى أمتهم من جديد يجدي عليهم.

كان العلم في العصور الماضية يصدر عن العواصم الكبرى، يهرع إليها أرباب الكفايات لما يجدونه فيها من استعداد لسماع أقوالهم والانتفاع بمواهبهم. وكانت المدن الذاهبة بهذا الفضل بادئ بدء البصرة والكوفة والمدينة ودمشق وبغداد والفسطاط والري وشيراز وأصفهان ونيسابور، ثم النجف والموصل وصنعاء وصعدة وفاس والقيروان وتونس والقاهرة. ولما تحيف الخراب معظم هذه العواصم بقيت القاهرة وتونس وفاس والنجف تخرُج علماء للأمة، فعُدَّت لذلك مراكز علم. وكان الجامع الأزهر أشهرها وأعظمها لتوسط مصر بين مدن الإسلام. ولأن أهل الخير من سكانها وقفوا على هذا الجامع من الأحباس ما يضمن الانتفاع به على الدهر. ولأن مصر كانت في الإسلام دولة برأسها، أو شبه دولة متمتعة بحكم ذاتي، ظل الأزهر يخرج رجال الدين منذ أقام صلاح الدين يوسف بن أيوب دولة السنة، وقضى على دولة الشيعة الباطنية. وكان أصحاب الفضل الواسع المتخرجون في تلك الدار أقل من القليل، والمتوسطون كثرة، على ما هم في كل زمان ومكان، والمتوسط في العامة يُنسى، والمبرِّز هو الذي يفاخر به تاريخ الأمة، ولا تريح الألسن تردد ذكراه، والصحف تنقل آراءه وأخباره، والناس يستفيدون من كلامه ما انعقدت للعربية سوق، وأقيمت شعائر الإسلام في أرض.

وممن نبغ في مصر من المتأخرين شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي، اشتهر لأنه تولى أعظم منصب في الإسلام، فقد يتولى المتوسطون بعلمهم أسمى الرتب، وهم لا يَعدون حفظ ما جرت العادة بحفظه ولا تمثلوا ما قرؤوه. اشتهر لأنه جمع إلى الفقه والأصول ما تُعوز العالم معرفة من أصناف العلم، فما أتقن علوم الدين، وقال قُطني^(١)، بل تعلقت همته بمطالب أخرى، فشارك مشاركة لا بأس بها في المعارف التي كان رجال الأزهر ينفرون منها. وهذا من النادر في العلماء المعاصرين، ونعني بالعلماء هنا علماء الدين، وكان العلم إذا أُطلق يراد به علم الكتاب والسنة فقط. والقاعدة عند من انصرفوا إلى هذا الضرب من العلم أن صاحبه لا يشغل قلبه بغيره من أصناف المعرفة التي كانت في القديم العامل الأول في تميز العرب على من عاصروهم من الأمم، وهي في العهد الحديث من أعظم الأسباب في قيام الحضارة الغربية.

ومن أهم ما ساعد المراغي على تفوقه على أقرانه أن امتاز بذاكرة قوية، يذكر ما مر به من أربعين سنة لا يخرم منه معنى. وقد جمع إلى ذكائه الفطري استقلال الفكر وحب الاطلاع، فما سد أذنيه وعينه عن سماع الجديد والنظر فيه، وكان على مثل اليقين أن مجد الإسلام لن يكتب له الظهور إن لم يقرن بالعلم الجديد، استظهر القرآن وتدبره، وحفظ بضعة دواوين لشعراء معروفين من أهل الجاهلية والإسلام، وحفظه الحظ فتخلص من القيود التي وضعها أهل كل مذهب، وقضوا أن تؤخذ أقوال صاحبه قضايا مقرررة يحظر على العقل أن يجول فيها. وعزم منذ تمت أدوات ثقافته أن يستقي من ينابيع الشريعة الصافية، ولم يُغفل ما وضعه أهل المذاهب الجماعية من الآراء والأحكام، وما تشدد فيما رخص به الشرع أو أقرته المذاهب الأخرى، ودعا للعمل

(١) قطني: حسبي.

بجوهر الدين من دون ما تزمت ولا تضييق. وما كان فيه جمود من أحملتهم التقيّة، وما اتسعت صدورهم إلا لما روره عن مشايخهم، أو وقفوا عند حد ما قرؤوه في الكتب، وما عبؤوا بسواه. نظر، وهو في سن الطلب، في علوم لم تدخل برنامج الأزهر، وشعر بفساد طريقة المشايخ في تدريسهم، وشارك في الشكوى من الشروح والحواشي والهوامش، ولطالما كانت تريك ذهن الطالب وتقصيه عن معرفة اللغة وعن روح الشريعة، ليخرج كالبيغاء، يحفظ ما يلقنه دون أن يفهم معناه، وكان، بقدر ما يُعنى بالأخذ عن شيوخه، يعتمد على درسه الخاص، ويقدر ما كان يدأب على تحصيل دروس الأزهر، يسمو به الشوق إلى الاطلاع على ما في علوم الغربيين من متاع الروح والعقل. وقد قيل: إنه تعلم اللغة الإنكليزية أيام كان في السودان قاضيًا. وأصبح يفهم الكتب العلمية فيها، وأنه قرأ ترجمة مير علي للقرآن باللغة الإنكليزية، وكان يصحح ما وقع من غلط في الترجمة الإنكليزية. نعم لم يقيد الشيخ نفسه باعتبارات الأزهريين كثيرًا، شأن بعض النوابغ يشدون أحيانًا عن مصطلح قومهم. ويكون الخير في هذا الشذوذ.

استطال الشيخ أعوام الدراسة على ما يظهر، وهمته تحفزه إلى الإسراع بالخروج إلى ميدان العمل، فتقدم لامتحان العالمية، وجاز السنتين الأخيرتين في سنة واحدة، كما قال لي عن نفسه، معتقدًا أنه ما دام قد تعلم ما يُطلب منه معرفته، فالواجب أن يُقدم ولا يضيع وقته في الانتظار. وبهذا أثبت أن الطالب قد يتعلم في بيته ما يوازي ما يأخذه من حضور الدروس في أوقات مخصوصة على معلمين بعينهم^(*). أما هو فقد جمع بين الفضيلتين. ما زهد في التلقي، ولا اقتصر عليه، وروى العارفون أنه حضر على المشايخ قراءة الكتب المطولة المعروفة عند الأزهريين، إلا أنه ما أتم قراءة كتاب منها، ذلك أنه كان يرى أن من العبث صرف الوقت في حل معميات هذه الأسفار.

(*) يريد: بأعيانهم (المراجع).

تولى القضاء قبل أن ينتصف العقد الثالث من عمره، وأبان عن مقدرة على معاناته، وظهر أنه عارف بسياسة العلم وسياسة الخلق فكأن والده، وهو رجل شرع مثله، أورثه خير صفات من يعدلون بين الناس. وكانت داره في الصعيد الأعلى مفتحة الأبواب لحل مشاكل قومه وفض خصوماتهم، وقد أخذ القاضي الشاب من بيته من الأخلاق عِدْلَ ما تعلمه في الأزهر من علم، فسعد أبوه به وبياخوته، وهم بضعة علماء وقضاة، على رأسهم ابنه الأكبر شيخ الأزهر الذي تولى هذه الرياسة العظيمة في حياة أبيه. أما بنوه فقد ربوا تربية مدنية ليس فيهم من لاث العمامة^(١) على رأسه.

أصبح المراغي شيخًا للأزهر في التاسعة والأربعين من عمره، وندر من تولى هذه المشيخة وهو في هذه السن، فأتى بنشاط الشباب وحنكة الشيوخ، اهتم الاهتمام كله لإصلاح الأزهر الذي كان واضح أساس الإصلاح فيه شيخه وشيخنا الأستاذ الإمام محمد عبده، ولما شعر بأن لائحته في إصلاح الأزهر لن تقبل، استقال ولزم بيته محتفظًا باستقلال فكره وعزة نفسه، وخلفه في الرياسة الشيخ الظواهري، وكان أشبه بشيخ زاوية منه بشيخ علماء. وانحصر عمله في الإصلاح بطرد سبعين عالمًا من خيار علماء الأزهر. وعاد الشيخ المراغي إلى الأزهر ثانية بعدما تركه الشيخ الظواهري بإهانة لم يُهن مثلها شيخ قبله. يشمر عن ساعد الجد في إصلاحه، وأتم وضع أساس كليات التخصص ككلية علوم اللغة العربية وكلية أصول الدين وكلية العلوم الشرعية، وكان يعتقد أن الأزهر يحتضر منذ طلبت وزارة الأوقاف، وهو من مفتشيها خطبًا منبرية فجاءها خمسمئة خطبة لم تصلح واحدة منها لأن تلقى على المصلين.

قال في مذكرته الإصلاحية: إن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعاهد

(١) لاث العمامة: عصبها ولنفا.

منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة في نهضة التعليم، وأقرر أن نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمنه وعلى دينه. وقد صار من المحتم لحماية الدين - لا لحماية الأزهر - أن يغير التعليم في المعاهد، وأن تكون الخطوة إلى ذلك جريئة ويقصد بها وجه الله تعالى، فلا يبالي بما تُخذه من ضجة وصراخ، وقد قرنت كل الإصلاحات في العالم بمثل تلك الضجة. وإلى هذا شجع الشيخ أيضًا البعثات الأزهرية، ومتى كان الأزهر يقول بأكثر العلوم الحديثة حتى يذهب نوابغ طلابه يستزيدون من العلم في جامعات الغرب، ومتى كان طلاب الأزهر يدرسون اللغة اليابانية وغيرها ليكون منهم دعاة يدعون إلى الإسلام على نحو ما يدعو المبشرون إلى النصرانية. وفي أي عهد قرنت الفلسفة في هذا الجامع وشرحت قضاياها بحرية كما كان في زمن المراغي؟ هذا إلى غير ذلك من الأمور التي كان يريد بها إطلاق عقول الأزهرين من عقالها وإدخالها في طور جديد ينفع.

حاول الشيخ النهوض بالأزهر بتثقيف خريجه ثقافةً جديدةً، وكان يحز في قلبه تخلف أهله في علمهم وعملهم وهو القائل في وصفهم: إنهم استكانوا في القرون الأخيرة إلى الراحة وظنوا أن لا مطمع لهم في الاجتهاد فأقلوا أبوابه ورغبوا بالتقليد، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث، وجهلوا ما جدّ في الحياة من علم، وما جدّ فيها من مذاهب وآراء، فأعرض الناس عنهم، ونقموا هم على الناس، فلم يودوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حَمَلَة ولا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين.

في إحدى جلساتنا في دار الشيخ المراغي في حلوان أيام كونه معتزلاً الأزهر - وكثيراً ما كانت تدوم الجلسة ثماني ساعات - تفضل وقرأ عليّ بعض تقاريره الدينية، ومنها تقريره في الأحوال الشخصية الذي صدر القانون

المصري عليه، وهو التقرير الذي لم يتقيد فيه بالمذاهب الأربعة، وأخذ من أكثر المذاهب المعتمدة، وكتبه ببيان يقلّ نظيره في الكتابات الرسمية، رجوته أن يطبع ما كتب، فما رأيت منه ميلاً إلى النشر. وكان عمله في هذا الباب لا يقل نفعاً عن فتواه في الحد من الطلاق، وقبله كان باب الطلاق مفتوحاً على مصراعيه، وقد طلب فاروق ملك مصر أن يفتي في مسألة زوجته بما يخالف الشرع فأبى، مع علمه أن امتناعه قد يغضب المستشير.

ومما دل على علو كعبه في حرية البحث فتواه في جواز ترجمة القرآن، وله في هذه المسألة الصعبة بحث ممتع نشر في مجلة الأزهر. وفي هذه المجلة طائفة من تفسيره بعض سور الكتاب العزيز، وبعض خطبه وآرائه، وفيها فتواه في المعضلات، وهي تدور على تقريب الناس من الشرع، والتوفيق بين الدين والمدنية.

وقد حملت تقاريره وتفاسيره من أساليب البلاغة ما يستكثر من شيخ أزهرى، وفي الرسائل القليلة التي دارت بيننا نموذج من فصاحته وبلاغته، وكان يكتب - لا يتكلف - بالفاظ عذبة رقيقة لا سجع فيها، وعبارته رشيقة موجزة تشبه عبارات المؤلفين في القرن الرابع والخامس، وتغلب عليه ألقاظ القرآن، وتحس أن كاتبها متشبع إلى الغاية بألفاظه ومعانيه. أما طلاقة لسانه فكانت كبلادة قلمه، وربما ظن السامع وهو يتلو درسه أو عِظَتَه أو خطبته أنه يقرأ من كتاب أو من حفظه؛ لأنه يشاهده وقد نسق كل فكر إلى جانب أخيه، ووضع ما يروي وما يريد أن يعلق عليه في موضعه.

كان الشيخ حنفي المذهب، ويأخذ من المذاهب الأخرى ما يناسب العصر والمصلحة، وكان في اطلاعه على المذاهب الأخرى آية، وكثيراً ما قال للجنة الأحوال الشخصية عند البحث في الهبة والرصية والوقف: ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم.

ومن رأيه توحيد المذاهب. وقال في إحدى مذكراته: «يجب العمل على إزالة الفروق المذهبية، أو تضييق شقة الخلاف بينها، فإن الأمة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق». ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسي، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية، وبقيت تلك الآراء الدينية لا تتركز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها. وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن الكريم، وجعلتها شيعا في الأصول والفروع، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين، ونتج عنه سخف، مثل ما يقال في فروع الفقه: أن ولد الشافعي كفاء لبنت الحنفي، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة، وعذبات العمائم، وطول اللحي، حتى إن بعض الطوائف لا يستحي من ترك مساجد جمهرة المسلمين، ويسعى لإنشاء مساجد خاصة».

وقال: يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة، والأحكام المجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية يجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة، كما كان يفعل السلف من الفقهاء.

وقال بشأن دراسة التفسير والحديث: يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة، وأن تدرس السنة دراسة جيدة، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة، وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما ظهر للعلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق مع قواعد اللغة العربية.

وصرح أن الكتب الأزهرية معقدة لها طريقة خاصة في التأليف، لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية، وإنما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها، وعرف اصطلاح مؤلفيها. وقال: كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة في عبارات الكتب، وكان هذا هو كل شيء اشتهروا به في العلم، وما كان يوجد فيهم من يستطيع أن يحاضر في موضوع علمي، ولا أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقارنة المذاهب ونقدها، بل كانوا يعنون بالألفاظ، فلم تكن الدراسة شهية مثمرة.

نعم، هو يرى أن الشريعة جاءت لخير البشر، وما دسه فيها بعض المتأخرين بجهلهم أو تساهلهم يجب أن ينقى منها وي طرح. ويعتقد اعتقادًا جازمًا: أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه، من ذلك ما صرح به في جريدة الأهرام (غرة رمضان ١٣٦٣) في الصوم والإنطار مما لا يقوله إلا عالم فيلسوف:

«هناك أمور ينبغي أن يترفق الفقهاء فيها بالناس، وأن يراعوا قواعد السُّر التي هي أخص صفات الإسلام، يراعونها في العمال والمرضى ومن يخدم المرضى ومن يشابههم فيقربون الناس من الإسلام، ولا يوقعونهم في الحرج. وعندني: أن من يفطر بعذر ويصرح بذلك، أظهر ممن يفطر من غير عذر أو بعذر ويظهر أمام الناس بالتقوى، يرأى الناس ولا يخشى الله، والترخص في المرض، أو الترخص للمشقة في العمل يقدره أصحابها ويفتون أنفسهم فيها، والرقيب هو الله، والعلماء يبينون الحكم، وهو إباحة الفطر للمريض ومن لا يقدر على الصوم، أما تقدير القدرة فهو خاص بالعبد ولا شأن للعالم فيه».

وما انفك الشيخ يدرس ويعظ، ويكتب ويفسر القرآن ويدعو إلى الأخذ بالكتاب والسنة ويسهل على قاصديه وسامعيه فهم الشريعة السمحة، ويطبق أحكامها على العصر، أو يطبق أحكام العصر عليها، واعترف مرةً أننا لم

نوجد جديدًا نافعًا في علم من العلوم حتى الآن. قال مرة: «ولدى الأمة الإسلامية قضايا كثيرة معقدة، قضية الرجوع بالدين إلى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين. وقضية التعليم الديني على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب في الحياة، وما أخرجته العقول من ثمرات ناضجة، وقضية حماية الدين من العدوان، والدعوة إليه كما أمر الله بالحكمة، وقضية نظام الأمم الإسلامية وارتباطها بعضها ببعض ارتباط تعاونٍ وتناصرٍ، وقضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمرهم بحيث تخفف عنهم آلام الحياة وينتفع المجتمع بهم».

وهناك قضية هي أهم القضايا، وهي مقومات الأمم الإسلامية التي يجب أن يحافظ عليها ويبني المجد على أساسها، وهي قضية دقيقة يثور من أجلها عن قصد أو غير قصد خلاف بين المتعلمين وغير المتعلمين والمتمدنين وغير المتمدنين، ويترتب عليها نظام الاجتماع وقوانينه ونظام التقاليد والعادات.

ولدى الأمم الإسلامية ماضٍ يجزر أثواب الفخر والشرف في كل ميادين الحياة: في ميدان العلم وفي ميدان الفنون وفي ميدان السلطان والعز، وميدان التشريع والقانون، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضي والتخلص منه والزراية عليه والخط من شأنه، ويحاولون بناء مجدٍ جديدٍ على أرضٍ بيضاء بحيث لا يكون بين الحاضر والماضي صلة.

يحاول بعض الناس هذا مع أن الأمم التي ليس لها ماضٍ تحاول أن تخلق نسبًا بماضٍ مجيد، وبعض الأفراد الذين لهم ذكرٌ نابهٌ بأعمالهم وليس لهم نسبٌ معروفٌ بالمجد، يحاولون أن يخلقوا لهم أنسابًا معروفة بالمجد والشرف ليحدثوا في نفوس الأبناء شعورًا بعظمة من حقها أن يحافظ عليها.

وصف ما حمله القرآن من التعاليم، وردّ دعوى بعضهم أن فيه علوم الأولين والآخرين بقوله: «إنه كلما حدثت في العالم فكرة طريفة اجتهدوا في تلمسها في القرآن، وفرحوا إن استطاعوا الاهتداء إلى إشارة بعيدة إليها،

يفعلون هذا في جميع النظريات المرتبطة بالكون وأسراره، وقواعد الاجتماع والسياسة. ومن حقهم أن يفهموا أن المعارف البشرية غير مستقرة، وأنها تتغير وتتجدد بدلها معارف أخرى تختلف عنها أو تناقضها، وأنه ليس من الحكمة أن تربط هذه المعارف غير القارة بكتاب الله الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن الخير أن ندع كتاب الله يقرر لنا أحكام التشريع ويهدم الوثنية ويجتثها من أصولها، ويرفع العقل البشري إلى المستوى اللائق به، وبأخذ بيد الإنسان إلى المقام الأسمى اللائق بخلافته في الأرض، ويبين لنا العبرة والعظة بأحوال الماضين، ويغرس في نفوسنا تلك الأخلاق الفاضلة من الصبر والقناعة والرضى والشجاعة، ويفتح أمامنا أبواب العلم والهداية بما أشار الله من وجوب النظر فيما صنعه الله، خير لنا أن نفعل ذلك وندع العلماء يقررون معارفهم ويستدلون عليها ويحملون نتيجة خطئهم إذا تغيرت معارفهم وأثبت العلم نقيضها».

قال: نعم إن في الكتاب الكريم آيات لا تفهم حق الفهم إلا بمعارف فلكية وطبيعية، ولكن تلك لم تُسَق لتقرر تلك المعارف، وإنما نزلت للهداية والعبرة. فليس القرآن الكريم كتاب حساب وفلك وطبيعة، وإنما هو كتاب هداية وتنظيم لعلاقة الإنسان بربه وعلاقة أفراد الناس بعضهم ببعض.

أجمع أنصار السيد المراغي وخصومه على أنه كان من خير من تولى رئاسة الأزهر لصفات كثيرة اجتمعت له، وقلّ أن تجتمع لغيره. ذلك لأنه كان يعرف ما هنا وما هنالك، ويُعَدُّ من العلماء العارفين بأزمانهم معرفة ثاقبة. وطلب إليه أن يترك رئاسة الأزهر ويعطى ما شاء من الأقدنة والمال فأبى. وطلب إليه أن ينضم إلى جهة معينة في الرأي ويكون له ولأولاده وذوي قرباه ما شاء من الكرامة فأبى وقال: إن أولادي وإخوتي في نظري أقلّ من أبيع لهم كرامتي.

كان يستميل بحديثه قلوب سامعيه، وتفعل في نفوسهم نبراته اللطيفة، وإن

كانوا ممن لا يوافقونه على آرائه كلها. تأدب بأدب الدنيا وأدب الدين، إذا عاشرتة تتحقق أنه بلغ الغاية في التهذيب الحديث، مضافاً إلى ما تحلت به نفسه من فضائل الإسلام، ولا تلبث أن تقول: إن الشيخ يصلح لإمامة الدين كما يصلح لإمامة الدنيا، أي: أن يكون شيخ الإسلام يدعو إلى عقيدة وإيمان، وأن يكون رئيس وزارة يعاني من أحداث الزمان ما يعاني. ولا نكون إلى الغلو إذا ادعينا أنه قلّ في أمثاله من استجمعوا صفات العظمة الحقيقية. وله في باب الأريحية أشياء عرفت عنه بالعرض تدل على صفاء روحه وفضل نجلته. كان يتصدق في السر وهو ليس بغني، ويأخذ العهد على من يعطيه أو يكتم ما وصل إليه منه. وحدث أن أحد أصدقائه من أهل العلم هدد بالإفلاس إن لم يؤد ما استحق عليه من مال للحكومة، ففتح الشيخ دواوين الأزهر ليلاً لبيتاع منه مقداراً من الكتب ويدفع له ثمنها في الحال ليتقذ شرفه واعتباره.

ولقد انتخبه المجمع العلمي العربي عضواً مراسلاً فيه فاعتذر بكثرة أشغاله قائلاً: إنه استقال من المجمع اللغوي في مصر للسبب ذاته، ودعوته لأن ينزل عليّ ضيفاً في دمشق، ويصطاف في ربوعنا فتعذرّ عليه البرّ بوعده لأن حاله لم تمكنه من مغادرة القطر، خصوصاً بعد عودته ثانية إلى مشيخة الأزهر.

أخذت الأعمال الإدارية والسياسية والقضائية من وقت الشيخ الأكبر فكان شأنه شأن أستاذه الشيخ محمد عبده لم يخلف مؤلفات كبيرة يودعها لباب علمه وزبدة تحقيقه، وما خطته يمينه دعت إلى تسطيره أمور اقتضتها حالة عمله، وعندي أن تقاريره ومذكراته ومقالاته كافية في الحكم عليه، وافية في تخليد اسمه إذا تيسر لها من يجمعها ويطبّعها. ورب صفحة تعادل بفائدتها رسالة مطولة. وكمن رسالة أنفع لقارئها من تلاوة المجلد الكبير. وللشيخ مذكرات يومية شرح فيها مواقفه مع رجال السياسة من المصريين والأجانب

ولما تطبع. ولم تُحل المناصب الخطيرة التي تولاها دون عمل ما ينفع الإسلام والمسلمين. وما كان يستهويه غير النهوض بالمصريين. يتلطف، وهو الدَّرَاكَةُ النَّطَاسِي^(١). في وصف الدواء الناجع لأسقامهم. وما كان يغفل عن معاونة كل مسلم يهبط مصر من القاصية ليرشف من معين العلم في الأزهر. مع أنه لم يزر بلادهم ولم يختلط كثيراً بأهلها.

وأهم ظاهرة بارزة في أخلاقه تجرده من المطامع التي قد يتلوث بها بعض أهل صناعته. فما أتى ما يشين سمعة العالم. وعلى طول قلبه في درجات القضاء، وآخرها رئاسة المحكمة الشرعية العليا، ما أحصيَتْ عليه زلة تال من مروءته وشرفه. وكان أحكامه مثال العدل، يتحدث المتحدثون بها. لا يصانع في الحق ولا يداجي. وفي قضية الإرث الكبير الذي كان يقدر بملايين من الجنيهات، وما أبداه الشيخ من المتانة في إحقاق الحق مثال من تقواه. حتى لقد قُذِفَ بماء الفضة في عنقه يوم صدور الحكم وهو في طريقه إلى المحكمة في القاهرة، ليتعذر عليه الحضور، فأصر على الذهاب وأصدر حكمه. ولو كان حب الدنيا مستحكماً فيه أكثر من حب الدين لجوّز لنفسه تناول ما يغنيه من المال يدفعه المدعي راضياً، ولكنه كان يحسب حساب يوم الحساب.

ولما استقال من قضاء الخرطوم وعاد إلى القاهرة أخذ يتبلغ بوظيفته مفتش مساجد في الأوقاف، وصلى الخديو الجمعة في مسجد من مساجدها فلاحظ على المفتش أن الإمام أعمى، فأجاب أن الإمام وهو الشيخ الدجوي من جماعة كبار العلماء، واستوفى شروط الإمامة، والعمى لا يمنعه من القيام بما يطلب منه، فغضب عزيز مصر. ولما عرضت عليه حكومة السودان منصب قاضي القضاة اشترط أن يكون تعيينه بمرسوم خديو. فقبل له: إن مشاهرتك

(١) الدراكة: صيغة مبالغة لاسم الفاعل من الفعل (أدرك) والنطاسي: العالم.

ستزيد بضعة أضعاف راتبك الحالي، وأنت تشترط مثل هذا الشرط، فكان له ما أراد. أما الخديو فرجع عن رأيه في المراغي، وأدرك أنه قوَال بالحق يهتم لدينه. ولا يعبأ بالظواهر كثيراً. ولما ثارت مصر - وهو قاضي قضاة السودان - كان في مقدمة المتظاهرين، فلم يسع حكومة ذاك القطر إلا أن تمنحه إجازة طويلة، فأضاع منصبه. وجرى في مجلسه ذكر هلاك من لم يُسَلِّموا من الإفرنج فأورد أسماء عظماء خدموا الإنسانية منهم وقال: إنهم ناجون؛ لأن الدعوة إلى الإسلام لم تصلهم، ونحن قصرنا في هدايتهم، فلو كنا عرضنا عليهم الدين وما استجابوا له ربما ساغ لنا أن نقول إنهم هالكون. وقال لي: إنه حرص إحدى الفتيات - لما خاف عليها الفتنة عند طلاق زوجها لها - على تعلم اللغة الفرنسية، فشغل وقتها بما سلاها في محبتها. وكان من نصيحته أن تعلمت اللغة من حيث لا تشعر. ولما مر ملك إنكلترا بسواكن، وكان قاضي قضاة السودان، استقبله مع الحاكم العام وصافحه كما يتصافح المتماثلون، فقال بعض الإنكليز: كان يصح أن ينحني للملك كما انحنى المستقبلون فقال: ليس في ديننا سجودٌ لغير الله. واجتمع يوماً إلى سفير بريطانيا العظمى في مصر فقال له هذا: إن السمكة تفسد من رأسها، مشيراً إلى بعض المقامات العليا، فقال الشيخ: إن السمكة تفسد من بطنها. قال السفير: هذا غير صحيح، وأنا صياد أعرف السمك معرفة جيدة. قال: الغالب أنك تحسن الصيد في نهر التيمس، والصيد في النيل غير الصيد في التيمس.

ولما قيل له وهو في مشيخة الأزهر: أنه كان الأولى به أن يبتعد عن السياسة ويُبعد الأزهر عنها، وأن يشغل به أوقاته قال: إن الإسلام دين السياسة، ولا يسعه أن يتخلى عنها. وفي أيامه انقسم الأزهر قسمين بتأثيرات الحزبية فاضطر شيخه إلى أن يقف إلى جانب الفريق الذي اعتقده على الحق، فسبب له ذلك اضطرابات نفسية ما حمدت مغبتها على صحته. ولو سئل عن

سلوكه هذا ما عدم حجة يبرىء بها نفسه من الوناء^(١) المشهود في إنهاض الأزهر على عهده الأخير. والداخل يعرف ما لا يعرفه من وقف وقفة المتفرج في الخارج.

ولو انتفع الناس ببعض ما تفيض به قرائح المصلحين ما بقي في الناس جهول ولا ضال. وواجب دعاة الإصلاح أن لا يتوانوا فيما تمحضوا له مهما قل المستفيدون منهم.

كان المراغي على أوفر نصيب من العلم والعمل، فهو شخصية نادرة بين أهل جيله.



(١) الوناء: الفتور والتعب.



محمود سامي البارودي (١)

١٢٥٥ - ١٣٢٢ هـ

١٨٢٩ - ١٩٠٤ م

كان البارودي أول من أخرج الشعر في القرن الماضي (*) من ركاكته وابتذاله. خرج به عن بعض قيود الأقدمين، وسما به إلى الذروة بين المعاصرين. ولقد كان أحد كبار أساتذتي يقول: إن الشعراء الأربعة في هذا العهد: البارودي وصبري وحافظ وشوقي. لم ينبغ في الشعر أمثالهم منذ عهد أبي تمام والبحثري والتمتبي والرضي.

لمحمود سامي البارودي شخصيتان: شخصية سياسية حُفظت ذكراها في تاريخ مصر السياسي، وشخصية أدبية يعجب بها كل من شارك في أدب العرب. وما طغت الأولى على الثانية، وبالعكس، بل جرى بينهما تفاعل وتعاون على ما يظهر.

(١) استرشدنا في الترجمة للشعراء الذين عاصرناهم بأراء من وصفوهم، ونحن نبني حكمتنا أو بعضه على آراء من هم أعرف منا في هذا الباب (المؤلف). وانظر مقدمة ديوانه المطبوع في دار الكتب الوطنية بمصر سنة ١٩٤٠ بقلم محمد حسين هيكل وترجمته في الأعلام ٤٧/٨، ومعجم المؤلفين ١٢/١٦٥ تراجم مشاهير الشرق ٢/٣٩٢، رواد النهضة الحديثة: ١٠٩، في الأدب الحديث ١/١٦٧، الأعلام الشرقية ١/١٦٣، شعراء مصر: ١١٩. تاريخ الشعر العربي الحديث: ١٨ محمود سامي البارودي لعمر الدسوقي، ولخليل مطران، الأدب العربي المعاصر: ٧٣، الرائد ٦١٥.

(*) يريد القرن التاسع عشر (المراجع).

ولد البارودي في مدينة القاهرة سنة ١٢٥٥ هـ من أب جركسي اسمه حسن حسني بك، كان مدير دنقلة وبربر على عهد محمد علي والي مصر. والبارودي نسبة لأيتاي البارود من عمل البحيرة، كانت في التزام أحد أجداده في عصر الالتزامات. وكان الملتزم يومئذ يدعى باسم القرية التي التزمها، وكان شاعرنا جدّ حريص على أن ينسب إلى المماليك سلاطين مصر والشام، وقد وضع جُعلًا لمن يأتيه بما يثبت نسبه إلى هؤلاء المماليك. وسواء صحت هذه النسبة أم لم تصح فهو ولا شك من بيت مجدٍ وسعة، وفيه فضائل وآداب، وكفت عشرات من عقود السنين لأن تجعل منه عربيًا بتربيته ووطنيته ومنازعه.

درس في المدرسة الحربية، وأتقن التركية والفارسية على عادة أبناء الكبراء في الدولة العثمانية على عهده، وأخذ العربية والآداب عن الأستاذ الشيخ حسين المرصفي، ونشأت معه صداقة دامت حتى فرق الموت بينهما، وكان المرصفي أول من دل على مكانة البارودي في الشعراء باقتباس قصائد لتلميذه في كتابه «الوسيلة الأدبية».

نشأ للبارودي منذ الصبا غرام باستظهار جيد الشعر، فقاله بالسليقة أولاً قبل أن يتعلم النحو والصرف والعروض. بمعنى أنه تعلم الأدب بالعمل أكثر مما تعلمه المعاصرون بالنظر، حتى إذا بلغ العشرين استوى شاعرًا فحلاً بدُّ أعظم شعراء جيله. ولكثرة ما استظهر من شعر القدماء تكاد تحس في بعض أبياته أنه أخذ البيت الفلاني من الشاعر الفلاني، وما أخذ منه في الواقع إلا كلمة أو كلمات، واقتبس معنى سبق إليه، أو أسلوبًا من أساليب القول أثر عن غيره.

هكذا أتم البارودي شاعريته بفطرة سليمة جهّزها بخير جهاز، وكان يعاود شعره بالتصفية والترويق المرة بعد المرة. وفي رأيه: أن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض

لألاؤها نورًا يتصل خيطه بأسلة اللسان^(١) فينبعث ألوانًا من الحكمة ينبجج بها الحالِك، ويهتدي بدليلها السالك، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلفت معانيه وكان قريب المأخذ بعيد المرمى، سليمًا من وصمة التكليف، بريئًا من عشوة التعسف، غنيًا عن مراجعة الفكرة، وقد حقق قوله هذا في شعره فكان المبدع الأول حقًا.

نشأ البارودي نشأةً عسكرية، وخرج من المدرسة برتبة صغيرة. وما زال يتدرج في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة أميرالاي، وانتدبته حكومته على رأس فرقة لإطفاء ثورة كريت. وفي هذه الجزيرة ظهرت بواكير شعر البارودي، وتطلعت إليه النفوس، تتعرف بشاعر ولا كالشعراء ممن قصروا شعرهم على المديح والثناء والهجاء والغزل. شاعر ينظم في مطالب جديدة وقديمة من الشعر. ينظم في الغزل والفخر والوصف وهموم النفس والحياة على غير تلك الطريقة البالية، وقد جرد كلامه من أنواع البديع الذي أفسد اللغة وسار به في طريق الجزالة وتجويد الديباجة وتخير المعاني واستجادة الألفاظ.

طريقة كانت معروفة للقدماء فعراها الضعف منذ قرون فعُدَّ البارودي بإحيائها مجدّد الشعر العربي، ولم يأت البارودي بشيء جديد في شعره من حيث الأسلوب، وأخذ بطريقة فحول الأقدمين وشدّبها وهذبها وأحيها حياة جديدة. وقرض الشعر كما قرضه المُقلِّقون من شعراء الجاهلية والإسلام على ما عجز الشعراء منذ قرون أن ينظموا مثله.

وما زال البارودي يتدرج في الرتب والمناصب على عهد إسماعيل، ويتندب للمهمات في الآستانة وأوربا، حتى كانت حرب الدولة العثمانية مع روسيا سنة ١٢٩٤ فسافر إلى البلقان وأبلى بلاءً حسنًا في قتال الأعداء، وعاد إلى مصر برتبة لواء. وفي حرب المورة هذه نظم أجمل القصائد، ثم عين

(١) الأسلة: الرمح والنبل، وكل عود لا عوج فيه.

مديراً للشرقية ومحافظاً للعاصمة ومديراً للأوقاف ووزيراً للأوقاف ووزيراً للحرية ثم عهد إليه تأليف الوزارة فتولاها مع وزارة الحرب. وفي غضون هذه المدة نشبت الثورة العربية فاتهم البارودي بأنه مالا العرايين فجرت محاكمته معهم وحكم عليه بالنفي إلى سيلان. وبرأ البارودي نفسه من تهمة الاشتراك مع العرايين. والغالب: أنه عطف عليهم فقط كما يعطف السياسي في الظاهر على من يتوقع خيره ويخاف شره، وقال: إنه نصح لرجال الثورة، ولكن لما وقعت لم يسعه إلا السكوت، فما قال في ذلك وفيه صورة نفسه العظيمة^(١):

نصحت قومي وقلت الحرب مفعجة
فخالفوني فشبُّوها مكابرة
تأتي الأمور على ما ليس في خلدٍ
حتى إذا لم يُعُد في الأمر منزعاً
أجبتُ إذ هتفوا باسمي ومن شيمي
ومما قال^(٣):

نصحتُ فكذبتم فلما أتى الردى
فلم يبقَ في أيديكم غيرُ حَسْرَةٍ
فجاء الذي كنتم تخافون شره
ومما قاله في عاقبة الثورة^(٥):

(١) وجدت هذه الأبيات في كتاب عمر الدسوقي عنه ص ٧٩ عدا البيت الثالث. ولم أجد لها في طبعتي ديوانه.

(٢) رواية الأصل: نصحت قومي قلت...

(٣) الأبيات من مقطعة تتألف من أربعة أبيات ديوان (ط. المنصوري): ١٨٦/١ مطلعها:

لعمري لقد أهقلت من كان راقداً
وأنذرت لكن تنفع النذر

(٤) هذه رواية الديوان ورواية الأصل المخطوط: من بعده شر.

(٥) من قصيدة في ديوانه ١٢٦/٢ مطلعها:

كنا نود انقلاباً سنسريح به
فالقلب مضطرب فيما يحاوله
إن دام هذا أضاع الرُّشْدَ كافلُهُ
تنكرت مصر بعد العُرْفِ واضطربت
فأهمل الأرضَ جرّاً الظلم حارثها
واستحكم الهولُ حتى ما بيتت فتى
شهران أو بعضُ شهرٍ إن هي احتدمت
فإن أصبت فَعَنَ رأي ملكت به
نظم البارودي في معظم أغراض الشعر، وأبرز ما برز فيه الوصف
والحماسة والفخر. برز في الوصف؛ لأنه كان مرهف الحس إلى أبعد مدى،
والحماسة من شأن التربية الجندية وعلى هذا نشأ وتدرّب. وكان له في الفخر
يدٌ طولى لقدمه الذي يمت إليه، ويتناغى به على الأيام.

قال يصف الحرب الروسية^(٣):

أدور بعيني لا أرى غيرَ أمّةٍ
جَوَاثٍ على هامِ الجبالِ لِغارةٍ
إذا نحن سرنا صرّحَ الشرُّ باسمه
من الروس والبَلْغَارِ يُحْطِطُهَا المَدُّ
يطير بها ضوءُ الصباحِ إذا يَبْدُو
وصاح القنأ بالموت واستقتلَ الجندُ

= من خالف الحزم خانته معاذرة
(١) جوشن الليل: وسطه أو صدره.

(٢) الجديدان: الليل والنهار، والفواقر: ج فاقرة وهي الداهية التي تحطم فقار الظهر.

(٣) هذه الأبيات من قصيدة وردت في ديوانه ج ١/١٦٦ وما بعدها ومطلعها:

هو البين حتى لا سلام ولا رد
وقلها ٤٠ بيتاً وبعدها ١٦ بيتاً.

ولا نظرة يقضي بها حقه الوجد

فأنت ترى بين الفريقين كبة
على الأرض منها بالدماء جداول
إذا اشبكوا أو راجعوا الزحف خلنتهم
نشلمهم شل العطاش ونت بها
ومن جميل قوله يصف أجناس جيش الأعداء^(٤):
مكان اللظى ثلج بها وجليد
وزاحمها التاتار فهي حشود
هديراً تكاد الأرض منه تميد
لغير أبي هذا الأنام جنود
فتعرف آباء لهم وجدود
تناط^(٦) إليها أعين وخدود
يهجن للحن القول حين يجيد
يرود معي في القول حيث أروود
ولا أنا فيهم ما أقت مفيد
ومما قال في قصيدة مطلعها^(٧):

(١) الكبة: الدفعة في القتال والحملة في الحرب، والجعد: الكريم الجواد.

(٢) النقع: الغبار.

(٣) نشلمهم: نظردهم ونسوقهم ونفرقهم، والورد: النصب من الماء.

(٤) من قصيدة في ديوانه ج ١/ ١٧٢ مطلعها:

أراك الحمى شوقى إليك شديد وصبري ونومي في هواك شريد

(٥) الرطانة: الكلام باللغة الأعجمية، ورطنه: كلمه بها.

(٦) تناط: تعلق.

(٧) ديوانه ج ١/ ٣٨.

سِوَايَ بَتَحْنَانِ الْأَغَارِيدِ يَطْرَبُ وَغَيْرِي بِاللذَاتِ يَلْهُو وَيَغْجَبُ

حمامة نفس أصغرت كلَّ مَأْرِبٍ وَمَنْ تَكُنِ الْعَلِيَاءَ هِمَّةَ نَفْسِهِ
إِذَا أَنَا لَمْ أُعْطِ الْمَكَارِمَ حَقَّهَا خُلِقْتُ عَيَوفًا لَا أَرَى لِابْنِ حُرَّةٍ
فَلَسْتُ لِأَمْرٍ لَمْ يَحْنُ مَتَوَقِّعًا أَسِيرٌ عَلَى نَهْجِ يَرَى النَّاسَ غَيْرِهِ
أَسِيرٌ عَلَى نَهْجِ يَرَى النَّاسَ غَيْرِهِ وَإِنِّي إِذَا مَا الشُّكَّ أَظْلَمَ لَيْلُهُ
صَدَعْتُ جِفَافِي طُرَّتِيهِ بِكُوكِبٍ وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ:

وَلَوْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ مَا فِيهِ نَفْعُهُ وَلَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ تَجْرِي بِحُكْمِهَا
وَمَا أَثَرُ لَهُ فِي الْحِثِّ عَلَى الْإِغْتِنَاءِ^(٢) :

إِذَا افْتَقَرَ الْمَرْءُ اسْتِهَانَ بِفَضْلِهِ فَبِإِنْ قَالَ حَقًّا كَذَّبُوهُ وَإِنْ أَبِي
فَحِجَّتْهُ مَطْلُولَةٌ وَهِيَ حَقَّةٌ نَحَافِظُ عَلِيٍّ مَا يُنْتَلَى بِالسَّعْيِ مِنْ غُنَى

(١) بعد ذلك بيتان:

نظن بأننا قادرون وأننا فرحمة رب العالمين على امرئ
نقاد كما قيد الجنيب ونصح (٢) ديوانه (ط. المنصوري) ج ١/١١٩.

نقاد كما قيد الجنيب ونصح
أصاب هداه أو درى كيف يذهب

وقال من قصيدة^(١):

وقد خاب مَنْ يجني من الأرقم الشهدا^(٢)
فمن ظن خبيرًا بالزمان فقد أكدى^(٣)
وجلفًا فما أوفى وعودًا فما أجدى
لما يبتغي أو واجدًا أخطأ القصدا
فما كُله ممدود الخُطا بطلًا جَمدا^(٤)

لقد ذل من يبني من الناس ناصرًا
فإياك أن تُخدع بشيمة صاحب
فقد طالما جرّيتُ خِلًا فما رعى
وما الناس إلا طالبٌ غيرٌ واجدٍ
فلا تحسبن الناس أبناء شيمة
وقال^(٥):

ينال الفتى بالعنف ما كان طالبا
إلى الجلم لم يبرح مدى الدهر عاتبا
أقام وحيدًا أو قضى العمر غاضبا

ترفق فإن الرفق زئنٌ وقَلما
إذا لم يكن للمرء عقل يرده
وإن هو لم يصفح عن الخلل إن هفا
وقال^(٦):

رأيت عدو نفسي من حبيبي
فلإنهم جواسيس العيوبِ

بلوت سرائر الإخوان حتى
فلا تأمن على سرِّ صحابا
وقال^(٧):

أما لهذا الليل من آخرِ

ما أطولَ الليل على الساهرِ

(١) من قصيدة في ديوانه ٢٢٠/١ مطلعها:

أرى نفة دلت على كبدي الوجد

(٢) الأرقم: أبحث الحيات، أو ما فيه سواد وبياض.

(٣) أكدى: أخفق.

(٤) الجعد: الكريم والشديد الأسر والخلق.

(٥) مقطوعة في ديوانه ٧٧/١.

(٦) مقطوعة في ديوانه ٧٨/١.

(٧) قصيدة في ديوانه ١٠٥/٢.

فمن كان بالمقياس أقربكم عهدا

يا مخلفَ الوعد ألا زَوْرَةٌ
 تركتني من غمرات الهوى
 أسمع في قلبي دبيب المنى
 فتارة أهدأ من روعتي
 وبين هاتين شبا لوعة^(٢)
 فهل إلى الوصلة من شافع
 يا قلبُ لا تجزع فإن المنى
 في الصبر والله مع الصابر

وهذه الأبيات من أجمل غزله وأزقه، والبيت الرابع منها: (أسمع في قلبي دبيب المنى) كان حافظ إبراهيم يعجب به كثيرًا ويردده. وذكر الأستاذ الرافعي في كلامه على شعره أنه لما سيقّت إليه بشارة العفو عنه في سيلان بقي بين الشك واليقين فذكر هذا التردد في بيتٍ يقال إنه أمير شعره وهو:

أجسُّ في قلبي دبيب المنى
 ومن نسيه^(٤):

غلب الوجد عليه فبكى
 وتمنى نظرة يشفي بها
 يا لها من نظرة ما قاربت
 نظرة ضم عليها هُذْبُهُ
 فَرَسَتْ في القلب مني حُبَّهُ
 وتولى الصبر عنه فشكا
 عِلَّةَ الشوق فكانت مَهْلُكا
 مهبط الحكمة حتى انتهكا
 ثم أغراها فكانت شَرَكَا
 وسَقَّنُهُ أدمعي حتى زكا

(١) هذه رواية الديوان أيضًا وسيرد البيت بعد عدة سطور بروايةٍ أخرى هي: أجسُّ في قلبي...

(٢) الشبا: جمع شباة، وهي حد كل شيء.

(٣) المراد بالصبوة الهوى والهيام.

(٤) مطلع قصيدة في ديوانه ٣٦٤/٢.

فيك واستولى على الضحك البكا
من غرام وإليك المشتكى^(١)
لم تدع فيه لغيري مسلكا

وله قصائد وازن بها قصائد لشعراء متقدمين، منها قصيدته التي وازن بها
قصيدة ابن النبيه^(٢) التي أولها:

يا ساكني السفح كم عين بكم سفحت
فقال^(٣):

وعاودت بوصالٍ بعد ما صفحت
فيا لها صفقة في الحب ما ربحت
فما لقلبي يهواها وما سمحت

ماذا على قرة العينين لو صفحت
بايعتها القلب إيجاباً بما وعدت
قد يزعم الناس أن البخل مقطعة
ومن بدائع شعره في المنفى^(٤):

فثببت ولم أقض اللبائنة من سني
ألا شد ما ألقاه في الدهر من عبن
فؤاد أضلته عيون المها عني
فأوقعه المقدار في شرك الحُسن
فليس كلانا عن أخيه بمستغف

محا اليبين ما أبقت عيون المها مني
عناءً ويأسٍ واشتياقاً وغربةً
فإن أك فارقت الديار فلي بها
بعثت به يوم النوى إثر لحظة
فهل من فتى في الدهر يجمع بيننا
وفيها يقول^(٥):

(١) شفه الهم والمرض: أوهته وأضعفه.

(٢) هو علي بن محمد. كمال الدين، ابنه النبيه، شاعر من أهل مصر، مدح الأيوبيين، وتولى ديوان الإنشاء للملك الأشرف موسى، توفي سنة ٦١٩هـ، ١٢٢٢م له ديوان مطبوع.

(٣) لم أجد هذه الأبيات في طبعتي ديوانه.

(٤) هذه الأبيات مطلع مقطوعة في المنتخب من أدب العرب ج ١/٢٥٦ وهي في وصف الفراق.

(٥) لم ترد هذه الأبيات في المرجع السابق.

وأسلمه طول المراس إلى الوهن
مناهج لا تخلو من السهل والحزن
فَأَهْوَنُ بَدْنِيَا لَا تَدُومُ عَلَيَّ فَن
وَحَمْلُ رَزَايَا الدَّهْرِ أَحْلَى مِنَ الْمَن
تَمَنَيْتُ أَنْ أَبْقَى وَحِيدًا بِلَا خِذْنِ
عَلَيْهِ مِنَ الْبَغْضَاءِ عَاشَ عَلَيَّ ضِغْنِ
وَتَسْمَعُ أُذُنِي مَا تَعَافُ مِنَ اللَّحْنِ

ومن شاغب الأيام لان مريره
وما المرء في دنياه إلا كسالك
فإن تكن الدنيا تولت بخيرها
تحملت خوف المن كل رزئة
وعاشرت أخذاناً فلما بلوتهم
إذا عرف المرء القلوب وما انطوت
يرى بصري من لا أود لقاءه
وقال هو بِسَرْنَدِيبِ يَتَشَوَّقُ إِلَى مِصْرٍ^(١):

فبات سقيماً لا يعيد ولا يبدي
عليه بإشفاق وإن كان لا يجدي
وليس به مسٌ سوى حُرْقِ الوجد
من الله كادت نفس حاملها تردي
بمن ليس يعنيه بُكائي ولا سُهدي^(٢)

تَرَحَّلَ مِنْ وَادِي الْأَرَاكَةِ بِالْوَجْدِ
سَقِيمًا تَظَلُّ الْعَائِدَاتُ جَوَانِيًا
يَخْلُنَ بِهِ مَسًّا أَصَابَ فَوَادِهِ
به علة إن لم تصبها سلامة
ومن عجب الأيام أني مولعٌ
وهي طويلة ومنها:

فمبلاً إلى المقياس إن خفتما فقدي^(٣)
شفائي من سقمي وبرئي من وجدي
على أثر اللذات في عيشة رغد^(٤)

خليلي هذا الشوق لا شك قاتلي
ففي ذلك الوادي الذي أنبت الهوى
ملاعبٌ لهو طالما سيرتُ بينها

(١) مطلع قصيدة في ديوانه ج ٢٠٧/١.

(٢) السهد: السهر.

(٣) روضة المقياس: جزيرة جميلة في نهر النيل وفي جنوبها مقياس تقاس به مياه النيل إبان فيضانه وانخفاضه. وهي في شرقي محلة الجيزة.

(٤) العيشة الرغد: واسعة طيبة لينة.

إذا دَكَّرَتْهَا النفس سالت من الأسي مع الدمع حتى لا تُنْهَنَّهُ بالرد^(١)
وقال بذكر مقامه في سيلان ويتشوق إلى الأهل والأوطان من قصيدة^(٢) :
يا غاضبين علينا هل إلى عِدَّة
غبتم فأظلم يومي بعد فُرقتكم
قد كنت أَحْسِبُني منكم على ثِقَّة
لم أجن في الحب ذنبًا أستحق به
ومن أطاع رِوَاة السوء نَفَّره
أدهى المصائب غدرٌ قبله ثِقَّة
ومنها يفاخر :

لا عيب فيّ سوى حريّة ملكت
تبعثُ خُطَّةً أبائي فسرت بها
فما يمر خيال الغدر في خلدي
قلبي سليم ونفسي حرة ويدي
لكنني في زمان عشت مغتربًا
بلوت دهري فما أحمدتُ سيرتُهُ
حَلَبْتُ شَطْرَئِهِ من يُسرٍ ومَعَسْرَةٍ

أَعِنَّتِي عن قبول الذلّ بالمال
على وتيرة آبائي وأنسالي^(٥)
ولا تلوح سمات الشر في حالي^(٦)
مأمونة ولساني غير خنال
في أهله حين قلّت فيه أمثالي
في سابقٍ من لياليه ولا تال
وذقت طعميه من خِضْبٍ وإمحالٍ

(١) نهته عن المر: كفه.

(٢) من قصيدة في ديوانه (ط. المنصوري) ج ٣٦٦/٢ مطلمها :

ردوا علي الصبا من عصري الخالي وهل يعود سواد اللمة البالي

(٣) الأصل: إجمالي.

(٤) الأصل: أقوالي.

(٥) رواية الديوان: على وتيرة آدابٍ وأسأل.

(٦) الأصل: في حالٍ.

فما أسفْتُ لبوسٍ بعد مقدرةٍ ولا فرحت بوفرٍ بعد إقلالٍ
وهي طويلة، وصف فيها حالته في سرّنديب. وعرض فيها لشعره أيضًا
فقال:

راجعت فهرس آثارِي فما لمحتُ
فكيف ينكر قومي فضل بادرتي
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به
ولي من الشعر آيات مفصلة
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته
فانظر لقولي تجد نفسي مصورةً
وقال يفتخر بشعره^(١):

ترنم بأشعاري ودع كل منطلق
يغني به شادٍ ويحدو ركابه
فطورًا تراه زهرة بين مجلس
وما كلفني بالشعر إلا لأنه
علقت به طفلاً وشبت ولم يزل
إذا قلت بيتًا سار في الدهر ذكره
يهيم به رب الحسام حماسة

(١) ديوانه ج ٢/ ٣٤٤ وغض الطرف عن البيت الثاني في القصيدة وهو:

هو العسل الماذي طورًا وتارة يثور الشجا منه مكان المخنق

(٢) الشادي: المغني. يحدو: يسوق ويغني، والبيداء السملق: الصحراء المقفرة الجرداء.

(٣) اللهزم: الحاد القاطع من الأسنه، والفيلق: الجيش العظيم.

(٤) النكال: العقوبة والانتقام.

بدائع في أكمامها لم تفتق
لتروى وهذا مرتقى الفضل فارتق

ولا عجب فالدر ينشأ في البحر
لتعرفني فالسيف يعرف بالآثر^(٢)
به كل أرض فهو ريحانة العصر^(٣)
وذكر الفتى بعد الممات من العمر

وأغضبتني مرضاة حب المها عقلي
إلى غاية لم يأتها أحد قبلي
بحب الغواني عن ملامك في شغلي

صبوراً، ونار الحرب مِرْجَلُهَا يغلي
هلال الدجى قوسي وأنجمه نبلي
وسُمِرِ القنا والرأي والعقد والحل
رُويدًا فليس الجد يدرك بالهزل

بلغت بشعري ما أردت فلم أدع
فهذا نمير الشعر فاقصد حياضه
وقال أيضًا في شعره^(١):

إذا جاش طبعي فاض بالدر منطقي
تدبر مقالي إن جهلت خليقتي
ولا تعجب من منطقي إن تأرجت
سيذكرني بالشعر من لم يلاقني
وقال في الفخر^(٤):

عصيت نذير الحلم في طاعة الجهل
وتنازعت أركان البطالة والصبأ
فخذ في حديث غير لومي فإنني
ومنها:

وقور وأحلام الرجال خفيفة
إذا راعت الظلماء غيري فإنما
أنا ابن الوغى والخيل والليل والظبي
فقل للذي ظن المعالي قريبة
ومن شعره^(٥):

وهل بعد إيمان الصباة من كفر

(١) من قصيدة في ديوانه ١٢/٢ مطلعها:

بناظرك الفتان آمنت بالسحر

(٢) الأثر: فرند السيف ورونقه وديباخته.

(٣) في الأصل المخطوط: النصر.

(٤) مطلع قصيدة في ديوانه (ط. المنصوري) ج ٢/٣٣٩.

(٥) من قصيدة في ديوانه ١٨/٢ مطلعها:

إذا ما شربناها^(١) أقمنا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور
قال الراجعي: إنه أخذ من بيت لأعرابي وهو:

أتاني بظهر الغيب أن قد تزوجت فظلت بي الأرض الفضاء تدور
ولعله نظمه ولم يدر أن أكثر البيت لغيره، وأشار إلى أنه ضمّن البيت
شطر بيت قديم لكثرة محفوظه.

ومما قال في عشقه وشعره^(٢):

والحب مَلِكٌ نافذ حَكْمُهُ من مَغْرِبِ الأَرْضِ إلى المَشْرِقِ
فليقل العاذلُ ما شاءه فالعشْقُ دَابُّ الشاعِرِ المُفْلِتِ
لو لم أكن ذا شِيمَةٍ حُرَّةٍ لم أقرضِ الشِعْرَ ولم أَعْشِقِ
ومن حِكْمِهِ^(٣):

لَعَمْرُكَ ما الإنسانُ إلا ابنُ يومِهِ وما العيشُ إلا لُبْثَةٌ وزِيالٌ^(٤)
وما الدهرُ إلا دَفْتَرٌ في خِلالِهِ تصاوِيرٌ لم يُعْهَدَ لهنَّ مِثالٌ^(٥)
ففي صفحَةٍ منه زمانٌ قد انقضى وفيه وجهٌ أخرى دولةٌ ورجالٌ
ومن قوله ويتزع فيه منزع القدماء في القول بالطباع الأربع^(٦):

إِنَّ ابْنَ آدَمَ ذُو طَبَائِعٍ أَرْبَعٍ مجموعة الأجزاء في أخلاقه

= أبي الشوق إلا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير

(١) في الأصل المخطوط: إذا شربناها، وما أثبتناه رواية الديوان.

(٢) هذه الأبيات آخر قصيدة في ديوانه (ط. المنصوري ج ٢/ ٦٥ مطلعها:

عودي بوصل أو خلدي ما بقي فقد تداعى القلب مما لقي

(٣) مقطوعة في ديوانه (ط. المنصوري) ج ٢/ ٥٨١.

(٤) الأصل: إلا بعثة وزيال.

(٥) الأصل: تقادير لم يعهد لهن مثال.

(٦) قصيدة في ديوانه ج ٢/ ٣٤٠.

في بطشه وسكونه ونزاقه
أقرانه أدى إلى إقلاقه
أَلْفَيْتَهُ كالنار في إحراقه
أو كالهواء يجولُ في آفاقه
حركاتها كانت دليلَ وفاقه
لا ينتهي إلا إلى أعرافه

وغصنك مَيَّادَ ففيمَ تنوحُ
ولكنَّ قلبي بالفغرامِ جريحُ
لعينك دَمْعًا فالبكاءِ مريحُ
فليس سواءً باذلٌ وشحيحُ

عليه فلا بأسفُ إذا ضاعَ مجدُّه
أضُرَّ عليه من حِمَامٍ يَؤُدُّه^(٤)
يسيء ويثلى في المحافلِ حمدُّه

تبدو فَواعلها على حركاته
فيذا تغلَّبَ واحدٌ منها على
بَيْننا تراه كالزُّلالِ لَطَافَةٌ
أو كالترابِ يَهيلُ من عَقَدَاتِهِ^(١)
فيذا تعادل جمعها وتوازنت
والمرءُ مهما كان في أفعاله
وقال^(٢):

ألا يا حَمَامَ الأيكِ لِمُكِّ حاضِرُ
غدوتُ سَليماً في نعيمٍ وغبطةِ
فإن كنتَ لي عَوثُنا على الشوقِ فاستَمِرْ
وإلا فَدَغني من هَدِيلِكَ وانصرفِ
ومما قال^(٣):

إذا المرءُ لم يدفعِ بَدَ الجَورِ إن سَطَّتْ
ومن دَلَّ خوفَ الموتِ كانتِ حياته
وأقتل داءِ رَؤيةِ العينِ ظالمًا
ومن قصيدة^(٥):

(١) مال التراب: صبه، وعقدات التراب والرمل: ما انعقد منه واجتمع وتراكم.

(٢) ديوانه ج ١/١٢٤.

(٣) من قصيدة في ديوانه ج ١/١٣٩ مطلعها:

رضيت من الدنيا بما لا أوده

(٤) يؤدُّه: ينزل به.

(٥) من قصيدة في ديوانه ج ١/٢٣٣ مطلعها:

ما لقلبي من لوعة ليس يهدا

وأي امرئ يقوى على الدهر زنده

أولم يكف أنه ذاب وجدا

بحقوقي من ظالم قد تعدى
ورأى النفس طوعه فاستبدا
ة عجزًا سطا عليها وشذا

أصبحت حاجتي إليك فخذ لي
وجد القلب خاليًا فاحتواه
وكذا السلطان إن ظن بالأمم
وقال^(١):

فاركب من العزم طرُقًا يسبق الشها^(٢)
به الحمية هز الرمح وانتصبا
ولا يشاور غير السيف إن غضبا
سحرًا حلالًا إذا ما صال أو خطبا^(٣)
وإن وعى نبأة من صارخ ركبا
وإن يمت ينقلب صدق المنى كذبا
فالليث لا يرهب الأخطار إن وثبا
فالجود كالبأس بحمي المرض والنسبا
من جاد بالنفس لم يبخل بما كسبا
ورأينا البارودي يُكثر من ذكر روضة النيل والمقياس والجزيرة^(٥) وأيامه

من صاحب المعجز لم يظفر بما طلبا
لا يدرك المجد إلا من إذا هتفت
يَسْتَسْهَل الصعب إن هاجت حفيظته
ينهل صارمه حتفًا ومنطقه
إن حل أرضًا حمى بالسيف جانبها
فذاك إن يَخِي تَخِي الأرض في رغد
فأجمل بنفسك تبلغ ما أردت بها
وَجُد بما ملكك كفاك من نشب
لا يقعد البطل الصنديد^(٤) عن كرم
ورأينا البارودي يُكثر من ذكر روضة النيل والمقياس والجزيرة^(٥) وأيامه

(١) ديوانه ج ١/٦٧.

(٢) الطرف: الكريم من الخيل.

(٣) الصارم هنا: السيف، والحتف: الهلاك.

(٤) الصنديد: الشجاع. والسيد الشريف.

(٥) انظر على سبيل المثال قصيدته السينية التي مطلعها:

بين الخليج وروضة المقياس

هل في الخلاعة والصبا من بأس

والسينية الأخرى التي مطلعها:

أم لاح ضوء غزالة الأوس

أحمى الجزيرة مطلع الشمس

فيها ولا سيما لما كان في سرنديب وكندي^(١). وقد اشتاق إلى ربوع صباه
ومراتع أنسه. ومن هذه المعاني وفيه لزوم ما لا يلزم^(٢):

زمزمي الكأس وهاتي واسقنيها يا مهاتي^(٣)
وامزجيهها برضاب منك معسول اللهاة^(٤)
إنما الراح مدار الـ أنس في كل الجهات
طالما عاصيت فيها أهل ودي ونهاتي^(٥)
لا أبالي في هواها بسماع الترهات
كيف أخشى قول داو أنا من قوم دهاة
وقال^(٦):

رَبِّ خذ لي من العيون بحقي وأجزني من ظالم ليس ببقي
قد توقيت ما استطعت من الـ حب ولكن ماذا يرد التوقي
وترفقت بالفواد ولكن غلبت لوعة الصباية رفقي
لا تلمني على الهوى فغموض الـ حق عذر يرد كل محق
سل دموعي فهن ينبئن عما في ضميري ويعترفن بصدقي
كيف لي بالنجاة من شرك الحد ب سليمًا والحب مالك رقي

= هل من طيب لداء الحب أوراقي يشفي غليلاً أخوا حزن وإبراق
ديوانه ٣٢١/٢.

(١) بلدة في جزيرة سرنديب الهندية، في وسطها تقريباً. يؤمها كثيرٌ من الزائرين للاستمتاع
بمناظرها الخلابة.

(٢) القصيدة في ديوانه ج ٩٢/١.

(٣) المهابة: الشمس والبلورة والبقرة الوحشية والمراد هنا المرأة الحسنة.

(٤) الرضاب: الريق، واللهاة لحمة في أقصى الفم.

(٥) هذه رواية الديوان، وفي الأصل: عاصيت فيه.

(٦) هذه القصيدة في ديوانه ج ٣١٩/٢.

علمتني درس الهوى بالتلقي
والرُشا وصله لنيل الترقى
أتولى به إمارة عشقي

بين خدور العين بالأجرع^(٢)
فمر بالحي ولم يرجع
يفيق من سكرته أو يعي
أغواه لحظ الرُشاً الأتلع^(٣)
ويا بنات الأيك نوحى معي^(٤)

* * *

لولا دموعي أحرقت أضلعي^(٥)

* * *

أم هل إلى الأوطان من مرجع
لا بُدَّ للمحنة من مقطع

ولمن يحاول كيدَه إرضاء

قد تلقيت لوعتي من عيون
ورشوت الهوى بلؤلؤ دمعي
فلعملي أفوز يوماً بوصل
ومن إبداعه^(١):

هل من فتى ينشد قلبي معي
كان معي ثم دعاه الهوى
فهل إذا ناديته باسمه
هيهات يلقي رشداً بعدما
فيا دموع القطر سيلى دماً

وبلاه من نار الهوى إنها

فهل إلى الأشواق من غايء
لا تأسَ يا قلبُ على ما مضى
وله من قصيدة^(٦):

كَيْدُ الْعَبِيِّ مَسَاءَةٌ لضميره

(١) الديوان ج ٢/٢١٧.

(٢) الأجرع: أرض رملية طيبة العنبت.

(٣) الرشا: الظبي والمراد به المرأة الواسعة العينين، والأتلع: الطويل العنق.

(٤) بعد هذا البيت في الديوان أربعة أبيات لم ترد هنا.

(٥) بعده في الديوان أربعة أبيات أيضاً. وهذه رواية الديوان، وفي الأصل: احترقت أضلعي.

(٦) من قصيدة في ديوانه ج ١/١١ مطلعها:

والناسُ أشباهُ ولكن فَرَّقْتُ
والنفسُ إن صَلَّحَتْ زَكَّتْ وإذا خَلَّتْ
لو لم يكن بين الرجالِ تَفَاوُتٌ
ولقد بَلَّوْتُ الناسَ في أطوارهم
فإذا المودةُ خَلَّةٌ مَكذوبةٌ
كيف الوثوقُ بدميةٍ من صاحبٍ
لو كان في الدنيا وداةٌ صادقٌ
فانقُضْ يديك من الزمانِ وأهليهِ
وله من هذا شيء كثير، ومنه وقد ختم به قصيدة يذكر بها أيام
الشباب^(٢):

وعشُ فردًا فما في الناسِ خل
حلبت الدهرَ أشطره مليًا
فما أبصرت في الإخوانِ ندبًا
ولكنا نعاشر من لقينا
وقال من قصيدة يذكر أيامًا له مضت في الجيزة^(٤):

إنني امرؤُ ملكِ الودادِ قيادتي
لا أستريح إلى السلو ولو جنى

(١) الرعاء: جمع راع.

(٢) ختام قصيدة في ديوانه ج ١/ ٥٠ مطلعها:

أهد يا دهر أيام الشباب

وأين من الصبا درك الطلاب

(٣) حلب الدهر أشطره: مر به خيره وشره. والأري: العسل، والصاب: شجر مر واحدته صابة.

(٤) ختام قصيدة في ديوانه ج ١/ ١٨ مطلعها:

غاد الندى بالجيزة الفيحاء

واحد الصبوح بنجمة الورقاء

تلقي أزمة عفتي وحيائي
وأرى الجوانح من لهيب عدائي
بغض الفضيلة شيمة الجهلاء
شرف النفوس ومحنة الكرماء
يتلونون تلون الحرياء
منهم وإخوة محضر ورحاء
فبلوت أقبح ذمة وإخاء
في كل مصدر محنة وبلاء
فقد الكرام وصحبة اللؤماء
إن الفضيلة آية العقلاء

سواء لديهم طيب وخبث
من النفس مصنوع لهن حديث
وكيف يدوم الشيء وهو رثيث
قديم ولا في المكرمات حديث
وأنكرت طيب العيش وهو دميث
فما لي بين العالمين مغيث

فلا تخفَلْ بقربٍ أو بعمادٍ

لا ذمتي رهن الفكاك ولا يدي
لكنني غرض لأسهم حاسد
من غير ما ذنب جنيت وإنما
تعست مقارنة اللئيم فإنها
أنا في زمان غادر ومعاشر
أعداء غيب ليس يسلم صاحب
أقبح بهم قومًا بلوت إخاءهم
قد أصبحوا للدهر سبة ناغم
وأشد ما يلقي الفتى في دهره
شقي ابن آدم في الزمان بعقله
وقال^(١):

إلى الله أشكو أنني بين معشر
لهم ألسن إن رُمنَ أمرًا بلغنه
ترثُ على قرب الوداد عهدهم
فليس لهم في سالف الدهر محتد
برمت بهم حتى سئمت مكائتي
إذا لم يُغثني الله منهم بفضله
وقال على سبيل النصيحة^(٢):

قليلٌ مَن يدوم على الودادٍ

(١) القصيدة في ديوانه ج ١/٩٨ .

(٢) هذه القصيدة في ديوانه ج ١/٣٤٧ .

فكيف يدوم ود في فؤادٍ
ولَمَّا يَخْلُ قَلْبٌ مِنْ سَوَادٍ
نَظَرُنُّ بِهِ الْوَفَاءَ وَلَا تُعَادِ
لِتَأْمَنَ مَا تَخَافُ مِنَ الْعِنَادِ
عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَرْبِ الْفَسَادِ
نَحَا فِي سِيرِهِ قَصْدَ السَّادِ
هُمَا أَصْلُ الْخَلِيقَةِ فِي الْفَسَادِ
وَلَوْلَا الْحَرَصُ مَا كَانَ التَّعَادِ
لِنَفْعٍ أَوْ لِمَنْعٍ مِنْ تَعَادِ
أَذَى السُّلْطَانِ أَوْ خَوْفِ الْمَعَادِ
كَلَانَا زَرْعُ أَرْضٍ لِلْحَصَادِ
أَرَى الْآثَارَ تَذْهَبُ كَالرَّمَادِ
وَعَاقِبَةُ الْأُمُورِ إِلَى نَفَادِ
بَصِيرَتُهُ فَبَاتَ عَلَى رَشَادِ

تَرُدُّ لُهُامَ الْجَيْشِ وَهُوَ يَمُورُ
رَوَاحَ عَلَى طَوْلِ الْمَدَى وَبِكُورِ
عَنِ الْجَدِّ إِلَّا أَنْ تَتِمَّ أُمُورِ
وَعَيْنِ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ بِصِيرِ

إذا كان التغير في الليالي
ومن لك أن ترى قلباً نقياً
فلا تبدل هواك إلى خليلٍ
وكن متوسطاً في كل حالٍ
مُدَارَةُ الرَّجَالِ أَخْفُ وَظَأُ
يَعِيشُ الْمَرْءُ مَحْبُوبًا إِذَا مَا
وَمَا الدنیا سوى عجزٍ وحرصٍ
فلولا العجزُ ما كان التصابي
وَمَا عَقَدَ الرَّجَالُ الْوُدَّ إِلَّا
وَمَا كَانَ الْعِدَاءُ يَخْفُ لَوْلَا
فِيَابِنَ أَبِي وَلَسْتُ بِهِ، وَلَكِنْ
تَأْمَلْ هَل تَرَى أَثْرًا فِلَانِي
حَيَاةَ الْمَرْءِ فِي الدنیا خِيَالُ
فَطَوِي لَامْرِي؛ غَلَبَتْ هَوَاهُ
وَقَالَ فِي الْفَخْرِ^(١):

وَلِي شِيْمَةٌ تَأْبَى الدنَايَا وَعَزْمَةٌ
هُمَامَةٌ نَفْسِي لَيْسَ يَنْقِي رِكَابَهَا
مَعُودَةٌ إِلَّا تَكْفُ عِنَانَهَا
لَهَا مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ أُذُنٌ سَمِيعَةٌ

(١) من قصيدة في ديوانه ١٨/٢ مطلعها:

أبي الشوق إلا أن يحن ضمير
وفي الديوان رواية أخرى لهذه القصيدة.

وكل مشرق بالحنين جدير

وفيت بما ظن الكرام فراسة
وأصبحت محمود الخلال كأنني
إذا صلت كف الدهر من غلوائه
وقوله في الحماسة^(١):

وإني من القوم الذين سيوفهم
إذا استل منهم سيد غرّب سيفه^(٢)
لها في حواشي كل داجية فَجْرُ^(٣)
تفزعت الأملاك والتفت الدهر

هذه نماذج من شعر البارودي، وشعره لا يتجاوز الثلاثة آلاف بيت كما قال عن نفسه، وقد رأينا من هذا القليل الذي اقتبسناه من شعره المطرب قوة بيانه وسعة شاعريته ومبلغ حكمته. وكان أستاذنا الشيخ محمد عبده - أجزل الله ثوابه - يفضل على جميع الشعراء المعاصرين، ويقرّنه إلى كبار المتقدمين. وكان من أحب الناس إلى قلب الأستاذ الإمام. لم يكن يذكر أحدًا بعاطفة حب كما كان يذكره، وكان يتأوه على غربته ونكبته ما لا يتأوهه على أحد.

وقال الأستاذ العقاد: «كان البارودي شاعرًا له طلاوة وفيه حياة ولبعض أشعاره نفحة وإيقاع لا تجدهما إلا في القليل من شعر القدماء والمعاصرين، وله من حسنات التذوق والتصوير وإلهام الحس ولطف الشعر وعذوبة الروح ما ليس للكثيرين».

وقال الأستاذ خليل مطران في وصف أخلاقه: إن هذا الوزير الذي اقتدح زناد تلك الهمة، وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة لم يكن مع شجاعته وإقدامه اللذين بلغ بهما أقصى مبالغتهما في مواطن القتال إلا رجل سكينه

(١) البيتان من قصيدة في ديوانه ج ٢/ ٤٠ مطلعها:

وأصبحت لا يلوي بشيئتي الزجر

طربت وهادنتي المخيلة والسكر

(٢) روايته في الديوان: من نفر الغر الذين سيوفهم.

(٣) غرب السيف: حده.

ووداعة وحلم، وقلما كان رجل أرق منه قلبًا على ذويه وأحفظ عهدًا لمحبيه، ولعل إصابته بكريمتية هي التي قلصت من كبده وأودت بجسده. وذكر يره بأولاده وعنايته بتعليمهم فقال: «على أن هذا البر إنما كان إحدى شمائله وفضائله، فإن أريد بعض التعداد فالجودة مع الجود، والكياسة مع لطف الحس، والصفح مع المقدرة، والإيناس مع علو النفس وشرف الطبع».

كان البارودي مثالاً من بعد الهمة في صباه وكهولته وشيخوخته، لا يغفل عن عمل كل خيرٍ تصل إليه يده، فبينما كان في منفاه يعلم أولاده ويعلم المسلمين العربية ويخطب فيهم ويتعلم الإنكليزية ويتقنها كان أيام شيخوخته يختار من الشعراء المولدين أجمل ما قالوه لينشره للناس فأتحف بما اختار مجالس الأدب في آخر أيامه، بتوفره على دراسة ثلاثين شاعرًا عربيًا فحلا من المولدين، جنى أطايب أشعارهم وكسّر موضوعات المختارات على سبعة أبواب: الأدب، المديح، الرثاء، الصفات، النسب، الهجاء، الزهد وسماها المختارات. أما الشعراء الذين اختار لهم فهم: بشار بن برد، العباس بن الأحنف، أبو نواس، مسلم بن الوليد، أبو العتاهية، ابن الزيات، أبو تمام، البحري، ابن الرومي، ابن المعتز، أبو الطيب المتنبي، مهيار الديلمي، أبو العلاء المعري، صرّذّر، ابن سنان الخفاجي، ابن حيوس، الطغرائي، الغزي، ابن الخياط، الارجاني، الأبيوردي، عمارة اليمني، سبط ابن التعاويذي، ابن عنين.

لم ينتخب البارودي في مختاراته إلا الجيد لفظًا ومعنى، وربما يأخذ البيت غير الجيد لتعلق الجيد به، ولم يراع في بعض الأبيات ترتيبها الأصلي، بل قد يقدم المؤخر ويؤخر المقدم، وقد يكرر بعض ما اختاره في بابي الأدب والمديح في أبواب آخر.. وقد يبدل الفاء بالواو والواو بالفاء أو بلام القسم إذا اقتضى السياق ذلك، وقد يزيدهما أو يحذفهما إذا وقعا في أول المنتخب

واستقام الوزن بذلك، وقد راعى في ترتيب أسماء الشعراء أسبقيتهم في الوجود لا مكانتهم في الشعر.

وقع ما اختاره من الشعر في أربعة مجلدات وقعت في (١٧٦٣) صفحة من القطع الكبير، وقد حل مواضع الإشكال حلاً لغويًا مختصرًا في أسفل الصفحة بحيث لا يعوق^(١) الطالب عائق دون الانتفاع بالشعر فلا يضطره إلى الرجوع إلى معجمات اللغة وهو أطرب ما يكون في سماع شعر الشاعر، ولعل البارودي في انتقاء هؤلاء الشعراء المجيدين فقط، يشير من طرف خفي إلى أن الأمة العربية وهي أمة الشعر في جميع أدوار حياتها ما كانت تعد في القرن الواحد أكثر من بضعة شعراء، أما أولئك المثات الذين دوت الكتب أشعارهم فهم ناظمون أو عروضيون كما سماهم بعض المعاصرين، ولم يستوفوا صفات الشاعرية وإن اشتهروا.

خدمة جليلة خدم بها البارودي دولة الأدب العربي، وختم بما انتخب بالصالحات أعماله، فكان مجدد بنیان الشعر في هذا العصر، أن أحياءهم على ما يجب أن يحيوا، وحببهم إلى من يتعاطون فن الأدب. نعم كان بإحسانه الاختيار من الشعراء المولدين كأبي تمام والبحثري [مثله] في اختيار بدائع الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين. واختيار المرء قطعة من عقله، وأَعْظَمُ بشعر يختاره البارودي. ويقول لأبناء الأجيال القادمة: هذا ما ينبغي لكم أن تحرصوا على الاستفادة منه، وقد وضعت بين أيديكم بما صنعت لكم، ودللتكم على مواقع الإجابة من هذا الشعر الفحل.

وكان البارودي بهذه المختارات أيضًا قال للمتأدبين بلسان الحال: إن العمر قصير والهمم وانية، والقوم عكفوا على الشعر قرونًا فخلط من خلط منهم وأجاد من أجاد، وهؤلاء الموجودون عليكم بهم، تدارسوهم يجزئوكم

(١) الاصل: لا يعرود، وهو خطأ.

عن تدارس منات الدواوين حملت الغث والسمين، ولا تورث ملكاتكم ما يضعفها، وأنتم لا غنية لكم عن الاطلاع على أجود ما قيل. فيها أنا ذا حشرته لكم في هذا الكتاب، فخير لكم أن تأكلوا الفاكهة الجيدة الناضجة من أن تتناولوا الفج الذي لم يطب في مذاق.

وبعد، فقد كتب لي شرف التعرف إلى شاعرنا العظيم هذا في مجلس الإمام محمد عبده في عين شمس من ضواحي القاهرة سنة إحدى وتسعمئة وألف، وفي المجلس يومئذ من العظماء بطرس باشا غالي، والشاعر حافظ إبراهيم، وقد عاد من المنفى وهو مكفوف، وإلى ما أصابه أشار الشاعران العظيمان خليل مطران وحافظ إبراهيم في رثائه وقد جودوا كل الإجابة. قال مطران^(١):

إذا وَسِعَ الكونَ فِكْرُ امرئٍ فلا بأسَ بالطَّرْفِ أن يُحَسِّرا^(٢)
على الشمس أن تهدي المبصرين وليس على الشمس أن تبصرا
وقال حافظ^(٣):

لقد نزحتَ من الدنيا كما نزحتَ عنها لياليك من بيض ومن سود
أغمضت عينيك عنها وازدرت بها قبل الممات ولم تحفل بوجود



(١) من قصيدة قالها خليل مطران في رثاء البارودي مطلعها:

مصابك حياً عرا جعفرًا وخطبك ميتًا عرا قيصرا
ديوان خليل مطران ج ١ ص ٢٧١.

(٢) رواية الأصل: إذا وسع الأرض.

(٣) من قصيدة لحافظ إبراهيم في رثاء البارودي مطلعها:

ردوا عليّ بياني بعد محمود إنّي عيّتُ وأعيا الشعر مجهودي



محمود شكري الآلوسي^(١)

١٢٧٢ - ١٣٤٢ هـ

١٨٥٧ - ١٩٢٤ م

ألوس: قرية على الفرات قرب عانات، على خمس مراحل من بغداد،
واليها انتسب آل الآلوسي، وألوسينا هو محمود شكري بن عبد الله بن شهاب
الدين محمود، الملقب بأبي المعالي. أخذ العلم عن أبيه وعمه نعمان خير
الدين وغيرهما، وقعد للتدريس في داره وفي بعض مساجد بغداد. نشأ نشأة
أهله، وكان والده عالمًا وجده عالمًا وعمه عالمًا. وكانوا على طريقة في
المعتقدات خالفهم هو فيها. هم كانوا أحنافًا ومتصوفة، يعتقدون بكرامات
الصالحين والأولياء. أما هو فقرأ كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية فخلع رداء
تصوفهم وتمذهب بمذهب السلف، يأخذ الشريعة من مصادرها الصافية،
ويؤلف في هذا المذهب ويدافع عنه عن عقيدة ويقين، فأصبح علمًا من أعلام
أهل السنة في العراق، ولم يكن للمطامح الدنيوية محل من نفسه، وصرف
حباته في التدريس والتأليف، وأخذ عنه كثير من رجال العراق وانتفعوا
بدروسه.

أولع المترجم له بالتاريخ والسير واللغة فبرز فيها، واهتدى إلى أطراح
السجع من إنشائه، وبالسجع كان بدأ لأول نشأته، على طريقة أهل القرن

(١) ترجمته في الأعلام ٤٩/٨ ومعجم المؤلفين ١٦٩/١٢ والأعلام الشرقية ٢/١٨٤.

ولد في رصافة بغداد وبها توفي.

الماضي، وأخذ يكتب كتابه المؤلفين، كتابة مرسلة لا تعمل فيها، جاريًا مع الطبع، ولا يعتمد السجع والازدواج إلا في مقدمة الكتب وبعض الخطب. وما إخاله غني عناية خاصة بالشعر، وإن رواه. وكان محققًا في التمييز بين متينه وضعيفه. وجماع ما غلب عليه علوم الشرع، خاليًا من بدع المبتدعين من المتأخرين، والتبحر في فنون الأدب، مستعينًا بها على فهم روح الإسلام.

ولما تجلّى نبوغه واشتهر بعلمه وحرية فكره، شنع عليه معاصروه من الحسوية، ولم يروا للخلاص منه إلا السعي إلى حكام العثمانيين محاولين إسكاته، ليحولوا دون انتشار دعوته التي ترمي إلى إصلاح معتقداتهم. والقضاء على خرافاتهم وتخريفاتهم فتذرعوا بتغريبه، فاستصدروا أمر السلطان بنفيه إلى الأناضول. ولما اجتاز بمدينة الموصل قام عظماء من أهلها، وأبرقوا إلى ملك العثمانيين يلتمسون العفو عنه، فأجاب طلبهم، وعاد إلى موطنه.

وانتدبت الدولة في الحرب العامة مع نسيبه السيد علي الألوسي أن يذهب إلى نجد لإقناع أميرها عبد العزيز آل سعود لينضم إلى الترك ويحارب الإنكليز، فأبى^(١) أن يكون مع الدولة، وهي التي قتلت أحد أجداده، وخربت ديارهم، ولا سيما الدرعية، عاصمتها.

فعدّ السيد الألوسي مُحَقِّقًا في سفارته، وعادت الدولة تنظر إليه نظر ربية، لعلمها بأنه الرجل المبجل عند آل سعود وفي عامة أرض نجد، لاشتهاره بمذهب السلف، والنجديون سَلَفِيّون، لا يُعقل إلا أن ينزلوا على إرادة من يحبهم ويحبونه، وانقلبت الدولة بعد ذلك تقوي ابن الرشيد منافس ابن سعود في إمارة نجد، وأغدقت عليه المال والسلاح، ورفعت من مقامه، مقدرة قدرته على مقاومة أعدائها بأكثر مما كان في طوقه.

صنف السيد الألوسي كتبًا كثيرةً للقدماء. ومن أهم ما صنف: «بلوغ

(١) أي: عبد العزيز.

الأرب في أحوال العرب». وكانت لجنة اللغات الشرقية في استكهولم اقترحت، بدعوة أسكار الثاني ملك السويد والنرويج، على المختصين بتاريخ العرب والإسلام في الشرق والغرب تأليف كتاب يستوفي أحوال العرب قبل الإسلام، ويستوعب ما كانوا عليه في جاهليتهم من العوائد والأحكام، واشترطت أن يكون مشتملاً على بيان ما يطلق عليه لفظ العرب، وإقامة الدليل على فضلهم على غيرهم، وبيان نسب من اشتهر من القبائل، وذكر أشهر مساكنهم، وكيف كان حال مكة إذ ذاك، وعوائدهم في المأكل والمشرب والزواج، وتفصيل مجامعهم وأيامهم، ومفاخرهم وأعيادهم وأفراحهم ومعتقداتهم وأوابدهم وتمعبداتهم وعلومهم وصنائعهم ومشاهير رجالهم في الجود والحلم والحكم والشجاعة والشعر والخطابة والطب، وأن يظهر الفرق بين حالتي أهل الحضرة والبادية، وبأي وسيلة أمكنهم في زمن قصير أن يتقدموا ذلك التقدم العجيب، ويتغلبوا على عدة ممالك واسعة وأقطار شاسعة يبلغ عدد سكانها أضعاف أضعافهم مراراً عديدة، حالة كون بلادهم حارة مقحظة خالية من بواعث المدنية، وهل بقي من آثارهم شيء بين من يسكنون البوادي اليوم ويدعون بالعرب، مع إقامة الأدلة الكافية، والإتيان بالمستندات القوية لإثبات كل أمرٍ منها. وعلى المؤلف أن يستند في استخراجها إلى الشعر الجاهلي وما تضمنته من ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والسير والتواريخ الصحيحة.

بعثت اللجنة بهذا الاقتراح إلى المشهورين من علماء العرب والغرب في تلك الحقبة، فلبى الأوسى نداءها، وكتب كتابه في ثلاثة مجلدات كان فيه أقرب إلى الشروط المطلوبة، ولكنه ما استوفها كلها، استقى من المصادر المعروفة، وما ألمّ بالغرض المقصود، ومع ذلك جاء كتابه من أوفى الكتب مادة ووصفاً وتنسيقاً، على كثرة ما ورد على اللجنة من التأليف في هذا الموضوع الجليل، فنال الجائزة، وهي الوسام الذهبي الذي كانت السويد

والنروج تهديه إلى العلماء. وطبعت له كتابه، وطرحت سائر المؤلفات في المهملات. ومما قاله قنصل السويد والنروج من رسالة إلى المؤلف: «إن جميع الكتب التي وصلتنا في هذا الصدد، مع ما بلغت من كثرة العدد، واختلاف مصادرها شرقاً وغرباً، من أوروبا ومصر والشام والعراق وغيرها من الآفاق لم يحصل سواك أحد على تلك الجائزة التي سبق بها الوعد؛ لأن الموضوع واديه عميق بعيد الطريق، غير أن كتاب الأستاذ مع ذلك أجمع لكل مادة...».

والواقع: أنه من الصعب على رجل واحد لم يعرف لغة غير العربية أن يؤلف مثل هذا التاريخ، وكان على مؤلفه أن يكون متمكناً من تاريخ العرب قبل الإسلام، ومن السهل تدوين ما عرف من تاريخهم في تلك الأعصر، والصعوبة في التقاط أخبار الجاهلية التي ضاعت قبل الإسلام بمئتي عام، ودون الأخلاف بعض ما تيسر منها.

وعجّل الأستاذ بإخراج تأليفه، فوقع في أغلاط كثيرة تدارك إصلاح بعضها في الطبعة الثانية، وجاء الكتاب مجموعة يمكن أن توصف بأنها من الحاضر الذي تهيأ، ولم يكشف بها ما غمض من أحوال الجاهلية، ولا تُعرف أمور كثيرة في التفسير إلا بالوقوف على أخبار الجاهلية وقوفاً تاماً.

وللمترجم له مع الشيخ يوسف النبهاني^(١) جولات في الشرع، هذا يثبت في كتبه ضرورياً من البدع التي لم يقلق بها الإسلام، والشيخ يرد عليه في مجلدات، ويبين له حكم الكتاب والسنة وآراء عظماء الملة. وظهرت في ردوده هذه مكانته من استبطان أسرار الشريعة، وآراؤه في الإصلاح الديني، ومبلغ وقوفه على المصادر لتأييد مذهبه. وكذلك كان صنيعه عندما رد على

(١) يوسف بن إسماعيل النبهاني (١٢٦٥ - ١٣٥٠ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٣٢ م) أديب، شاعر، قاضٍ، تولى رئاسة محكمة الحقوق ببيروت، له كتب كثيرة منها: جامع كرامات الأولياء.

بعض علماء الشيعة. وقد أحيا المؤلف إلى هذا عدة رسائل للقدمي، علق عليها وخدمها، ومنها ما نشره في مجلة «المقتبس».

قال تلميذه الأستاذ محمد بهجة الأثري في وصف عمله: إنه احتسب حياته لخدمة الدين الإسلامي، وتطهيره من أضرار البدع والمحدثات، فجاهد أهل الحشو ودعاة عبادة القبور، ثم انتحى إلى المذاهب الفاسدة المبنية على الحب والبغض، فأظهر للملأ ما تنطوي عليه من الخباثت والدسائس، وما تضمه للإسلام - وإن كانت تنتمي إليه في الظاهر - من الكيد والعداء، وقد كان يرى أن في القضاء عليها قضاء على جميع البدع والأضاليل المنتشرة بين أهل الإسلام. وأنه يأخذ بيد الإسلام إلى ذروة عزه القديم. جاهد البدع والوثنيات، ودعا إلى التوحيد الذي هو أول ما كانت تدعو إليه الرسل، وبين تقليد الآباء والسير على آثارهم الغامضة، غير مدخر في جهاده ودعوته وسعا، حتى كبح جماح الوثنيين، وخفف من غلواء القبوريين أو كاد، فكان له من التأثير المحمود في قمع الضلال ما لا سبيل لأحد إلى إنكاره. وهذه آثار جهاده بين الأيدي - والمخطوط منها أكثر من المطبوع - تشهد له بالحسنى والمقام المحمود^(١).

الألوسي نسخة حلوة من قدماء العلماء لم يأت بجديد، وانصرف إلى إحياء القديم، أحيا سنة أجداده في العلم والانقطاع إليه والشغف به، ولم يتخذة سُلماً إلى الدنيا.

كان عزوفاً عن المطامع، لا مطمع له في غير بث دعوته، وتثقيف من يعتقد أنه يحصل منه النفع للأمة. وهو إذا عد في المجددين المجتهدين في

(١) من كتبه: أخبار العباد وما جاورها من القرى والبلاد (أربع مجلدات)، مساجد بغداد (لم يتم)، أمثال العوام في دار السلام، رياض الناظرين في مراسلات المعاصرين، المسك الأذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر، تاريخ نجد، الضرائر فيما يسوغ للشاعر دون الناثر، فتح العنان (في الرد على أهل البدع في الدين).

الإسلام لا يعد إلا من المقلدين في العلم والأدب. وكان على فضل شجاعة في بث دعوته الدينية، أذاق المنحرفين من قلمه ما فضح به عيوبهم، وما بالي غضبهم وغضب العامة، ولا بطش الولاة، وكانوا أبداً يميلون مع العامة أكثر من ميلهم إلى الخاصة. وكان قبل أن يشتد ساعده يجامل ويتقي، فلما تمت فيه أسباب الدعوة لم تأخذه هواة فيمن وقفوا في سبيلها.

وإنا إذا شهدنا الأستاذ يزهد في المظاهر التي كان العثمانيون يغفون بها أمثاله أيام استيلائهم على بلاد العرب، فإنه كان على هذه الصورة على عهد الاحتلال الإنكليزي في العراق (١٣٣٥).

جاءه عامل من عمال البريطانيين يصحبه تلميذه الأب أنستاس الكرمللي، ومعه صرة فيها ثلاثمئة جنيه، وعرض عليه منصب قاضي القضاة في بغداد، فاعتذر عن قوله^(١)، وأبى قبول العطية. والتفت إلى تلميذه الكرمللي يلومه على وساطته هذه - على ما حدثني بذلك الأستاذ أنستاس - وقال: خيرٌ لي أن أموت جوعاً من أن آخذ مالاً لم أتعب في كسبه. وهدد من أتى بالمال بإخراجه من داره إذا بقي يلح عليه في قبض تلك المنحة.

وماذا يعمل بالمال من عاش في شبابه وكهولته وشيخوخته ولم يتناول شيئاً من غير جلّه؟ وكيف يمد يده، وهو في آخر أيامه، لا زوج له ولا ولد، فيتناول من دولة أجنبية لا تمنح ما تمنح إلا مقابل شيء تريده ممن تعطيه. وبذلك تجلت فيه أخلاق الزهاد والنسك في الإسلام.

ثم عرضت عليه الحكومة العربية الموقفة الإفتاء فرياسة مجلس التمييز الشرعي أو القضاء أو المشيخة الإسلامية، فرفض كل ذلك. وقبل عضوية المعارف في العراق، كما قبل عضوية المجمع العلمي العربي بدمشق.

كان الألوسي من أفراد الرجال الذين نفعوا قومهم بإرشادهم، وانتفع

(١) الصواب أن يقال: اعتذر من عدم قبوله، وذلك خطأ شائع في الكتابة الدارجة.

الناس بتأليفه على الجملة. وتأليفه يكثر نظائرها في المصنفات ولا تحمل
إبداعاً، اللهم إلا ما عرف فيها من حرية بحثه يوم الرد على من خالفوا
الشرع، ومالوا مع الأهواء السياسية لاصطياد المغانم الدنيئة.





مصطفى عبد الرازق^(١)

١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ^(٢)

١٨٨٥ - ١٩٤٦ م

ولد ببلدة (أبو جرج) من مديرية المنيا بصعيد مصر حوالي سنة ١٨٨٥ م. وأبوه حسن باشا عبد الرازق. وجدوده قضاة ولاية بهنسا ويعرف بيتهم بيت عبد الرازق كما يعرف بيت القضاة. ووالدته من أسرة الشريعي بسالوط. تلقى التعليم الأولي في كتاب بلده. وتولى والده توجيه دراسته وتربية استعداداته الأدبي، ودرس في الأزهر وحضر فيه دروس الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ونال شهادة العالمية سنة ١٩٠٨، واشتغل على أثر ذلك بالتدريس في الأزهر وفي مدرسة القضاء الشرعي سنة واحدة ثم سافر إلى باريس سنة ١٩٠٩ فتعلم الفرنسية وحضر دروس الأستاذ ديركهايم في الاجتماع، ودرسًا في الآداب وتاريخها. وفي سنة ١٩١١ تحول إلى مدينة ليون ليشغل مع الأستاذ

(١) ترجمت في الأعلام ٨/١٣١ وفيه وفاته سنة ١٣٦٦ الموافقة لسنة ١٩٤٦ م وفيه: أن من كتبه ما يلي: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. فيلسوف العرب والمعلم الثاني (في سيرة الكندي والفارابي). الدين والوحي والإسلام. البهاء زهير (في ترجمته وشعره).. ومحمد عبده (سيرته)، مذكرات مسافر، وساعد بعض المستشرقين على ترجمة رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده إلى الفرنسية ولهي وضع كتاب عن الشيخ محمد عبده بالفرنسية أيضًا. وانظر معجم المؤلفين (١٢/٢٤٥)، مذكرات محمد كرد علي (٢/٤٥٢) فيض الخاطر (٧/٣١٢).

(٢) وفاته في الأصل: سنة ١٣٤٠ وهو مخالف لما جاء في المصادر.

ادوارد لامبير في دراسة أصول الشريعة الإسلامية، وحضر في جامعة ليون دروس الأستاذ جوبلو في تاريخ الفلسفة، ودروسًا في تاريخ الأدب الفرنسي. وتولى تدريس اللغة العربية في كلية الآداب في ليون فكان مدرستها الذي كان ندب للتدريس في الجامعة المصرية، ولما نشبت الحرب العامة عاد إلى مصر فأُسند إليه منصب أمين السر العام للمعاهد الدينية الإسلامية، ثم نقل في سنة ١٩٢١ مفتشًا للمحاكم الشرعية، وفي هذه السنة نقل إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية أستاذًا مساعدًا للفلسفة.

هذا ما كتبه لي صاحب الترجمة عندما ضمه المجمع العلمي العربي إلى أعضائه المراسلين، ثم أصبح أستاذًا صاحب كرسي يدرس الفلسفة الإسلامية وتاريخها، وتظهر للملأ كفاءته ووفرة تحقيقه. وبعد حين تولى وزارة الأوقاف سبع مرات عن حزبه حزب الأحرار الدستوريين فأحسن العمل في نطاق الأنظمة، وما استطاع أن يطبق كل ما كانت ترغب فيه نفسه من التجدد.

وإذ فرغ منصب مشيخة الأزهر بوفاة العلامة المراغي رأَت الحكومة أن توسد المشيخة إليه لعلمها بأنه قمين بإدخال الإصلاح على هذه الجامعة لجمعه بين ثقافتين: الإسلامية والغربية، فعارض بعض الشيوخ هذا التعيين بدعوى أن ابن عبد الرازق وإن تَخَرَّج في الأزهر إلا أنه لم يدرس فيه خمس عشرة سنة، ولا يمكن قبوله عضوًا بجماعة كبار العلماء، ومن بين أعضائها يجب أن يختار شيخ الجامع الأزهر، كما هو شرطهم، وتدرسه في الجامعة المصرية لا يعتبر كتدريس الأزهر، والأزهر غير الجامعة. فلم تر الحكومة في نصب (*) مرشحها، إلا أن تعدل القانون. ووسدت إليه المشيخة فنزل عن رتبة الباشوية وعن لقب الوزارة، واكتفى بلقب الأستاذ الأكبر وشيخ الجامع الأزهر. وتنازل عن جزء من إدارات المشيخة لتصرف في وجوه أخرى. وظل الطامعون في الرئاسة غير راضين عن تقلده لها، ولم يجدوا للوصول إلى

(*) لعلها: نَصْر (المراجع).

أغراضهم إلا إهاجة الطلبة فأضربوا عن دروسهم، فتأثر لما جرى وقضى مقهورًا شهيد عزة نفسه.

كان أول تعرُّفي إلى الأستاذ الأكبر في باريس سنة ١٩١٣ وقد جاء فرنسا للتعرف بثقافة الغرب على ما تتقف الثقافة الغربية، فرأيت فيه الإباء والمروءة والبعد عن العظمة. وتجلى لي أن تربيته الأولى في بيت أبيه الكامل كانت من خير ما يربي عليه أبناء النبلاء، كان الشيخ محافظًا على الشعائر على ما عرف بذلك أهله، واحتفظ بعمامته وقفطانه وجبته من أول أمره إلى آخر عمره لم تبدل المناصب من زيه. ولا غيرت رتبها من سمته. ولا استخفته الألقاب العلمية التي أحرزها. ومجامع العلم التي شارك في خدمتها.

كان مثال الجد والثبات، صلب العود في الحق، رقيق الحاشية في عِشرة الناس، محافظًا على القديم، فاتحًا صدره للحديث من المعارف.

زار الملك فؤاد الأول كلية الآداب في الجامعة المصرية في بعض الأيام ودخل القاعة التي كان الأستاذ يلقي درسه فيها فوقف المليك يستمع إليه هنيهة، والأستاذ يشرح الدرس لطلبته كأنه لم يدخل عليه أحد. وفي هذه الدقائق تجلت عظمة العلماء وجلال العلم.

كان الأستاذ يجري صدقات على أرباب الستر، ويعاون البائسين بما يخفف بؤسهم، ولا يحب أن يُطلع أحدًا على ما تندى به يده الكريمة. ولما صرف الأستاذ الظواهري شيخ الأزهر سبعين عالمًا من مدرسيه، كان فيهم أصدقاء الأستاذ عبد الرازق فوقف نفسه على خدمتهم، وما تركهم يحتاجون إلى أحد، ودام على تعهدهم، حتى رجعوا إلى دروسهم، سار بذلك بسيرة أسرته في إسداء الخير للخير، وكذلك كان دأب أبيه وإخوته.

سألت مرة محاسب كلية الآداب وهو تلميذٌ من تلاميذ الأستاذ عما إذا كان يحب أستاذه حقيقة فأجابني: وكيف لا أحبه وصفاته التي تحببه إلى النفوس كثيرة؟! ثم قال: اسمع قصة من قصصه فتعرف أنني على حق في إكباري

أخلاقه. جاءني ذات صباح يسألني عن عدد الطلبة الذين توقفوا عن أداء الرسوم الجامعية وهم مهددون بالطرد إن لم يوفوا ما عليهم، فأحصيتهم له فقال: كم يبلغ مجموع المبلغ المطلوب منهم؟ فقلت كذا. فقال: خذ مني ولا تطالبهم بعدها. وإذا سألوك قل لهم: إن الجامعة قررت إعفاءهم، ولا تذكر لهم اسمي بالله عليك. وأذكر أنهم كانوا نحو ثلاثين طالبًا. وله من هذا القبيل صدقات ينفق عليها من راتبه، ومن ملك ورثه من أبيه في بلده من الصعيد.

كانت صلتني بالأستاذ أجمل صلة. لا رياء فيها ولا وهن. تتناصح وتبأث الأفكار، وألاحظ عليه أشياء لا أوافقها عليها، وطالما حثته على وضع تأليف في الموضوعات التي جوّد الخوض فيها، وأردته غير مرة على أن يطبع دروسه في الجامعة لينتفع بها البعيد كما انتفع بها القريب، فكان يعتذر بما يمليه عليه تواضعه ويقول: إن الطلبة تداولوها منذ ألقيت عليهم وحصل المقصود، فلا داعي لطبعها على حدة. وأدركت بذلك أن صاحبي لا يهتم بالطبع والنشر اهتمامه بالتعليم والتلقين. شأنه شأن سلفه العلامة المراغي. والقليل الذي طبع له يدل على طريقتة في بحث المعضلات، والنظر في تقدير المسائل بقدرها من دون جدّة ولا تحامل، يتلطف في الأداء والعرض. ويقبل حتى الآراء التي تخالف رأيه برحب صدر واحترام صاحبها.

وبعد خمس سنين من تركه الجامعة، بدا له أن يعود إلى دروسه فيها فينشرها كما هي بصورتها يوم كتبت من غير تنقيح ولا تعديل، وفي صياغتها التعليمية التي تراعي حاجة الطلاب إلى مراجعة النصوص الكثيرة وحسن التدبير والفهم للأساليب المتفاوتة. وإن لم يخف على ذوق المطالعين جميعًا. ونشرها في مجلدٍ لطيفٍ سماه: «التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» ثم نشر له جزء في الترجمة للكندي والفارابي والمتنبي وابن تيمية وابن الهيثم من حيث النظر الفلسفي. لو كتب له أن يتم هذه التراجم لقرب الحكمة من أذهان من طالما عقّوها ولحجّبتها إلى النفوس بأسلوبه الذي جمع فيه بين القديم والحديث

على ما جمع شخصه العصامي إلى العظامي. ولئن عدّ في التأليف في المقّلين فقد كان فيه من المجودين المحققين.

حدث عقبي توليه مشيخة الأزهر أن عزت إليه جريدة «الموند» الباريزية حديثاً اتخذ منه خصومه آلة للنيل منه.؟ وخلاصته: أن فرنسا أحرزت مكاناً ممتازاً بما بذلته من الجهود الكريمة في نشر الثقافة بين المسلمين. ورجا ألا تتخلى عن خطتها لتحتفظ بالحب الذي يكنه لها العالم الإسلامي. فقامت صحف مصر والشام تغالي في تزييف رأيه في مدح فرنسا، واتفق أن أهدت إليه حكومتها في غضون ذلك وسام (جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير) فزاد ذلك في الطين بلةً. وأغلب الظن أن الأستاذ الأكبر لم يتعارف إلى (*) هذا الوسام، وما عبأ بتكذيب ما نُقل على لسانه من حب المسلمين فرنسا. وكان بعض جماعة كبار العلماء عاملاً قوياً في إلقاء الاضطرابات في الأزهر ليتوسلوا بها إلى زحزحة الشيخ عن منصبه. ومنهم من كنت أراهم يكثرون الاختلاف إلى داره قبل توليه الرياسة بأعوام، ولكن من أعمتهم مصالحتهم الشخصية لا يراعون في سبيل الحصول عليها قانون الوفاء والولاء.

نظرت ملياً في سيرة صديقي فرأيت علمه عدل أخلاقه. وهذا من النوادر في هذا العصر. ولو انصرف إلى درسه في الجامعة، وصرف أيامه في التأليف والتأديب على ما حُصّ به من ثقب ذهن وجلّد في البحث لزاد الانتفاع بما أنتج أضعافاً. ولما أخذت السياسة من وقته ما كان الأحرى صرّفه في خدمة العلم. ومن عانوا السياسة مكرهين أو شبه مكرهين، وكانوا على قدمه في التهذيب وطهارة النفس ينفعون في العادة غيرهم أكثر مما ينفعون.

ندر في مصر أمثال بيت عبد الرازق، يجمع أبنائه إلى السراوة^(١) ثقافة عالية ومكارم أخلاق. والأستاذ فرح هذه الشجرة المباركة، راموز تلك البضاعة الجيدة تالله.

(*) لعلّ المراد: لم يتعرّف هذا الوسام، أي لم يتطلب معرفته! (المراجع).

(١) سرو (بفتح فضم): كرم مع شرف.



معروف الرصافي (١)

١٢٩٤ - ١٣٦٤ هـ

١٨٧٧ - ١٩٤٥ م

كان والد معروف من عشيرة كردية تقطن في نواحي كركوك تسمى الجبارة، وتدعى هذه العشيرة أنها علوية النسب، ويسلم لها أهل كردستان بهذه الدعوى. وأمه من عشيرة القراغول، وهم فيما قيل بطن من شمر النازلين في سهول العراق، درس في طفولته في كتاب بغداد، وتعلم القرآن، ثم دخل مدرسة ابتدائية، وغادرها قبل أن ينال شهادتها، فتعذر عليه التوظف، واتصل بالعلامة محمود شكري الألوسي، فتلمذ له، ولقبه بلقبه «الرصافي»، ولازمه اثنتي عشرة سنة، وقرأ على الشيخين عباس القصاب وقاسم القيسي، وأولع بدراسة الشواهد وشروحها، وتذوق ما فيها من بلاغة، فحفظ منها الشيء الكثير. وكان شيخه الألوسي يلقبه بالشواهدى، وشواهد النحو كشواهد البيان

(١) ترجمته في الإعلام ج ٨/ ١٨٤ ومعجم المؤلفين ج ١٢/ ٣٠٦ وانظر مقدمة ديوانه ووحى الرسالة ج ٣/ ٢٦ أعلام الأدب والفن ٣/ ١٩٨. معجم المطبوعات ٩٣٩، تاريخ الأدب العربي للفاخوري ١٠٢٩ وتاريخ الشعر العربي الحديث: ٤٠٠، دراسات في الشعر العربي المعاصر: ٥٨، الرائد: ٧١٦ والترجمة التي أوردها صاحب الأعلام ملخص ترجمته التي تلقاها منه سنة ١٩١٣.

وألقت حوله كتب عديدة منها: أدب الرصافي لمصطفى علي، ومحاضرات عن معروف الرصافي له أيضًا، ذكرى الرصافي لعبد الحميد الرشودي، ومعروف الرصافي للدكتور إبراهيم الكيلاني، معروف الرصافي لبدوي طبانة.

من أمتن الشعر الجاهلي والإسلامي. وقرض الشعر وهو دون السادسة عشرة. انضم إلى سلك التعليم الابتدائي، ثم فاز بامتحان المسابقة بين الراغبين في التوظيف فعين مدرساً في قضاء مندلي، ومنها نقل إلى تدريس آداب اللغة العربية في المدرسة الإعدادية في بغداد، وبقي في تدريسها إلى إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، واشتهر قبيل هذا العهد بما نشرته له الصحف في العراق والشام ومصر، ولا سيما في مجلة «المقتبس» وجريدة «المؤيد» ينظمه في موضوعات اجتماعية وسياسية، ولقبته في مقالة لي كتبته في جريدة «المؤيد» بالشاعر الاجتماعي، فأخذني حافظ إبراهيم على تلقيبي له بهذا اللقب، كأنه يريد أن يختص هو به. وكانت مجلة «المقتبس» في القاهرة ثم في دمشق، ثم جريدة المقتبس مباءة شعره وقمطر أده.

ولما ضمن الدستور لأرباب الأقلام في الولايات العربية حرياتهم، خطا الرصافي خطوة واسعة في منازعه وشعره. ودخل في حزب الاتحاد والترقي. واضطر إلى أن يساير أصحابه في بعض ما لا ينطبق على الخطة التي سار عليها من قبل، وبعد أن كان يندب سوء حظ العرب من الأتراك عاد في حزبيته الجديدة يحاول التوفيق بين الترك والعرب، بل بلغ به التهور إلى أن يمدح الترك ويذم العرب، وأخذ من بيئته في الآستانة، وقد أصبح نائباً عن العراق في مجلس النواب، يردد أحياناً هذه النغمة التي لم يرض عنها أكثر العرب. قال الأستاذ رضا الشبيبي: إن في القصيدة التي هجا بها أهل الشام هجوا مقدماً للعرب لا يقدم عليه من يجري في عروقه دم عربي، وكان موقفه من الحركة القومية الإصلاحية في الديار الشامية موقف الخصم الشديد، لا يقل عن موقف تركي معتر بنعته القومية، فقد أقذع في الهجاء، ونسب إلى العرب ما نسبه من المساوي والمعائب التي نسبها إليهم الشعوييون، بل أعاد ما قاله الشعوييون في هذا الباب، وله في هذا الموضوع عدة قصائد أثارت عليه شباب الأمة العربية.

وفي رأينا أن ما بدا من تقلقل الرصافي في نزغته القومية يشبه ما يصيب أكثر الشعراء في تلونهم ومسايرتهم أهواءهم، وتغييرهم مشاربهم بحسب الزمان. والشعراء في هذا الباب كرجال السياسة. من الصعب أن تجد واحداً منهم كان في أول عمره ووسطه وآخره نمطاً واحداً في الحكم على المسائل العامة، خصوصاً وصاحبنا الرصافي كان يعلق أملاً على الدور الجديد، وتطمع نفسه في أرقى المناصب، على أنه قد بلغها بتولي النيابة عن أمته، ويتدرسه في أرقى مدارس دار السلطنة. والغالب أنه كان يطمع في أكثر من ذلك.

قال الرصافي يخاطب المسيحيين^(١):

علام التعادي لاختلاف ديانة
وما ضرَّ لو كان التعاون ديننا
إذا جمعتنا وحدةً وطنيةً
إذا القومُ عمتهم أمورٌ ثلاثة
فأيُّ اعتقادٍ مانع من أخوة
كتابان لم ينزلهما الله ربُّنا
فمن قام باسم الدين يدعو مفرقاً
أنشقى بأمر الدين وهو سعادة
ولكنَّ جهلَ الجاهلين طحا بهم
فهاموا بتيهاء الأباطيل كالذي

وإن التعادي في الديانة عدوانٌ
فَتَعْمُرُ بلدانٌ وتَأْمَنُ قُطَّانٌ
فماذا علينا أن تُعدَّد أديانُ
لسانٌ وأوطانٌ ويالله إيمانُ
بها قال إنجيلٌ كما قال قرآنٌ
على رُسُلِهِ إلا ليسعدَ إنسانُ
فدعواهُ في أصل الديانة بهتانُ
إذا فاتباع الدينِ يا قومُ خسرانُ
إلى كل قولٍ لم يؤيده برهان^(٢)
تَحَبَّطُهُ من شدةِ المسِّ شيطان^(٣)

(١) من قصيدة في ديوانه: ١٣١ مطلعها:

أما آن أن تنسى من القوم أضغان

(٢) طحا بهم: ذهب بهم.

(٣) أرض تيهاء: مضلة.

ومما جاء فيها :

لقد قبل إن الغرب ذو مدنيةٍ
وأَيُّ فَخَارِ كائِن في تمدنٍ
إذا كانت الأخلاقُ غير شريفةٍ
وقال في الحفلة التي أقيمت لأحمد شوقي في مصر^(١) :

إذا احتفلت مصر بشوقي فما لها
فقد أسمعنا ضجة أمطرت بها
فما بالُ هذا عُدِّ في مصر مارقًا
إذا لم تكن الأفكار في مصر حرةً
أُرفع قدرُ العلم ينطق ناظمًا
ويُختص بالتبجيل من جاء منشدًا
ألا إن هذا الشعر ليس بطائل
كما أن هذا العلم ليس بنافع
وتكريمُ ربِّ الشعر ليس بمفخر
وإلا فعصر الجاهلية قبلنا
هذه حقيقة خلدها الرصافي. ولا نلزم بأن نتعرف ما يكن ضميره نحو
شوقي وشاعريته، والشعر هو الذي يعنينا على الأكثر.

(١) من قصيدة في ديوانه: ١٣٦ مطلقها:

أمارس دهرًا من جديدي دهرًا
وما زال ليلى بالعراقيين ساهرا
(٢) يشير إلى ما لاقى صديقي الأستاذ علي عبد الرزاق من أجل كتابه «الإسلام وأصول
الحكم»، والدكتور طه حسين بسبب كتابه «الأدب الجاهلي» من محنة واضطهاد.
(المؤلف).

وقال في قصيدة عنوانها «حقيقتي السلبية» أبان فيها عن آرائه ومعتقده^(١):

أُحِبُّ صرّاحتني قولاً وفعلاً
فما خادعتُ من أحدٍ بأمرٍ
ولست من الذين يرون خيراً
ولا ممن يرى الأديان قامت
ولكن هنّ وضعٌ وابتداع
ولست من الأولى وهموا وقالوا
لأن الأرض تسبح في فضاء
ولست من الذين يرون فخراً
ولا ممن قد ارتبطوا بماضٍ
ولا من يرى للناس حكماً
ولا ممن تودّد في حضورٍ
ولا ممن يرى الأنساب مما
ولا ممن إذا وُبتوا استماذوا
ولا من معشر صلّوا وصاموا
ولا ممن يرون الله يجزي
ولا ممن يرى الأشياء تفسى
ولكن هنّ في جمع وفرقٍ
ولست من الذين يرون فضلاً

وأكره أن أميل إلى الرياء
ولا أضمرت حسوا في ارتغاء^(٢)
بإبقاء الحقيقة في الخفاء
بوحى مُنَزَّلٍ للأنبياء
من العقلاء أربابِ الدهاء
بأن الروح تعرج للسماء
وما تلك السماء سوى الفضاء
لمُفْتَخِرٍ بإهراقِ الدماء
فعاشوا ينظرون إلى الوراء
سوى الحكام أربابِ القضاء
وعند الغيب جاهراً بالعداء
يمت به الأنام إلى العلاء
بنمتمة الدعاء من الوباء
لما وُعدّوه من حسن الجزاء
على الصلوات بالحور الوضاء
بحيث تكون من عَدَمِ هواءٍ
تبدّلُ منهما صُورُ البقاء
كبيراً للرجال على النساء

(١) هذه قصيدة كاملة جاءت في ديوانه : ١٨٩ .

(٢) الحسرة : الجرعة والارتغاء : الاحتساء ، وفي المثل : أسرّ حسواً في ارتغاء . لمن يظهر شيئاً

ولكن دالبت الأيام حتى تهادن هؤلاء بهؤلاء
 ويزيد الشاعر إجادة في الموضوعات التي تأخذ من قلبه بعض الشيء
 كقصيدته «أنا والشعر»^(١):

أرى الشعر أحياناً يجيش بخاطري
 ويسكن أحياناً فأشجو وإنما
 وقد أتوخي الهزل منه مجارياً
 ولكن نفسي وهي نفس حزينه
 ويبذل ما قد عزّ لي من مصونه
 تَحْرُكُ شَجْوِي نَاشِئٌ مِنْ سَكُونِهِ
 لدهرٍ أراه موغلاً في مجونه
 تميل إلى المشجي لها من حزينه

* * *

لعمرك إن الشعر صمصام حكمة
 إذا جنني ليل الشكوك سللته
 وما الشعر إلا مؤنسي عند وحشتي
 تقوم مقام الدمع لي نفشاته
 وإن التهي معدودة من قُيونِهِ^(٢)
 عليه ففراه بفجر يقينه
 ومُسلي فوادي عند وزي شجونِهِ
 إذا الدهر أبكاني بريب منونه

* * *

والشعر عين لو نظرت بنورها
 وأذن لو استصغيتها نحو كاتم
 ومما قال في الحرية^(٣):
 إذا لم يعش حرّاً بموطنه الفتى
 أحرستني أني اتَّخَذْتُكَ قَبْلَهُ
 إلى الغيب لاستشففت ما في بطونه
 سمعت بها منه حديث قرونِهِ

(١) مطلع قصيدة في ديوانه: ط ١٩٦ بهذا العنوان.

(٢) النهي: ج نهية، وهي العقل.

(٣) من قصيدة في ديوانه: ٥٠ عنوانها (في سبيل حرية الفكر) مطلعها:

كُتِبَتْ لِنَفْسِي عَهْدَ تَحْرِيرِهَا شِعْرًا وَأَشْهَدَتْ فِيمَا قَدْ كَتَبَتْ لَهَا الدَّهْرًا

وفي ركنها استبدلت بالحجر الحجر
 وإن كنت في ليل جعلتك لي بدرا
 فقبلت منك الصدر والنحر والثغرا
 لملتمس للقوم في جهلهم غدرا

وأمسك منها الركن مستسلماً له
 إذا كنت في قفر تخذنك مؤنسا
 وإن نابني خطب صممتك لائما
 وإن لامني قوم عليك فإنسي
 وقال في الوطن^(١):

منى كل نفس وصلها ووفودها
 وتبدو المعالي حيث أتلع جيدها^(٢)
 أناسا تمنى الموت لولا وعودها
 فما ضرها - والهفتا - لو تعودها
 وذكر فضل شهر تموز في حرية الشعوب وما وقع للعرب فيه فقال^(٣):

ألا إنما حرية العيش عادة
 يضيء دجئات الحياة جبينها
 لقد واصلت قوماً وخلت وراءها
 وقد مرضت أرواحنا في انتظارها

على السيف لواء العز مركوزا
 بيض الصوارم الدستور تنجيزا
 فضلاً لبعض على بعض وتمييزا
 حكماً وكانت على علاتها ضيزى
 من قائدين ولم نملك عكاكيزا
 عصابة برزت في المجد تبريزا
 وقصائده المطولات كقطيعه تنطوي على تعليم وحكمة، ويقلّ غزله

وإن تموز شهر قام فيه لنا
 في شهر تموز صادفنا لما وعدت
 هي المساواة عمتنا فما تركت
 أمست لنا قسمة بالملك عادلة
 كنا من الجور عمياناً وليس لنا
 حتى نهضنا إلى العلياء تقدّمنا
 وقصائده المطولات كقطيعه تنطوي على تعليم وحكمة، ويقلّ غزله

(١) من قصيدة في ديوانه: ١٠٣ عنوانها (تبيه النيام) مطلعها:

ويذهب عن هذي النيام موجودها

أما أن أن يفتش البلاد سعودها

(٢) أتلع عنقه: مده متطارلاً.

(٣) من قصيدة في ديوانه: ٣٨٨ بعنوان (تموز الحرية) مطلعها:

واحفل بتموز إن أدركت تموزا

إذا انقضى مارت فاكسر خلفه الكوزا

ونسبته، والإجادة كلها في اجتماعياته، ولا سيما في النصف الأول من حياته أيام كان بعيدًا عن رجال السياسة التركية، غير مضطر إلى مصانعة رجال جمعية الاتحاد والترقي. وقد أبدع في قصائده: «المرأة في الشرق»^(١)، و«التربية والأمهات»^(٢)، و«ما هكذا»^(٣)، «في ليلة نابغية»^(٤)، «الحق والقوة»^(٥).

ومن سياساته من قصيدة^(٦):

أهًا فأهًا على ما كان من شرفٍ
أيامَ كانوا وشملُ المجدِ مجتمعُ
كانوا أجلَّ الوريِّ عزًّا ومقدرةً
وأربطُ الناسِ جأشًا في مواقفه

لليغربيين قد ألوى به القدمُ
والشعبُ ملتئم والمُلكُ منتظمُ
إذا الخطوبُ بحبلِ البغي تُحتزَمُ
من شدة الرعب فيها ترجف اللممُ

(١) مطلعها:

ألا ما لأهل الشرق في برحاءٍ
ديوانه: ٣٤٢.

(٢) مطلعها:

هي الأخلاق تنبت كالنبات
ديوانه: ٣٤٩.

(٣) مطلعها:

أصبحت أوسعهم لومًا وتشربيا
ديوانه: ٤٠٢.

(٤) مطلعها:

خاض الدجى وظلام الليل مختلف
ديوانه: ٤٠٥.

(٥) مطلعها:

أرى الحق لم يغش البلاد وإنما
في ديوانه: ٤١٣ مطلعها:

إذا تطربها الصمصامة الخدم
هي المنى كغفور الغيد تبتسم

وبالْحَزَامَةَ شُدَّتْ مِنْهُمْ الْحَزْمُ
خَلَفَ هُمَ الْيَوْمَ لَا عُرْبَ وَلَا عَجَمُ
حَتَّى تَبَدَّلَتِ الْأَخْلَاقُ وَالشَّيْمُ
بِهِ أَنْبَرْتُ أَعْظَمَ مِنْهُمْ وَجَعَتْ دَمُ
مَشْيِ الْأَمِيرِ وَهُمْ مِنْ حَوْلِهِ خَدَمُ

عَلَى الْحَصَافَةِ قَدْ لِيَثَّتْ عَمَائِمُهُمْ
قَضَوْا أَعَارِيْبَ أَفْحَاحًا وَأَعَقَبَهُمْ
جَارَ الزَّمَانِ عَلَيْهِمْ فِي تَقْلِبِهِ
دَبَّ التَّبَاغُضُ فِي أَحْشَائِهِمْ مَرَضًا
فَأَصْبَحَ الذُّلُّ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ
وَمِنْ سِيَاسَاتِهِ^(١):

أَمْسُوا كَمَنْ لَبَسَ الْجَلْبَابَ مَقْلُوبًا^(٢)
لَا يَسْلُكُونَ إِلَى الْإِصْلَاحِ مَلْحُوبًا^(٣)
جَاؤُوا عَلَى حَسَبِ الْأَدْيَانِ تَرْتِيبًا
تَنْفِي الْكِنَائِسِ عَنْهَا وَالْمَحَارِبَا
إِلَّا التَّمَعِصَبَ لِلْأَدْيَانِ مَشْرُوبَا
حَتَّى بَدَأَ وَجْهَهُ كَاللَّيْلِ غَرِيبًا^(٤)
مَا كُلُّ طَالِبٍ حَقٌّ نَالَ مَطْلُوبَا

مَنْ مُبْلَغُ الْقَوْمِ أَنْ الْمَصْلِحِينَ لَهُمْ
مَا بِالْهَمِّ وَطَرِيقَ الْحَقِّ وَاضِحَةً
أَفِي مَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ وَهُمْ عَرَبٌ
مَا ضَرَّهُمْ لَوْ نَحَوْنَا فِي الْأَمْرِ جَامِعَةً
لَكِنَّهُمْ أُمَّةٌ تَأْبَى مِشَارِبَهُمْ
قَدْ حَوَّلُوا الْحَقَّ وَاشْتَطُوا بِمَطْلَبِهِ
قَدْ يَطْلُبُ الْحَقُّ طَيَّاشٌ فَيَبْطَلُهُ

لَمْ يُذْغِمِ الضَّادَ أَبَاءَ لَكُمْ فَرَطُوا^(٥)
أَمْ يَخْسُنُ الْعَجْزُ إِذْ أَبَاؤُكُمْ نَشَطُوا

قَلْ لِلْأَلَى نَطَقُوا بِالضَّادِ مُدْغَمًا
أَيَحْسُنُ اللَّحْنُ إِذْ أَبَاؤُكُمْ فَصَحُوا

(١) من قصيدة في ديوانه: ٤٠٢ عنوانها (ما هكذا) مطلعها:

لما امتطوا غارب الإفراط مركوبا

أصبحت أوسعهم لومًا وتشريبًا

(٢) أي أصبحوا أضحوكة ومثارة للسخرية.

(٣) الطريق اللاحب والملحوب: الواضح.

(٤) الغريب: الأسود.

(٥) هذه الأبيات من القصيدة التي عنوانها (في ليلة نابغية) وردت في ديوانه: ٤٠٥ مطلعها:

صوت به الوجد مثل السيف مخترط

خاض الدجى وظلام الليل مختلف

فيكم غلوً وتقصيرٌ وبينهما
 إني ابتليت بقوم يَبْعَرُونَ على
 شطوا بأقوالهم حتى لقد غضبوا
 فبدّلوا القولَ إن صحَّتْ عِزائِمكم
 قد حرثُ في الأمرِني حينَ أسخطهم
 فاز الذي كان في أحواله وَسَطًا
 قل للأعريب قد هانت مكارمكم
 برئت للعرب العرياء من فئة
 إن المكارم إن هم أصبحوا عربًا
 إن يغمطوني لأنني جئت أنهضهم
 هم كالضفادع فاسمعهم إذا رَطَنوا

* * *

وقال^(٥):

لهفي على العرب أمست من جمودهم
 أين الجحاحج ممن ينتمون إلى
 حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر
 ذؤابة الشرف الوضاح من مُضَرِّ^(٦)

(١) يبعرون: يرمون برازهم بعرًا، نلط: سلح سلخًا رقيقًا. والمراد أنه إذا أتبهم لخطأ صغير فعلوا ما هو أكبر منه.

(٢) يعقى: يكره، يسترط: يتطلع.

(٣) النبط: جيل من الأعاجم، ويستعمل لأخلاق الناس وعوامهم.

(٤) رطن: تكلم بالأصحمية.

(٥) من قصيدة في ديوانه: ٦٤ عنوانها. (سياسة لا حماسة) مطلعها:

الشعر مفتقر مني لمبتكر ولست للشعر في حال بمفتقر

(٦) الجحاحج: السادة.

ولا كرامة لولا الشمسُ للقمر
ناموا عن الأمر تفويضًا إلى القدر^(١)
يا ساهر البرق أيقظ راقد السمير

قوم هم الشمس كانوا والورى قمر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عَقِبًا
أقول والبرق يسري في مراقدهم

ومن قصيدة «الحق والقوة»^(٢):

تَذِلُّ لها الأعناق قَهْرًا وتَنْدَقُ
ولا يتحاشى عن ظلامته الخَلْقُ
نعارِضُ في أوصافها الكِذْبُ والصَّنْعُ
بأشياء من بطلانها ضَجِكُ الحَقُّ
أجازوا لهم أن يشمل الأممَ الرِّقُّ

يقولون إن الحق في الخلق قوة
فما باله يمسي ويصبح شاكيا
إلى الله نشكو الأمر من مدنية
وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي
فهم منعوا رِقَّ الأسير وإنما
ومن قصيدة^(٣):

مد جَبَانِه والمألُ عند بَخِيلِه
مد غريبه والحكم عند دَخِيلِه
ظُلْمًا وآل كثيرة لقليله
فضَّلْتُ مُجَمَلِه على تفصيلِه

لا خير في وطن يكون السيف عند
والرأي عند طريده والعلم عند
وقد استبد قليله بكثيره
إنني إذا جدَّ المقالُ بموقفِ
وقال^(٤):

(١) الأصل: عن القدر.

(٢) ديوانه: ٤١٣.

(٣) في ديوانه: ٤٣٣ عنوانها: (تجاه الرهباني) مطلعها:

وبراهديه وباسقات نخيله
ويبشُّ مبتسمًا بوجه نزيله

إن العراق بمرطبه ويطولوه
يهتز مبتهجًا بمقدم ضيفه

(٤) من قصيدة في ديوانه: ٤٤٥ عنوانها: (السجايا فوق العلم) مطلعها:

في كل عصر به قد سادت الأمم

علم يعززه من دولة علم

لا دَرَّ دُرٌّ رجال الدين إنهم
واستعملوه كما تهوى مآربهم
تالله ما كان في الإسلام من حَرَجٍ
بل كله جاء تيسيراً وتبصرة
لكنما القوم ظلوا جامدين على
إذا سلكت إلى الإصلاح مسلكه
وإن تصادمت بالعادات تُنكِرُها
وإن أتيت ببرهانٍ فأعجزهم
وإن تقل لهم قولاً لِتُقْنِعَهُمْ
خلاتقٌ كظلام الليل مَنْ يَرها

وفي مطلع قصيدة «حكومة الانتداب»^(٣) :

أنا بالحكومة والسياسة أعرفُ
سأقول فيها ما أقول ولم أخف
هذي حكومتنا وكل شموخها
غشت مظاهرها وموّة وجهها
وجهان فيها: باطن منسترٌ
والباطن المستور فيه تحكّمٌ

أألامُ في تفنيدها وأعنفُ
من أن يقولوا شاعر متطرف
كذبٌ وكل صنيعها مُتكلفُ
فجميع ما فيها بهارجٌ زئفُ^(٤)
للأجنبي وظاهر متكشّفُ
والظاهر المكشوف فيه تصلّفُ

(١) هذه رواية الديوان، وفي الأصل: أجل أردت رجال الدين أنهم.

(٢) الغم: إسبال الشعر حتى يضيق الوجه والقفا، والمراد هنا ضيق الطريق.

(٣) ديوانه: ٤٦١.

(٤) الأصل: غشت ظواهرها.

عَلِمَ ودستورٌ ومجلسُ أمةٍ كَلَّ عن المعنى الصحيح محرفٌ
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليست تُعرفُ

ومن قصيدة^(١):

أي زعماء الغرب هل من دلالةٍ لديكم على غير الخديعة والكذبِ
تقولون إن العصرَ عصرٌ تمدنٍ أمن ذلكم قتل النفوس بلا ذنبِ
ألم تبصروا القتلى تمج دماءها على الأرض والجرحى يننون في الحربِ
أني الحق أم في العلم أن لا يسوءكم ويخجلكم شن الإغارة للغصبِ
وهل أغلقت هذي العلوم قلوبكم بأغطيةٍ قُدَّت من الحجر الصلبِ
كذبتم فإن العصر عصر مطامع تُقدِّ لها الأوداجُ بالصارمِ العَصْبِ
وقال من أخرى^(٢):

يقولون إن العصر عصر تمدن فما باله أمسى عن الحق مُزَوِّراً
إلى الله أشكو في الورى جاهليةً يعدون فيها من تمدنهم عصراً
أتتنا بثوب العلم بتمشي نبختراً إلى الخير لكن قد تأبطت الشرّاً
فلا تلتمظ في مدحها متمطّقا فإن أظهرت حلواً فقد أبطنت مرّاً^(٣)

وقال في قصيدته «مظاهر التعصب في عصر المدنية» وقد ألقى الجنرال

(١) في ديوانه: ٤٧٨ عنوانها: (إلى الحرب) مطلعها:

ألا انهض وشمز أيها الشرق للحرب وقبل غرار السيف واسل هوى الكتب

(٢) في ديوانه: ٤٨٣ عنوانها: (في طرابلس) مطلعها:

هو النصر معقود برايتنا الحمرا على أنه في الحرب آيتنا الكبرى

(٣) التلمظ والالتماظ: تتبع الطعم والتدوق، والتلمظ: أن يصوت الأكل باللسان عند استطابته

الماكول.

غورو المفوض السامي الفرنسي في سورية خطابًا افتخر فيه بأجداده الذين أوقدوا جذوة الحروب الصليبية^(١):

وَقُلْتُ عَنِ الْإِفْرَنْجِ قَوْمِكَ إِنَّهُمْ
فَحَرَكْتَ حَزْنَا كَانَ فِي الشَّرْقِ سَاكِنًا
أَسَاتَ إِلَيْنَا بِالَّذِي قَدْ ذَكَرْتَهُ
ذَكَرْتَ مِنَ الْحَرْبِ الصَّلِيبِيَّةِ الَّتِي
وَتَلِكْ لِعَمْرِي قَرْحَةً قَدْ نَكَاتَهَا
وَقَالَ يَصِفُ جَرَائِدَ الْأَسْتَانَةِ فِي عَهْدِهِ^(٢):

لَمْ يَكْفِهَا هَذَا الْخِلَافُ وَإِنَّمَا
فَمَا بَيْنَ مَكْذُوبٍ عَلَيْهِ وَكَاذِبٍ
تَرَى فِي فُرُوقِ الْيَوْمِ قِرَاءَ صُخْفِهَا
جِدَالَ عَلَى مَرِّ الْجَدِيدِينَ دَائِمٍ
وَقَالَ فِيهَا:

لَمْ أَرْ شَيْئًا كَالْجَرَائِدِ عِنْدَهُمْ
يَقُولُونَ نَحْنُ الْمَصْلُحُونَ لَمْ أَجِدْ
أَطَافَتْ بِنَقْصِ لِلْحَقِيقَةِ زَائِدٍ^(٤)
وَمَا بَيْنَ مَجْهُودٍ عَلَيْهِ وَجَاهِدٍ
فَرِيقَيْنِ مِنْ ذِي حُجَّةٍ وَمَعَانِدٍ^(٥)
بِتَفْنِيدِ رَأْيٍ أَوْ بِتَزْيِيفِ نَاقِدٍ^(٦)
مَبَادئِهِ مَنَقُوضَةٌ بِالْمَقَاصِدِ^(٧)
لَهُمْ فِي الْمَجَالِ الْقَوْلُ غَيْرَ الْمَفَاسِدِ

(١) مطلع القصيدة في الديوان ٤٣١ :

رويدك غورو أي هذا الجنيرال
(٢) بلبال: الخاطر.

(٣) من قصيدة في ديوانه ٢٢٥ عنوانها: (الجرائد) مطلعها:

إذا شئت أن تسري بكافرة الصوى
يدوي بقطريها هزيم الرواعد
(٤) الأصل: لم يكفها.

(٥) فروق (بفتح الفاء) من أسماء القسطنطينية.

(٦) الأصل: أو بتنقيد ناقد.

(٧) في الأصل المخطوط: مبادئها...

وكيف يبين الحق من نقشاتهم وكلّ له في الحق نفثة مارِد

ومن مقطعاته^(١):

لُقنت في عصر الشباب حقائقاً في الدين تقصر دونها الأفهام
ثم انقضى عصر الشباب وطيشه فإذا الحقائق كلها أوهام

لا يخدعُكَ هتاف القوم بالوطنِ فالقومُ في السر غير القوم في العلن^(١)
أحبولة الدين رَكَّتْ من تقادُمها فاعتاض عنها الوري أحبولة الوطن

وَطَّنْ حَيَاتَكَ للمكاره وارتقِبْ كَدَرَ المواردِ إن صفا لك مَشْرَبُ^(٣)
كُلُّ الأماكنِ للأذاهِ مَظِنَّةٌ حتى السماء تَدِبُ فيها العقربُ

أرى أغنياء الناس كالعمي لم يروا شقاء بني عَبْرَاءِ من كل بائس^(٤)
كأن الغنى والفقر نور وجندسٌ ولم يَزُ مَنْ في النور مَنْ في الحنادسِ^(٥)

ما أقبَحَ الجهلُ يُبدي عيب صاحبه للناظرين وعن عينيه يُخفيه^(٦)
كذلك الشوم لم يشمه آكله والناس تشتتم نَشَنَ الريح من فيه

(١) ديوانه: ٥٠١ .

(٢) مطلع مقطعة من خمسة أبيات في ديوانه: ٥٠٧ .

(٣) مقطعة في ديوانه: ٥٠٧ .

(٤) ديوانه: ٥١٣ بعنوان: (الأغنياء والفقراء) .

(٥) الحندس: الظلام الشديد .

(٦) ديوانه: ٥١٤ بعنوان: (الجهل فضاح) .

وتقع له في معظم قصائده أبيات فيها حكمة وعظة وتعليم :

مَنْ لَيْسَ يُبْكِيهِ مِنْ أَبْنَاءِ جَلْدَتِهِ بَكَوْهُمْ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ التَّمَّاسِيحِ^(١)

وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا النُّورُ يَجْلُو دَجَى الْعَمَى وَلَكِنْ تَزِيغُ الْعَيْنِ عِنْدَ انْكَسَارِهِ^(٢)

فَمَا فَاسِدُ الْأَخْلَاقِ بِالْعِلْمِ مَفْلَحًا وَإِنْ كَانَ بَحْرًا زَاخِرًا مِنْ بَحَارِهِ

وَمَا كَانَ كَذِبُ الْقَوْمِ فِي الْقَوْلِ وَحْدَهُ وَلَكِنَّهُ فِي كِتَابِهِمُ وَالْمَهَارِقِ^(٣)

وَأَقْبَحُ مَيِّنٍ فِي الزَّمَانِ خِرَافَةٌ تَخْطُ بِهَا طِرْسًا يِرَاعَةَ نَامِقٍ^(٤)

ضَلَالٌ عَلَى مَرِّ الْجَدِيدِينَ لَمْ تَزَلْ مِفَارِينَا مِنْ أَمْرِهِ كَالْمِشَارِقِ

نَهَيْتَكَ عَنْ هَوَاكِ فَمَا انْتَهَيْتِ وَلَكِنْ قَدْ فَعَلْتَ كَمَا اشْتَهَيْتِ^(٥)

فِيَا نَفْسِي عَنِ الشَّهَوَاتِ كَفِي فَأَنْتِ عَلَيكِ يَا نَفْسِي جَنَيْتِ

(١) من قصيدة في ديوانه : ٢١٣ عنوانها : (من ويلات الحرب) مطلعها :

مرت تقول ألا يا رب خذ روحي كي أستريح بموتي من تباريحي

(٢) من قصيدة في ديوانه : ٣٦ عنوانها : (معتك الحياة) مطلعها :

هو الدهر لم يترك مشن غواره على سابق من ليله أو نهاره

وهذه رواية الديوان، وفي الأصل المخطوط : ولكن تزوغ

(٣) من قصيدة في ديوانه : ٤٧ عنوانها : (الدهر والحقيقة) مطلعها :

أرى الدهر لا بالو بستر الحقائق إذا افتقر عن صبح تلاه بغاسق

والمهاريق : الصحف تتخذ من حرير أبيض مصغ مصقول تكتب عليها الكتب المخددة

كالمعاهدات ونحوها .

(٤) المين : الكذب، ونمق الكتاب : زينه .

(٥) مطلع مقطعة من خمسة أبيات في ديوانه : ٥٤٢ .

وما أتمارة بالسوء يوماً سعت في المنكرات كما سعت

وقد اعترف لي ذات يوم أنه أسرف على نفسه في الآستانة خلال أربع سنين ما كان عليه أن يأتيه في أربعين سنة.

ومما خاطب به المسيحين^(١):

الستم من القوم الذين علاؤهم تقاعس عنه الدهر وانحط كيوان^(٢)
نمَّتكم إلى المجد المؤئل تغلب كما قد نمَّتكم للمكارم غسان
فلا تُنكروا عهد الإخاء وقد أتت تصافحكم فيه نزار وعدنان^(٣)

نشر الرصافي دروسه في علم الأدب، ووضع في أخريات أيامه رسائل التعليقات دعا فيها إلى التصوف، بل إلى أبعد من التصوف.

دعا فيها إلى وحدة الوجود، وادعى أنه هو مذهب أرباب الأفكار الحرة والنفوس الزكية الطاهرة. ولا شك أن معروفًا كان في صدر حياته متشبعًا بمذهب السلف، المذهب الذي دعا إليه أستاذه الألوسي، وفيه ينظر إلى الشريعة بعيون أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن قيم الجوزية، لا بعيون المبتدعين بما ليس في شيء من الدين، بعد أن كان يقول عن قومه في العراق^(٤):

(١) من قصيدة في ديوانه: ١٣١ عنوانها: (في سبيل الوطن، إلى إخواننا المسيحين) مطلعها:
أما آن أن تنسى من القوم أضغان فيبني على أس المؤاخاة بنيان
وانظر ما ورد أيضًا في الديوان.

(٢) كيوان: اسم كوكب زحل بالفارسية.

(٣) في الديوان: لا تنكروا. وما أثبتناه من الأصل المخطوط أقرب إلى الصواب.

(٤) آخر بيت من قصيدته: (بعد الدستور) في ديوانه: ١١٣ ويشير في هذا البيت إلى قوم تركوا النصوص الشرعية الداعية إلى السعي والاعتماد على النفس، ولجؤوا إلى الأموات أو إلى من يحملون الدبابيس ويضربون الدفوف والمزاهر.

يُرْجُونَ من أهل القبور رجاءهم ومن يحمل الدبوسَ أو يضرب الدُّقًا
أصبح يقول بالشعوذات الصوفية، ولكن لم يجد أنصارًا يعتضد بهم،
وكان أنصاره فقط ممن انغمسوا قبله بهذه الترهات والأباطيل، ولذلك حق لنا
القول: إن الرصافي لم يفلح في الدعوة إلى التصوف، كما أنَّ الزهاوي لم
يفلح في دعواه [إلى] الفلسفة.

جرفته أمواج السياسة المتلاطمة بعد إعلان الدستور العثماني كما قال،
وحالت بينه وبين معالجة الموضوعات الاجتماعية وغيرها مما كان يعالجه من
قبل، وبدا التلون في سياسته مع العرب وفي سياسته مع الترك. وانتخب مرات
عضوًا في مجلس النواب العثماني عن بغداد، وعضوًا في الندوة العراقية بعد
انفصال العراق عن الدولة العثمانية، ودخلت عليه أموال بددها، فاشتد به
العوز حتى اضطر إلى الرحيل إلى لبنان ثم إلى القدس.
وقال قصيدة من المطولات، كلها أنين وحزن ومنها^(١):

ويل لبغداد مما سوف تذكره
لقد سقيتُ بفيض الدمع أُرْبِعَهَا
ما كنت أحسب أنني مذ بكيت بها
ومنها:

أفي المروءة أن يعتز جاهلها
وأن يعيش بها الطرطور ذا شمم
تالله ما كان هذا قط من شيممي
وأن أكون بها في قبضة الهون
وأن أسام بعيشي جَدْع عَرْنين^(٢)
ولا الحياة على النكراء من ديني

(١) من قصيدة في ديوانه: ٤٢٦: عنوانها: (بعد الزوج) مطلعها:

مثل الحوادث أبلوها وتبليني

هي المرآطن أدنيها وتقصيني

(٢) العرنين: الأنف، وجدعه: قطعه.

ولست أبذل عرضي كي أعيش به ولو تأدمت رَقُومًا بفلسين^(١)

ما كنت أحسب بغدادًا تُحَلِّئُنِي عن ماء دجلتها يومًا وتُظْمِينِي^(٢)
 تالله ما ضاع حقي هكذا أبدًا لو كنت من عَجَمِ صُهَبِ العَثَانِينِ^(٣)
 علام أمكث في بغداد مصطبرًا على الضراعة في بحبوحة الهون
 لأجعلنَ إلى بيروت منتسبي لعل بيروت بعد اليوم تهديني
 خابت ببغداد آمال أؤملها هل تخيب إذا استذرت بصنين^(٤)

وفي هذه المرحلة من حياته احتاج إلى نجدة بعض أرباب الأريحية في الشام، واحتاج إلى أمثالهم في العراق فتقدموا وربطوا له رواتب من صناديقهم الخاصة. وهو بذلك قد يضطره تطلب بسط الأيدي بالعطاء إلى المبالغة في مديحهم. واختلاق صفات ليست لهم.

أرسل إليّ في آخر أيامه قصيدة في مدحي قال إنه وجدها بينا كان يفتش أوراقه. والقصيدة نظمها أيام كان شابًا يرأس «المقتبس» فأعدتها إليه شاكرًا وقلت له في الاعتذار: أنا لا أحب أن أمدح، وإذا كان لي صفات قليلة تخولني المديح فمديحي يحوم حول دوري الأخير بأعمالي العلمية، فساءه هذا وشكاني إلى صديقه وصديقي العلامة طه الراوي. فأعطاني الحق دونه ولامه على إهماله، ولو كان يتوقع مني فائدة لكانت لي في ديوانه قصائد. أما

(١) تادم: اتخذ الإدام، والزقوم: شجرة يطعم منها أهل النار، والفلسين: ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه.

(٢) تحلّئني: تمنعني وتطرّدني.

(٣) العثون: اللحية، أو ما نبت على الدقن وتحتة، والصُهَب (بفتح الصاد والهاء) حمرة أو شقرة في الشعر.

(٤) صنين: اسم جبل في لبنان.

أنا فكنت أثني [على] (١) الشعراء وأنشطهم حتى يأتوا من شعرهم ما ينسينا شعراء الإسفاف والمناسبات. وليحصروه في نطاق تستفيد منه الأمة كما استفادت من شعر معروف وشعر الزهاوي وشعر حافظ وشوقي والبارودي ومطران وصبري.

قيل: إن للرصافي أشعارًا بذينة في المجون برز فيها على ابن الحجاج (٢) وغيره من شعراء الخلاعة الأقدمين، وقد طرحه ولم يدونه فأحسن؛ لأنه يضر بالعقول والتربية، وهو الذي نادى طول حياته باستعمال العقل وتحسين الملكات. وربما كان مما قاله في ثورة الشباب فتحامى نشره لما قدر مضرته. كان الرصافي جرؤ على استعمال حرته في الحكم على الأديان وعلى النظم الاجتماعية والسياسة، فإنه لا يملك حرية إفساد الأخلاق، وتحجيب المجون إلى الناس، وهم غير محتاجين إلى شعره في هذا الباب.

الرصافي أجاد كل الإجابة في تنوع موضوعات شعره لولا هذه الأماديع التي دار عليها موضوع الشعر العربي منذ عرف، وشعره سهل جزل تشربه حتى نفوس من لم يدرسوا الأدب كثيرًا. وهو في شعره يسير مع أكبر الشعراء إن لم يفقههم، وكأنه في شعره ينثر، وإن كان في نشره وكتابته دون شعره. وعهدي طويل بما نشر الرصافي من أدبه في النثر، فلذلك لا يستقيم حكمي عليه في هذا المعنى. أما شعره فقد كان رجال الأدب يُجمعون على جزالته وسلاسته، وما يتدفق منه من الأفكار الصائبة في الإصلاح وإنارة العقول وتربية الوطنية.

(١) ليست في الأصل، وزدناها لتستقيم العبارة. وكان المؤلف قد وضعها بدلًا من عبارة (أمدح) ولكنه سها على ما يبدو عن كتابة كلمة (على).

(٢) هو حسين بن أحمد... بن الحجاج، شاعر لحن. أمير الفحش، يضرب به المثل في السخف والمداعبة والأهاجي، وهو من كتاب العصر البويهي، توفي سنة ٣٩١هـ، ١٠٠١م.



يعقوب صُرُوف (١)

١٢٦٨ - ١٣٤٦هـ

١٨٥٢ - ١٩٢٧م

بعد فترة سنة ١٨٦٠ في الشام قويت عزيمة أصحاب الإرساليات الدينية في الغرب على نشر مذاهبها في هذه الديار، وتنافس دعاة الكثرة مع دعاة البرتستانتيّة، فأسسوا مدارس مختلفة الصبغات والدرجات في الساحل الشامي، ولا سيما في جبل لبنان، وجعلوا بيروت ميدان المنافسات المذهبية، فاستفاد السياسيون اللبنانيون من ذلك ثقافة جديدة. وأحكموا من اللغات الغربية الفرنسية والإنكليزية.

ومن أعظم المدارس التي كان لها الأثر العظيم في هذه النهضة الجديدة كلية الأميركيان في بيروت، وهي التي دعيت بعد الجامعة الأميركية الإنجيلية، فإنها، إلى عنايتها بنشر البرتستانتيّة، عنيت أيضًا بالعلوم والآداب، وعلمت

(١) نشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٢٧ ص ٣ وترجمته في الأعلام ٢٦٦/٩، معجم المؤلفين ٢٥٣/١٣، أعلام الصحافة العربية ص ٩١ لإبراهيم عبده، معجم المطبوعات: ١٢٠٦، تاريخ الأدب العربي للفاخوري: ١١٢٥، رجال عرفتهم: ١١٥، ونقل الزركلي في الأعلام عن جريدة «أخبار اليوم» المصرية أنه أول من دعا إلى الاشتراكية في مصر، وأول من شرحها للناس، وطالب الجماهير والحكومات بالأخذ بها، وجوه شرقية وغربية: ١١٥، مرآة العصر ٤٤٥.

وهو يعقوب بن نقولا صرُوف الدمشقي الأصل، الحموي المنبت.

لأول نشأتها العلوم بالعربية، فتخرجت فيها طائفة من الشبان الأذكياء، كان بعضهم فخرًا للشام، ومن جملتهم يعقوب صروف.

ولد هذا العالم يوم ١٨ تموز سنة ١٨٥٢ (مات يوم ٩ تموز ١٩٢٧م) في قرية الحَدَث^(١) من أبوين فقيرين. قيل إن جده كان من أصل رومي. وأن الدم العربي قليل في دمه. ولما ترعرع تلقى مبادئ العلوم في مدرسة سوق الغرب البرتستانتية^(٢)، ثم انتقل إلى مدرسة عيبة الأميركية. وكفله الأميركيان وأخذوا بيده، فظهر ذكاؤه واجتهاده، ونال شهادة بكالوريوس علوم من الكلية الأميركية في بيروت سنة ١٨٧٠ ودرس بعد ذلك سنتين في مدرستي صيدا وطرابلس الأمريكيتين، وبعدها دعت الكلية الأميركية إلى تعليم البيان العربي والعلوم الطبيعية والكيمياء والرياضية والفلسفة فدرّس فيها إحدى عشرة سنة.

وبدا له خلال التدريس مع تربه فارس نمر أن ينشئ مجلة تبحث في العلوم المادية، فاستشارا أستاذهما العلامة الدكتور كرنيليوس فانديك الأميركي^(٣) صاحب الأيادي البيض على العلم والعرب، فشجعهما على عملهما وسمى مجلتهما «المقتطف» وبدأ يؤازر فيها وينظر فيما يترجمان ويؤلفان. وصدر «المقتطف» في أول أيار ١٨٧٦ في مدينة بيروت، ثم رأيا الانتقال إلى مصر، وأنشأ في القاهرة سنة ١٨٨٨ جريدة سياسية يومية سمّاها «المقطّم» تناصر الاحتلال الإنجليزي، وظلّا على إصدار «المقتطف» و«المقطّم».

وتقامم الشريكان العمل، فانفرد الدكتور نمر بالمقطّم السياسي، وانقطع الدكتور صروف لإنشاء المقتطف. وينظر صروف أيضًا في المسودات الأخيرة من المقطّم. ولا ينظر نمر في المقتطف قبل نشره، وكثيرًا ما كان صروف

(١) القرية من بيروت.

(٢) سوق الغرب إحدى بلدان جبل لبنان شرق بيروت.

(٣) انظر ترجمة له ص ٢٧١ الترجمة ٣١.

يحذف من المقطع أشياء لا تخلو من مجازفات لا تتفق مع اعتداله وتقله ويتحامي مسَّ عواطف المصريين .

وامتزج الشريكان حتى كأنهما شخص واحد، فأثريا من معاونة الإنكليز، ونال المستأثر بالجريدة السياسية منهما الحظ الأكبر من مغانمهم مما لم يوفق إلى مثله أحد من أرباب الأقاليم .

وما زال المقتطف، بفضل منشئه، يدأب على السير في الخطة التي رسمت له، وجل اعتماده في مادته على المصادر الإنكليزية، يقرب العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والاقتصادية والزراعية من أذهان الجمهور، حتى كان أداةً صالحة لنزع غشاوة الجهل المخيم على العقول، ومشعلاً من نور الغرب يشع بين أبناء هذا الشرق .

وكثير ممن لم يحظهم الحظ بدراسة هذه العلوم في المدارس تلقوها من طريق المقتطف. ذلك لأن مُنْشئه كان يتوخى السلاسة في التعبير، ولا ينشر ما يتعب ذهن القارئ، ويحبب إليه المطالعة. وأذكر أن أحد معارفي أرسل إليّ من دمشق بمقالة منمقة العبارة. قليلة المعاني، وأرادني على أن أدفعها لصاحب المقتطف للنشر، فنامت عنده حتى فرغ صبر كاتبها، فأوعز إليّ بالبحث عما آلت إليه حال مقالته، فقال لي صروف: إني اعتدت أن أدفع مقالات المؤازرين إلى ابنتي لتقرأها، فإذا فهمتها أنشرها، وأعتقد أن القراء يتذوقونها، وإلا فلا، ومقالة صاحبك عبارة عن الغاز ومعميات لم أدرك ما يريد أن يقول، فبالطبع على تلك النسبة يكون فهم القراء. وهذا ما حال دون طبعا .

رُزق صرّوف رشاقة في بيانه، لا يتكلف فيه ولا يتصنع، ومهر في بسط المعاني لقرائه، وكان من تدريسه في صباه سنين كثيرة عاملٌ مهم لإدراك حاجة المتعلم والمستمع والقارئ، ساعده على إفهام قرائه وتقريب الأبحاث العلمية من الأذهان مهما كانت درجة معرفة المطالع، وهذه مزية فيه قلما دانه

فيها أحدٌ ممن أنشؤوا مجلات خاضت الأبحاث التي خاضها أو ما يماثلها. والسر في نجاحه: أنه أتقن العربية والإنكليزية، وأتقن العلوم التي توخى نشرها، وتخرَّجَ بعظيم أفاده علمًا وتدريبًا.

كان المترجم له يقرأ المقالة الطويلة بالإنكليزية فينقلها إلى العربية، أو يحتذيها، أو يأخذ بعض معانيها، وذلك باختصار لا غبار عليه.

يزينها بما يوضحها ويحليها في العين والذوق.. وكان حسن الاختيار فيما ينقل ويحتذي ويؤلف، لا يخوض أبحاثاً لم يقع له أن ذاق منها ولو لمآطات خفيفة، وإذا اضطر إلى أن يعالج موضوعات لم تسبق له، تبدو مقائله ويظهر ضعفه. عُدَّ عليه هذا في بعض ما كتب وترجم. والتعريب في مجلته أبداً أكثر من التأليف. وأكثر المقالات المصنفة كانت من أقلام مؤازريه. ومن قرأ أجزاء المقتطف يسقط فيها على ملخص آراء العلماء من الإنكليز والأميركيين في العلوم، وعلى مقالات جادت بها أقلام بعض أدباء تلك الحقبة من الشاميين والمصريين وغيرهم. ويدرك أن صاحب هذه الصحيفة كان يسير بها على سنة الترقي، تزيد كل سنة مادته، وتزيد معها معارف قرائه.

ولما كان له من موضوعاته ما لا يستسيغه عامة المطالعين في ذاك الدهر، ومنها ما يمسُّ الأديان والتقاليد في الأحايين، كان منشئها يلتزم الحياد على الأكثر، فينتقل ويعزو ما ينقل إلى مصادر معينة، ويترك المجال للقارئ حتى يفكر بنفسه فيما يتلو ويتدبر. وكان يتعمد ما أمكن، الابتعاد عن مزج القديم بالحديث. وما كان ممن يحسن الظن بمدينة العرب، لتشبعه بروح من لم يدرسوها حق دراستها، وساء حكمه على تلك المدينة بما أبقته بينته الأولى في نفسه من التبرُّم بحال من شاهد من أهلها. ومع هذا نشر لمؤازريه أبحاثاً مهمة بدون تعليق عليها إلا في أمور لا تحتملها حوصلته. ويعتقد هو خلفها بحسب ما هداه إليه عمله. ثم قد تضطره العاطفة إلى أن ينوّه بمن لا يستحقون التنويه، فيترجم لهم، ويلفق لهم أدبًا، ويزعم لهم فضائل، ويغفل عن ترجمة

من لم يشاركوه في سياسته، أو من نقدوه وآذوه في نقدهم من علماء العصر وغيرهم.

على أن التسامح العلمي باد على أكثر ما كان ينشر، ولا يُحمل عطفه على بعض من حاول رفعهم إلا على حُلُق تخلقت به بعض الطوائف في هذا الشرق القريب. فإن الطائفة القليلة العدد تتماسك وتتساند أمام الطوائف الكبرى، وبعبارة أصرح: إنه أصبح من طبيعة المسيحيين في ديارنا أن يمسك بعضهم بأيدي بعض، وينهوا بأدبائهم ورجالهم، ويلفقوا لهم مزايا. ويتخيلوا لهم درجات يرفعونهم إليها. وقد يعد هذا العمل من باب التنشيط إذا لم يعث بالحقيقة.

ومن طالع مجلة المشرق وما كتبه أصحابها من أبناء الرهبانية اليسوعية في التنويه بأبناء طائفتهم من الباباويين، يدهش من هذه الجرأة على التصنيع والمصانعة. ولو حاول مؤرخ معتدل أن يرد إلى الصواب ما نقلوه ودونوه في أبناء الكاثوليك والموارنة، لاقتضى له أن يحذف منه تسعة أعشاره، ذلك لأنهم خلقوا لمن أرادوا تزيين صورهم شعراً ونثراً وتآليف وخطباً، لو كان هناك إنصاف لما قوبلت بغير الطرح في سلة المهملات، وقالوا عما نشروا أنها كتب وأسفار وأباعوها من عامتهم، ونشروها لتأييد دعوتهم فكانت سبباً على العرب والعربية، وعاراً على الحقائق التاريخية.

فتح «المقتطف» صدره للمناقشات في العقد الأول من حياته، فنصح فاندريك لمنشئيه بالعدول عنها، وأثبتا له نصيحته في مجلد السنة الثامنة، وقللا بعد ذلك من الأخذ والرد على الأجزاء التالية، وشغلا صفحاتها بالمفيد من الأبحاث مجردة عن المماحكات، وراعى المقتطف ذوق الكثرة الغامرة من قرائه، وما لا يعود عليه بضرر في تجارته العلمية. ومن مَزَج العلم بخدمة نفسه في الماديات، فانخذ العلم تجارة والتجارة باباً للعلم، قد ينجح في الأعم من حالاته.

وقد اضطر «المقتطف» في الربع الأخير من عمره أن يجاري بعض المجلات في نشر الأبحاث الأدبية، فجاء من «المقتطف» صحيفة عامة تبحث في أمور كثيرة، ولا تشهد عليها مسحة مجلات المختصين التي تنصرف إلى علم أو علوم لا تتعدها فتطيل فيها وتتوسع ما شاءت وشاءت أغراضها.

وللمقتطف عذره في ذلك ما دام أهل الإحصاء^(١) في الشرق لا يعيشون من أفلانهم، وما عمّ العلم بيننا حتى يخص. ومَن كان غرضه تعميم المعارف بين قرائه كافة، وإرضاءهم على اختلاف أهوائهم وشهواتهم الأدبية، لا بد أن يسقط ولو قليلاً فيما يدعوه الخاصة لغواً أو حشواً. وقد قال لنا منشئه يوماً في الكلام على مجلتنا «المقتبس» إننا نملؤها بالدسم فوق اللازم، فالأشبه بنا أن نضمنها ما تتحمض به النفوس ليشتد قرمها إلى العلم.

لا جرم أن المقتطف كان مدة نصف قرن مباءة لنشر الأفكار والعلوم، وكان الفضل له بأن حمل زمرة صالححة من رجال النهضة العربية من أواخر القرن الماضي على البحث والدرس والنشر. وطال عمر مجلته فدعيت شيخة المجلات العربية، وقد سار منشئه فيه بروح الزمن فكانت مباحثه علمية صناعية لأول أمره، ثم أخذ يُعنى بأبحاث عربية وما يستهوي العامة إلى مطالعته، خصوصاً عندما انبعثت شعلة الآداب من مصر، ونبغ من المصريين علماء وأدباء أرقى كعباً ممن تخرجوا في مدارس المرسلين في الشام ومصر، ذلك لأن الأفراد الذين امتازوا من أهل مصر تخصصوا في العلوم، وأتقنوا العربية، ومرنوا على الكتابة والترجمة. وجمهور من درسوا في مدارس المرسلين من المبشرين درسوا أموراً كلية قصدوا بها تلقف اللغات الأجنبية وقصدهم الأول التجارة، وما عُنوا العناية المطلوبة باللغة العربية وآدابها.

ولصروف فضل عظيم في وضع كثير من المصطلحات العلمية والأسماء

(١) في القاموس المحيط: أخصى: تعلم علماً واحداً.

الفنية، تناقلتها الأقلام، ودخلت في الكتب العلمية الحديثة المترجمة. وله طريقة في النقل من اللغات الأفرنجية حبذا لو يسير النقلة عليها؛ لأنها زبدة تجارب سنين طويلة، وهي من خير الطرق في النقل والاحتذاء. وقد تجلت في شخصه أخلاق العلماء العصاميين، فهضم ما تعلم. وعلم ما علم، فرزق الحظوة بما كتب وعرب، وكثر أحبابه والمعجبون بمضائه وحزمه من جميع الطبقات والنحل، واحتفلت مصر بعيد «المقتطف» الخمسيني، فأظهر خاصة العرب ما تكنته قلوبهم من الحرمة لهذه المجلة وصاحبها. وأن واحدًا وسبعين مجلدًا كتبها صروف في إحدى وخمسين سنة هي في الواقع أهم معلمة عربية في العلوم الطبيعية والرياضية والاقتصادية، تُخلد بين العالمين ذكره، وتضعه في الصف الأول بين الرعيل الذي حمل قبس العلم والأدب إلى عقول العرب في العهد الحديث. ولقد كان مثال العامل النشط إلى آخر أيامه، يلذّه عمله ويتعشقه، لذلك أكبر العقلاء المصيبة به يوم وفاته. وعده العرب ركنًا عظيمًا من أركان نهضتهم تداعى وهوى، ورجلاً قلّ في الرجال العاملين نبوغ مثله. رفعه علمه وأدبه، ورفع هو كثيرين من حملة الأقلام، وأرشدهم وهداهم إلى البحث على الطرق العلمية الجديدة، وكان أيضًا من جملة من لهم فضل عظيم على كاتب هذه السطور بعطفه عليه وتنويهه به، وما أخلاه في بداءة عمله من ملاحظاته الرشيدة وآرائه السديدة - ككثرة وأجزل ثوابه -^(١).



(١) وترجم كتاب: (سر النجاح) للدكتور سميلز، طبعه في بيروت سنة ١٨٨٠ ثم في مصر ١٨٨٥ وزاد عليه أكثر من تلك في الأمثال والحكم والشواهد وترجمة كثيرين من عظماء الشرق من المتقدمين والمحدثين، كما عرب مع زميله الدكتور فارس نمر كتاب: (سير الأبطال والقدماء العظماء).



يوجين غريفييني (١)

GRIFFINI, EUGENIO

١٨٧٦ - ١٩٢٥ م

من علماء المشرقيات المستعربين، من الطليان. ولد في ميلانو سنة ١٨٧٦، وكان يميل منذ صباه إلى اللغة العربية، فدرسها أولاً من دون معلم، ثم دخل المعهد الشرقي في نابولي، ونال إجازة بالعربية، ثم درس الفقه في معهد جانوا، وسافر بعدها إلى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر، وبعد عودته من سياحته عين أستاذاً للعربية في مدرسة فلورنسا الكلية، غير أنه فضل الإقامة في الشرق، وسكن مصر، فعهد إليه الملك فؤاد الأول بترتيب خزانته الخاصة.

وانفق أن اقتنى تاجر إيطالي في صنعاء اليمن مخطوطات عربية باعها من خزانة الامبروزيانا في ميلانو، فوضع لها غريفييني فهرساً مستوفى على عادة المستعربين من الأوربيين في وصف الكتب، وتقريب طرق الانتفاع بها على المشتغلين. وكان من كتبها مجموع في الفقه منسوب إلى زيد بن علي فطبعه وزعم أنه أول كتاب وضع الفقه، ورد عليه العلماء لأن أكثر رواياته أو كلها نقلت عن أبي خالد الواسطي، وهو غير ثقة. ولعله كان مما وضعه علماء

(١) ترجمته في «المستشرقون»: ٣٧٠، وولادته فيه سنة ١٨٧٨ م والأعلام ج ١/٣٧٣ وانظر معجم

المطبوعات، ٤٠٩، ٩٨٤، ومجلة المجمع مجلد ١ ص ٥٢، ١٢٦ و ٣٨٢/٥.

الزيدية. وعلى كلِّ ففي الكتاب فوائد كثيرة في الفقه الزيدي. وهذا لا يقدر في فضل ناشر الكتاب.

وكان جل اعتماده في التأليف على جزائره المرتبة على الموضوعات، جعلها في مغلفات خاصة معنونة باسم كل موضوع. فإذا أراد بحثاً يرجع إلى المغلف الخاص فتجتمع لديه في الحال المادة اللازمة لمقالة يريد كتابتها. وقد أخذ عنه عشاق الآداب من المصريين طريقتة في وضع جزائره وبطاقاته، ومنهم صاحب هذا التاريخ.

وتأليف المترجم له كثيرة، منها: كتاب صغير في اللغة الدارجة في طرابلس الغرب، وهو يحتوي على قاموس إيطالي وعربي. وفي أوله نبذة من قواعد هذه اللهجة.

وعني المترجم له بتاريخ علم الفلك عند العرب وبعض شعرائهم المشهورين، ونشر ديوان الأخطل، وقصيدة منسوبة إلى امرئ القيس، وقصيدة قُدِّم بن قادم^(١)، وقصيدة الأعشى المعروفة بـ «ما البكاء»^(٢).

وعني أيضاً بالعلم، بأصول التشريع العام وتاريخه في العالم وعند كل أمة، وذكر أول من جمع فيه من أهل الكتاب، في الشرق من الغرب المسلمين أو المسيحيين والسرمان والأرمن ويهود العراق ويهود سورية، أو من الطوائف وأصحاب الديانات الآسيوية والإفريقية. بدأ بحثه من القرن

(١) ولي من أولياء اليمن. وتبع من التبابعة تنسب إليه قصيدة نشرها هذا المستشرق وعلق عليها شرحاً لغزياً وأثرياً مطولاً باللغة الإيطالية، وأتبعها بأخبار تتعلق بغير هذا الولي (مجلة المجمع ٥٢/١) وذكره عبد القادر المغربي في مقال له بعنوان (نصحاء الأعراب) في مناقشة أوردتها جرت بين أبي بكرمة الضبي والمبرد (مجلة المجمع المجلد ٩ ص ١٤٧).

(٢) هي أول قصيدة في ديوانه مطلعها:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي فهل ترد سؤالي
وهي التي مدح بها الأعشى الكبير ميمون بن قيس (ت ٧هـ، ٦٢٩م) الأسود بن منذر اللخمي
وتعد خمسة وسبعين بيتاً.

الثالث للميلاد أي من عهد مجموع القوانين الرومانية، واستنتج من مجموع هذه الشرائع أنها كلها جاءت من أصل واحد يتمشى عهده في القدم مع تاريخ البشر، وهي مستقلة بعضها عن بعض من حيث العقائد والأحكام والأصول والفروع، ذاهبا إلى أنه ليس في الدنيا إلا بشر واحد ومدنية واحدة وحق واحد وعلم واحد.. ولا اختلاف إلا في أسماء الأجناس والقبائل والأوطان والأديان.

ونشر غريفييني كتاب «المع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية» للأmir عثمان بن إبراهيم النابلسي من أهل القرن السابع^(١). إلى غير ذلك مما نشره بالعربية والاطالية.

اتصلتُ به مدة في القاهرة فرأيت فيه سماحة العلماء ونعومة المتمدنين، وكان من الرجال الذين وقفوا أنفسهم على خدمة المشتغلين بالآداب من قومه ومن العرب الذين أحبهم وأحب لسانهم.

ولما أنشأتُ المجمع العلمي العربي، وكان يومئذ أستاذ العربية في جامعة ميلانو بعث إليّ يقول: «أملي عظيم بأن تكون هذه النهضة مبدأ توزيع العدل والمعارف النافعة بين أمم البحر المتوسط وفقاً لمبادئ الحق والحرية، حرية الأمم والأوطان، وأن تكون نهضتكم الأدبية والعلمية فجر عهد جديد في العالم العربي الإسلامي، فجر عهد الأحرار في بلادهم، والكرماء مع ضيوفهم».



(١) من أمراء الدولة الأيوبية، تولى النظر في الدواوين المصرية بأمر السلطان نجم الدين أيوب وكان حيا سنة ٦٣٢هـ، ١٢٣٥م (معجم المؤلفين ٦/٢٤٩).



يوسف هوروفيتز^(١)

HOROVITZ, JOSEPH

١٨٧٤ - ١٩٣١

يوسف هوروفيتز ولد في سنة ١٨٧٨ في ليبزيغ في ألمانيا. وبعد أن أخذ العلوم الشرقية في جامعتي ماربورغ وبرلين حاز لقب دكتور في الفلسفة من كلية برلين سنة ١٨٩٨، وفي سنة ١٩٠٢ انضم إلى جماعة جامعة برلين. وبعد أن أقام في بعض بلاد الشرق القريب نحو سنة، تقلد كرسي مدرس الآداب العربية في جامعة «علي كره» في الهند. وبعد رجوعه إلى وطنه أوائل سنة ١٩١٥ عين أستاذ الألسنة السامية في جامعة فرنكفورت.

ومن تأليفه ما جعله كتباً مستقلة، وما نشره في المجلات العلمية، وأكثر أبحاثه في موضوعات إسلامية، كبحث في إسراء الرسول، والجنة في القرآن، والأبحاث القرآنية، والأشعار التي قيلت في الرسول. ونشر كتاب «الهاشميات» للكميته^(٢) مع ترجمة ألمانية. وصحح الجزء الأول من المجلد الثاني، والجزء الثاني من المجلد الثالث من كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد. وله غير ذلك من الأبحاث الإسلامية بالألمانية^(٣).

(١) ترجمته في (المستشرقون): ٧٤٣ ومنه أخذنا تاريخي الولادة والوفاة والأول منها مخالف

لما أورده المؤلف وانظر معجم المطبوعات: ١٥٧٠.

(٢) يشتمل على جملة فصائد في مدح بني هاشم وآل البيت.

والكميته هو ابن زيد الأسدي (٦٠ - ١٢٦) هـ. اشتهر بالثنيح لبني هاشم.

(٣) ذكرت كلها في «المستشرقون».

الفهارس

٤١٥	فهرس الأعلام
٤٣١	فهرس الأماكن
٤٤٩	فهرس الكتب والرسائل
٤٦٦	فهرس الأبحاث
٤٦٧	فهرس المجلات والصحف
٤٧٠	فهرس الشعر
٤٨٢	فهرس المراجع

فهرس الأعلام

(أ)

٢٨٥	آسین بلاسیوس
٢٠٢	إبراهیم الأحذب
٢٥١ ، ٦٧	إبراهیم باشا
٢٠٢ ، ١٧	إبراهیم الحورانی
٢٤٢	إبراهیم الصفدی
١٤٩	إبراهیم فهمی
١٥٥	إبراهیم المویلحی
٢٢٤	إبراهیم بن هلال الصابین
٣١٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٢ ، ١٨٦ ، ٢٥	إبراهیم الیازجی
٣٦٦	الآیوردي
١٢٤	أجناس كولد صهر
	أحمد (الرسول) = محمد بن عبد الله ﷺ
١٥٥	أحمد إبراهيم
١٥٥ ، ١٣٦	أحمد الإسكندري
١٧٦	أحمد أبو خطوة
٦٦ ، ٦٥ ، ٦٠ ، ٥٩	أحمد تيمور
٤٤ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ١٢٦ ، ١٥٥ ، ٢٣٥	أحمد زكي
٢٩٠ ، ٢٨٢	
٣٩٧	أحمد بن حنبل

٦٢	أحمد شفيق
٤٤، ٤٦، ٤٧، ٦٧، ١٠٨، ١٠٩	أحمد شوقي
١٢٢، ١٥٧، ١٥٨، ١٦١، ١٦٢	
١٨١، ٢٩٠، ٣٤٣، ٣٨٤، ٤٠٠	
٢٠٢	أحمد عباس
٣٠٧	أحمد عرابي
٢٩، ٤٠	أحمد فارس الشدياق
١٥٥، ١٧٨	أحمد فتحي زغلول
٢٥٠	أحمد كرد علي
٢٤٢	أحمد الكواكبي
٢٢٥	أحمد نامي
٣٧٧	إدوار لامبير
٣٦٦	الأرجاني
٢٠٤	بنو أسد
١١٥	إسكندر
٣١٧	إسكندر دوماس
١٥٤، ٣١٠	إسماعيل (الخدويوي)
١٢١، ٣٤٣، ٤٠٠	إسماعيل صبري
١٨٣	الأشموني
٤٠٩	الأعشى
١١٥	ألكسندرة افيرنيوه
١٨٠	إمام العبد
١٢٠، ٤٠٩	امرو القيس
٢٢٨	أمين أرسلان
٤٩	أمين الرافعي

٢٠٩	أمین شمیل
٢٠٥ ، ١٠٧	أناطول فرانس
١٨٣	الأنبای
٣٧٤	أنستاس الكرملی
١١٦	أنطون الجمیل
(ب)	
١٣٨	بابان
٣٢٨	ابن باجه
٢٨	بریه دی مینار
٣٠٠	باته
١٠١	بالمر
٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٣٤٣ ، ٧١	البحتری
٣١٢	البحیری
٣٢٤ ، ٣٥	بدیع الزمان الهمذانی
٢٦٥	برتزل
٣٦٦	بشار بن برد
٢٦	بشارة زلزل
١٤١	بشر بن غیاث المرسی
٢٧٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ١٥٥ ، ١٣٣ ، ٤٠	بطرس البستانی
٣٦٨ ، ١٧٧ ، ١١٩ ، ٧٣	بطرس عالی
	بطرس میخائیل عواد = أنستاس الكرملی
١٠١	بنیامین جبه
٢٤٧	بهشت حور
١٦٢	بوزع
٣٢٩	البیرونی

(ت)

٣٩٧	تغلب (قبيلة)
٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٣٤٣	أبو تمام
٦٧	تمراز (جارية)
٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٦٨ ، ٦٧	توفيق (الخدويوي)
١٥٥	توفيق البكري
٣٩٧ ، ٣٧٩ ، ٣٢٩ ، ٢٩٤	ابن تيمية

(ج)

٣٢٩ ، ١٤١	الجاحظ
١٠٣	جب ، جيمز
٣١٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٥ ، ٢٠٥	جمال الدين الأفغاني
٤٠٠	جميل صدقي الزهاوي
٢٤٣	جميل باشا
٣٠١	جينة
٣٧٧	جوبلو
٢٦٥ ، ٢٦٤	جويدي
٣٠٦	الجزاوي

(ح)

١٨٧ ، ١٢٢ ، ١١٦ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ٧٦	حافظ إبراهيم
٣٨٢ ، ٣٦٨ ، ٣٥١ ، ٣٤٣	
٤٠٠	ابن الحجاج
٣٢٤ ، ٦٤	الحريري
٣٢٨	ابن حزم
٢٧٣	ابن حسن التاجي
٣٤٤	حسن حسني

٤٨	حسن الطويل
٣٨٢ ، ٣٦٨ ، ١٧٨ ، ١٧٦ ، ١٥٥	حسن عاصم
٣٧٦ ، ١٧٦	حسن عبد الرازق
١٧٠ ، ٦٨	حسين كامل (الأمير)
٣٤٤ ، ٦٧	حسين المرصفي
٤٥	حسين والي
٤٨	الحسيني
١٨٠ ، ١٧٦ ، ١٥٥ ، ٤٤	حفيي ناصف
٤٥	حمروش
٣٢٩ ، ٣١١ ، ١٩٩	أبو حنيفة
١٦٧	حواء
٣٦٦	ابن حيوس
(خ)	
٤٠٨	أبو خالد الواسطي
٣٢٩	ابن الخطيب
٤٦	ابن خفاجة
٤٥	ابن خلدون
٢٦	خليل سعادة
٣٢٩ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٥٥ ، ١٢١ ، ٢٩	خليل مطران
٤٠٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٥	
٢٠٢ ، ١٨٦	خليل اليازجي
٣٥	الخوارزمي
٢٤٢	خورشيد
٣٦٦	ابن الخياط

(د)

٢١٣	دارون
٢٣	داود الأنطاكي
١٨٧ ، ١٧٧ ، ١٥٥	داود بركات
٣٤٠	الدجوي
٢٥٢	دركور
١٢٦	درنبرغ
٣١٤ ، ٣٠٢	درويش
١٦٢	دعد
٢٩٩	أبو دلامة
١٧٣	دنلوب
١٢٢	دو نونزيو
٢٨٦	دي خويه
٣٧٦	دير كهاهيم

(ر)

٣٢٩	الرازي
٢٣٣	راغب الخالدي
١٦٢	الرباب
٢٠٤	ربيعة (قبيلة)
٣٢٨	ابن رشد
١٩٩	رشيد عطية
٣٨٢	رضا الشيبني
٤٨	رضوان المخملاتي
٢٤٥ ، ١٧٧ ، ١٥٥ ، ١٣٥	رفيق العظم
٣٦٦	ابن الرومي

٣٠٧	رياض باشا
٢٨٥	رييرا
٢٦٥	ريتر
٢٢٣	رينو
٢٠٤	رولة (قبيلة)
(ز)	
١٥٧	زكي مبارك
٣٢٩	ابن زهر
٣٦٦	ابن الزيات
٤٠٨	زيد بن علي
٧١	ابن زيدون
(س)	
٢٦٥	سانتلانا
٤١١	ابن سعد
١٦٨ ، ٩٧ ، ٩٣ ، ٨٨ ، ٦٩	سعد زغلول
٢٩	سعيد الشرتوني
٣٦٦	سبط ابن التعاويذي
١٩٤	سليم البخاري
١٧٧	سليمان البستاني
٣٦٦	ابن سنان الخفاجي
١٧٩ ، ١٧٨	السيد البدوي
٢٦٩	سيدليو
٣١٢	ابن سيده
٣٢٩ ، ٩١	ابن سينا

(ش)

١٥٥	شبلبي شميل
١٣٦	شبلبي النعماني
٣٧٦	الشريعي
٣٤٣ ، ١١٨	الشريف الرضي
١٢٢	شكسيير
٢٩	شكيب أرسلان
٣٨١ ، ٢٠٤	شمر (قبيلة)

(ص)

٣٥	الصاحب بن عباد
٣٦٦	صر در
٤٦	صفي الدين الحلبي
٣٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٨٤	صلاح الدين الأيوبي

(ط)

٤٨ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٥٥	طاهر الجزائري
١٧٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ٣٢٦	
٢٧٧	طرفة
١٤٠	الطالقاني
٧٤	طه
٣٩٩	طه الراوي
٣٦٦	الطنغرائي

(ظ)

٣٧٨ ، ٣٣٢	الظواهري
-----------	----------

(ع)

٤٧	عائشة التيمورية
----	-----------------

٢٩٦	عائشة
٢٧٣	عالى سمىث
٣٨١	عباس القصاب
١٥١ ، ٩٠ ، ٧٧ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦	عباس (الخدبوى)
٢٤٥ ، ١٨١ ، ١٧٢	
٣٦٦	العباس بن الأحنف
٣٦٥ ، ١٢١	عباس محمود العقاد
٣٠٦	العباسى (شىخ الأزهر)
٢٤٣ ، ١٧٢ ، ١٤٠ ، ١١٨ ، ٨٩ ، ٦٩	عبد الحمىد (السلطان)
٩٣ ، ٦٩	عبد الخالق ثروة
٢٣٢	عبد الرحمن البستانى
٣٥١ ، ٣٠٧ ، ٢٩٣	عبد الرحمن الرافعى
٧٢	عبد الرحمن الداخلى
١٩٧	عبد الرحمن الغافقى
٢٤	عبد الرحمن الكواكبى
٣٧٠	عبد العزىز آل سعود
١٨٣	عبد العزىز البشرى
١٩٥ ، ١٥٥	عبد العزىز جارىش
٢٣٢ ، ٢٠١ ، ١٩٨	عبد الغنى الغنىمى المىدانى
٣٢٧ ، ٣٢٢	عبد القادر الحسنى
٢١٦ ، ٢٠٢	عبد الله البستانى
٢٦	عبد الله زاخر
١٥٥	عبد الوهاب النجار
٣٦٦	أبو العتاهىة
٤١٠	عثمان بن إبراهىم النابلسى

١٧٦ ، ١٥٥	عثمان غالب
٢٢٢	عجاج نويهض
٢٠٤	عجمان (قبيلة)
٣٩٧	عدنان
٤٨	العدوي
٢٤٢	عفيفة النقيب
٣٧٠	علي الآلوسي
١٥٥	علي أبو الفتوح
٤٥	علي الجارم
١٧٨ ، ١٥٥	علي يوسف
٣٠٦	عليش
٣٦٦	عمارة اليمني
١٦٣	عمر بن الخطاب
١٥٥	عمون
١٧٣	ابن العميد
٣٦٦	ابن عنين
٤٥	العوامري
١٠٥ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٤ ، ٧٣	عيسى (النبي) ﷺ
١٦٧ ، ١١٩	
٢٢	عيسى إسكندر المعلوف
(غ)	
٣٦٦	الغزي
٣٩٧	غان
١٧٣	غلاستون
٣٢٦ ، ٨٤	غليوم الثاني (الأمبراطور)

٣٩٤

غورو

(ف)

٢٧٤

فارس نمر

٤٤ ، ٥١ ، ٦٨ ، ٣٧٨ ، ٤٠٨

فؤاد الأول (ملك)

٣٧٩ ، ٣٢٩

الفارابي

٣٣٤

فاروق (الملك)

٤٠٢ ، ١٨

فانديك

٩٣

فتح الله صبري

١١٧ ، ٨٦

فرعون مصر

١٧٣

الفضل بن سهل

١٢٤

فميري

٢٦٥

فبيرج

١٣٢

فيصل (ملك العراق)

(ق)

٩٦ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٩٥

قاسم أمين

٢٠٣

قاسم الزهير

٢٢٤

القاضي الفاضل

٣٨١

قاسم القيسي

٢٢٦

قحطان

٤٠٩

قدم بن قادم

٣٨١

القراخول (عشيرة)

٢٧٩

نسطنطين نعوم الخوري

١٩٠

قيصر

٢٩٤ ، ٣٩٧

ابن قيم الجوزية

(ك)

٢٤٦	كاظم الكواكبي
٢٦٤	كايتاني
٢٨٧	كراتشوفسكي
٢٦٥	كرنكو
١٧٣	كرومر
١٩٠	كسرى
٢٠٤	كعب
٤١١	الكميت بن زيد الأسدي
١٥٠	كينشر
٢٠٤	كنانة (قبيلة)
٣٧٩	الكندي
١٢٢	كيتي

(ل)

٢٠٤	بنو لام
٢٨٧	لامنس
١٣٦ ، ٣٩	لويس شيخو
١٠٧	ليوتي (مارشال)

(م)

٢٠٥ ، ١٣٦ ، ٦٤ ، ٤٩	المأمون
٣٠٠	مارتينو
٢٧٩ ، ٣٩	مارون عبود
٣٠٠	ماسيه
٢٦٥	مايرهوف
٣٧٩ ، ٣٦٦ ، ٣٤٣ ، ١٧٤ ، ١٢٢ ، ٧٢	المتني

٩٠	محجوب ثابت
٦٧	محمد البسيوني
٣٧٣	محمد بهجة الأثري
١٥٥	محمد بيرم
٩٤	محمد الخضري
١٧٧ ، ١٥٥	محمد رشيد رضا
٢٤٧	محمد سعيد باشا
٣٢٣	محمد بن سليم الحلواني
٢٤٧	محمد طوسون
١٩٨	محمد عابدين
٣٠٤ ، ١٧٩ ، ١٦٧ ، ١٠٦ ، ٨٨ ، ٧١	محمد بن عبد الله (الرسول) ﷺ
٤١١ ، ٣١١	
١٠٣ ، ٦٩ ، ٥٥ ، ٥٠ ، ٤٨ ، ٣٩	محمد عبده
١٧٥ ، ١٦٠ ، ١٥٥ ، ١٥٠ ، ١٠٨	
١٩٥ ، ١٨٣ ، ١٧٩ ، ١٧٧ ، ١٧٦	
٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٥١ ، ٢١٧ ، ٢١٤	
٣١٨ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٣	
٣٧٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٥ ، ٣٣٩ ، ٣٣٢	
٢٥٠ ، ٢٤٧ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٥ ، ٤٧	محمد علي الكبير
٣٤٤	
١٥٥ ، ٦٩	محمد فريد
٣٣٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٠	محمد كردعلي
٣٧٩ ، ٣٧٧ ، ٣١٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣	محمد مصطفى المراغي
١٩٥ ، ١٥٥	محمد المهدي
١٥٥	محمد هلال

٤٨	محمود التركي الشنقيطي
٥٧ ، ٥٩	محمود رشاد
١٢٢ ، ١٧٧ ، ١٨٤ ، ٤٠٠	محمود سامي البارودي
١٣٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٧	محمود شكري الآلوسي
١٩٤	محمود العظم
٢٩٣	محمود تشابة
٢٥	محيي الدين اليافي
٢٣٣	مدحت باشا
١٠٢	مرجليوث
١٦٧	مريم العذراء
٣٦٦	مسلم بن الوليد
	المسيح = عيسى ﷺ
	المصطفى = محمد بن عبد الله ﷺ
٦٩ ، ١٥٥	مصطفى كامل
٦٩	مصطفى كمال
١٥٥	مصطفى لطفى المنفلوطي
٣٩١	مضر
٣٦٦	ابن المعتز
١٧٨	معروف الرصافي
٩٠ ، ١٣٩ ، ٣٦٦	المعري (أبو العلاء)
٣٢٤	ابن المقفع
٢٠٩	ملحم شميل
٢٤٧	ملك بير
٢١٦	المنذر بن النعمان (أبو قابوس)
٣٦٦	مهييار الديلمي

١٦٧ ، ٧٤	موسى (النبي) ﷺ
٢١٨	موسوليني
١٢٢	موليير
١٧	ميخائيل مشاقه
٣٣١	مير علي
(ن)	
٢٧٢ ، ٢٠٢ ، ٢٧ ، ٢٥	ناصريف اليازجي
٢٤٣	نامق باشا
٣٥٢	ابن النيه
٦٤	ابن النديم
٣٩٧	نزار
٣٢٩	النظام
٣٦٩	نعمان الآلوسي
٣٦٦	أبو نواس
١٦٤	نوح (النبي) ﷺ
١٨٩	نيرون
(هـ)	
٢٨٧	هارتمان
٢٢٦	هاسم
١٦٢	هند
٢٨٧	هوار
٤٨	الهوريني
٢٧٩	ابن الهيثم
١٢٦	هيللر

(و)

٤٧	والي عكا
٢٧٢	وربات
٣٢٩	ورث
٧٢	ولادة
١٣٩	ويدمر

(ي)

	يسوع = عيسى ﷺ
٢٧٥ ، ٢١١ ، ١٥٥	يعقوب صروف
٢٠١	يرستيانوس
١٢٠ ، ٧٩	يوسف (النبي) ﷺ
٢٠٢	يوسف الأسير
	يوسف بن أيوب = صلاح الدين الأيوبي
٢٨٢	يوسف كمال المصري
٣٧٢	يوسف النهاني



فهرس الأماكن

٣١٦	آسيا
٣٧٦	أبو جورج
٩٣	أبيان
٢٤٢	أذربيجان
٢٤٢	أردبيل
١٨٣ ، ١٢٤ ، ٩٣ ، ٨٤ ، ٤٤ ، ٤١	الأزهر
٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ١٨٤	
٣١٢ ، ٣١١ ، ٣١٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥	
٣٣١ ، ٣٢٩ ، ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٣	
٣٧٧ ، ٣٧٦ ، ٣٤٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٢	
٣٨٠ ، ٣٧٨	
٢٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ٨١ ، ٦٩ ، ٥٩	إستانبول (الآستانة)
٣٩٧ ، ٣٩٤ ، ٣٤٥ ، ٣٠٥	
٢٩٩	استراسبورغ
٢٤٧ ، ١٨٧ ، ٩٣ ، ٥٧ ، ٤٥ ، ٤١	الإسكندرية
٢٥٠ ، ٢٤٩	
٢٢٤	إسكندنافيا
٥٧	الإسماعيلية
٩٩	أسيوط
٢٢٩	الأشعري

٣٢٩	أصفهان
٣١٦ ، ٣٠٠ ، ٢٨٢ ، ٢٤٥ ، ١٠٧ ، ٥٤	إفريقية
٤١١ ، ٢٧٦ ، ٢٢٤ ، ٢٠٦	ألمانيا
٣٦٩	ألوس
٣٧٠	الأناضول
١٩٦ ، ١٦١ ، ٧٩ ، ٧٢ ، ٦٨ ، ٦٣	الأندلس
٣٢٨ ، ٢٨٥ ، ٢٦٣ ، ٢٢٣ ، ٢١٨	
٢٧٩ ، ٢٢٤	أمريكا
٢٧٦ ، ٢٤٧ ، ٢٢٥	إنجلترا
٢٤٢	أنطاكية
٦٩	أنقرة
١٣٦ ، ١٧	أهرام مصر
٢٠٦ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٣ ، ٦٠ ، ٤٩ ، ٢٣	أوربا
٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢١٧ ، ٢١٠ ، ٢٠٩	
٣٧٢ ، ٣٤٥ ، ٣١٦ ، ٢٨١ ، ٢٦٦ ، ٢٥٣	
٢٩٧	أوكسفورد
٣٤٤	أيتاي البارود (في مصر)
٢٨١ ، ٢٠٣ ، ١٣٦ ، ١٠٢ ، ٧١	إيران
٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٥٩ ، ٢١٨ ، ١٦٤	إيطاليا
٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٧٦	
٧١	إيوان كسرى
(ب)	
٢٠٣	بادية الشام
٢٦٧ ، ١٢٦ ، ١٠٥ ، ٩٣ ، ٧٨ ، ٦٨	باريس
٣٧٨ ، ٣٧٦ ، ٣٠٨ ، ٢٩٩	

٣٨١	بجاية
٢٦٥	بحر الظلمات
٣٤٤ ، ٣٠١	البحيرة
٤٠	البرازيل
٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٦٢ ، ٢١٨	برقة
٥٠	البرلمان المصري
١٦٤	بركان فيزوف
٤١١ ، ١٠٥	برلين
٣٢٩ ، ٢٠٣	البصرة
١٩١ ، ١٨٦ ، ١٨١	بعلبك
٢٠٤ ، ١٤٧ ، ١٤٠ ، ١٣٨ ، ١٣٠	بغداد
٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٨١ ، ٣٦٩ ، ٣٢٩	
٢٠٣	بكشتين
	بلاد المعجم = إيران
١٣٠	بلجيكا
٣٤٥ ، ٢٤٨	البلقان
٣٧٦	بهنسا
١٢٧ ، ١٢٥	بودابست
٨١	البوسفور
٦٠	بيت العروبة
٢٥ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٤١٣ ، ١٨٦ ، ١٩٩	بيروت
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٤٣	
٤٠٢ ، ٣٩٩ ، ٣٢٢ ، ٣٠٨ ، ٢٧٢	

(ت)

٢٥٩	تورين
٤٠٨ ، ٣٢٩ ، ٣٠٨	تونس
(ث)	
١١٧	تهلان
(ج)	
٣١٧ ، ٣٠١	الجامع الأحمدى بطنطا
١٤٠	جامع صنعاء
٢٠٩ ، ١٨١ ، ١٢٨	الجامعة الأمريكية ببيروت
٢٧٤ ، ٢٧٢ ، ٦٥	الجامعة الأمريكية بالقاهرة
٤١١ ، ١٢٤	جامعة برلين
٢٥٩	جامعة بلرم
١٢٦ ، ١٢٤	جامعة بودابست
٣٠٠	جامعة الجزائر
١٠٥	جامعة جنيف
٢٨١ ، ٢٥٩	جامعة رومية
١٨٩	الجامعة السورية
١٢٦	الجامعة العبرية بالقدس
٤١١	جامعة علي كره
٤١١	جامعة فرنكفورت
١٠٣ ، ١٠٢	جامعة كمبردج
١٢٤	جامعة ليزينغ
٣٧٧	جامعة ليون
٤١١	جامعة ماربورغ
٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٠ ، ٩٨ ، ٦٣	الجامعة المصرية
٣٧٩	

٤١٠	جامعة ميلانو
٢٤٥	جاوة
٣٨٠	جبارة
٢١٧	جبل الدروز
٢٣٥	جبل قاسيون
٤٠١ ، ٢٧٦	جبل لبنان
٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٢٣٢	الجزائر
٤٠٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٢	
٣٥٩	الجزيرة (في النيل)
٢٣٠	جزيرة رودس
٢٧٥ ، ٢٤٥ ، ٢٠٦	جزيرة العرب
١٢٨ ، ٦٧	الجزيرة الفراتية
٢٢٩	جسرين
	جلق = دمشق
٢٦	الجمعية العلمية السورية
٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١١	الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة
٣١٦ ، ١٠٦ ، ١٠٥	جنيف
٤٠٨	جنوة
٢٠٣	جمعية زهرة الآداب
١٩٥	جمعية الشورى العثانية
٢١	الجوزاء
٣٦٢ ، ٣٠٩	الجيزة
٦٠	جيزة الفطاط
	(ح)
٢١٦	حارة العمروسية

٢٤٨ ، ٢٤٥	الحبشة
٢١٧ ، ٧٧	الحجاز
٤٠٢	الحدث (قرية)
٢٢٨ ، ٢٢٧	حطين
٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ١٧	حلب
٤٩	الحلمية
٣٣٣ ، ١٥٩	حلوان
٣٥ ، ٢٥ ، ١٧	حمص
٣٢٦	حوران
(خ)	
٢٠٣	الخروب
٣٤٠	الخرطوم
٦٠ ، ٥٩ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٨	خزانة أحمد تيمور
٥٩	خزانة أحمد زكي
٤٠٨	خزانة الاميروزيانا
٢٨٦	خزانة ليدن
٢٦٥ ، ٥٤	خليج فارس
(د)	
١٨١	دار الأوبرا بالقاهرة
٣٠٩ ، ٣٠٦ ، ١٩٥ ، ١٧٦ ، ٩٨ ، ٤٢	دار العلوم بالقاهرة
٣١٢	
٣٢٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٣	دار الكتب الظاهرية
١٥١ ، ٥٩ ، ٥٢	دار الكتب المصرية
٢٩٨	دار المعلمين الفرنسية بأبي زريعة (الجزائر)
٣٠٧	دار الندوة

٣٢٦	داعل
٢٠٣	الديبة
٥٥ ، ٤٩	درب سعادة
٣٧٠	الدرعية
١٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩	دمشق
١٢٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٨	
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩	
٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٩٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦	
٤٠٣ ، ٣٨٢ ، ٣٣٩ ، ٣٢٩	
١٧١	دنشواي
٣٠٥	دنقلة
٢٢٨	دومة
	الديار الشامية = الشام
٦٣	دير الطور
١٣٣ ، ١٣٠	دير الكرملين ببغداد
١٣٠	دير الكرملين ببلجيكيا
١٣٣	دير الكرملين في حيفا
١٤٩	ديروط
(ر)	
٢٧٥	رأس بيروت
٢٤٣	راشيا
٥٧	رشيد
٢٠٦ ، ٢٠٤	الرقمتان
٣٤٥	روسيا
٣٥٩ ، ٣٥٣	روضة المقياس

٢٨٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٦٠ ، ١٩٠ ، ٨٠	رومة
٣٢٧	الريحانية (قرية)
٣٢٩	الري
(ز)	
٢٢٩	زبيدين
١٨٦	زحلة
١٨٣	الزقازيق
٥١ ، ٤٩	الزمالك
٢٩٨	أبو زريعة (في الجزائر)
١٣٨	زهاو
(س)	
٢٠١	ساحة البرج ببيروت
٣٦٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٣	سرنديب
١٣٨	الليمانية
٣٧٦	سمالوط
٢٤٤	سهل العمق
١٣٤ ، ١٥٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٩٠	السودان
٣٤٠ ، ٣٣١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٥	
٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣	سورية
٢٧٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩	
٤٠٢	سوق الغرب
٣٧١	السويد
٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٤٧ ، ٢٨٣	سويسرا
٣٥٤ ، ٣٤٦	سيلان

(ش)

شارع خيرت بالقاهرة

الشام

١٧٨
 ،١٠٨ ،٧٧ ،٧٥ ،٧٤ ،٤٥ ،٢٤
 ،١٨٨ ،١٨١ ،١٨٠ ،١٥٧ ،١٥٣
 ،٢٧١ ،٢٥٠ ،٢٣٩ ،٢٣٥ ،٢١٦
 ،٣٠٩ ،٢٨١ ،٢٧٩ ،٢٧٧ ،٢٧٣
 ،٣٩٩ ،٣٨٢ ،٣٨٠ ،٣٧٢ ،٣٤٤

٤٠٦ ،٤٠٢

٣٠٢ ،٣٠١

شبراخيت

١٩٨

شرتون (قرية)

١٣٠

شفرمون بيلجيكا

٢٠٣

الشوف

٢١٦

الشويفات

٢٠١

الشيخ

٣٢٩

شيراز

(ص)

٧٧

صحراء إفريقية

٣٢٩

صعدة

٣٣٢

الصعيد

٢٦٢ ،٢٥٩

صقلية

٣٣١ ،٣٢٩

صنعاء

٣٩٩

صنين

٢٤٥

الصومال

٤٠٢

صيدا

٢٤٥ ،٤٥

الصين

(ض)

٢٠٤

الضفير (جبل)

(ط)

٤٠٢ ، ٣٩٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢

طرابلس الشام

٤٠٩ ، ٤٠٨ ، ٢٦٢ ، ٢٢٦ ، ٢١٨ ، ١٦٥

طرابلس الغرب

٣١٧ ، ٣٠١ ، ١٧٩ ، ١٥٠ ، ٩٩

طنطا

(ع)

٣٦٩

عانات

١٩٨

عيه

، ٣٧٢ ، ٣٦٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣

العراق

٤٠٩ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٣٨٢ ، ٣٧٤

٤٧

عكا

١٩٨

عين تراز

٣١٥ ، ١٧٧ ، ١٥٥ ، ١٠٨ ، ٥٠ ، ٤٩

عين شمس

(غ)

٢٧٦

غزير

٢٢٨

غوطة دمشق

(ف)

٣٢٩

فارس = إيران

٢٤٨

فاس

، ٢١٩ ، ١٩٧ ، ١٠٩ ، ١٠٧ ، ١٠٥

فرساي

، ٢٧٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٤٧ ، ٢٢٥

فرنسا

٢٨٠ ، ٣٧٨ ، ٣١٠ ، ٣٠٠ ، ٢٩٧

٤١١

فرنكفورت

فروق = استانبول

٣٢٩

الفسطاط

٥٧

فلسطين

٤٢

الفيوم

(ق)

٢٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٣ ،

القاهرة

١٤٩ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ،

١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ،

٢٦٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٤٠ ،

٣٤٣ ، ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٤٠٢ ، ٤١٠

٥٩

قبة الغوري (في دار الكتب المصرية)

٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٣٩٨

القدس

القسطنطينية = استانبول

٢٩٨

قسطنطية

١٦١

قصر الحمراء

٧٧

قصر عابدين

١٩١

قلعة بعلبك

٢٩٣

القلمون

٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

قويسنا

٣٢٨

القيروان

(ك)

٣٨١

كردستان

٣٨١

كركوك

٩٩

كريت

٤١

كفر الزيات

٢٥ ، ٢٠٩	كفر شيما
٤٢	كلية الآداب بالقاهرة
٢٩٩ ، ٣٠٠	كلية الآداب بالجزائر
٣٣٢	كلية أصول الدين - القاهرة
١٣٤ ، ٤٠١ ، ٤٠٢	الكلية الأمريكية ببيروت
١٨٦	الكلية البطريركية للروم الكاثوليك
٣١٦	كلية جنيف
٣٣٢	كلية العلوم الشرعية - القاهرة
٣٣٢	كلية علوم اللغة العربية - مصر
٢٧٧	كلية القديس يوسف ببيروت
١٠٢ ، ١٠٣	كمبردج
٣٦٠	كندي (في سرنديب)
٣٠٢	كنيسة أورين
١١٢	كنيسة رمس بفرنسا
٣٢٩	الكوفة
١٠٥	كوليج دي فرانس (بباريس)

(ل)

١٦٥	لاهاي
١٧ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٢٨	لبنان
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤	
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٧٣ ، ٣٩٨	
١٠٢	لندن
٢٨٣	لوزان
٤١١	ليزيغ
٢٨٢	ليبيا

٢٨٦	ليدن
٣٧٧ ، ١٠٦	ليون
(م)	
٢٧٦	ماردين
٥٢	متحف دمشق
٩٩	المتحف المصري
٢٨٥	مجريط (مدريد)
٢٩٧	مجلس الأعيان التركي
٥١	مجلس الشيوخ المصري
١٤١	مجلس النواب العثماني
٣٨٢	مجلس النواب العراقي
٢٨٣ ، ٢٦٠	المجمع العلمي الإيطالي
٤٥ ، ٥٢ ، ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٨٠ ، ١١٨	المجمع العلمي العربي بدمشق
٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٣٠٠	
٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٤١٠	
٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٣١ ، ١٨٤ ، ٢٤٧	المجمع اللغوي المصري
٣٣٩ ، ٢٦٠	
٢٦٠	مجمع لنشاي بروما
٢٧٢	مجمع المرسلين الأمريكان
٣٢٦	محلة الحوياطية بدمشق
٣٢٦	محلة الشويكة بدمشق
٣٠١	محلة نصر
٥٤	المحيط الأطلسي
٢٤٩	مدارس العروة الوثقى بمصر
٢٩٨	مدرسة الآداب العليا بالجزائر

	مدرسة الإدارة = مدرسة الحقوق بمصر
٣٨٢	المدرسة الإعدادية ببغداد
٩٨	مدرسة الألسنة بمصر
٢١٦ ، ٢٤	مدرسة الأميركيان
١٠١	مدرسة آيتن في بريطانيا
١٩٩ ، ٢٦ ، ١٨	المدرسة البطريركية الكاثوليكية ببيروت
١٨	مدرسة البنات ببيروت
٩٩	المدرسة التجهيزية بمصر
٢٩٨	مدرسة الجزائر
٢٣٢	المدرسة الجقمقية بدمشق
١٥٠	مدرسة الحرية بالقاهرة
٢١٦ ، ١٩٩	مدرسة الحكمة المارونية - بيروت
٦٧ ، ٥٩ ، ٥٧	مدرسة الحقوق بمصر
٢٦٧	مدرسة الدروس العالية
٢٩٣	المدرسة الرشيدية بطرابلس
٣٠٨ ، ٢١٧	المدرسة السلطانية - بيروت
١٩٨	مدرسة سوق الغرب الإنجليزية
٢٣٣	المدرسة الظاهرية بدمشق
٤٠٢ ، ١٧	مدرسة عبيبة
٤٠٨	مدرسة فلورنسا
٢٩٨	مدرسة قسنطينة
٣٧٦ ، ١٨٢ ، ٩٨	مدرسة القضاء الشرعي بمصر
٢٤٢	المدرسة الكواكبية بأنطاكية
١٨	مدرسة اللاهوت الإنجليزية - بيروت
١٠٥	مدرسة اللاهوت البرتستانتيّة - باريس

٩٩	مدرسة اللسان المصري القديم
٢٦٧ ، ١٢٦	مدرسة اللغات الشرقية بباريس
٤٨	مدرسة مارسيل الفرنسية بالقاهرة
٩٩	مدرسة المبتديان بمصر
٢٩٨	مدرسة المدية بالجزائر
٤٢	مدرسة المعلمين بالفيوم
٤٢	مدرسة المعلمين بالمنصورة
٢٩٣ ، ٢٠٣	المدرسة الوطنية
١٣٠	مدرسة اليسوعيين في بيروت
٢٧٦	مدرسة اليسوعيين في غزير
٣٢٩	المدينة المنورة
٢٩٨	المدية
١٠٧ ، ١٠٦	مراكش
٢٧٣	المرصد الفلكي في الجامعة الأمريكية، بيروت
٢٢٨	المسجد الحرام
٢٤٥	مسقط
١٦٤	مسينا
٢٧٣	مشفى مار جرجس بيروت
٥٥ ، ٥٢ ، ٥٠ ، ٤٧ ، ٤٠ ، ٣١ ، ٢٦	مصر
٧٤ ، ٧٣ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٠ ، ٥٨	
٩٨ ، ٩٧ ، ٩٤ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٧٦ ، ٧٥	
١٣٦ ، ١٣٤ ، ١١٩ ، ١٠٨ ، ١٠٣ ، ٩٩	
١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥١ ، ١٤٠	
١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٧٠ ، ١٦٨	
١٨٣ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٧ ، ١٧٥	

٢٠٦	٢٠٤	١٩٥	١٩١	١٨٨
٢٢٦	٢١٩	٢١٧	٢١٢	٢٠٩
٢٤٥	٢٤٣	٢٤٠	٢٣٩	٢٣٥
٢٥١	٢٥٠	٢٤٩	٢٤٨	٢٤٧
٢٩٣	٢٨١	٢٧٩	٢٦٠	٢٥٢
٣٠٨	٣٠٧	٣٠٥	٣٠١	٢٩٤
٣٣٩	٣٣٠	٣٢٩	٣١٣	٣١١
٣٤٧	٣٤٥	٣٤٤	٣٤٣	٣٤٠
٣٨٠	٣٧٧	٣٧٦	٣٧٢	٣٥٣
٤٠٨	٤٠٦	٤٠٢	٣٨٤	٣٨٢

٢٦	المطبعة الأدبية
١٨	المطبعة الأمريكية بيروت
٥٨	المطبعة الأميرية بمصر
٦٥	مطبعة بولاق
٢٠٤	مطير
٤٠٨	معهد جنوة
٤١	المعهد الديني بالإسكندرية
٤٠٨	المعهد الشرقي في نابولي
١٨٣	معهد طنطا
٢٦٧	المعهد العلمي - فرنسا
١٨٠ ، ١٧٧ ، ١٧٦	مقهى ماتاتيا بالقاهرة
١٧٧	مقهى سبلنديد بار
٢٣٣	المكتبة الخالدية بالقدس
٢٨٠	المكتبة الشرقية - بيروت
٢٣	ملقة

٢٢٩	المليحة (قرية)
٢٠٤	المنتفق (على نهر الفرات)
٣٨٢	مندلي
٤٢	المنصورة
٥٠	المنوفية
٣٧٦ ، ٩٩	المنيا
٣٤٥	المورة
٣٧٠ ، ٣٢٩ ، ٤٧	الموصل
١٨٣	ميت أبي علي
٤٠٨	ميلانو
(ن)	
٤٠٨ ، ٢٥٩	نابل (نابولي)
٣٧٠ ، ٧٧	نجد
٣٢٩	النجف
٣٧٢ ، ٣٧١	النروج
١٢٧	النمسا
٧٥	نهر يردى
١٧٤	نهر التاميز
٣٦٩ ، ٢٠٤	نهر دجلة
٢٤٤	نهر الساجور
٣٦٩ ، ٢٠٤	نهر الفرات
١٧٢ ، ١٦٩ ، ١٥٣ ، ١٤٩ ، ١١٧ ، ٧٤	نهر النيل
٣٥٩ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ١٧٤	
٣٢٩	نيسابور

(هـ)

١٠٥	هايدلبرغ
٢٤٥	هرر
٤١١ ، ٣٠٨ ، ٢٨١ ، ٢٠٣ ، ٧١	الهند
١٢٧ ، ١٢٤	هنگاريا
٢١٩	هولندا

(و)

٧١	وادي النيل
٢٨١	وادي اليرموك

(ي)

٥٧	يافا
١٤٠ ، ٥٩	اليمن
٧١	اليونان



فهرس الكتب والرسائل

(١)

٥٤	الآثار النبوية، أحمد تيمور
٢٢٣	آخر بني سراج، شكيب أرسلان
١٢٤	آداب الجدل عند الشيعة، كولد صهر
٢٦٨	الآداب العربية، هوار
٢٧٨	الآداب العربية في القرن ١٩، لويس شيخو
١٢٩	أصف نامه
١٨	الآيات البيئات في عجائب الأرض والسموات، إبراهيم الحوراني
٢٧٨	الآلات المزمرة، بنو موسى
١٢٩	الآلات المنظمة، مورستس
٢٩٤	إحياء علوم الدين، الغزالي
٦٢	الأخلاق، الجاحظ
١٨٤	أدب البحث والمناظرة، حسين والي
٢٣٨	الأدب الصغير، ابن المقفع
٤٤	الأدب العربي في جميع عصوره، أحمد الإسكندري
٢٣٨	الأدب والمرودة، صالح جناح
٢٤٨	أراضي الدومين والدائرة السنية، عمر طوسون
٢٢٣	الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، شكيب أرسلان
٢٣٨	إرشاد القاصد، ابن ساعد الأنصاري
٢١٠	أرجوزة، ابن سينا

- إرشاد الألبا، طاهر الجزائري ٢٣٩ ، ٢٣٨
- إرواء الظماء في محاسن القبة الزرقاء، فانديك ٢٧٣
- الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي ٢٦٣ ، ٢٢٥
- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، محمد عبده ٣١٣
- أسواق الذهب، أحمد شوقي ٧٠
- الاشتقاق، حسين والي ١٨٤
- أصل كلمة تليس، ابن أبي شبيب ٢٩٩
- أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم ١٩٦
- الأصنام، ابن الكلبي ٦٢
- أصول الباثولوجيا الداخلية، فانديك ٢٧٣
- أصول التشخيص الطبي، فانديك ٢٧٣
- الأصول الجبرية، فانديك ٢٧٣
- أصول الشرائع، بتام ٩٥
- أصول علم الهيئة، فانديك ٢٧٣
- أصول الكيمياء، فانديك ٢٧٣
- الأصول الهندسية، فانديك ٢٧٣
- الأضداد، ابن الأنباري ٢٨٦
- الأطلس التاريخي الجغرافي لمصر السفلى، عمر طوسون ٢٤٨
- أطرب الشعر وأطرب النثر، لويس شيخو ٢٧٩
- أطواق الذهب، الزمخشري ٣٢٣
- الاعتقاد بالأولياء في شمالي إفريقيا، مونتيه ١٠٦
- أعيان الشرق في القرن الثالث عشر، أحمد تيمور ٥٤
- الأغاني، الأصفهاني ١٥٨
- أغلاط اللغويين القدماء، أنستاس الكرملي ١٣١
- أقرب الموارد، سعيد الشرتوني ١٩٩ ، ٢٨

- الإكليل، الهمذاني ١٣١
- الألفاظ التركية والفارسية في اللغة الجزائرية، ابن أبي شنب ٢٩٩
- الألفاظ الكتابية، الهمذاني ٢٧٧
- الإمام بأصول سيرة النبي ﷺ، طاهر الجزائري ٢٣٨
- إلياذة هوميروس، تعريب سليمان البستاني ٢٠٥، ٢٠٤
- أم القرى، عبد الرحمن الكواكبي ٢٤٦، ٢٤٥
- أمنية الألمي ومنية المدعي، الرشيد الأسواني ٢٣٨
- أناطول فرانس في مباله، تعريب شكيب أرسلان ٢٢٤، ٢٢٣
- إنجيل ٣٨٣، ١٦٥، ٢٦
- الأنساب، فانديك ٢٧٣
- أنساب العرب القدماء، جرجي زيدان ١٣٥
- الأهوية والمياه والبلدان، أبقراط، تعريب شبلي شميل ٢١٤
- (ب)
- البؤساء، فيكتور هوغو ١٦٠، ١٥٩
- الباكورة، شكيب أرسلان ٢٢٣
- البدء والتاريخ، مطهر بن طاهر ٢٦٩، ٢٦٧
- البردة، البوصيري ٧١
- البتان في علماء تلمسان، ابن مريم ٢٩٩
- بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك، عمر طوسون ٢٤٨
- البعثات العلمية في عهد محمد علي، عمر طوسون ٢٤٨
- بغية الطالبين في علوم وصنائع وأحوال قدماء المصريين، أحمد كمال ١٠٠
- بلوغ الأرب في أحوال العرب، الألوسي ٣٧١
- بهجة الرائح والغادي، محمد المبارك ٣٢٣
- البيان في أسباب التمدن والعمران، رفيق العظم ١٩٦
- البيان في كيفية انتشار الأديان، رفيق العظم ١٩٦

- بيروت وآثارها وتاريخها، لويس شيخو ٢٧٨
- بيوتات العرب في لبنان، شكيب أرسلان ٢٢٣
- (ت)
- تاجر البندقية، شكسبير، ترجمة خليل مطران ١٨٨
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان ١٣٥ ، ١٣٦
- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي، أحمد الإسكندري ٤٤
- تاريخ الأدب الفارسي، إدوار براون ١٠٢
- تاريخ الإسلام، كاتاني ٢٨١
- تاريخ إسماعيل، محمد عبده ٣١٤
- تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر، فاندريك ٢٧٣
- تاريخ بابل وآشور، جميل مدور ٢٨
- تاريخ بغداد، هوار ٢٦٨
- تاريخ بيروت، صالح بن يحيى ٢٧٧
- تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان ١٣٤ ، ١٣٦
- تاريخ الجبرتي ٦٥
- تاريخ الرهبانية اليسوعية، لويس شيخو ٢٧٨
- تاريخ سعيد بن بطريق ٢٧٧
- تاريخ سكان مقاطعة الغو، مونتيه ١٠٥
- تاريخ شاكر بن الراهب القبطي ٢٧٧
- تاريخ شعب إسرائيل من العهد القديم، مونتيه ١٠٥
- تاريخ الطائفة المارونية في القرنين ١٦ - ١٧، لويس شيخو ٢٧٨
- تاريخ الطبري ٢٨٦
- التاريخ العام، جرجي زيدان ١٣٤
- تاريخ العرب، هوار ٢٦٨
- تاريخ العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان ١٣٥

- ١٣٥ تاريخ اللغة العربية، جرجي زيدان
- ٢٧٧ تاريخ محبوب المنبجي
- ٢٤٨ تاريخ مديرية خط الاستواء عمر طوسون
- ٢٦٢ تاريخ المسلمين في صقلية، أماري
- ٦٢ تاريخ المشرق، مسبيرو، ترجمة أحمد زكي
- ١٣٤ تاريخ مصر الحديث، جرجي زيدان
- ١٣٤ تاريخ الماسونية، جرجي زيدان
- ٢٨٦ تاريخ ابن واضح
- ١٣٥ تاريخ اليونان والرومان، جرجي زيدان
- ٢٣٩ ، ٢٣٨ التبان، طاهر الجزائري
- ٢٨٤ تجارب الأمم، مسكويه
- ٢٩٩ تحرير العوشين، الفيروزآبادي
- ٢٥٧ ، ٢٥٣ ، ٨٧ تحرير المرأة، قاسم أمين
- ٢٩٩ تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب، ابن أبي شنب
- ٢٩٩ تدميث التذكير في التأنيث والتذكير، الجعبري
- ٢٣ التذكرة، داود الأنطاكي
- ٢٤٨ التذكرة بما صدر عن طوسون، عمر طوسون
- ٥٤ تراجم أعيان أوائل القرن الرابع عشر، أحمد تيمور
- ١٣٤ تراجم مشاهير الشرق، جرجي زيدان
- ٢٣٧ تسهيل المجاز إلى فن المعنى والألفاظ، طاهر الجزائري
- ٥٣ تصحيح أغلاط القاموس المحيط، أحمد تيمور
- ٥٣ تصحيح أغلاط لسان العرب، أحمد تيمور
- ٣١٤ تفسير جزء هم، محمد عبده
- ٣١٤ تفسير سورة العصر، محمد عبده
- ٢٣٩ تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصفهاني

- التقريب، طاهر الجزائري ٢٣٩ ، ٢٣٨
- تكملة تاريخ ابن خلدون، شكيب أرسلان ٢٢٣
- تكملة المعجمات العربية، دوزي ٢٨
- التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مصطفى عبد الرزاق ٣٧٩
- تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام، رفيق العظم ١٩٦
- تهذيب الألفاظ، ابن السكيت ٢٧٧
- توجيه النظر إلى علم الأثر، طاهر الجزائري ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ١٢٥
- التوراة ٢٧٣

(ج)

- الجامعة الإسلامية وأوروبا، رفيق العظم ١٩٦
- جداول جدارية في الخطوط القديمة والحديثة، طاهر الجزائري ٢٣٨
- جلاء الدياجي في الألفاظ والمعاني والأحاجي، إبراهيم الحوراني ١٨
- الجميل، الزجاجي ٢٩٩
- جوامع الكلم ٩٥
- الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية، طاهر الجزائري ٢٣٧
- الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي: عمر طوسون ٢٤٨

(ح)

- حاشية على عقائد جلال الدواني، محمد عبده ٣١٤
- حاضر العالم ومستقبله، مونيه ١٠٥
- حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، علق عليه شكيب أرسلان ٢٢١
- حدائق المثور والمنظوم، سعيد الشرتوني ١٩٩
- الحضارة القديمة، أحمد كمال ١٠٠
- الحق اليقين في الرد على مذهب داروين، إبراهيم الحوراني ١٨
- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان ٢٢٢
- حماسة البحري ٢٧٧

- ٢٨ حواشي محيط المحيط، إبراهيم اليازجي
(خ)
- ١٣١ خلاصة تاريخ العراق، أنستاس الكرمللي
- ٢٨٢ ، ٢٥٠ ، ٤٥ خطط الشام، محمد كرد علي
- ٤٥ خطط المقرئزي
- ٩٥ خواطر وسوانح في الإسلام، دي كاستري
(د)
- ٢٦٨ ، ٢٦٣ ، ١٢٧ دائرة المعارف الإسلامية
- ٢٦٠ دائرة المعارف الإيطالية
- ٢٠٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ دائرة المعارف، سليمان البستاني
- ٢٨ دائرة المعارف الفرنسية
- ٢٢٣ ، ٢٨ الدررة اليتيمة، ابن المقفع
- ١٩٦ الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية، رفيق العظم
- ١٠٦ دروس شرقية ودينية، مونتيه
- ١٢٤ دروس في الإسلام، كولدهصر
- ٢٩٩ أبو دلامة، ابن أبي شنب
- ٢٨ دليل الهائم في صناعة الناثر والناظم، جمعه شاكر البتلوني
- ٦٢ الدنيا في باريز، أحمد زكي
- ٢٦٢ دولة عمورية، فازيليف
- ١٩ ديوان إبراهيم الحوراني
- ٤٠٩ ديوان الأخطل
- ١٢٥ ديوان الحطينة
- ٢٧٧ ديوان الخرنق
- ١٨٧ ديوان الخليل
- ٢٧٧ ديوان الخنساء

٢٦٧	ديوان سلامة بن جندل
٢٧٧	ديوان السموال
٢٢٣	ديوان شكيب أرسلان
٢٧٧	ديوان أبي العتاهية
٢٩٩	ديوان عروة بن الورد
٢٩٩	ديوان علقمة الفحل
٧٣	ديوان المتنبى
٢٧٧	ديوان المتلمس
٢٢٤ ، ٢٢٣	ديوان نسيب أرسلان

(ذ)

٢٩٩	الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ابن أبي شنب
٢٧٧	ذيل تاريخ سعيد بن بطريق، سعيد بن يحيى الأنطاكي
٥٤	ذيل طبقات الأطباء، أحمد تيمور

(ر)

٢٠٧	رحلات البستاني
٢٩٩	رحلة الوثيلافي
١٠٥	رحلة إلى مراكش، مونتيه
٥١	رسائل أحمد تيمور
٢٢٣	رسائل الصبايئ
٣٢٣	الرسالة، القيرواني
٥٤	رسالة في الأمثال العامية، أحمد تيمور
١٨٤	رسالة الإملاء، حسين والي
٢٣٧	رسالة في البديع، طاهر الجزائري
٢٣٧	رسالة في البيان، طاهر الجزائري
٥٤	رسالة التصوير عند العرب، أحمد تيمور

- ١٢٥ رسالة التقية في الإسلام، كولدصهر
- ١٨٤ رسالة التوحيد، حسين والي
- ٣١٤ رسالة التوحيد، محمد عبده
- ٢٣٧ رسالة في العروض، طاهر الجزائري
- ٢١٤ ، ١٣٩ ، ٢٨ رسالة الغفران، المعري
- ٥٣ رسالة في أبي العلاء المعري، أحمد تيمور
- ٥٣ رسالة في الألقاب والرتب، أحمد تيمور
- ٩٦ رسالة في التزوير الخطي، أحمد فتحي زغلول
- ٥٣ رسالة في حدوث المذاهب الأربعة، أحمد تيمور
- ٥٣ رسالة في الحلقة المفقودة في تاريخ مصر، أحمد تيمور
- ١٢٥ رسالة في الحسين بن منصور الحلاج، كولدصهر
- ٥٣ رسالة في العلم العثماني، أحمد تيمور
- ٥٣ رسالة في قبر السيوطي، أحمد تيمور
- ٣٢٣ الرسالة القشيرية
- ١٣١ رسالة في الكتابة العربية المنقحة، أنستاس الكرمللي
- ١٢٥ رسالة اللاماسية، كولدصهر
- ٥٤ رسالة لعب العرب، أحمد تيمور
- ٢٧٣ رسالة في محيط الدائرة في علمي العروض والقافية، فانديك
- ٢٧٣ رسالة في مرض الجدري والحصبة، فانديك
- ٢٣٧ رسالة في النحو، طاهر الجزائري
- ٢١٤ رسالة المعاطس، شبلي شميل
- ٣٢٣ رسالة نضرة البهار، محمد المبارك
- ٥٣ رسالة في اليزيدية، أحمد تيمور
- ٢٢٣ رشيد رضا، شكيب أرسلان
- ٦٢ الرق في الإسلام، أحمد شفيق

- ٦٥ روح الاجتماع، غوستاف لوبون
الروض الشقيق = ديوان نسيب أرسلان
- ٢٣٨ روضة العقلاء، ابن حبان البستي
(ز)
- ٢٨٦ زبدة النصره وعمدة النصره، العماد الكاتب
٢٦٢ زيح البتاني
(س)
- ٩٧ ، ٩٥ سر تقدم الإنكليز السكسونيين، دي مولين
٩٧ سر تطور الأمم، غوستاف لوبون
٦٢ السفر إلى المؤتمر، أحمد ذكي
٥٤ سلك الدرر، المرادي
١٩٩ السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب، سعيد الشرتوني
٢١٨ السيد، كورني
٣٢٣ سيرة ابن هشام
(ش)
- ٢٠٥ الشاهنامه
٢١٠ شرح بختر لمذهب دارون
٣١٤ شرح البصائر النصيرية، محمد عبده
٢٣٩ ، ٢٣٧ شرح ديوان خطب ابن نباتة، طاهر الجزائري
شرح ديوان المتنبي = العرف الطيب
٣٠٦ شرح العقائد العصبية
٩٦ شرح القانون المدني، أحمد فتحي زغلول
٣١٤ شرح مقامات بديع الزمان الهمداني، محمد عبده
٢٩٩ شرح نظم مثلثات قطرب، ابن أبي شنب
٢٧٧ شعراء النصرانية في الإسلام، لويس شيخو

- ٢٧٧ شعراء النصرانية في الجاهلية، لويس شيخو
 ٢١٤ شكوى وآمال، شبلي شمیل
 ٢١٤ شرح نهج البلاغة، محمد عبده
 ١٩٩ الشهاب الثاقب في صناعة الكاتب، سعيد الشرتوني
 ١٨ الشهب الشواقب، إبراهيم الحوراني
 ٢٧٧ شواعر العرب، لويس شيخو
 ٢٢٣ شوقي، شكيب أرسلان

(ص)

- ٢٤٦ صحائف قريش، عبد الرحمن الكواكبي
 ١٤١ صحيح البخاري
 ٢٤٨ الصنائع والمدارس الحربية، عمر طوسون

(ض)

- ١٨ ضوء المشرق في علم المنطق، إبراهيم الحوراني

(ط)

- ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ طبائع الاستبداد، عبد الرحمن الكواكبي
 ٢٧٧ طبقات الأمم، صاعد
 ٢٩٩ طبقات علماء إفريقية، أبو ذر الخشني
 ٤١١ الطبقات الكبرى، ابن سعد
 ٥٣ طبقات المهندسين، أحمد تيمور
 ١٢٥ الطواسين، ماسينيون

(ع)

- ٢٧ العرف الطيب، إبراهيم اليازجي
 ٢٤٦ العظمة لله، عبد الرحمن الكواكبي
 ١٨٨ عطيل، شكشير

- العقد الثمين في محاسن أخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين، أحمد كمال ٩٩
 العقد الفريد، ابن عبد ربه ١٥٨
 عقود الدرر في شرح شواهد المختصر، شاهين عطية ٢٨
 علم الأدب، لويس شيخو ٢٧٩
 علم الفراسة الحديث، جرجي زيدان ١٣٥
 عنوان الدراية في علماء بجاية، ابن أبي شنب ٢٩٩
 العهد القديم ١٠٥
 العين، الفراهيدي ١٣١

(غ)

- غرائب الغرب، محمد كرد علي ٣١١
 غزوات العرب في فرنسة وشمالى إيطاليا وسويسرة، رينو، شكيب أرسلان ٢٢٣

(ف)

- الفتن والملاحم، نعيم المروزي ٦٥
 الفتوحات المكيّة، ابن عربي ٣٢٣
 الفجر الصادق في إثبات الخوارق، الزهاوي ١٣٩
 الفرائد الحسان من قلائد اللسان، إبراهيم اليازجي ٢٨
 الفرائد الدرية، تصحيح اليازجي ٢٨
 الفرائد الدرية في قواعد اللغة الهيروغليفية، أحمد كمال ١٠٠
 فهرست كتب الجامع الأعظم ٢٩٩
 فهرست مطبوعات فاس، ابن أبي شنب ٢٩٩
 فصول بقراط ٢١٠
 فضائح الباطنية، الغزالي ١٢٥
 فضائل الكلاب، ابن المرزبان ٢٧٨
 فقه اللغة، الثعالبي ٢٧٨
 فلسفة الاجتماع، محمد عبده ٣١٤

- ١٣٤ الفلسفة اللغوية، حرجي زيدان
٢٣٨ الفوز الأصفر، مسكويه

(ق)

- ٦٢ قاموس الجغرافية القديمة، أحمد زكي
١٩ قاموس الكتاب المقدس، بوست
١٠٠ قاموس مقارنة اللغة الهيروغليفية باللغة العربية، أحمد كمال
٢٦٨، ٢٤٢، ١٢٦، ٤١، ٢٩، ٢٥ القرآن الكريم
٣١٣، ٣٠٥، ٣٠٣، ٣٠١، ٢٩٨
٣٣٤، ٣٣١، ٣٣٠، ٣٢٣، ٣٢١
٤١١، ٣٨٣، ٣٨١، ٣٣٧، ٣٣٦، ٣٣٥
٤٠٩ قصيدة قدم بن قادم
٣٢٣ قواعد التصوف، ابن رزوق
٢٢٣ القول الفصل في رد العامي إلى الأصل، شكيب أرسلان

(ك)

- ١٤٢، ١٣٩ الكائنات، الزهاوي
٢٧٧ الكتاب، ابن درستويه
١٠٦ كتاب الإسلام، مونتيه
٢٦٨ كتاب الخطاطين والمذهبين في الشرق الإسلامي، هوار
١٢٤ كتاب قي الإسلام، كولدهصر
٢٧٧ كتاب المطر، أبو زيد الأنصاري
٢٧٧ كتاب الهمز
٢٧٧، ١٥٨ كليلة ودمنة، ابن المقفع

(ل)

- ١٣٩ اللباب، الزهاوي
٦٤ لسان العرب، ابن منظور

- ٢٧ لغة الجرائد، إبراهيم اليازجي
- ٢٢٣ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، شكيب أرسلان
- ٤١٠ لمع القوانين الماضية في دواوين الديار المصرية، عثمان النابلسي
- ١٧٨ ، ١٥٦ ليالي سطوح، حافظ إبراهيم

(م)

- ٢٤٨ مالية مصر من عهد الفراغة إلى الآن، عمر طوسون
- ١٠٥ مبادئ النحو العربي، مونتيه
- ٣٢٣ المثل السائر، ابن الأثير
- ٢٧٧ مجاني الأدب، لويس شيخو
- ١٣٨ المجلد مما أرى، الزهاوي
- ٢٢٣ محاسن المعاصي في مناقب الإمام الأوزاعي، الخطيب
- ٩٥ الحمامة، أحمد فتحي زغلول
- ١٢٤ المحلي، ابن حزم
- ١٩٩ ، ١٣٣ ، ٢٨ محيط المحيط، بطرس البستاني
- ٢٣٨ مختصر أدب الكاتب، طاهر الجزائري
- ٢٣٨ مختصر أمثال الميداني، طاهر الجزائري
- ٢٣٨ مختصر البيان والتبيين، طاهر الجزائري
- ٢٧٧ مختصر تهذيب الألفاظ، ابن السكيت
- ٢٧ مختصر الجمانة، إبراهيم اليازجي
- ٢٧ مختصر نار القرى، إبراهيم اليازجي
- ١٠٥ مختصر في نحو العبرية والآرامية، مونتيه
- ٣٦٨ مختصر نحو اللغة الفارسية، هواز
- ٣١١ المخصص، ابن سيده
- ٢٧٧ المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، لويس شيخو
- ٢٣٧ مد الراحة إلى أخذ المساحة، طاهر الجزائري

- ٢٣٧ مدخل الطلاب إلى علم الحساب، طاهر الجزائري
- ١٨٧ مرآة الأيام في تخلص التاريخ العام، خليل مطران
- ٢٤٩ مذكرات جغرافية في عصر العرب، عمر طوسون
- ٢٤٩ مذكرات على فروع النيل، عمر طوسون
- ٢٤٩ مذكرات على تاريخ النيل، عمر طوسون
- ٢٤٩ مذكرات في صحارى مصر، عمر طوسون
- ٢٤٩ مذكرات في مسألة السودان، عمر طوسون
- ٢٤٨ مذكرة عن مسألة السودان بين مصر وإنجلترا، عمر طوسون
- ٢٥٧ ، ١٧٧ المرأة الجديدة، قاسم أمين
- ٢٨ مروج الذهب، المسعودي
- ٢٦ المزامير
- ١٣١ المساعد، الآملي
- ٦٢ مسالك الأبصار، ابن فضل الله العمري
- ٢٤٨ مصر والسودان، عمر طوسون
- ١٩٩ مطالع الأضواء في مناهج الكتاب والشعراء، سعيد الشرتوني
- ٢٠٧ المطول في تاريخ العرب، سليمان البستاني
- ١٢٥ معاني النفس
- ٥٣ معجم الألفاظ العامية المصرية، أحمد تيمور
- ١٢٨ معجم الحيوان، أمين المعلوف
- ١٢٩ المعجم الفلكي، أمين المعلوف
- ٥٤ معجم الفوائد والبرقيات، أحمد تيمور
- ٢٧٧ معرض الخطوط، لويس شيخو
- ٢٦٨ ، ٢٦٣ ، ١٢٧ معلمة الإسلام
- ٢٦٠ المعلمة الإيطالية
- ٢٦٨ المعلمة الفرنسية

- ١٩٩ المعين في صناعة الإنشاء، سعيد الشرتوني
- ٥٤ مفتاح خزانة الأدب، أحمد تيمور
- ٢٧٧ مقالة في الضوء، أرسطو
- ٢٣٨ مقاصد الشرع، طاهر الجزائري
- ٢٦٧ مقامات ابن نايقا
- ٣٠٩ مقامات بديع الزمان الهمذاني
- ٣٢٣ مقامات الحريري
- ٢٣٨ مقدمة الكافي، طاهر الجزائري
- ١٥٨ المكافأة، أحمد بن يوسف الكاتب
- ١٨٨ مكبث، شكسير
- ٢٧٧ المكحلة، أبو محمد الصقلي
- ١٨٩ ملحمة داتي
- ١٨٩ ملحمة ملتون
- ١٨٩ ملحمة هوميروس
- ٢٩٩ الممتع في شرح المقنع، أبو سعيد السوسي
- ١٨ مناهج الحكماء في مذهب النشوء والارتقاء، إبراهيم الحوراني
- ٢٣٨ المنتقى من الذخيرة، طاهر الجزائري
- ٢٣٧ منية الأذكيا في قصص الأنبياء، طاهر الجزائري
- ٣٠٠ المهزلة الإلهية، داتي
- ١٨٧ الموجز في علم الاقتصاد، خليل مطران
- ٣٠٢ الموطأ، مالك بن أنس

(ن)

- ١٩٩ نجدة البراع، سعيد الشرتوني
- ٢٧ نجمة المراند في المترادف والمتوارد، إبراهيم اليازجي
- ١٣١ نخب الذخائر في أحوال الجواهر، ابن الأكتاني

- ٢٨ نخب الملح
- ٤٤ نزهة القارئ، أحمد الإسكندري
- ١٣١ نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها، أنستاس الكرمللي
- ٣١٤ نظام التربية والتعليم، محمد عبده
- ٢٨ نفع الأزهار في منتخبات الأشعار، جمع شاعر البتلوني
- ٢٠١ نفحة الوردتين، ابتتا سعيد الشرتوني
- ٢١٨ نقد الأدب الجاهلي، محمد الغمراوي
- ٥٤ نقد دائرة معارف فريد وجدي، أحمد تيمور
- ٢٧٣ النقش في الحجر، فانديك
- ١٣١ النقود العربية والنميات، أنستاس الكرمللي
- ٦٢ نكت الهميان في نكت العميان، الصفدي
- ٣٠٩ نهج البلاغة
- ١٩ النهج القويم في التاريخ القديم، بورته
- ٥٤ نواذر المسائل، أحمد تيمور

(هـ)

- ٤١١ الهاشميات، الكميث
- ١٨٨ هملت، شكبير

(و)

- ٣١٤ الواردات، محمد عبده
- ٣٤٤ الوسيلة الأدبية، حسين المرصفي



فهرس الأبحاث

الصفحة	الكاتب	عنوان البحث
٤٦	أحمد الإسكندري	ابن خلدون
٤٦	أحمد الإسكندري	أثر الأدب العربي في شعر شوقي
٤١١	هوروفيتز	إسراء الرسول ﷺ
٤١١	هوروفيتز	الأشعار التي قيلت في الرسول
٢٧	إبراهيم اليازجي	أغلاط العرب
٢٧	إبراهيم اليازجي	أغلاط لسان العرب
٢٧	إبراهيم اليازجي	إلاط المولدين
٢٧	إبراهيم اليازجي	أمال
٢٧	إبراهيم اليازجي	التعريب
٦٣	أحمد زكي	تقويم العرب قبل الإسلام
٤١١	هوروفيتز	الجنة في القرآن
٦٣	أحمد زكي	رسائل إخوان الصفا
٢٧	أحمد زكي	الشعر
٤٦	أحمد الإسكندري	صفي الدين الحلبي
٢٧	إبراهيم اليازجي	العلوم عند العرب
٢٧	إبراهيم اليازجي	اللغة العامية واللغة الفصحى
١٢٥	كولدصهر	اللغة العربية
٢٧	إبراهيم اليازجي	اللغة والعصر
٢٧	إبراهيم اليازجي	المجاز
١٢٥	كولدصهر	مذهب داود الظاهري
١٢٥	كولدصهر	المراثي عند العرب

فهرس المجلات والصحف

٥٤	الآثار
١٨٧	الأحوال
٤٩	الأخبار
٢٤٣	الاعتدال
٣٣٦ ، ٢١٧ ، ١٨٧ ، ٥٤	الأهرام
١١٥	أنيس الجليس
٢١١	البصير
٢٦ ، ٢٥	البيان
٢٦٨	تاريخ الأديان
٢٠٣	الجنان
٢٠٣	الجنة
٢٠٣	الجنينة
٢٠٣	الجهاد
١٨٧ ، ٢٨	الجوانب
٢٤	الرئيس
٥٤	الرسالة
١٣٤	الزمان
١٣١ ، ٥٤	الزهراء
١٣١	الزهور
٥٤	السلفية

٢٦٠	الشرق والحديث
٢١٠	الشفاء
٢٤٣	الشهباء
٣١٧ ، ٥٤ ، ٣١ ، ٢٧ ، ٢٦	الضياء
٢٦	الطبيب
٢٦٨	العالم الإسلامي
٣٠٨	العروة الوثقى
٢٤٣	الفرات
١٨٦	لسان الحال
٤٠ ، ٥٤ ، ١٧٨ ، ٢١١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣	المؤيد
٣٨٢ ، ٣٠٥	
١٣١	المباحث
٢٦٨	المجلة السامية
٤٥ ، ٥٤ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ٢٢٠ ، ٢٦٢	مجلة المجمع العلمي بدمشق
٢٦٧	
٢٦٣ ، ١٣١	مجلة مجمع اللغة العربية بمصر
١٨٧	المجلة المصرية
١٣١	مجلة المرأة الجديدة
١٣١	مجلة المعلمين
١٣١	مجلة المعهد الطبي العربي بدمشق
٢٧٣	مجلة النشرة الأسبوعية
٢٦٨	مجلة النقد
١٩	المحروسة
١٣١	المسرة
٤٠٥ ، ٢٧٨ ، ١٣١	المشرق

المشقيات (الإطالية)

المقتبس

٢٦٣
٢٤ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ٢٥٠

٢٦٣ ، ٢٨٣ ، ٣٧٣ ، ٣٨٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٦

المقتطف

٢٨ ، ٢٩ ، ٥٤ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٩٩

٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٥٣ ، ٢٧٤ ، ٣١٦

٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦

المقطم

٢١١ ، ٤٠٢

المنار

٢٠٣ ، ٢٠٥

النجاح

٢٦

الهلال

٥٤ ، ٣١٣ ، ١٣٤ ، ٢٦٢

الوقائع المصرية

٣٠٦

الهندسة

٥٤



فهرس الشعر

مطلع البيت	القافية	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
(الهمزة)				
أحب	الرياء	معروف الرصافي	١٩	٣٨٥
والفن	أسماء	أحمد شوقي	٧	٩٢
يني	الحكماء	أحمد شوقي	٢	٩٠
فريق	غرباء	أحمد شوقي	٣	٨٤
خدعوها	الثناء	أحمد شوقي	٤	٧٨
ولد الرفق	والحياء	أحمد شوقي	١٢	٧٨
كيد الغي	إرضاء	محمود البارودي	٩	٣٦١
كأنني في الهوى	كهرباء	إبراهيم الحوراني	٢	٢١
قد كنت	الأحياء	أحمد شوقي	١	١٥٨
رتب الشجاعة	الآراء	أحمد شوقي	١	٨٦
خبري القوم	والذكاء	إسماعيل صبري	٤	١١٥
مصر أنتم	الشقاء	إسماعيل صبري	٥	١١٩
إنني امرئ	وفائي	محمود البارودي	١٢	٣٦٢
لا تقولوا	الشعراء	أحمد شوقي	٣	٨٣
يا لواء الحسن	اللواء	إسماعيل صبري	٧	١١١
(الألف)				
يا آسي الحي	زواياها	إسماعيل صبري	٣	١١٠

٣٥	٢	إبراهيم اليازجي	نراها	وسقى الله
(الباء)				
٣٨٩	٧	معروف الرصافي	مقلوبا	من مبلغ
٣٥٩	٩	محمود البارودي	الشهبا	من صاحب
٣٥٠	٣	محمود البارودي	طالبا	ترفق
١١٠	٢	إسماعيل صبري	وعتابا	ولما التينا
٨٥	١	أحمد شوقي	ذهبا	إذا رأيت
٨٥	٢	أحمد شوقي	غلبا	لا تعدم
٨٦	٣	أحمد شوقي	انتسابا	مثل القوم
١٧١	٥	حافظ إبراهيم	تعصب	يقولون
٨٩	١	أحمد شوقي	والطرب	نالت منابر
٣٣	١٠	إبراهيم اليازجي	الركب	تبهوا
١١٣	٥	إسماعيل صبري	شيب	لم يدر
٣٤٩	١١	محمود البارودي	ويعجب	سواي
١٧٦	٧	حفي ناصف	ونندب	أتذكر
٣٩٥	٢	معروف الرصافي	مشرب	وطن
١٤٧	٧	جميل الزهاوي	وإن جلبوا	هي الحقيقة
١٦٧	٧	حافظ إبراهيم	كاتبه	أقسام
١٧٤	٢	حافظ إبراهيم	جانبه	ينامون
٣٩٣	٦	معروف الرصافي	والكذب	أبا زهاء
١٧٤	٣	حافظ إبراهيم	الطيب	وكم ذا بمصر
١٦٨	٥	حافظ إبراهيم	الصخب	إن قام
١٥٤	٥	حافظ إبراهيم	مرتقب	متى أرى
١٦٨	٤	حافظ إبراهيم	اغتراب	سعت

١٥٤	٩	حافظ إبراهيم	أربي	سكت
١٧٥	٤	حافظ إبراهيم	فطيمي	أذنت
١٤٤	١	جميل الزهاوي	مع السرب	وما زلت
٣٥٠	٢	محمود البارودي	حبيبي	بلوت
٣٦٢	٤	محمود البارودي	واقتراب	وعش فردًا
١١٣	٥	إسماعيل صبري	الأوصاب	إن سمنت
٧٧	٤	أحمد شوقي	ذهب	حف

(الثناء)

٨١	١٠	أحمد شوقي	نبات	جهات
٢٠	٢	إبراهيم الحوراني	ماتوا	جميع الناس
١٧٩	٦	حافظ إبراهيم	الأموات	أحيائنا
١٦٣	٦	حافظ إبراهيم	الحجرات	يقولون
١٤٤	٢	جميل الزهاوي	حياتي	سمنت
٣٥٢	٣	محمود البارودي	صفحت	ماذا على
٣٦٠	٦	محمود البارودي	يا مهاتي	زمزمي
٣٩٦	٣	معروف الرصافي	اشتبهت	نهيتك

(الثناء)

٣٦٣	٦	محمود البارودي	وخيث	إلى الله
-----	---	----------------	------	----------

(الثناء)

٣٥٨	٤	محمود البارودي	تنوح	ألا يا حمام
٣٩٦	١	معروف الرصافي	التماسيح	من لبس

(الذال)

١٤٦	٨	جميل الزهاوي	التجددا	واني على
١٤٠	٢	جميل الزهاوي	تردى	طعنوك
١١٥	٢	الكسندر افيرنيوه	بالفدا	فديتك
١٧١	٤	حافظ إبراهيم	الجوادا	أكرمونا
١٦٩	٣	حافظ إبراهيم	تصدى	أنا لا ألوم
٨٣	١	أحمد شوقي	وليدا	ومن عبث
٣٥٠	٥	محمود البارودي	الشهدا	لقد ذل
٣٥٩	٣	محمود البارودي	تعدى	أصبحت
٣٤٧	٧	محمود البارودي	العد	أدور بعيني
٣٤٨	٩	محمود البارودي	وجليد	بلاد
٢٢	٥	إبراهيم الحوراني	أولد	قدم الزمان
٣٤٩	٤	محمود البارودي	الأباعد	إذا افتقر
٣٥٣	٩	محمود البارودي	ولا يبدي	ترحل
١٩٠	١٩	خليل مطران	لتخليد	ما أثمرت
٣٩٤	٧	معروف الرصافي	زائد	ولم يكفها
٣٥٨	٣	محمود البارودي	مجده	إذا المرء
٣٨٧	٤	معروف الرصافي	ووفودها	ألا إنما
١٧٢	٣٣	حافظ إبراهيم	العميد	بنات الشعر
٣٦٨	٢	حافظ إبراهيم	سود	لقد نزحت
١٨٢	٦	خليل مطران	النادي	أين زين
٣٦٣	١٥	محمود البارودي	بعاد	قليل
٨٢	١	أحمد شوقي	الأجساد	وإذا النفوس
٣٥	٢	إبراهيم اليازجي	ندي	ليس الواقعة
١٩	٧	إبراهيم الحوراني	يهدي	يقول أبي

٩٠	١	أبو العلاء المعري	على أحد	هذا جناه
٢١	٢	أبو العلاء المعري	الخلود	ألا قل
(الراء)				
٣٨٤	١٠	معروف الرصافي	حاجرا	إذا احتضلت
٣٩٣	٤	معروف الرصافي	مزورا	يقولون
٣٨٦	٦	معروف الرصافي	قبرا	إذا لم يعش
١١٣	٩	إسماعيل صبري	قفرا	غاض ماء
٣٦٨	٢	خليل مطران	يحسرا	إذا وسع
١٨٩	١٥	خليل مطران	شرا	إن روما
٣٦	٢	إبراهيم اليازجي	تأخرا	تعجب قوم
٢٠	٢	إبراهيم الحوراني	أبرارا	وعذاب
٩١	٦	أحمد شوقي	والنضارا	نصون
٨٤	٤	أحمد شوقي	منكرا	إن الذي
٨٢	١	أحمد شوقي	جهارا	آفة النصح
٨١	٦	أحمد شوقي	ظهر	وتلك جزائر
٢٧٣	٢	ابن حسن التاجي	ديجور	انظر إلى
١١٠	٥	إسماعيل صبري	فتذكر	تمسي
٢٢٧	١٣	شكيب أرسلان	ينكسر	يا يوم حطين
١٧٠	٥	حافظ إبراهيم	تسهر	مضى زمن
١٦٩	٤	حافظ إبراهيم	يفخروا	تسورنا
١٦٤	١٣	حافظ إبراهيم	المخدور	شمسهم
٣٧	٤	إبراهيم اليازجي	البشر	وإنما نحن
١٤٢	١	جميل الزهاوي	شعر	إذا الشعر
٣٥٧	١	محمود البارودي	تدور	إذا ما شربناها

٣٥٧	١	أعرابي	تدور	أتاني
٣٤٦	٣	محمود البارودي	الأمر	نصحت
٣٦٥	٢	محمود البارودي	فجر	واني من القوم
٣٦٤	٧	محمود البارودي	يمور	ولي شيمة
٣٤٧	٨	محمود البارودي	مصائره	كنا نود
٨١	٦	أحمد شوقي	من عسر	إذا لم يكن
٨٩	٢	أحمد شوقي	الأشعار	يا واحد
١٩١	٣١	خليل مطران	الآثار	هم فجر
١١١	٢	إسماعيل صبري	السعير	ساعة البين
٣٥٦	٤	محمود البارودي	البحر	إذا جاش
٣٥٠	٨	محمود البارودي	آخر	ما أطول
٢٠	٣	إبراهيم الحوراني	واقصري	يا نفس
١١٩	٤	إسماعيل صبري	مكابري	أذك
٣٩٠	٥	معروف الرصافي	ضجر	لهفي
٣٩٦	٢	معروف الرصافي	انكساره	وما العلم
٨٩	١	أحمد شوقي	البحثري	إن الذي

(الزاي)

٣٨٧	٦	معروف الرصافي	مركوزا	وإن تموز
-----	---	---------------	--------	----------

(السين)

٣٥	٢	إبراهيم اليازجي	المجالس	وعود صفا
١٤٥	١٠	جميل الزهاوي	لمسي	رب مال
١٤٥	١٤	جميل الزهاوي	الناس	لموت الفتى
٣٢	١٦	إبراهيم اليازجي	النواصس	دع مجلس

٣٩٥	٢	معروف الرصافي	بائس	أرى أغنياء
		(الضاد)		
٨١	١	أحمد شوقي	روض	وكم أرض
		(الطاء)		
٣٨٩	١٣	معروف الرصافي	فرطوا	قل للألى
		(العين)		
١٥٢	٥	حافظ إبراهيم	الطبعا	كاشف
٨٥	٢	أحمد شوقي	أجمعا	إن الوفاء
٨٠	٧	أحمد شوقي	شرع	كم في الحياة
١١٨	٢	الشريف الرضي	ناقع	أرى بعد
٨٧	٢	أحمد شوقي	أصقاعه	إنما الشرق
١٦٢	٢	حافظ إبراهيم	ومريع	نمتك
١٦٢	٧	حافظ إبراهيم	متزع	وخذ بزمام
٣٦١	٨	محمود البارودي	بالأجرع	هل من فتى
		(الفاء)		
١٧٩	٣	حافظ إبراهيم	تعزف	إمام الهدى
٣٩٨	١	معروف الرصافي	الدفاء	يرجون
٢٠	٢	إبراهيم الحوراني	عفاف	لا خير في العقل
٨٥	٢	أحمد شوقي	الترف	فإن السعادة
٣٩٢	٨	معروف الرصافي	وأعنف	أنا بالحكومة
		(القاف)		
٣٩٢	٨	معروف الرصافي	والمهارق	وما كان

١٦٩	٦	حافظ إبراهيم	ارتقى	لا تأسوا
١١٨	٥	إسماعيل صبري	شيق	لو أن أطلال
١٦٦	١١	حافظ إبراهيم	تفرق	لا هم
٨٩	١	أحمد شوقي	خلق	رواة قصائدي
٨٧	١٠	أحمد شوقي	ألقوا	بني سورية
٣٩١	٥	معروف الرصافي	وتندق	يقولون
٢٠	٢	إبراهيم الحوراني	أخلاقه	ما كل ذي
٣٥٥	٩	محمود البارودي	لمفلق	ترنم
٣٥٧	٣	محمود البارودي	المشرق	والحب
٨٣	٦	أحمد شوقي	مشتاق	رمضان
١٦٦	١٢	حافظ إبراهيم	الاعراق	الأم
٣٦٠	٩	محمود البارودي	يبقي	رب خذ
٣٥٧	٧	محمود البارودي	أخلاقه	أن ابن آدم

(الكاف)

٣٥١	٨	محمود البارودي	فشكا	غلب الوجد
-----	---	----------------	------	-----------

(اللام)

٦٨	٣	أحمد شوقي	إسماعيلاً	أأخون
٨٥	٢	أحمد شوقي	رسولا	قم للمعلم
٨٢	١	أحمد شوقي	جدالا	لك نصحي
٨٢	١	أحمد شوقي	الجدال	عليك النصح
٣٩٤	٥	معروف الرصافي	أنأل	وقلت
٢٠٧	٣	سليمان البستاني	أنذالها	شؤون
٣٥٧	٣	محمود البارودي	وزيال	لمعرك

١٢٣	١	دعبل الخزاعي	قائله	يموت
٢٢٧	٧	شكيب أرسلان	مناهله	قيا وطني
٢٠٨	٢	سليمان البستاني	قبلي	نظرت
٦٩	٤	أحمد شوقي	بالصقال	يظهر
٢٥٨	٣	حافظ إبراهيم	الرسال	إن ريت
٢٨٤	١		أجلي	كفاف
١٦٠	٣	حافظ إبراهيم	والتذلل	بلغتك
١٦٠	٥	حافظ إبراهيم	المعالي	ضعت
٣٥٤	٢٠	محمود البارودي	إقبالي	يا غاضين
١٢٠	٢	إسماعيل صبري	آل	في ظل
٣٥٦	٧	محمود البارودي	عقلي	عصيت
٣٩١	٤	معروف الرصافي	بخيله	لا خير

(الميم)

١٥٤	٥	حافظ إبراهيم	منظما	لقد كان
١٥٣	١٢	حافظ إبراهيم	نياما	أيها المصلحون
١٦٨	٣	حافظ إبراهيم	التندما	سعيت
١٦٥	٦	حافظ إبراهيم	الحساما	عجز الطليان
٨٦	٣	أحمد شوقي	قواما	أرى وطنًا
٨٤	٣	أحمد شوقي	عظاما	عظيم
١٧٠	١١	حافظ إبراهيم	القطام	أيجمل
٣١٨	٥	محمد عبده	المآتم	ولست أبالي
٣٢	٧	إبراهيم اليازجي	مقام	وما العرب
٣٦	١٣	إبراهيم اليازجي	متيم	حياة
٧٥	٢	أحمد شوقي	الأحكام	نعم الرعية

٨١	١	أحمد شوقي	علم	سطور
٢٠	٢	إبراهيم الحوراني	يتفهم	أني لا علم
٢٠	٢	إبراهيم الحوراني	العالم	هذب كلامك
٢١	٢	إبراهيم الحوراني	جهنم	في هذه
٨٢	١	أحمد شوقي	الأجسام	وإذا القلوب
٧٥	٢	أحمد شوقي	الأمم	الدهر
٨٥	١	أحمد شوقي	الطغام	إذا الأحلام
٨٨	٦	أحمد شوقي	من الذمم	علمتهم
٨٩	٢	أحمد شوقي	تمام	وكانه
٩١	١٠	أحمد شوقي	دمي	براغيث
١٤٣	١	جميل الزهاوي	الآلام	الشعر
١١٦	٢	إسماعيل صبري	سهمي	إذا خاني
٢٢٦	١٢	شكيب أرسلان	الحلالم	مواطن
٢٢٨	٤٢	شكيب أرسلان	الآلم	ألا قل
٣٩٢	١٠	معروف الرصافي	كتموا	لا در در
٣٨٨	٩	معروف الرصافي	القدم	آغا فآغا
٣٩٥	٢	معروف الرصافي	الأنهام	لقت
٢٢	٤	إبراهيم الحوراني	يعلم	لقد هجرت
١٢٠	٤	إسماعيل صبري	تندم	يا ألب

(النون)

٣٩٥	٢	معروف الرصافي	العلن	لا يخذحك
٣٩٨	١٢	معروف الرصافي	الدواوين	ويل لبغداد
٢٨٦	١٠	معروف الرصافي	مصونه	أرى الشعر
٣١٩	١	(قريط بن أنيف)	هانا	لكن قومي

١٤٣	١	جميل الزهاوي	ترجمانا	أحسن الشعر
١٤٣	١	جميل الزهاوي	الأدنى	أرى الشعر
١١٤	٧	إسماعيل صبري	فحيننا	يا دواة
١١٠	٥	إسماعيل صبري	ما كانا	أقصر فؤادي
١٤٦	١	جميل الزهاوي	غنى	يريدون
٨٦	٣	أحمد شوقي	إحسانا	من خانه
٨٦	٣	أحمد شوقي	الخالدينا	جلال الملك
٨٠	٥	أحمد شوقي	الفتانه	ليت شعري
٨٨	٣	أحمد شوقي	وإيمان	نصيحة
٧٥	٣	أحمد شوقي	وريحان	آمنت بالله
١٤٣	١	جميل الزهاوي	الفن	بل الشعر
١٤٧	١٦	جميل الزهاوي	كانوا	اليوم
١٢٠	٤	إسماعيل صبري	وادون	أعرض
٢٠٨	٢	سليمان البستاني	تدين	قضيت
٨٨	٧	أحمد شوقي	ولدانها	أرى مصر
٣٥	٢	إبراهيم اليازجي	الحزن	ومحصية
٣٨٣	١٣	معروف الرصافي	عدوان	علام التعادي
١١٧	٤	معروف الرصافي	كيوان	ألستم
١٦٥	٥	حافظ إبراهيم	للحيتان	وشكا الحوت
١٧٥	٤	حافظ إبراهيم	وسنان	متى أرى
١١٩	٥	إسماعيل صبري	الميامين	إن يرجع
١٤٣	١	جميل الزهاوي	والمدن	الشعر
١٧٥	٧	حافظ إبراهيم	أركانها	ولي الشباب
٣٤٦	٥	محمد البارودي	مظنون	نصحت قومي

٣٥٣	٧	محمود البارودي	الوهن	ومن شاغب
٣٥٢	٥	محمود البارودي	سني	محا البين
٣٦	٢	إبراهيم اليازجي	والبيان	يا بعلبك
١٦١	٨	حافظ إبراهيم	بنيانه	واذكر لنا
١٦٢	٣	حافظ إبراهيم	فرسانه	قل للذي
٢٢	٢	إبراهيم الحوراني	جيينها	غراء
١١٨	٢	إسماعيل صبري	يرويني	يا موردا
١١٧	١٠	إسماعيل صبري	وأني	لا القوم

(الهاء)

١١٠	٣	إسماعيل صبري	زواياها	يا آسي الحي
٣٥	٢	إبراهيم اليازجي	ثراها	وسقى الله
١١١	٣	إسماعيل صبري	عليه	لما تبوا
١١٥	٣	إسماعيل صبري	لا تنتهي	أهاجرتي
١١٦	٢	الكسندره أفيرنيوه	المتهي	زمانك
٨٠	٧	أحمد شوقي	داعياها	الدين لله
٣٩٥	٢	معروف الرصافي	يخفيه	ما أقبح

(الياء)

١١٨	٢	إسماعيل صبري	الهاويه	يا من تزوج
٧٣	٨	أحمد شوقي	ثانيا	بني القبط
١١٢	١٣	إسماعيل صبري	القاسيه	كم ساعة



فهرس المراجع

- إبراهيم اليازجي، عيسى ميخائيل سابا، سلسلة نوابغ الفكر العربي (٤) دار المعارف بمصر، ١٩٥٥.
- الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٦٠.
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ج ١ - ٢، المطبعة النموذجية، مصر ١٩٦٢.
- أحمد زكي، أنور الجندي، سلسلة أعلام العرب رقم ٢٩ لسنة ١٩٦٤.
- الأدب العربي المعاصر في سورية، سامي الكيالي، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩.
- الأدب العربي المعاصر في مصر، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٥٧.
- أدباء العرب، بطرس البستاني، دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٨.
- أشهر مشاهير أدباء الشرق ج ١ - ٢، محمد عبد الفتاح، مصر.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط ٣، بيروت.
- الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية ١ - ٣، زكي محمد مجاهد، دار الطباعة العربية الحديثة، القاهرة. ١٩٤٩.
- أعلام العرب في الأدب والسياسة، فائز سلامة - دمشق - ١٩٣٥.
- أعلام الصحافة العربية، إبراهيم عبده، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ١٩٤٨.
- أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث لأحمد تيمور ط ١ ١٩٦٧.
- أعلام الفن والأدب، أدهم الجندي، دمشق، مطبعة صوت سورية، ١٩٥٤.
- اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، إدوارد فنديك، مصر ١٨٩٦.

- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل باشا الباباني البغدادي ج ١ - ٢، استانبول، ١٩٤٥ - ١٩٤٧.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار الهلال، القاهرة.
- تاريخ الأدب العربي الحديث، حنا فاخوري، ط ٢، ١٩٥٣.
- تاريخ الشعر العربي الحديث، أحمد قبش، دمشق، ١٩٧١.
- تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طرازي، بيروت، ١٩١٣ - ١٩٣٣.
- تاريخ الصحافة السورية ١ - ٢، شمس الدين الرفاعي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.
- تاريخ الطباعة في الشرق العربي، خليل صابات، دار المعارف بمصر، ١٩٥٨.
- تاريخ محمد عبده ج ١ - ٣، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار ١٣٥٠هـ.
- تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي، أنور الجندي ط ١ - ١٩٧٠، مكتبة الأنجلو المصرية.
- تراجم أعيان دمشق، جميل الشطي، دمشق، ١٣٦٧.
- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج ١ - ٢ جرجي زيدان، ط ٣، دار الحياة، بيروت.
- الجامع في أخبار أبي العلاء المعري ج ١ - ٣، محمد سليم الجندي، تح عبد الهادي هاشم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- حاضر العالم الإسلامي، تأليف ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، علق عليه شكيب أرسلان، ط ١، مصر، ١٣٤٣.
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ج ١ - ٣، عبد الرزاق البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦١.
- الحماسة، أبو تمام، مصر، ١٣٣٥.
- دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، محمد بديع شريف وغيره، مكتبة الانجلو المصرية، مط. الرسالة.

- دراسات في الشعر العربي الحاضر، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٥٩.
- ديوان إسماعيل صبري، تصحيح أحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة. ١٩٣٨.
- ديوان الأعشى الكبير، شرح وتحقيق محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.
- ديوان البحري ج ١ - ٤، تح حسن الصيرفي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
- ديوان جميل صدقي الزهاوي، المطبعة العربية بمصر، ١٩٢٣.
- ديوان حافظ إبراهيم ج ١ - ٢، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٧.
- ديوان خليل مطران ج ١ - ٤، دار الهلال، دار المعارف، ١٩٤٩م.
- ديوان الشريف الرضي ج ١ - ٢، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣٠٧.
- ديوان شكيب أرسلان، مط، المنار، ١٩٣٥
- ديوان محمود سامي البارودي، ط. دار الكتب المصرية، وطبعة مطبعة الجريدة، ضبط وشرح محمود الإمام المنصوري.
- ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، مكتبة الأندلس، بغداد.
- ديوان معروف الرصافي، مكتبة الحياة، بيروت، ط٦، ١٩٧٥.
- ذكريات، شاهين القرز، دار النهار - بيروت - ١٩٨٠.
- الرائد في الأدب العربي، نعيم الحمصي وغيره، دار المأمون للتراث، ١٩٧٩.
- الراحلون، سامي الكيالي، دار الفكر العربي.
- رجال عرفتهم، عباس محمود العقاد، دار الهلال، ١٩٦٢.
- رواد النهضة الحديثة، مارون عبود، دار العلم للملايين، ١٩٥٥.
- روض البشر، في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر، محمد جميل الشطي، دمشق، ١٣٦٧هـ.
- زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٦٨.
- زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري، مصر، ١٩٥٣.

- ساعات بين الكتب، عباس محمود العقاد، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٩٤٥.
- شعر دعبل الخزاعي، صنعة عبد الكريم الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، المطبعة الهاشمية، ١٩٦٤.
- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، عباس محمود العقاد، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٢.
- الشوقيات ج١ - ٤، أحمد شوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
- الشوقيات المجهولة ج١ - ٢، أحمد شوقي، إصدار محمد صبري، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩.
- عصاميون عظماء من الشرق والغرب، نخبة من الأساتذة، أشرف محمد فريد أبو حديد، دار الهلال بمصر.
- طبقات القراء (غاية النهاية) لابن الجزري، مصر، ١٣٥١.
- العملة، ابن رشيقي القيرواني، تح محمد محيي الدين عبد الحميد ط٢ - مصر - حزيران ١٩٥٥.
- عيون الأخبار ج١ - ٤، ابن قتيبة طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- غرائب الغرب ج١ - ٢، محمد كرد علي، المكتبة الأهلية بمصر، ط٢، ١٩٢٣.
- في الأدب الحديث ج١ - ٢، عمر الدسوقي، ط٧، دار الفكر العربي، ١٩٦٩.
- فيض الخاطر، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.
- قدماء ومعاصرون، سامي الدهان، دار المعارف بمصر، ١٩٦١.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١ - ٢، حاجي خليفة، استانبول، ١٩٤١.
- كنوز الأجداد، محمد كرد علي، دمشق، ١٩٥٥.
- اللباب، للزهاوي، مط. الفرات، بغداد، ١٩٢٨.
- المجددون في الإسلام، عبد المتعال الصعيدي، مصر.

- المجمعيون، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- محمود سامي البارودي، عمر الدسوقي، سلسلة نوايغ الفكر العربي رقم ٤، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣.
- مذكرات محمد كرد علي ج ١ - ٤، دمشق ١٣٦٧ - ١٣٧٠هـ.
- مرآة العصر في تاريخ الإسلام ورسوم أكابر الرجال بمصر ج ١ - ٢، الياس زخورة، المطبعة العمومية، مصر، ١٨٩٧.
- المستشرقون ج ١ - ٣، نجيب العقيقي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥.
- مشاهير شعراء العصر لأحمد عبيد - القسم الأول شعراء مصر - مط. الترقى - دمشق ١٩٢٢.
- معالم وأعلام، القسم الأول، القطر العربي السوري، أحمد قدامة، مطبعة ألف باء - الأديب، ١٩٦٥.
- معجم المؤلفين ج ١ - ١٥، عمر رضا كحالة، المكتبة العربية بدمشق، ١٩٥٧ - ١٩٦١.
- معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨.
- مفتاح السعادة، طاش كبري زاده، ج ١ - ٣، دار الكتب الحديثة.
- ملوك العرب ج ١ - ٢، أمين الريحاني، بيروت، ١٩٢٩.
- المنتخب من أدب العرب ج ١ - ٢، جمع وشرح طه حسين وغيره، دار الكتب المصرية، ١٩٣١.
- الموسوعة العربية الميسرة - بيروت ١٩٥٥.
- نثار الأفكار، نيويورك ١٩١٣.
- نهر الذهب في تاريخ أعيان حلب، كامل الغزي، حلب ١٩٢٦.
- هدية العارفين، أسماء المؤلفين، وأثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، استانبول ١٩٥٥.

- وجوه شرقية وغربية، أمين الريحاني، دار الريحاني للطباعة، ط١، بيروت،

.١٩٥٧

- وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي، مطبعة لجنة التأليف بمصر، ١٩٣٦.



بجلافة